حسن سامي يوسف

على رصيف العمر

رواية

مكتبة #938

مكتبة | سُر مَن قرأ

على رصيفِ العُمْر

* حسن سامي يوسف
* على رصيفِ العُمْر
* جميع الحقوق محفوظة ©
* الطبعة الأولى 2020
* الناشــــر: ورد للنشــــر والتوزيــع
دمشق - سوريـــة ☎ 5141441 11 963 +
بيروت - لبنـــان ☎ 750554 1 961 +
* تصميــم الغـــلاف: ورد حيدر
* التوزيــع: دار ورد ☎ 5141441 11 963+ ص.ب 30249
* التــرقيـم الــــدولي: ISBN 978-9933-484-72-9
* الموقع الإلكتروني: www.ward-books.com
* البريد الإلكتـروني: info@ward-books.com
darwardsy

مكتبة
t.me/t_pdf

27 8 2022

حسن سامي يوسف

على رصيفِ العُمْر

رواية

#938

مكتبة | سُر مَن قرأ

عطيل:

وأَضِفْ إلى ذلك أيضاً، أنه حدثَ مرّةً في حلب، أنْ كان تركيٌّ شِرّيرٌ مُعَمّم، يضربُ أحدَ أهلِ البندقية، ويُسيءُ إلى الدولة، فأمسكتُ بخِناقِ ذلك الكلبِ المختون، وطعنتُه هكذا (يطعن نفسَه بالخنجر).

لودوفيجو: يا للمشهدِ الدّامي!

غراتيانو: كلُّ ما قيلَ عبث.

مكتبة
t.me/t_pdf

1

الأحد 7 ـ كانون الثاني (يناير) ـ 2018

رسالتُكِ الأخيرةُ إليَّ أدمتْ قلبيَ المحزونَ يا سيدرا. قرأتُها مرَّتين. وفي المرّتين انتابني إحساسٌ أكيد بأنكِ كنتِ تبكين وأنتِ تكتبينها. بالمناسبة، هذه أولى الرسائل التي وصلتني في السنة الجديدة. وهذا شيءٌ موجِعٌ طبعاً. أو دعيني أكنْ أكثرَ دقّةً في التعبير: الشيء الموجِع في الموضوع هو أن أبدأ سنةً جديدة بهذا الحزن الذي تعيشين. وحدَه حزنُكِ ما أدمى قلبي. أما أسبابُ هذا الحزن فإنها لم تستوقفني إلّا قليلا. هي الحياة يا صديقتي. على أية حال، شكراً لكِ على أنك كتبتِ أخيراً، وغفرتِ لي، مثلما غفرتِ لنفسكِ أيضاً، صمتَنا الطويلَ، أو صمتَنا غيرَ المفهوم. كنتُ أتسقط أخبارك خلال السنوات الخمس الماضية من هنا وهناك، وبخاصةٍ من سالم. كلّمني بعد رسالتك بساعةٍ تقريبا. قال لي إنه رجع إلى القاهرة، وإنه التقاكِ مصادفةً في الطريق بالقرب من ماسبيرو، وحدّثني عن خيبتك بالحب الذي كنتِ تحلمين، وبحياتك الزوجية الآيلة إلى الانهيار، وبأنك سوف تهجرين منزل زوجك غداً أو بعدَ غد، وترجعين إلى منزلك الذي لست أراه، شخصياً، إلّا مكاناً أليفا، بل شديد الإلفة. أقول لكِ بصراحة: هذه الأنباء لم تفاجئني، رغم ما سبّبته لي من قتامة، تماماً مثلَ زواجك الأول، والذي رأيتُه متسرعاً. هو أيضاً لم

يفاجئني، رغم ما كان فيه من فجاءة. وربما كنت أتوقع له تلك النهاية القريبة: الطلاق. مرّةً ثانية: هي الحياة يا صديقتي. وعلى رأي جدّنا المتنبي: فما استغربتْ عيني فِراقاً رأيتُه / ولا علّمتني غيرَ ما القلبُ عالِمُه .. تسألينني: أيُّ الوجعين أشدُّ وطأةً على الإنسان؟ وجعُ الروح أم وجع البدن؟ يا إلهي! دعيني أسألك أولاً: أيّ حزنٍ آثم هذا الذي استوطن في قلبك؟! وهل هو بسبب الطلاق حسب، أم أنكِ تخبئين عني شيئاً أكثر مرارةً من الذي تشكين؟ أرجوكِ أن تصارحيني. وأقول لكِ ثانياً: إنني في الحقيقة لا أملك جواباً وافياً عن سؤالك هذا. لا أملك في هذا المجال ما أرويه لكِ غير تجربتي الشخصية مع الألم. سوف أعود إلى هذه النقطة فيما بعد، وقد أحكي لك شيئاً من قصّتي مع الوجع. وهي قصةٌ تحتمل التأجيل بعض الوقت طبعاً، ولكنّ الذي لا يحتمل التأجيل فهو إحساسي بقسوة الحزن الذي تعانين، والذي ربما كان يكمن في ما وراء السؤال. قلبي معكِ يا صديقتي. قلبي معكِ في كل حالٍ وحين. عرفتُ من سالم أيضاً أنك سوف تسافرين بعد بضعة أيام إلى (أبو ظبي) من أجل العَمل، وغير هذا كلِّه، أو حتى قبلَ هذا كلّه، أنّك عاتبةٌ عليَّ لأنني قد نسيتك من بعد أن تركتُ القاهرة. ماذا أقول بهذا الصدد؟ إنني لن أدافع عن نفسي، فلربّما كنتُ مقصّراً بحقك فعلاً، رغم أنني ما نسيتك يوماً يا سيدرا، فأنا لستُ خليلاً جاحداً، وأظنكِ تؤمنين في قرارة نفسك بصحّة ما أقول. وحتى لو لم أكن خليلاً وفيّاً، فإنني سوف أشكرك أيضاً وأيضاً على اهتمامكِ بي وسؤالكِ عن أخباري. جميع أخباري. بالتفصيل المُملّ. حسناً، لكِ ذلك، ولكن من أين أبدأ؟ ماذا تحبّين أن تسمعي؟ أوضاعي، على وجه العموم، ليست بذلك السوء الذي قد تتصورين، رغم قسوة العيش في دمشقَ التي تستعدُّ اليومَ لأن تطوي سنةَ حربها السابعة. كانت سبعاً عِجافاً عليَّ يا صديقتي، فها أنا ذا قد بلغتُ، من دون أن أدري كيف، الثالثة والأربعين من عمري. هل تصدقين؟ صار يُخيّل إلي أنني قد وصلتُ إلى هذه السنّ فجأةً، بل فجأةً تماماً. ومشكلتي مع سنينيَ المفقودة أنه لن يكون لديَّ في

المستقبل وقتٌ بديلٌ من ضائع، كما هي الحال مثلاً في مباريات كرة القدم. ليس في الحياة مثلُ هذه الميزة. وإن أردتِ الإنصاف فإنَّ هذا ليس عدلاً، فقد توقفتِ الحياةُ عن الوجود، خلال هذا العُمْر القصير، مرّاتٍ عديدة. سنوات الحرب على سبيل المثال. كانت سبعاً عِجافاً أكثر ممّا يجب يا سيدرا، فالذي سرقتْه الحربُ منّا هو، في حقيقة الأمر، أجملُ سنواتِ أعمارنا. هذا ما أومن به أنا. وهذا ما يؤمن به كثيرٌ سوايَ ممن عايش هذه المأساةَ الجسيمة، وكأنّ الوقت قد توقف بنا فجأة، أو فلأتحدث عن نفسي فقط: كأنّ الزمن قد توقف بي عندما كنت في السادسة والثلاثين بعد، ثم حصلتْ في روحي فجوةٌ ما، أو هوّةٌ، أو غيبوبةٌ امتدّت سبعاً من سنين قضيتُها خارج العالم، بل خارج الكون كلّه، في مدينةٍ عجيبةٍ اسمها دمشق. مدينةٌ تهبكِ كلَّ شيءٍ بيد وتسلب منكِ كلَّ ما وهبتْ باليد الثانية. مدينةٌ لا تعرفين فيها الحدَّ الفاصل بين الجمال والقباحة، بين الحب والكراهية، بين الوهم والحقيقة، أو حتى بين الوجود والعدم، فغالباً ما تكون مسألة الحياة والموت ههنا مرهونةً بانفجار قذيفة هاون تتحكم بمسارها عوامل لا علاقة لها بغير اتجاه الريح وسوء الطالع، ورغم ذلك فإنني أظلُّ أتمسك بالأمل، رغم أنّ الآمالَ في حياتي غالباً ما كانت مخادعة.. ماذا تريدين أن تعرفي بعدُ يا سيدرا؟ أظنك تعلمين بأنني قد تزوجت قبل أكثر من عامين ونصف العام بقليل. لا بدَّ أنْ سالماً قد أخبرك بهذا الأمر، ولست أدري إنْ كان قد أخبرك بأنّ زوجتي الآنَ ليست بخير. إنها مريضة، ومرضها عُضال. ولا أظنها سوف تمضي في الحياة طويلاً، فهي تكاد لا تغادر المنزل إلّا إلى عيادة الطبيب المداوي. لم تعد تقوى على أكثرَ من ذلك. لقد غدتْ، منذ أربعة شهورٍ تقريباً، لا تقدر على مفارقة الفراش، رغم أنها لم تبلغ السادسةَ والعشرين من العُمْرِ إلّا قبل وقتٍ قليل جداً. صار عالَمُها مجرد دائرة صغيرة تنفتح في غرفة النوم وتنغلق في المطبخ أو الحمّام. دائرةٌ تضيق يوماً إثرَ يوم مثل أنشوطةٍ تلتف حول الرقبة وتنبئك بأن لحظة الرحيل قد أزِفت، وبأنه لم يبق أمامك إلّا

المجاهدة بالتقاط الشهيق الأخير، من دون أن تكون قادراً على الزفير الذي يسبق النهاية وهي تلوح أمامك بحتميتها المقدورة. يومُنا يا صديقتي كَبَدٌ في كَبَد. عزلةٌ في عزلة. لسنا نزور أحداً، ولا أحدَ يزورنا. على أية حال، هذا الموضوع بات ثانوياً، فقد غدتْ دمشق، خلال هذه الحرب، مدينةً بلا صداقةٍ ولا أصدقاء. الجميع هاجر. أو تقريباً الجميع. لقد أصبحنا نتفاجأ ببعضنا لو التقينا بأحد المعارف في الطريق بالمصادفة، ونادراً ما كانت تقع مصادفةٌ كهذه، ونفرح ببعضنا كالأطفال في صبيحةِ العيدِ، ونصرخ في وجوه بعضنا من الفرح بذلك السؤال المرّ: هل أنت في دمشقَ فعلاً؟ وهذا الفرح العابر الذي نادراً ما نصيبه يزيد في عجافة السبع العجاف قسوةً ومرارةً، فإنّ له في الفم مذاقاً معدنياً شديد الحرقة من حموضته على الفؤاد. نعم أنا في دمشق. لم يعتقلني أحد. ولم يضطهدني أحد. الحياة وحدَها عاقبتني. وقد فعلتْ ذلك على طريقتها. ورغم هذا العقاب الذي أراه ظالماً، فإنني ما زلت أجاهد في أن أحيا. أو بالأصح: ما زلت أجاهد في أن أتنفس. وأتفاجأ كلَّ يوم وكلَّ ساعة أنني ما زلت قادراً على الشهيق والزفير. إنني يا سيدًرا لا أشكو مما أصابني جرّاء هذه الغيبوبة التي وقعتُ فيها مرغماً، والتي آمل أن أخرج منها ذاتَ وقتٍ غير بعيد، كما أرجو ألّا تفهمي من هذا الكلام أنني أتذمر بسبب مرض سلمى (هذا اسم زوجتي طبعاً). ولكن، مع ذلك، ثمة شيءٌ بات يؤرّقني ههنا، فإنّ أخشى ما أخشاه في علاقتي بهذه المرأة أنني أصبحتُ أشفق عليها. وهذا في الحقيقة شيءٌ سيء إلى درجة أنه صار يعذّبني، رغم أنني دائم السهر على خدمتها، وبخاصةٍ في الليل، فأنا ما أزال قليل النوم كعهدكِ بي. وأحياناً أرعاها فوق استطاعتي، رغم قناعتي بأنّ الأمر كلّه قد غدا مجرد واجبٍ مجّاني، روتيناً قاتلاً، أو حتى عبثاً في عبث، وبأنّ الحكاية كلها صارت مسألة وقتٍ لا أكثر. فالأنشوطة تضيق وتضيق يوماً بعد يوم، بل ساعةً بعد ساعة. نعم إنني أرعى امرأتي بجدّيةٍ تبدو مبالغاً بها أحياناً. و ربما صرتُ كذلك من أجل

أن أكفّر عن ذنبٍ عظيم أخشى أن أكون على وشْك أن أرتكبه بحقّها، رغم أني أبذل جهداً كبيراً، أو حتى هائلاً، من أجل ألّا أقع في المحظور. على أية حال، لستُ وحدي من يخدم المرأة المريضة. هناك شقيقتها (هدى). بنتٌ لطيفةٌ تحب أختها حباً جمّا، ولكنها ما تزال صغيرة في طور المراهَقة، ولا يمكن الاعتماد عليها إلّا في بعض الأمور البسيطة، ومع ذلك فهي تتناوب، إلى حدٍ ما، في تقديم المساعدة للمرأة المريضة مع والدتها التي ترعاها أكثرَ منّا نحن الاثنين، فالأم تخدم ابنتها طوال اليوم، وقد انتقلتْ تقريباً، منذ المرض، إلى العيش في منزلنا. تخدمها في النهارات والأماسي على الأقل، حتى إنها تملك نسخة من مفتاح باب المنزل. هو المنزل ذاته الذي تعرفين، المنزل الذي في الطابق الرابع، والذي تطلُّ شرفتُه على باحة المدرسة الابتدائية، حيث يعلو صراخ الأولاد إلى عنان السماء وهم يتقاذفون الكرة بأقدامهم وقد انقسموا إلى فريقين عشوائيين، رغم أنّ الملعب نظاميّ بمقاييس مدرسةٍ ابتدائيةٍ معاصِرةٍ إلى حدٍ ما. إنهم يفعلون هذا بعد الدراسة كلَّ يوم، غير آبهين بالقذائف التي تتطاير فوق رؤوسهم في سماء المدينة ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال. و كلَّ يوم يخلصون إلى نتائج تبعث في نفسي على الضحك. بالأمس مثلاً كأنت نتيجة المباراة سبعةَ عشَرَ هدفاً للبرازيل مقابل خمسةَ عشَرَ هدفاً لألمانيا. في كلّ يوم ألمانيا تخسر والبرازيل تفوز. ثم يحتفل جميع التلاميذ، حتى الخاسرون منهم، بهذا الحصاد البهيج، يبدو أنَّ الجميع في هذه المدرسة برازيليُّ الهوى، أو حتى برازيليٌّ الجينات. على أية حال، هذا أمرٌ هامشي. أبقى في صلب الموضوع. ربما انشغل بالُك بشأن الذنب العظيم الذي أوشكُ أن أقترفه بحق سلمى. أو ربما أثرتُ فضولك عل الأقل. أعرف هذا. أختصر الآن وأقول: إنها وداد. لقد ظهرتِ المرأةُ من جديد. إنها تطلب منّي لقاءً في بيروت. أيُّ عذابٍ هذا؟ أنت تعرفين طبعاً بأنها تركت دبيّ وارتحلت لاجئةً إلى فرنسا حيث تقيم منذ سنواتٍ عدّة وقد منحوها حقَّ اللجوء أو حقَّ الحماية، رغم أنَّ حياتها، لو عادت إلى سوريا،

لم تكن مهدّدة بشكلٍ مباشر. على أية حال، موضوع لجوء وِدادَ إلى أوروبا، وكذلك خارطة طريق هذا اللجوء يبقى مجرّد تفصيلٍ صغيرٍ في مجمل التغريبة السورية الجسيمة، فهناك آلاف بل ملايين القصص التي تشبهها أو حتى تفوقها في الوجع والمهانة. قد أعود إلى خارطة الطريق هذه فيما بعد، ولو بإيجاز. المهم الآن أنّ المرأة ظهرتْ من جديد. هل تعرفين يا سيدرا؟ يبدو لي أنّ وِدادَ قدري مذ كانت طفلةً صغيرة. مذ كانت طفلةً صغيرةً وإلى الآن، أو حتى إلى الأبد. أعترف لك بأنّ هذه المرأة نقطة ضعفي الأزلية. بؤرة التهاب روحي التي أرجو أنْ أبرأ منها في يومٍ من الأيام، حتى لو كان هذا اليوم بعيدا. ماذا تريدين أن تسمعي أيضاً؟ علاقتي بالكتابة والقراءة والمكتبة عموماً صارت ضعيفة. قد تستغربين هذا الأمر، ولكنها الحقيقة. مذ ابتدأتِ الحربُ أصبحتُ لا أقرأ الكتب إلّا نادراً، وأصبحتْ مكتبتي الكبيرة مجرد ديكورٍ منزليٍّ لا أكثر. لقد خجلتُ من أن أخبرك بذلك عندما كنتُ في القاهرة. أم تراني قد بحتُ لكِ بشيءٍ منه؟ قد لا تصدقينني لو قلت لكِ إنني لم أشترِ كتاباً واحداً في أربع سنواتٍ كاملة. ورغم ذلك، فإنني نهم القراءة. غير أني، للأسف الشديد، لا أقرأ سوى المواقع الإخبارية على الفيس بوك وغيره من منصّات التواصل الاجتماعي. هذا ما فعلتْه بيَ الحرب. إنها الفجوة اللعينة التي تأبى الامتلاء. تغييرٌ جذريٌّ على سُلّم الأولويات عندي. من المؤكد أنني ارتكبت خطأً كبيراً بحق نفسي خلال سنوات الفراغ والوحشة. ولكنني، من حسن الحظ، جعلتُ مؤخراً أتخلص من هذه العادة السيئة رويداً رويدا. ويبدو أنني جعلتُ أصيب نجاحاً ملحوظا. بدأت أحصي خسائري. وهذه بدايةٌ ممتازةٌ دونَ ريب.. ماذا أيضاً؟ صحتي، على وجه العموم، لا بأسَ بها، لولا الأرقُ الذي يبدو أنه قد صار مزمناً، وصار، فيما أظنُّ، يؤثر على الذاكرة. إنه جانبٌ من الخسائر التي أحصيتُها. وربما كان الجانبَ الأكثرَ إيلاماً. لم أعد صاحب الذاكرة الحديدية كما كنتِ تصفينني. وهذا شيءٌ مؤسفٌ للغاية، فأنا على استعدادٍ لأن أتحمل الأوجاع كلَّها، مهما

كانت ثقيلة، إلّا وجعَ ضعف الذاكرة. ولكن ما باليد حيلة، إنني أشرد بذهني كثيراً هذه الأيام. أقضي كلَّ ليلةٍ ساعاتٍ وساعاتٍ صافناً بالملكوت. وأتحسر على بعض أشياء الحياة. على بعض الأحلام التي اندثرت لا أعرف كيف ومتى ولماذا. قضيتُ عمري، كما تعرفين، أحترم العِلم والعلماء. غالباً ما تمرق بي لحظاتُ ندمٍ شديدةُ الوطأة لأنّ حياتي انصرفتْ في مجال الثقافة وليس في مجالٍ العلوم. الأمر طبعاً لم يكن في يدي. إمكانياتي العلمية المحدودة هي التي خذلتني. هذه الليلة كانت صعبةً عليّ. منذ الأمس وأنا أعاني من وجعٍ في عضلات الرقبة. تناولت قبل نحو ساعةٍ ونصف ساعة قرصين من مادة الباراسيتامول، ولكنّ الألم لم يبرحني وقد فتح في روحي جرحاً قديماً أبطلَ مفعول الدواء. كان طموحي وأنا صغير أن أصبح في المستقبل عالِماً في الفيزياء. كنت في مراهقتي أفكر كثيراً بالكون، بالوقت، بالزمن، بالمسافات، بسرعة الضوء، بالكواكب والمجرّات، بالثقوب السوداء، بالوجود، بالعدم. الليلةَ أشفقتُ على نفسي. خامرني الحزن على حالي. ليس علينا، بل على العُمْر الذي قضيته بعيداً عن العلوم. على إمكانياتي العلمية المحدودة التي خذلتْ طموحاتيَ الكبيرةَ في الحياة. ومن أجل أن أواسي نفسي جلست إلى الكومبيوتر وكتبت على صفحتي في الفيس بوك عبارةً يتيمة أخذتها من أغنيةٍ لفيروز:

يا أسفاً للعُمْرِ كيف ضاع!

مؤكد أنها عبارةُ مواساةٍ بلا معنى، وبخاصةٍ بعد سلسلة الانفجارات الكبيرة التي وقعت في المدينة قبل دقائق قليلة. أظنها غارةً إسرائيليةً على مطار المزّة العسكري غربَ دمشق.

نعم يا صديقتي. إنني أحاول استعادة ولو القليلَ ممّا خسرتُ في السبع العجاف. أحاول أن أردم الفجوة الحاصلة في روحي. أسعى بهمّةٍ عالية إلى تنشيط ذاكرتي المهلهلة. أحاول، وأحاول، وأحاول، ولكنّ تفصيلاتٍ كثيرةً يتمنّعُ عليَّ حضورُها في أغلبية الأحيان: أسماءٌ، تواريخُ، وصورٌ أيضا. من السهل عليّ طبعاً أن

أقول: إنَّ الحرب هي السبب في هذا كلِّه. ولن يخلو قولي هذا من حقيقة. ولكنها مع ذلك تظلُّ حقيقةً ناقصة، فماذا عن التقدم في السن، وماذا عن التغيرات النفسية والفيزيولوجية التي ترافق ذلك التقدم والتي يسميها الأطباء عكسيّة؟ أليس وَهَنُ الذاكرة واحداً من مظاهر هذه التغيرات العكسية؟ انظري ماذا حدث معي قبل أسبوعين تقريباً:

اتصل بي هاتفياً صديقٌ قديم. طبيبُ أمراضٍ باطنيةٍ مشهورٌ في دمشق. إنه أحد أفراد شلتنا أيامَ المراهقة. هو الوحيد بيننا الذي تزوج باكراً. أو حتى باكراً جداً. لقد وقع في هوى زميلةٍ له في كلية الطب البشري. ويبدو أنها هي أيضاً وقعت في هواه، فاتفقا معاً على اختصار درب الحياة الطويل بالزواج المبكّر. كان كلٌّ منهما في العشرين من العمر بعدُ حين الزواج. وفي الواحدة والعشرين صارا أباً وأمّاً. سألني عن الحال. قلت له: ما زلت أحيا. و للحقيقة أنني قلتها بالإنجليزية، من دون أن أعرف سبباً لذلك. سألته عن أخباره وأخبار زوجته (هبة) و ابنته الحلوة (أمل). قلت له: أرجو أنها لا تتعبك في مراهقتها. هنا صمتَ صديقي لحظةً طالت قليلا. لم أفهم السبب. سألته: هل تسمعني؟ قال: نعم، أنا معك؟ قلت: إذن، لماذا تلوذ بالصمت؟ سألتك عن أمل وعن مراهقتها. قال ضاحكاً: ما صنف الحشيش الذي تتعاطاه هذه الأيام يا أمجد؟ أخشى أن يكون واحداً من الأنواع الرديئة. ضحكتُ، وقلت: عيب عليك يا سعيد! فأنا لم أتعاطَ المخدرات حتى في أيام الشباب، وأنت شاهدٌ على ذلك، فما بالُك الآن بعدما تجاوزت الأربعين؟! قال: إذن، ما حكاية أمل و مراهقتها؟! قلت: و ماذا في ذلك؟ أحب أن أطمئن عليك وعلى البنت. أين المشكلة في هذا؟ قال: هل ما زلتَ تتذكر موقع منزلي؟ قلت: ما هذه الأسئلة السخيفة التي تطرحها اليوم؟ منزلك في مشروع دُمَّر، و أحفظ موقعه عن غيب من كثرة وجبات العشاء والغداء التي تناولتها عندكم أيامَ العزوبية ثم أيامَ ما بعد وِداد. قال: إذن، ننتظرك على الغداء أنا و هبة وأمل في منزلنا، الذي ما زلتَ تتذكره، يومَ الجمعة القادم. قلت: هل عندكم مناسبة؟ أم إنه مجرد غداء؟ أم ماذا بالضبط؟

قال: عندما تحضر تعرف الجواب. قلت: لا. أريد أن أعرف الجواب من الآن. إن كان مجرد غداء فإنني أعتذر سلفاً لأنّ الطريق من عندي إليكَ وبالعكس يعني أنَّ اليوم قد طار من عمري، وأنا الآن أتسابق مع الزمن. إنني مشغولٌ جداً في هذه الأوقات يا صديقي. قال: بسبب سلمى؟ ماذا يقول الطبيب الجرّاح؟ أليس هناك أية بادرة أملٍ بالشفاء؟ قلت: في الحقيقة يا سعيد أن مصير سلمى الآن ليس في أيدي الأطباء، بل في يدِ الله وحدَه، وقد يأخذ صاحبُ الأمانةِ أمانتَه في أية لحظة. على كلِّ حال، ليس مرض سلمى ما يمنعني من تلبية دعوتك، وبخاصةٍ أنَّ حماتي شبهُ مقيمة عندنا. لقد أضعتُ وقتاً كثيراً مع الفيس بوك خلال السنوات السبع الأخيرة، وإنني لم أنجز شيئاً ذا قيمة من بعد رواية (الحزن) التي صدرت قبل أربع سنوات تقريباً. أخشى أن أكون قد صحوتُ متأخراً يا صديقي. ولهذا فإنني مشغولٌ بالكتابة. إنني أضع اللمساتِ الأخيرةَ على مسلسليَ التلفزيوني الجديد. وليس لديّ حجةٌ ثانية، فإنْ كان مجرد غداء فأرجو أن تعفيني من هذه المشقّة. قال: سوف يكون ثمة غداء، ولكن هناك مناسبةٌ أهم من الطعام، وَ وجودك فيها بيننا ضروري، أو حتى ضروريٌ جداً. قلت: خير اللهم اجعله خير؟ قال: يومَ الجمعة خطوبة أمل. هتفتُ من فوري محتجّاً: كيف خطوبة أمل؟ البنت ما زالت صغيرة، مراهقة، ففيم العجلة؟! ثم.. وهنا قاطعني صديقي قائلاً: أمجد! أرجوكَ أن تصحو! أمل سوف تنتهي من دراستها الجامعية في صيف هذه السنة. قلتُ و الدهشة تعتقلني: كيف هذا؟ بالأمس فقط.. قاطعني الصديق مرّة ثانية: أمجد أرجوك، توقف عن اللخبطة. لا أمس ولا أمس الأول. سوف نكون في انتظارك يومَ الجمعة، وإلا تصير ورطتك مع أمل، أو حبيبتك الصغيرة مثلما كنت تسميها. ثم إننا بأمسّ الحاجة إليك في هذه المناسبة يا أمجد، فلم يبق حواليّ أحدٌ من أهلي. الكلُّ تقريباً هاجر إبّانَ هذه الحرب إلى المنافي المتعددة الجنسيات، والخطيب كذلك يكاد أن يكون وحيداً. إنها لَمّةُ أيتامٍ كما ترى.

صديقي سعيد! سوف أطرق باب منزلك في صباح يوم الجمعة القادم. تحياتي إلى هبة، وقبلاتي إلى أمل، التي أرجو أن تبلغها عن لساني اعتذاري الشديد لأنني لم أنتبه إلى كيف ومتى ولماذا كبرتُ في هذه الحياة الملعونة.

هل تعرفين يا سيدرا؟ يبدو أنّ حياتي كلَّها مرقتْ من دون أن أنتبه.. إذن، المعذرةَ يا صديقتي إنْ كنت قد نسيتك فعلاً، فقد نسيت نفسي قبل أن أنساكِ، وبخاصةٍ في هذه الحرب، فهناك حقاً فجوةٌ في زماني عمرها سبع سنوات.

المعذرةَ مرّةً ثانية!

ماذا تريدين أن تعرفي بعدُ يا سيدرا؟ فأنا، باستثناء خالتي الوحيدة وبناتها الثلاث، أكاد أن أكون بلا أهلٍ. وهذه مشيئة الله طبعاً. عشت حياتي وحيداً ويتيماً، ويبدو أنني سوف أموت وحيداً ويتيماً. وهذه أيضاً مشيئة الله. ولكن ماذا عن هذه الحرب الملعونة؟ فهل هي مشيئة الله كذلك؟ لا أعرف. الذي أعرفه أنني أصبحت بسبب الحرب بلا أصدقاء، وبلا أهل، حتى من خالتي وبناتها الثلاث. فقد ابتلعتهنَّ متاهات المنافي البعيدة، والأصدقاء ابتلعتهم السجون والمشافي. ماذا أيضاً؟ إنني لست حبيس المنزل بسبب سلمى، فأنا أخرج من البيت أحياناً، حتى لو لم يكن لديّ ما أفعله بعيداً عن الدار. أخرج من المنزل بلا هدفٍ في معظم الأحيان. أسوق سيارتي في الشوارع بلا هدفٍ أيضاً. بلا أيّ هدف. لقد ماتت الأهداف عندي، أو اكتهلتْ على الأقل. أخرج في الصباح، عند كآبة أضاحي النهارات الشتائية القصيرة الباردة. ونادراً ما أرجع إلى البيت من قبل المساء. أذهب إلى جوف المدينة. أحب أن أمشي تحت قذائف الهاون التي تساقَطُ على الأحياء المختلفة كلَّ يوم تقريباً. هل تصدقين هذا؟ ليس الأمر على علاقةٍ بالشجاعة أو التحدِّي. لا، أبداً، فأنا في الحقيقة رجل جبان، كما أنني لا أريد أن أتحدّى أحداً، ولو حتى في الكتابة. إنني أتبارى مع نفسي فقط. إذن، ما الحكاية، ولماذا أتسكع في

شوارع مستباحة بقذائف الهاون الغبيّة؟ أتعلل بمشروع كتابٍ أنوي تأليفه قريباً: يوميات كاتب في مدينة تحت النار. ولكن هل تريدين الحق؟ أنا نفسي لا أصدّق هذه الحجّة. إذن، ماذا؟ هل أبحث عن انتحارٍ عشوائي رخيص؟ يخيّل إليّ أحياناً أنّ هذا أقرب إلى الصواب من أيّة حجّةٍ ثانية. أو من يدري؟ ربما كنت أهرب من المنزل بسبب سلمى، أهرب من روائح المرض. هل أناقض نفسي؟ ربما كنت كذلك، فمن أين لي أن أعرف الحقيقة؟ وقبلَ هذا: من أين لي أن أعرف نفسي؟. أقود السيّارة على غير هدىً ساعةً أو ساعتين، ثم أركنها في مرآب فندق الشام في قلب المدينة. أظنكِ تتذكرين هذا الفندق. لقد تناولنا فيه العشاءَ مرّةً أنا وأنتِ. ثمّ أروح، بعد أن أركن السيارة في المرآب، أتسكع في الشوارع القريبة والبعيدة. أسجّل بعض الملاحظات التي تساعدني على الكتابة ليلاً. وكتابتي عموماً ليست سيئة، ولكنها ليست جيدةً كذلك. انتهيتُ خلال الأسبوع الفائت من تأليف مسلسلٍ تلفزيوني هو الآن بين أيدي الرقباء، وعلى الأرجح أنني سوف أوقّع العقد مع إحدى شركات الإنتاج التلفزيوني خلال الأيام القليلة القادمة. ثمَّ رحت بعد المسلسل أفكر بالشغل على مشروعين في الوقت نفسه، وكأنني أتسابق مع الزمن، وكأنني أسعى بكلِّ جهدٍ إلى ردم الفجوة التي انحفرت في روحي من بعد وِداد، ثم ازدادت عمقاً واتساعاً في نتيجة هذه الحرب. أحد المشروعين روائيٌ على علاقةٍ بالذاكرة التي لم أعد أثق بها كثيراً، ربما حملَ في النهاية هذا الاسم: على رصيف العُمْر، والثاني أقرب ما يكون إلى يوميات كاتب في مدينة تحت النار، أو تحت اللهب. أعرف أنك سوف تستنكرين هذا الشيء، وأكاد أسمعك تقولين لي: غريبٌ أمرك يا أمجد كيف أنك دائماً ما تخلط الأمور بعضها ببعض!! بصراحة يا صديقتي؟ أنا لا أعرف كيف أفعل ذلك. وليس لديّ ما أعلّل به الأمر سوى ما قلته لكِ ولغيركِ من قبلُ أكثر من مرّة: ازدواجيّة الشخصية. الفِصام. تلك هي مشكلتي الدائمة. رافقتني إلى الآن ثلاثاً وأربعين سنةً في مشوار الحياة. و لست أدري كم سترافقني بعد. هل سوف

تستمر بصحبتي حتى النهاية؟ أظنُّ أنّ هذا ما سوف يحدث. ولكن متى ستكون تلك النهاية لهذا العبث الذي أحيا؟ وكم سيطول بي المشوار إليها؟ أو كم سيطول بي المشوار إلى العدم؟ أحاول أن أتجنب التفكير بهذا الأمر. على أية حال، إنني سريع الاستسلام عند التفكير بسطوة الزمن. لن أتفلسف، فأنا لا أحسن الفلسفة، ولهذا من الأنسب لي أن أعود إلى الازدواجية، أو إلى مشكلتي السخيفة الدائمة.. كاتبان اثنان في رجلٍ واحد. انظري إلى هذه المثنوية. كاتب رواية وكاتب سيناريو تلفزيوني. وظيفتان مختلفتان في أسلوبيهما، بل شديدتا الاختلاف. تكاد إحداهما أن تكون على النقيض من الثانية: الخيال الذي بلا ضفافٍ في الكلمة المقروءة مقابل الصورة المُؤطّرة بأبعاد الشاشة الثلاثة. وهكذا أصير مجبراً على العيش مع الشيء ونقيضه في آن.. دكتور جايكل ومستر هايد.. ولكن من منهما الطيّب يكون ومن منهما الشرّير؟ ليس سهلاً الجزمُ بالجواب، رغم تعالي الروائيِّ الذي في داخلي على قرينه كاتب السيناريو، ورغم سخريته المريرة من كل ما يصنعه. وربما كان الروائيُّ على حقٍ في هذا التعالي وتلك السخرية، فالكتابةُ فعلٌ حرٌ تماماً. ولا شيء في التلفزيون (فوقَ مساويء التأطير) على علاقةٍ بالحريّة، فهناك رقيبٌ يجلس في دماغ كل كاتب منّا، بل عددٌ من الرقباء يساوي عدد محطات التلفزة التي يطمح المنتج لعرض بضاعته على شاشاتها. وهذا واحدٌ من الأسباب التي تجعل الروائيّ عندي لا يتعالى حسبُ على التلفزيونيّ، بل يضطهده أيضاً. وللإنصاف أقول: هذا أمرٌ يفتقر إلى العدل، فالروائيّ في واقع الحال يعيش على حساب التلفزيونيّ. هذا الأخير هو الذي يشتغل ويكدح من أجل تأمين دخلٍ معقول لنفسه ولقرينه الذي يزدريه، فالرواية في بلاد العرب، كما تعلمين، لا تُطعم خبزاً، بخلاف الكتابة التلفزيونية التي تؤمّن لي دخلاً طيباً إلى حدٍ جيد. نعم. الروائيّ يعيش على حساب التلفزيوني. في الليل يجلس هذا الأخير إلى الطاولة يكتب، وفي النهار يذهب للقاء هذا المنتج أو ذلك المخرج.

وتبقى النتيجة هيَ هيَ: لا جزاءٌ ولا يحزنون. يظلّ الرجل منبوذاً من صاحبه الواجم المتأفف، بل و الانطوائيّ أيضاً، فهو يعيش مع نفسه فقط، وربما كان يعيش من أجل نفسه فقط. إنه شخصٌ أنانيّ، وإن أنانيته بلا حدود. يعيش غالباً في الماضي مع النساء اللواتي عرف في حياته. يسميهنّ: نساء الحياة. نساءٌ صغيراتٌ، يانعات. يقضي الوقت يكتب عنهنّ وعن نفسه. إنّ جميع الروايات التي كتبها في حياته (سبع روايات. ولكنه يريد أن يتبرأ من اثنتين بينها) كانت عن رجلٍ واحدٍ فقط. كتب عن رجل يعرفه كما لا يعرف أحداً سواه، رجل يستطيع أن يتحدث عنه بثقةٍ كبيرة. قضى العمر ينظر إلى داخل روحه يتأمله، مثلما قضى العمر يتأمل دواخل أرواح نسائه الصغيرات. لا شيءَ في الوجود أحبُّ إلى قريني الذي يضطهدني من هذه الكتابة. إنه يمارسها كلَّ يوم، رغم أنه لا ينشر منها أيّ شيء. ومع ذلك فإنه يرفض أن يتركها لي. أقول له متوسلاً: أعطني هذه الأوراق، فقد أستفيد منها في كتابة بعض المشاهد التلفزيونية. ولكنه يتظاهر بأنه لا يسمعني، فهو يحب أن يمزق في الصباح ما كتب عند السَحَر (الوقت المفضل عنده لهذا الصنف من الشغل العبثي)، وهكذا فإنه يكتب غالباً، ما يكتب، من أجل متعته الشخصية. يشرع أحياناً بتأليف قصةٍ قصيرة، ثم لا يكملها، بل إنه لم يكمل قصةً قصيرة واحدة في حياته باستثناء تلك التي كتبها عن وِدادَ من بعد أن هجرته (حوالي خمسين صفحة)، والتي أعطاها في النهاية اسم: قصّة من أجل قارىءٍ واحد. وهذا القارىء الواحد ليس إلّا وِدادَ بطبيعة الأمر. حاولَ قبل قليل أن يمارس عادته المفضّلة، فأمسك بالقلم وشرع يكتب مستذكراً ليالي وِدادَ الهنيّة: (بالأمس كان عرسي. ومنذ الأمس صار لي شريكٌ في هذا البيت وهذه الحياة يسمونه امرأة. وامرأتي وضيئةُ الوجه، ملفوفةُ القوام، ريّانةُ الروح، شائقةُ النفْس، طيّبةُ النَفَس. قضيتُ الليلَ وإيّاها معتنقين، ومشتبكين حبّاً لحب، فكانت ليلتي الفائتة أجمل ليالي العمر. حتى إنّ فرحتي بالعروس كانت لا مزيدَ عليها، كما لو أنّ الحياة نفحتني بمكافأةٍ لم

يعرفها أحدٌ سواي من الرجال، فزهتْ نفسي بهذا الصيد النسائيّ الفريد، لدرجةٍ اعتقدتُ معها بأني أسعدُ الناس حظاً و أيمنُهم طائراً، فهششتُ من بعد طول اكتئاب، وشاعَ الفرح في نفسي بعدما كنت أتعسَ مَنْ تظللهم سماءُ دمشق. امرأةٌ بالغةُ الجمال. هذه هي وِداد. إنها ما تزال في ميوعة الشباب. طوبى لها! امرأةٌ رويّةٌ بين النساء. قضيتُ الليل بين ذراعيها، أفيقُ، وأنام، وأفيق، ثم لا أريد أن أنام، لا أريد أن يفوتني النظر إلى وجهها الصبوح، إلى روحها التي تداعبها الخَلَجاتُ الهنيّة. محاسنُ هذه المرأة يخطئها العدّ، فكيف أنام إذن؟ كيف أنامْ؟ كنت أغفو أحياناً والنعاس يوشك أن يذيبني، فيوقظني الشوق إلى امرأتي الحسناء، ويقذف بي إليها من حالقٍ، فأصحو عند صدرها الناهد الذي صار أحبَّ الأماكن إلى قلبي، و أضرع إلى الله أن يطيل سعادتي إلى أن يحين الأوان، فأنا رجلٌ لم يعرف السعادة زمناً طويلا، بل إنني لم أعرف، زمناً طويلاً، سوى الألم.. إنني رجل الألم.) الحقَّ أقول لكِ يا سيدرا: هذا الرجل يحب أن يكذب دائماً، حتى على نفسه. فلم تكن تلك حقيقة ليلته الأولى مع وِداد. إنني أتذكر الأمر جيداً، فقد كنتُ موجوداً هناك بطبيعة الحال، حتى إنني أستطيع أن أجزم بأنها كانت ليلةً مشوّشَة، وأستطيع أن أجزم كذلك بأنه لم يقع في هوى هذه المرأة إلّا بعد أن هجرته، وهكذا فإنه لم يصْدق بشيءٍ مما كتب قبل قليلٍ إلّا في كونه رجلَ الألم. ورجلُ الألم حزينٌ بالضرورة. وربما كان مصاباً بالاكتئاب كذلك. ولهذا فإنه، بالضرورة أيضاً، عاطلٌ عن العمل. يقول لقرينه: ابحث لنا عن طعام وشرابٍ و كِساءٍ و مأوى، ابحث عن مُنتَجٍ، عن فكرة، عن حكايةٍ تناسب مسلسلةً تلفزيونية، ولا تتكاسل، فتّش في صفحة الحوادث من هذه الجريدة أو تلك المجلة، اقتبس من هذه المسرحية أو هذه القصّة (يراودني كثيراً عن رواية ـ تراجيديا أمريكية ـ لِـ ثيودور درايزر. هل قرأتِ هذا الكتاب؟ ثمّةَ رواياتٌ عديدةٌ وقعتُ في هواها منذ بكور الشباب، ثم عاشتْ معي العمر كلّه، دون أن تفقد شيئاً من بريقها: «الصِّفر واللانهاية» أو «ظلام في الظهيرة» لِـ آرثر كوستلر

«وقت للحب.. وقت للموت» لـ إريك ماريا ريمارك «شرقَ عدن» لِـ جون شتاينبك. رائعة الكاتب الأمريكي ثيودور درايزر: «تراجيديا أمريكية» ـ 1925، تنتمي إلى هذه الفصيلة أيضاً. قرأتها أوّلَ مرّة باللغة الإنجليزية وأنا بالكاد قد انتهيت من الصف الثالث ثانوي. استعرتها من المركز الثقافي الأميركي. ولمّا كانت لغتي الإنجليزية مصابةً بداء العَرَج المُتقطّع ـ وما زالت كذلك ـ فإنني لم أستوعب تماماً أحداث الرواية وشخصياتها. ولكنْ ثمّة شيءٌ في ما فهمته منها وقتئذٍ دفعني للبحث عن ترجمةٍ عربيةٍ لها. ومن حسن حظّي أن هذه الترجمة كانت متوافرة. اشتريتُ الكتاب من بسطةٍ على الرصيف بليرةٍ سوريةٍ كاملة ـ ربع دولار أمريكي. ومن حسن حظّي أيضاً وأيضا أنني استطعت تأمين ذلك المبلغ الكبير. قرأتُ الكتاب مرّةً واثنتين وثلاثاً وخمساً، فقد كان أول كتابٍ أشتريه في حياتي، وأوّل كتاب أقرأه في حياتي، غير كتبي المدرسية طبعاً.. وشاهدتُ الرواية لاحقاً في أفلام سينمائيةٍ عديدة. ربما كان أهمّها، أو أشهرها على الأقل، ذلك الذي ذلك الذي حمل اسم: مكان في الشمس، والذي حشدتْ له هوليود كوكبةً من أبرز نجومها الشباب في خمسينات القرن العشرين: مونتغمري كليفت، إليزابيث تايلور، شيلي وينترز. ومنها أيضاً فيلمٌ عربي باسم: نهاية حب: شكري سرحان، صباح، ماجدة. وبعد كل مشاهدة كنت أقول في نفسي: إنهم يظلمون درايزر. فهل سأظلمه أنا أيضاً؟ تراجيديا أميركية حلميَ التلفزيوني المؤجل. ولكنْ ها هو قريني، الذي يزدري كلَّ ما أصنع، يراودني على أن أتوقف عن التأجيل، وأن أشرع بالعمل وكسب النقود من أجل أن يتنعم بتلك النقود.) يقول لي: احصلْ على ما يكفل لنا العيش الكريم نحن الاثنين، فأنا لا وقت عندي للعمل، لأنني، كما تعلم، مشغولٌ بالجليل من أشياء الحياة، وليس لديَّ وقتٌ أضيّعه في صغائر الأمور. وكاتب السيناريو الذي في داخلي لا يملك إلّا أن يكون مطيعاً، رغم رغبته الدائمة بالتمرد على هذا السيّد، هذا الطاغية الذي يظنُّ، بل يؤمن، بأن جميع جوائز الأدب في العالم لا

تليق بمكانته، وبأنه كان يستحق الميدالية الذهبية حتماً، لأنه ؟ كما يعتقد ـ كان الأسرع بين جميع العدّائين في السباقات المختلِفة، ولكنه لم يكن ينتبه إلى الخطأ الذي ارتكبه في كلِّ مرّة: كان يعدو عكس المِضمار.. ولكن هل أُفضي لك بسرٍ صغيرٍ يا سيدرا؟ هذا الرجل ليس مستبدّاً حسب، و ليس مغروراً حسب، بل إنه موهوبٌ بالرغبة لاستجلاء السراب. إنه رجلٌ مسكين. وأنا أُشفق عليه. كان ذاتَ مرةٍ كاتباً مهمّاً. هذا ما أومن به. أما الآن فليس يشغفُ قلبَه إلّا الأوهامُ الآثمةُ بعبقريةٍ لا يريد أن يعترف بأنها باتت زائلة. هنا يا صديقتي يعيش الكاتب وقرينه في جسدٍ واحد ونفْسٍ واحدة، ولكنّ كلاً منهما يتحاشى الصدام بالآخر على الدوام، لأنه يعرف النكد الذي سوف يحمله له ذلك الآخر في حديثه وحركاته، بل وحتى في سكناته. هل تدركين الآن مقدار ما أكابد في العيشِ مع هذا القرين من روحي ومن جسدي؟ ولكن هل تريدين الحقيقة كاملة؟ يحدث في مرّاتٍ قليلة أن تنقلب الأدوار فجأة. العبد يصير سيّداً والسيّد يصير عبداً، فيعرض الطاغيةُ المهزومُ عن قرينه في خوف، و يسلو الهروب من أمامه في جبانة. إنه رجلٌ غير مفهوم. كثيراً ما يناله الفزع، حتى وإن كانت الأسباب إلى ذلك واهية. إنه الجازع، الصادي إلى الأمان من خوفٍ مجهولٍ يتربص به في مكانٍ خفيٍّ من أيامه القادمة. يسهر الليل إلى آخره. ثم لا يُقبِلُ على النهار. بل يرعش من زهوٍ مخادعٍ وراءَ الستائر المسدَلة على النوافذ الموصَدة. يبحّ صوته من الصمتَ المؤلِم. يتجلّد على الأسى الموجِع. ولكنه لا يظفر بأثَرَة. يضرع إلى الله في خشوعٍ مُريب. يسعى إلى الهروب من الإقلاق. تسوءه الأيام وتسرّه في آنٍ. ولا يفوز بشيءٍ في النهاية إلّا بالسراب. يقول لقرينه: ما بك تنظر إليَّ بشماتة؟ ولا يرد عليه القرين بشيء، فهذا رجلٌ لا يطيب الحديث معه، بل حتى لا تطيب صحبته. أتدرين لماذا يا صديقتي؟ لأنّني كاتبٌ فَقَدَ البراءة. والإبداع جوهرُه البراءة.. إن أفضل ما كتب في حياته هو روايته الأولى. بل إن تلك الرواية هي الكتاب الجيد الوحيد الذي صنعه في حياته كلها. ولا يريد الاقتناع

بأنه لن يكون قادراً على تكرار تلك الجودة في المستقبل القريب أو حتى في المستقبل البعيد، فقد خسر الرجل براءته من زمان. صار لا يكتب بقلبه. والكتابة الطيبة لا يمكن صناعتها إلّا بالقلب، وبالقلب وحدَه، فالعقلُ مفسدةُ الإبداع، فحين اشتغال العقل تتراجع الروح، وتنطفىء وجَباتُ القلب اللوامع، ويسرح الخيال بالآماد في غير ما متعة، فما من متعة في الإبداع بلا براءة. وآه كم كنتُ بريئاً يومَ كتبتُ روايتي الأولى!. كان يهزأ بالخبرة أو بالحِرفة كما يسمونها أيضا، وكان يجذبه توقٌ دائمٌ إلى اللهاث وراء نبضات قلبه الوليد. وكان في المحصلة - ويا للمفارقة العجيبة - يصنع بناءً روائياً لا يقدر على مثله اليوم، رغم خبرته التي صارت كبيرةً بالتخطيط و التنظيم و سوى ذلك من (ضرورات) البناء الروائي، كان القلب وقتئذٍ يشتغل حتى نيابةً عن العقل. أما الآن، فالقلب مصابٌ بداء الوهم، والعقل لا يستطيع أن يبني شيئاً جميلاً بمفرده. إذن، كيف الحل يكون؟ ما العمل يا صديقتي؟ صرت أخشى أنني كاتبٌ بلا قلب. ومَنْ يدري؟ ربما فقدتُ عقلي كذلك عمّا قريب. وليس سلمى السبب. مرضها قَدَرٌ مقدور. كان الله في عونها، وفي عوني أنا أيضاً. كان الله في عون هذه المدينة وأهلها المغلوب على أمرهم. الجميع في هذه المدينة يتألم، فالألمُ وجهُ دمشقَ الآخر. أما وجهها الأول فهو ذو صلةٍ وثيقةٍ بسابقه، إنه الحنينُ إلى الخوالي.. قَصَفات صاروخيةٌ عنيفةٌ في هذه الأثناء يهتزّ لها البيت بأرضه وسقفه وجدرانه. قد تعودين وتطرحين عليّ ذلك السؤال القديم: كيف تعيشون مع هذا الوابل من الهول؟ أرجع عندئذٍ إلى جوابي القديم أيضاً وأقول لك: إننا نعيش هنا بوسيلةٍ واحدة فقط؛ قدرتُنا العجيبةُ على تحمّل الألم. وهذا بالضبط ما يدفعني، أو حتى يرغمني على ممارسة الكتابة التي سمّيتُها وثائقية، رغم أنها ليس بالضرورة أن تكون كذلك، فهي نوعٌ من الشهادة على المتغيرات الدمشقية الحاصلة يومياً في زمن الحرب. لست أكتب عن المتغيرات السياسية والعسكرية بطبيعة الحال، بل عن المتغيرات الاجتماعية، أو فلأقل: الإنسانية بشكلٍ عام، والأخلاق في

مقدمتها. إني أراها تتبدّل من يومٍ إلى يوم، وأحياناً من ساعةٍ إلى ساعة، فهل الأخلاقُ نسبيّة؟ يشغلني هذا السؤال كثيراً منذ بدايات الحرب الأولى، حتى إنني طرحته في رواية (الحزن) التي كتبتها في عزّ الحرب بعد أن رجعتُ من القاهرة. قد تقولين لي: إنها الحرب، فماذا كنتَ تنتظر؟ وسوف أقول لكِ: نعم، أنتِ على حق، إنها الحرب، والحربُ هي الحرب، منذ أن قتل قابيلُ أخاه هابيل والحرب هي الحرب، أم إنّ تلك التي دارت بين الأخوين الشقيين لم تكن حرباً؟ فماذا كانت إذن؟ مجرّد جريمة قتلٍ عابرةٍ للأزمان؟ ولكن هل الحروب إلّا جملةٌ من جرائم القتل العمد، ينفي فيها الضمير نفسَه بنفسه؟ نعم، الحرب هي الحرب، وفي الحرب كما في الحرب: القتل، التهجير، السرقة، الاغتصاب، الجوع، الخوف، إلى آخر قائمة الملهاة الإنسانية. جمعتني المصادفة ذات وقتٍ بعيد برجلٍ كهل في إحدى حانات موسكو. حدّثني ونحن نشرب الفودكا، والحديث بالروسيّة طبعاً، عن بعض ذكرياته من زمن الحرب العالمية الثانية. كان جندياً في الجيش السوفيتي. كان في مقتبل الشباب بعدُ حين وقعتْ مدينة لينينغراد في حصار الأيام الألْف. وكان ذلك الجندي الشاب واحداً من حامية المدينة. حكى لي عن البطولات الخارقة التي أبداها جنود الحامية في الدفاع عن مدينتهم، فمنعوا سقوطها في يد الجيش الألماني. حدثني عن الخوف والفقر والتشرد، حدثني بشكلٍ خاصٍ عن الجوع، وسألني بعد الكأس الرابعة أو الخامسة إن كنت أعرف كيف هو مذاق اللحم البشريّ. قلت له: لا، طبعاً، فمن أين لي أن أعرف ذلك؟ قال: أما أنا فأعرفه. وهنا، هنا بالذات، تقيأت كلَّ ما في جوفي دفعةً واحدة. تقيأته على سطح الطاولة، ورميت نقوداً، ثمن الفودكا التي تقيأت، وخرجت من الحانة مهرولاً. نعم يا سيدرا، لا شيءَ جديد. ومع هذا هناك جديدٌ في كلِّ حربٍ جديدة: إنها الحربُ ذاتها، وإنما بفنون دمارٍ جديدة. ولكن هل تطورُ هذه الفنون أو هذه الوسائل إلّا حصيلةً دالّةً على تطور رداءة الأخلاق؟ وفي الأحوال كلِّها، ماذا يعني تبرير القتل والخطف والاغتصاب، والأنكى: رعايتُه

والتصفيق له؟ ماذا يعني تبرير سرقة منازل الناس، و رعايتها، بل و اعتبارها أمراً حلالاً: غنائم حرب؟ هل تعلمين أنّ منزلي قد تعرض للسرقة؟ وقد حدث ذلك من دون ذنبٍ ارتكبتُ سوى أنني كنت غائباً عن البلد فترةً قصيرة: الأسبوعان اللذان زرتكِ خلالهما في المحروسة. أخذوا من المنزل كلَّ شيء، الغسّالة والتلفزيون والثلّاجة والفرن الكهربائي والكومبيوتر والأثاث والطناجر والصحون والملاعق، أخذوا حتى الثياب والأحذية. نهبوا كل شيءٍ إلّا الكتب. المكتبة سليمة، كاملة، مع أننا أُمّةُ: اقرأ. قد تسألين: أين الشرطة؟ أين الجيران؟ الشرطة يا عزيزتي لا محل لها من الإعراب في هذه الفوضى الشاملة التي تعصف بنا، والتي يتسيّدها انتشار السلاح الثقيل والخفيف على نحوٍ يبعث على الرعب في النفوس الخائفة أصلاً. أما الجيران، فوجودُهم مثلُ عدمه. الجميع يريد أن يشتري سلامته الشخصية. يريد أن يشتري أمنَه وأمانَه، و لهذا فقد باتت الناس تخشى من أن تكون شهوداً في حادثٍ مروريّ، فما بالُكِ بحادث سطوٍ مسلّح، حتى لو كان سطواً معلناً في وضح النهار؟! قد تسألينني: ماذا فعلتَ إذن؟ لم أفعل أيّ شيءٍ سوى أنني اشتريت بدلاً من المسروق. وقد كلّفني ذلك ثروةً كبيرة في ظل الغلاء الفاحش الذي حملته لنا الحرب معها. هل أنا غاضبٌ بسبب هذه الثروة التي أنفقتها من دون سببٍ وجيه؟ نعم، كثيراً. أظنك تعرفين علاقتي بالنقود. لم أندم يوماً على مالٍ صرفته على الأشخاص الخطأ في حياتي، ولكنني شديد الندم على العواطف التي أنفقتها من أجلهم. أما في هذه الحال (السرقة المعلَنة) فإنني لا أعرف أصلاً من أجل أي شيءٍ أنفقت تلك الثروة. أمِنْ أجل إشباع نزعة الجشع عند حفنةٍ من الأوغاد؟ الجواب: نعم. وهذا مبعث غضبي. ولكن هل تعرفين ما الذي أغضبني أكثر من كل ما سبق؟ الاستباحة. صحيحٌ أنهم تركوا لي المكتبة، غير أنهم سرقوا منّي الماضي جميعَه. أخذوا ألبومات الصور الفوتوغرافية التي أغلبها لِـ وِداد أو مع وِداد، حتى صورك أنت أخذوها. كما أخذوا الرسائل أيضاً، وهي كثيرة، بما فيها

رسائلكِ أنتِ إليَّ ورسائل وِداد بطبيعة الحال. ما حاجتهم إلى صورٍ وخطاباتٍ غريبة؟ التسلية؟ ربما كانت التسلية فعلاً. التسلية والتندر بخصوصيات رجلٍ يظهر اسمه كثيراً على شاشات التلفزيون. إنها الاستباحة بأتمّ معنى الكلمة. إلى أيّ دركٍ من الانحطاط يمكن أن نهوي بعد في فجوتنا التي تأبى الامتلاء؟ هذا هو السؤال الذي يشغلني عن الأخلاق. أسأل نفسي كلَّ يوم تقريباً السؤالَ ذاته: أما آنَ لذلك الغول أن يشبع في هذا الجحيم منً حفلات شواء نفوسنا قبل أجسادنا على مدار الوقت؟! أما آن لهذه الفجوة أن تنردم؟ وكلَّ يوم يؤلمني الجواب بالنفي، فأنا لا أرى هذه الفجوة إلّا في اتّساع، حتىً إنني أسمعها أحياناً تنادي بشرهٍ ووقاحة: هل من مزيد؟ أخشى أن يكون قد مات عندي الأمل وأنا لا أشاهد مصائبنا إلّا مثل عربات القطار يجرُّ بعضُها بعضا. ويبدو لي، فوقَ هذا كلّه، أننا لن نكتفي بويلات النار والبارود الراهنة، بل سوف نحمل عقابيلها أيضاً، ومن المؤكد أننا سنورث هذه العقابيل إلى ثلاثة أجيالٍ قادمة أو إلى جيلين في أقل تقدير. وهذا بالضبط ما يدفعني إلى تلك الكتابة الوثائقية حول المتغيرات الحاصلة في عقولنا و أرواحنا التي من المؤكد أنها باتت في حاجةٍ إلى غسيلٍ شامل. يبدو أنّ اللصوص قد شبعوا من التسلية أخيراً، أو إنهم لم يعثروا في تلك الصور والرسائل على ما يبتزّوني به في مقبل الأيام، ولهذا بدأوا يفتحون معي قنوات اتصالٍ لإعادة الصور والخطابات إليّ مقابلَ مبلغٍ من المال. يطلبون مليون ليرة سورية. يتصلون بي من هواتفَ جوّالةٍ مكشوفة الأرقام، فهم لا يهابون أن يكون أمرهم مفضوحا. وفي الحقيقة أنَّ هذا الشيء يغيظني أكثر من السرقة ذاتها. أقول لهم في كل مرّة: إنني لا أريد هذه الأشياء، فاحتفظوا بها لأنفسكم أو احرقوها. إنها الطريقة المثلى لإدارة مثل هذه المفاوضات مع أمثال تلك المخلوقات العجيبة، كما قال لي أحد رجال الشرطة. شرطيٌ متقاعد، اسمه أبو الخير. أعرفه مذ كنت طفلاً بعد. ويبدو أنها الطريقة المثلى بالفعل، فقد بدأوا يتنازلون عن السعر العالي الذي طلبوه أوّل مرّة. أظنهم

سيقبلون في النهاية بعُشر المبلغ الذي أرادوه في البداية. مع أنني في الحقيقة مستعدٌ لأن أدفع مليون ليرة مقابل أن أستعيد ذكرياتي، ولكنّ الحكمة، كما نصحني الشرطي المتقاعد أبو الخير، تقتضي المساومة لئلّا أصبح بوّابةً ينفذون منها إلى ابتزازٍ جديدٍ ربما كانوا يخبّئونه لي. هكذا نصحني الرجل الكهل وهو يعطيني درساً مطوّلاً في فنّ إدارة الأزَمات كما أسماها. هل عرفتِ الآن نوع الكتابة التي تشغل بالي؟ كتبت في الماضي، فيما كتبت، عدّة مسلسلاتٍ تلفزيونية عن عشوائية السكن. أما الآن فقد غدا هذا الموضوع متخلّفاً، لأنّ العشوائيةَ عندنا وصلت إلى العقل، إلى الروح. هذه هي المتغيرات التي أصابتنا جميعاً في زمن النار والعار والفوضى. وبالمناسبة، إنني أكتب عن تلك المتغيرات الإنسانية ليس باللغة الفصحى تماماً، وليس باللغة المحكيّة في بلاد الشام تماماً كذلك. إنها شيْء ما خليطٌ بين اللغتين، وإنني أتعمّد هذه اللغة الهجينة، علّني أستطيع ملامسة هذا الشكل من العيش الأشبه بالفانتازي، برغم ما فيه من نزعةٍ شيطانية، وبرغم واقعيته المُفرطة: الجوع، البرد، الخوف، الظلام، الوحدة، غربة الدّار، وبقية الأشياء المُهينة لإنسانيتنا. هذه الأشياء تشغلني في كتابة يوميّاتي مثل ما يشغلني تبدّل الأخلاق وأكثر. أو لعلَّ هذه الأشياءَ مجتمعة هي ذاتها الأخلاق المتبدّلة من يوم إلى يوم، أو من ساعةٍ إلى ساعة. هذه الأشياء تبكيني في بعض الأحيان يا سيدرا. كنت أحبّ أن أقدّم لكِ بعض النماذج من هذه الكتابة طامعاً في سماع رأيكِ بها، غير أني أخشى من أنك لا تملكين وقتاً لذلك، أو ربما كنتِ لا تملكين شهيّةً للقراءة في هذا الظرف الصعب الذي تعيشين، رغم أنني أرى أنّ انشغالك بأيّ أمرٍ في هذه الفترة بالذات قد يساعدك في الحدّ من سطوة الحزن الآثم الذي تعانين، ولو قليلا. على أية حال، قد أرسل لكِ لاحقاً بعضاً من مشروعي الجديد، من دون أن أنتظر سماع رأيك به. تستطيعين أن تقفزي من فوقه. أرسله إليكِ من باب العِلم بأخباري التي تريدين معرفتها بالتفصيل المُمّل. ملاحظة على الهامش: القصف هذه اللحظة ازداد عنفاً. دويُّ

انفجاراتٍ هائلة غير بعيدٍ عني. أظنها صواريخ ثقيلة تنطلق باتجاه جنوب المدينة.. أعود إلى رسالتك. تقولين، بعد العتب، إنك خائفةٌ عليّ في هذه الحرب العبثية التي تعيشها سوريا. وأعترف لكِ بأنني أنا أيضاً خائفٌ على نفسي. ولكن ما البديل من الخوف؟ أنظر أحياناً إلى الناس التائهة في الشوارعِ نظرةً متأملة. أراهم كمَنْ يُساقُ للموتِ وهو مخمورُ. هل هذا القولُ لابن خلدون؟ ربما. ولكن عن أيّ شيءٍ أبحث في الوجوه العابرة؟ عن المتميّز بينهم؟ لا، أبداً، رغم أنّ الشخصيّة المتميّزة تظلّ المادة الأوفر حظاً للتألق في عالم الكتابة. إذن، عن أيٍّ شيءٍ أبحث. لا أعرف. ربما كنت تائهاً مثلهم. وما من أكثر. التيار الكهربائي مقطوع. شبكة الموبايل بالكاد تشتغل. مولّدات الإنارة تهدر في جميع المطارح. ضجيجها يجلب الصداع، ودخانها يملأ الجو بكلّ أنواع التلوث. ما نسبة السموم في الهواء الذي نتنفس؟ أظلُّ أراقب العابرين في الطرقات العارية: وجوهٌ مرهَقة، عيونٌ متدلّيَة، نظراتٌ غائمة، خطواتٌ مترنحة. فيروز تغنّي من راديو ما أو من مسجلةٍ ما: يمّا الحلو ناسي الهوى يمّا، وليل الحلو طير وعَبَر يمّا. لكنّ صوتها مطحونٌ في ضجيج مولدّات الكهرباء وحركة الناس. علامَ هذا الزحام؟ أسأل نفسي. في الليل تكون الشوارع فارغة تماماً، بسبب الخوف على الأرجح. وفي النهار تصير الطرقات ملآنةً بالبشر، وكأنهم يشجع أحدُهم الآخرَ بتواجدهم سويةً على مواجهة الخوف من المجهول الذي يتربص بالجميع، أو كأنهم مثل أكياس القش يسند بعضُها بعضا، كما قال ت. س. إليوت، فيما أظن. وحدَه الخوف يدفعهم إلى هذا التراص. هؤلاءِ البشرُ إلى أين يذهبون بهذه الخطوات التائهة؟ عن أيّ شيءٍ تفتّشون يا حزانى؟ أسألهم. وأسأل نفسي: «هل الخيرُ الذي أنا أبتغيهِ؟ أم الشَّرُ الذي هو يبتغيني؟» وفي جميع الأحوال، ماذا أفعل أنا هنا؟ أسأل نفسي. وأظلُّ أسأل. مَنْ يخشى مِن فرجينا وولف؟ أنا أخشى مِن فرجينا وولف. أنا أخشى مِنَ الضبعة الكبيرة الطرشاء. جميعنا يخاف من الحقيقة، فيهرب إلى الوهم. أظنُّ أن البلد سوف

يقع بعد الحرب في أيدي أشخاصٍ لم يكن الشرف والوطنية والتضحية من صفاتهم في أيّ وقتٍ من الأوقات، تماماً مثلما كانت عليه الحال مع أولئك التجّار وسماسرة الأراضي والعقارات الذين بنوا كلّ تلك الغابات من العشوائيات المهينة لكرامتنا. إذن، أين هو الوهم الذي تهرب إليه إنْ كانت هذه هي الحقيقة؟ قرأت قبل زمنٍ بعيدٍ جداً مسرحيةً نسيت اسم كاتبها، كما نسيت موضوعها أيضاً، ولكن الذي ما نسيته قط هو العنوان: (تأكد من أنك على الحق ثم امضِ في سبيلك)، ولكن كيف أكون أكيداً من أنني على الحق؟ وعندما تطرح هذا السؤال على الآخرين يأتيك سيلٌ من النصائح من كلِّ حدب وصوب: اتبع قلبك. أو: اتبع عقلك. أو: اتبع ضميرك. أظن أنَّ النصيحة الأخيرة هي الأجدر بالاحترام، فالضمير، فيما أظن، هو بيت العدل. ولكن هل إنني لو اتّبعتُ ضميري وتأكدت من كوني بعيداً عن الباطل، ولصيقاً بِ الحق والعدل والخير، سوف أمتلك القدرة، أو حتى الشجاعة، لإحقاق هذا الحق؟ بالتأكيد، لا، فأنا ضعيف، ضعيفٌ جداً، وخائفٌ جداً. إذن، ماذا أفعل بهذا الضمير العدل، الحق، ما دمتُ أحيا في خشيةٍ دائمةٍ من لقاء فرجينا وولف، حتى ولو بالمصادفة؟ نعم يا صديقتي، إنني أخاف على نفسي، وأشعر بالعجز الكامل أمام هذه العاصفة الهوجاء التي تدوي من حولنا بلا انقطاع. ولكن أين المفر؟ إلى أين أذهب؟ هل أهاجر إلى بلدٍ أمين؟ من أجل أيّ شيء أفعل ذلك والشباب قد صار ورائي؟ فالقبرُ أيضاً مكانٌ أمينٌ يا سيدرا. لقد عشت إلى الآن مساحةً من الزمن يمكن اعتبارها كبيرةً إلى حدٍ غير قليل، رغم قِصر قامة هذه المساحة في عمر الزمن، وبخاصةٍ أنني جرّبت فيها أصناف العيش المختلفة. من كثرة ما ركبت الطائرات صرت أكره كلمة مطار. ومن كثرة ما سمعت دروساً بالوطنية صرت أخاف من كلمة وطن. ومن كثرة ما تحدثوا أمامي عن التعايش المشترك فقدتُ شيئاً من عفويةٍ بالتعامل مع الناس. فهل الآخرُ مرضٌ ينبغي عليَّ أن أتعايش معه؟! هذا السؤال ليس جديداً عليّ. طرحته في رواية الحزن، ولكنني لا أملُّ من العودة

إليه. الناس تعيش مع بعضها، لا تتعايش. أظنّ أنّ التنازل الأكبر الذي يمكن أن يقوم به الإنسان في الحياة هو أن يتعايش. هكذا علّمتني الدُّنيا. ربما أكون قد فهمت الدرس على نحوٍ خاطيء، رغم أنني لم أكن تلميذاً غبياً. أو: من يعرف؟ ربما كنت تلميذاً غبياً، من دون أن أدري. على أية حال، لقد خرجت من هذه التجربة الطويلة الحلوة، رغم مرارتها، ببعض الملاحظات. واحدة من هذه الملاحظات هي الآتية: الناس نوعان. الأول أخذ من الحياة أكثرَ ممّا يستأهل، والثاني أخذ من الحياة أقلَّ ممّا يستأهل. الظلم واضح. لماذا جرت الأمور على هذا النحو؟ لدى الجميع جوابٌ واحدٌ عن هذا السؤال: نصيب. والمشكلة أنّ الجميع مقتنعٌ بسلامة جوابه، فالجميع مقتنعٌ بسلامة عقله. وهذه هي الملاحظة الثانية التي خرجتُ بها من العُمْرِ المديد، رغم يفاعة سِنّه. أما الملاحظة الأبشعِ التي وصلت إليها من الدنيا فهي الآتية: الجميع يريدك أن تكون مثلَه لأن عقله هو الصح، وإلّا فأنت شخصٌ غير شريف. وأكثر من هذا: أنت شخصٌ غبيٌّ، وغير وطنيّ، ولا يجوز التعايش معك. وأنا في الحقيقة يا سيدرا لا أبحث عن التعايش مع هذه الجموع التائهة في شوارعنا العارية. بل أبحث عن العيش معهم. فهل نحن يا ترى مَنْ لم يحسن العيش المشترك؟ هنا يتولّد السؤال الصعب: هل نحن مَنْ رفض العيش المشترك فاختار الحرب بديلاً منه؟ وإن كنّا قد اخترنا الحرب بأنفسنا فإننا نكون قد حصلنا في الحياة على ما نستأهل من نصيبنا، لا أكثر ولا أقل، فلا يبقى للظلم مطرحٌ في المعادلة. هل شططتُ قليلاً في الإجابة عن الخوف؟ ربما أكون قد فعلت، ولكنّ هذا الشطط لا يغيّر شيئاً في المسألة، فالجواب يظلّ هو هو: أكون قد أخذت نصيبي من الحياة بشكلٍ عادل. إذن، لا داعي للخوف، رغم أنه، في الحقيقة، يسكنني تماماً. يحتلّني تماماً. وبالتالي لا مبرر للهجرة إلى أيّ مكان، حتى ولو إلى الجنّة. وبخاصةٍ أنني لا أملك ذكرياتٍ يأخذني إليها الحنين مثلما تفعل بي دمشق، فأنا يا سيدرا رجلٌ يقتله الشوق إلى هذه المدينة حتى وهو يتواجد فيها، فكيف

ستكون حالي إن ابتعدت عنها؟ أخشى ما أخشاه إنْ أنا هاجرت من هنا أن تصير حالي أشبه ما تكون بحال تلك الطفلة التي كانت تحلّق من السعادة وهي تحتضن سمكةً كبيرة، وحين سألها أحدهم عن سرّ سعادتها، قالت: لقد أنقذتُ السمكةَ من الغرق. أو من يدري؟ ربما صرت أنا السمكةَ الناجية من الغرق.. تعرفين يا سيدرا وأعرف أنَّ صيدليات العالم تغصُّ بالأدوية القادرة على أن ترفع عتبة الألم، ولكنْ ما مِن دواءٍ واحدٍ في جميع الأرض يستطيع أن يرفعِ عتبة الحنين، فها أنا ذا أمضي على رصيف العُمْر أُفتّشُ عن ذلك الولدِ الفقيرِ الذي كنتُه. لو تعرفين كم أحنُّ إلى ذلك الولد، وكم أتمنى أن ألقاه يوماً!!. أريد أن أشتريَ له طعاماً وثياباً وألعاباً وحلوى وسريراً نظيفاً. أريدُ أن أعوّضه، ولو قليلاً، عن سنوات القنوط والحرمان التي فرضت عليه شكلاً بغيضاً من التعايش مع الأسى، فلا شيءَ يعذبّني في الحياة مثلُ صورة الطفل ماسح الأحذية، ذلك الطفل الذي كان اسمه أمجد. يقتلني الشوق إلى لقياه كما تركته قبل ثلاثٍ وثلاثين سنةً ليس فيها إلا أعواماً قليلة. كان من العُمْرِ وقتئذٍ في العاشرة، وقد انتهى تواً من الصف الرابع الابتدائي. لقد مارس العديد من الأشغال في طفولته البائسة. بائع جرائد، شيّالٌ في سوق الخضار والفواكه. بائع ماءٍ في المقابر حيث يرقد الموتى الذين يقتلهم الظمأ كلَّ يوم مرّتين. ماسح أحذية. كانت العطلة الصيفية الوحيدة التي مارس فيها هذه المهنة الأخيرة. كان نهاراً قائظاً ذلك الذي ضربه فيه أحد الشباب (أزعر ـ بلطجي) ضرباً مبرّحاً بحجّة أن الطفل لم يتقن تلميع حذاء الشاب المتسخ. أو ربما كان عدم تلميع الحذاء جيداً مبرر ذلك الشاب من أجل ألّا يدفع بعض القروش للولد الفقير. كان يضربني وهو يقول لي: أنت غشاشٌ يا ليفاز. ولكن مَن يكون ليفاز هذا؟ صدّقي أنني إلى اليوم لا أعرف. حتى إنني لا أعرف معنى أو أصل هذه الكلمة. هل هي كلمة يونانية، سريانية، تركية، كرديّة، أرمنية، فارسية؟ لا أعرف. إلى اليوم لا أعرف، رغم أني سألت عنها كثيراً بعد أن كبرت مدّعياً بأنني عثرت عليها في نصٍ

لاهوتيّ روسيّ يعود إلى القرن السادس عشر. قال لي أحد أساتذة اللغات القديمة إنّ ليفاز كلمةٌ آرامية، وتعني: ساقية الذهب، في لغة السيّد المسيح. لم أقتنع بهذا التفسير، أو بهذا المعنى، فالشاب الأزعر كان يشتمني وليس يمدحني. لقد شتمني كثيراً في ذلك اليوم البعيد مثلما ضربني كثيراً. حدث هذا كلُّه على الرصيف، هنا، في قلب دمشق، أو حتى في قلب القلب، في تلك الوصلة الصغيرة بين شارعين متوازيين: شارع المتنبّي و شارع الفردوس، خلفَ السور الغربيّ لمؤسسة كهرباء المدينة. أخفيت حكاية ليفاز عن الجميع، بمن فيهم أنا نفسي، وبخاصةٍ أنني لم أقتنع بكلام أستاذ اللغات القديمة. وأنتِ أولُ من يعرف بهذه الحكاية وهذا الاسم الغريب الذي لا أجده اليومَ سيئاً، بل حتى إنني صرتُ أراه جميلاً إلى حدٍ ما وأنا أقف على رصيف العمر متأملاً في حياتي الغابرة. سنواتٌ خلتْ وسنوات وأنا أتحينّ أيةَ مناسبة، بل إنني أخترعها اختراعاً من أجل أن أمشي على ذلكَ الرصيفَ من تلك الوصلة الصغيرة بين شارعين رئيسين في قلب المدينة، علّني أصادف ولدي الفقيرَ، الذي أضعتُه منذ دهر سحيق، جالساً خلف صندوقه الخشبي المهترىء على تنكةٍ صغيرة، كانت علبة سمنٍ أو عبوة زيتٍ رخيص ذات حينٍ بعيد. كنت قبل الحرب أفعل هذا مرّةً أو مرتين كلَّ أسبوعٍ تقريباً، حتى بات الأمر عندي طقساً لا تستقيم عيشتي من دونه. أحنُّ إلى ذلك الولد اليتيم الأب مذ بلغ الثامنة من عمره. أريد أن أشتري له بعضاً من الفرح الضائع. أريد أن أشتري له بعضاً من الطفولة المفقودة. أريد أن أشتري له جميع الأشياء التي قد تجعل أمَّه الأرملةَ الشابةَ سعيدةً بسعادة طفلها اليتيم. وكانت كلُّ الأشياءِ تنقصه، وأوّلُها الأملُ بغدٍ أكثرَ رحمةً وأقلَّ قسوةً، وأقلَّ مدعاةً إلى الرغبة الأكيدة بموتٍ قريب، أو إلى التعايش مع تلك الأمنية العجيبة: يا ليتني كنتُ ترابا! هل ثمّة طفلٌ يشتهي الموت في الحياة؟! أنا كنت كذلك عندما كنت أبيع الماء في المقابر، ففي طفولتي لم يكنْ لديَّ طفولة، كما قال أحد مشاهير الأدب العالميّ.. أمضي على رصيف العمر بحثاً عن ليفازَ الذي كنتُه

لأزرع فيه التفاؤل بمُقبِل الأيام، لأخبره بما يجهل، وبأنني كنت أتجسس على مستقبله الذي عشتُه من بعد أمنيته العجيبة بموتٍ غير بعيد، أو حتى من بعد محاولة الانتحار الفاشلة التي قام بها حين قذف بجسده الصغير أمام سيّارةٍ عابرة وهو في الحاديةَ عشْرةَ من عمره، وبأنَّ الحياة التي قضاها بعد ذلك لم تكن بهيجة على نحوٍ كبير، ولكنها لم تكنْ أيضاً بذلك السوء الذي كنتُ أتوقعه يومَ قذفتُ بجسدي أمام تلك السيارة العابرة، ثم لم أصحُ بعدها إلّا في أحد المشافي الحكومية وأمّي تقف فوق رأس ضناها الصغير وقد اختنقت الدموع في حلقها، رغم أنّ قلبها كان يخفق بعنف من شدّة الخوف على ولدها الذي أضناه الحرمان والفاقة. (كيف علمتْ أمي بالأمر؟ لا أعرف. لم أسألها يوماً. لعلّني كنت أخجل من السؤال في أمرٍ تؤلمها ذِكراه.) أريد أن أحكي له عن صخب التلاميذ في باحة المدرسة الابتدائية التي تقابل منزلي. عن مرحهم في اللعب وقت الاستراحة، رغم دويِّ المدافع وهدير الطائرات. أريد أن أحدّثه عن صديقةٍ رقيقةٍ لي من مصر اسمها سيدرا. امرأةٌ تفيض رقّةً وحنانا.. كنتُ في الماضي البعيد قليلاً أمضي على رصيف العمر غير يائسٍ من حتمية لقائنا أنا وليفازَ ذاتَ يومٍ صيفي قائظ. وبقيت غير يائسٍ حتى قامت الحرب واشتدَّ أوارُها، فهنا يا رفيقتي بدأ الأمل عندي يتضاءل شيئاً فشيئاً، حتى تلاشى، من قبل أن يتجدد ثانيةً قبل أربعة أيامٍ فقط. كنت أشرب القهوة في إحدى كفتيريات قلب المدينة. وكان يجلس إلى طاولةٍ مجاورة شاب صغير. كان يتفرج في اليوتيوب على أحد الفيديوهات. وهذا حقه طبعاً. ولكنّ الذي لم يكن من حقه أنه رفع الصوت فجأةً حتى منتهاه. كنت أسجّل في مفكرتي بعض الملاحظات المتعلّقة بكتابي الوثائقي الجديد. تشوّش ذهني من الصوت المرتفع. ألا تكفيني قصَفات الصواريخ في سماء المدينة؟ صفنتُ بالشاب الصغير. اهتمّيت بأن أعرف على ماذا يتفرج. فهمت من الصوت أنه يشاهد المباراة النهائية في مسابقة كأس العالم بكرة القدم عامَ 2014 بين ألمانيا والأرجنتين. تدخّلتُ من مطرحي أقول

للشاب علّه يرعوي: هذه المباراة قديمة، عمرها أكثر من ثلاث سنواتٍ ونصف سنة، وانتهت بفوز ألمانيا على الأرجنتين بهدفٍ دون مقابل. قال: أعرف. لقد شاهدتها إلى الآن مئةً وخمسين مرّة. قلت: إذن، لماذا تشاهدها اليومَ أيضا؟ قال: لأنني في كلِّ مرّة جديدة أقول في نفسي: من يدري؟ ربما تمكّن اليومَ (ميسي) ورفاقه من تسجيل هدفٍ أو هدفين. وكدتُ أسخر من هذه البلاهة، ولكنْ قفز ليفاز أمامي فجأة، فابتسمتُ أشكر الشاب الذي أعاد إليَّ فرصة الحلم بلقاءٍ لا بدّ قادمٍ مع الأمل المخادِع. أريد أن أحكي للطفل الذي كنتُه عن هذا الشاب الصغير. أريد أن أحدّث الولدَ الفقيرَ عن ضرورة التشبث بالأمل حتى لو كان مستحيلا. عن عدم صواب ما فعل يوم تمّنى لو كان ترابا، ثم يومَ قذف بروحه من أجل أن تخطفها سيارةٌ عابرة توقفتْ عجلاتُها عن الدوران قبل أن يهبط ملاكُ الموت من سمائه البهيجة إلى أرضنا اليباب ويخطف الروح اليانعة في أقل من جزءٍ يسيرٍ من الثانية. أريد أن أخبره بأن الحياة سوف تقدّم له في المستقبل بعض الهدايا الثمينة من حينٍ إلى حينٍ، وبأنه سوف يحصل في بكورِ شبابه على تعليمٍ أكاديمي في بلادٍ غريبة اسمها روسيا، وبأنه سوف يرجعِ إلى البَلد، ويشتغل، ويحصل على نقودٍ كثيرة، وسوف ينفق نقوداً كثيرة أيضا، وبأنه غالباً ما سوف يجد نفسه عالقاً بين أمرين اثنين، بل إنَّ حياته كلَّها لن تكون إلّا مجموعةً من القطع الصغيرة، وكلُّ قطعة فيها عالقةٌ حتماً بين حادثين، هما على الأغلب متشابهان: حربين، سفرتين، نجاحين، فشلين، أو حتى امرأتين. مجموعةٌ من القطع بين ألِفٍ وياء، تماماً مثل تلك الوصلة الصغيرة بين شارعين رئيسين في قلب المدينة، حيث اعتدتُ أن أمضي على الرصيف مرةً في الأسبوع أو مرّتين بحثاً عن طفليَ الجائع الذي لم يكن يستطيع أن يفهم حين يمرق من أمام أحد مطاعم المدينة كيف أنّ الناس يتناولون الطعام. كان يسأل نفسه في كلِّ مرّة: من أين يأتون بالنقود؟ كان يؤرقه هذا السؤال. كان هذا السؤال يقضُّ مضجعه من شدّة القنوط الذي أصابه. أريد أن أطمئنه

بأنه سوف يعرف الجواب عن السؤال المُؤَرِّق ولو بعد حين، وسوف يرتاد المطاعم، حتى الفاخرة منها، وبأنه سوف يشتري منزلاً واسعاً وجميلا، وبأن أمّه سوف تكفّ عن أن تكون خادماً في منزل الست إلهام، وبأنها سوف تعيش شيخوخةً هادئة، وسوف تموت عزيزةً كريمةً في منزله الواسع الجميل، وليس في مأوى عجزة أو في مستشفى حكومية بائسة، أو في ذلك السكن العشوائي حيث قضى طفولته و مراهقته مع القطط الجائعة على بيادر الزبالة في طرقات الحيّ. القطط التي تتقاتل، وهي تنبش في النفايات، على بقايا البقايا من عظامِ ما كان يوماً دجاجةً مشويةً أو مسلوقة. أريد أن أحدّثه عن نساء حياته، وبأنه سوف يعرف امرأةً جميلةً وامرأتين، وأكثر. ولكنَّ نسله سوف يتوقف عندي، وأنني في الحقيقة لست آسفاً على هذا الأمر مذ كنتُ طفلاً في العاشرة. هذا جناهُ أبي عليَّ / وما جنيتُ على أحد.. أريد أن أشكو له القَدَر. زوجتك مريضةٌ يا أمجد. زوجتك مريضةٌ يا ليفاز. سلمى مريضةٌ جداً. قلبُها هو المعطوب. فتحةٌ في البطينين. داءٌ خُلْقي تظلّ أعراضه مختفيةً تماماً حتى أواسط العشرينات من العمر حيثُ يطلُّ المرض بقرنه فجأة، ويكون بلا دواء. حتى الجراحة كانت بلا جدوى. لم تكن سلمى تستحقّ هذه النهاية يا ليفاز، فهي امرأةٌ حسناءُ، طيبة القلب. امرأةٌ يقول الأطباء إنَّ أيامها في الحياة باتت معدودة، رغم أنها في السادسة والعشرين من عمرها بعد. هل سوف تستهجن فارق السنِّ بينك وبينها؟ سبع عشْرة سنة. هذا فارقٌ كبير. أليس كذلك؟ سوف تستهجنه بطبيعة الحال. أنا شخصياً لم أكن أستهجنه حسب، بل كنت أستنكره أيضاً. هل أحببتَها؟ نعم، قليلا. يصعب الحديثُ في علاقتكَ مع سلمى عن قصة حب كبيرة كتلك التي كانت لكَ مع وِداد. ولكن من السهل الحديثُ عن زواجٍ هادىءٍ، رغم دويّ المدافع وهدير الطائرات. فقد تزوجنا في عزِّ الحرب. زواجٌ كان يمكن له أن يعيش طويلا بينكما، حتّى بوجود فارق السنّ الذي كنتُ أراه كبيراً. ولكنني الآن لم أعد أنظر إليه كذلك، فها هي المرأة ترقد عند عتبة الموت وهي في أوج الشباب. فما هو

العُمْرُ إذن؟ أظنّ أنه ليس إلّا اليومَ الذي عشتَه. إنه تماماً مثلُ النقود التي تملكها، فهذه أيضاً ليست إلّا تلك التي أنفقتَها. قد لا توافقينني الرأيَ يا سيدرا، ولكنني مقتنعٌ به تماماً.

والآن اسمحي لي أن أعود إلى سؤالك الأول: أيُّ الوجعين أشدُّ وطأةً على الإنسان؟ وجعُ الروح أم وجع البدن؟

سؤالٌ ليس لديّ جوابٌ قطعيٌ عنه. كل الذي عندي هو تجربتي الشخصية مع الألم. أتذكر أنّ هذا السؤال ظهر مِراراً في مشاريعنا الكتابية عندما كنّا طلّاباً في كليّة السيناريو في المعهد العالي للسينما في موسكو.. كان عددنا أربعة عشر طالباً: سبعة شباب وسبع صبايا.

وأتذكر جيداً أنّ ثلاثة عشر من بيننا كان يتباهى بأنه يعرف الحقيقة على نحوٍ لا يقبل جدلاً: وجعُ الروح لا عديلَ له. وأشكُّ اليومَ في أنّ أياً منّا كان يعرف شيئاً من الروح أو من أوجاعها. وفي الحقيقة أننا كنا نجهل جميع أوجاع البدن كذلك. وكيف لنا أن نعرفها ونحن في بكور الشباب؟ والبَرَكة في البكور كما يقولون.

الصوت الوحيد النشاز عن هذا الإجماع الصبيانيّ كان يعود إلى بنتٍ اسمها تاتيانا.. كانت هذه البنت تعيش أوجاعاً بدنيةً هائلة مع اقتراب وقت الطمث لديها من كل شهر. كانت تمرّ في لحظاتٍ من الألم الذي لا يمكن احتماله، والذي يستوجب طلب سيارة الإسعاف على وجه السرعة القصوى. وفي كل شهر كان يتمُّ نقلها إلى المستشفى ليومين أو ثلاثة، حيث يحقنون في أوردتها مسكّناتٍ مختلفةً لا شك في أنها قوية المفعول إلى درجةٍ كبيرة..

لقد انعكست آلام تاتيانا البدنية على حياتها الشخصية بشكلٍ بغيض. كان الشباب يتحاشون علاقةً معها في الغرام، رغم أنها بنتٌ جميلةٌ وناعمة. كما انعكست أوجاع البنت على كتابتها أيضاً. وكانت في النقاشات عن الألم تعلن استعدادها لمقايضة أوجاع أرواحنا

مجتمعين بأوجاع دورتها الشهرية.. وكانت تلقى في بعض الأحيان تعاطفاً من البنات، واستنكاراً دائماً من الشباب، إذ كيف يمكن الهبوط بوجع الروح السماويّ إلى اضطرابات طمث إحدى نساء الأرض؟!

ما هذه المسخرة؟!

كنّا نتهامس في ما بيننا.

لقد كنّا أولاداً قُساةً، مُدللين، واثقين من صواب كل ما نقول وصواب كل ما نفعل.. وكيف لا نكون كذلك ونحن موسوعاتٌ بشريّةٌ متنقّلة؟! نفهم في الأدب والسينما والمسرح والرسم والفلسفة والمنطق وعلم النفس وعلم الجمال، إلى آخر قائمة العلوم الإنسانية الطويلة. والأهم من كل ما سبق أننا كتّابٌ رائعون، رغم أنّ أيّاً منّا لم يكن قد كتب ونشر حرفاً واحداً خارج إطار ورشة الصف. ولكننا مع هذا كنّا قد قرأنا الكثير من الكتب والكثير من السيناريوهات السينمائية، وكان يستوقفنا بخاصةٍ سيناريو فيلم (روما مدينة مفتوحة). وكنّا جميعاً نعلم أنّ هذا الفيلمَ دائمُ التواجد في قائمة (عشرة أفلام هزّت العالم). والنقطة الأهمّ هنا تكمن في أنّ (فيدريكو فيليني) قد كان من العمر في الرابعة والعشرين فقط عندما كتب هذه التحفة الإيطالية الخالدة.. نعم، هنا بيت القصيد، فنحن الآن على أعتاب الرابعة والعشرين، وصار يحق لكلٍ منّا أن يهزّ العالم أيضا كما فعل (فيليني) غداةَ الحرب العالمية الثانية..

كانت الحياة من حولنا رخيّة..

ثمّة وفرةٌ في كل شيء: الكتب، الأفلام، الطعام، النساء، الكحول، الخ...

لقد كنّا أولاداً مدلّلين، مفسَدين.

إذن، من أين لنا أن نحترم أوجاع تاتيانا الشهرية؟!

أتذكر مرّةً أنني كنت عائداً في المساء إلى بيت طلبة معهد

السينما (السكن الطلّابي في روسيا مختلَط).. فوجئت بتاتيانا تجلس متربعةً على الأرض في ردهة الطابق الأرضي من المبنى.. كانت تتلوى من الألم بحركة بندوليةٍ شديدة الرتابة، في انتظار سيارة الإسعاف..

حزنتُ كثيراً من رؤيتها على تلك الحال، وشعرت بالحزن على تعليقاتي السابقة حول أوجاع البنت الشهرية..

وشعرت بالذنب.. وبالخزي أيضاً..

أظنّ أنني عرفت يومَها وجع الروح الحقيقي..

اقتربتُ من البنت وجثوت على ركبتيّ أمامها، وحدّقت فيها النظر..

كنت كمن ينشد الغفران..

رأيتها متهدّلةً، منطفئةً، خائبةَ الرجاء..

همستْ تقول لي: إنني أموت يا أمجد..

أمسكتُ بكفّها الصغيرة بين راحتيّ، وجعلت ألثم ظاهرها، وأنا أتمتم:

لا تخافي يا تانيا (اسم التصغير من تاتيانا)، سوف أحميكِ من الموت يا طفلتي..

وضعت يدي على رأسها، وطفقتُ أقرأ آية الكرسي..

سألتني بصوتٍ أنهكه الوجع: بماذا تتمتم؟

قلت: أقرأ عليك شيئاً من القرآن، عسى ربي يخفف عنك هذا الشقاء!

قالت: نعم، هذا جيد، إنني بأمسّ الحاجة إلى قرآنك، فلا تبخل عليَّ بالمزيد منه..

ولم أبخل.. ولكنَّ سيّارة الإسعاف قد وصلت. ولم يسمحوا لي

بمرافقة طفلتي الموجوعة إلى المستشفى. هذا مخالفٌ للقوانين. هكذا قال ليَ الطبيب المرافق.

عندما بلغت الثانية والثلاثين من عمري.. عندما تركتني وِدادُ وسافرت إلى دبيّ من أجل أن تصيب النجومية التي كانت تحلم بها، عرفتُ وجع البدن الحقيقيّ أول مرّة.. وجعٌ يدفع ببعض مَنْ يصيبهم إلى الانتحار من قسوته: القولنج الكلوي؟ هل كان ثمّة صلةٌ بين وجع البدن وبين الذي جرى لي مع وِداد؟ لا أعرف. لست واثقاً. هل فكرت يومها أنا أيضاً بالانتحار؟ لست أتذكر الأمر على نحوٍ جيد. الذي أتذكره هو أمنيتي القديمة التي عادتني فجأةً: يا ليتني كنت ترابا! حدث هذا في نهارٍ صيفي قائظ. الصيف الأوّل من بعد وِداد. كنت وحيداً في المنزل مع أمي المريضة، التي اتصلت بالهاتف بابنة أختها الصبية لتحضر إلينا على وجه السرعة برفقة أحد الأطباء. وفي لحظة انتظار وصول البنت مع الطبيب، شرعتْ والدتي شبهُ الأمّية تقرأ عليّ غيباً ما حفظته من آية الكرسي.. يومَها تذكرت ذلك المساءَ البعيدَ مع تاتيانا.. يومها عاودني وجع الروح للحظةٍ أنستني آلام جسدي المهزولِ من البلوى.. يومَها قلت لأمي: اقرئي عليّ المزيد من القرآن يا أمي، عسى ربي يخفف عني هذا الشقاء!

والآن.. عودٌ على بدء.. تقولين إنني نسيتك يا صديقتي، بينما الحقيقة هي بخلاف ذلك تماماً. هل أبوح لكِ بسرٍ صغير؟ سيدرا هو اسم بطلة رواية (على رصيف العمر)، التي سوف يكون المشهد الافتتاحيُ فيها من القاهرة. من العشاء في بيتك اللطيف. من مباراة كرة القدم بين (ريال مدريد) و (بوروسيا دورتموند). من موسيقى فاغنر. من ضحكتك التي ما انقطعتْ طوال سهرتنا الطويلة عشيةَ عودتي إلى هنا. بالمناسبة، أعرف أنك لم تكوني تضحكين من قلبك. أعرف أنك كنت تحاولين أن تخففَي عني الذي أنا فيه بسبب المآسي التي تعيشها دمشق، بعدما جزمتِ بأنني حزين، أو حزينٌ جداً، وقد ذهبتْ أدراجَ الرياح جميعُ محاولاتك في إقناعي بالعدول عن العودة

إلى هذه المدينة التي هوتْ إلى الجحيم. وفي جميع الأحوال، شكراً لكِ. أعرف الوجع الذي تتحدثين عنه، وأعرف هذا الطنين الذي في الرأس. أعرف أنَّ قصتكِ مع الزواج والطلاق لا تشبهك. وأعرف قبل هذا كلِّه أنّ متطلباتِ الحياة لا ترحم، وأنَّ الخياراتِ في هذه المصيبة التي شملتنا جميعا باتت معدومةً، أو تكاد. إذن، لا ترجعي إلى ما مضى، ولا تبرري أيَّ شيءٍ أمامي. لا تجلدي نفسَكِ يا صديقتي. فأنتِ بالنسبة إليَّ، أينما كنتِ وكيفما كنتِ، تظلين شخصاً غالياً عندي. ومن جهتي سوف أغتنم أية فرصة للقائك لأنني مشتاقٌ إليك. وأرجو أن أنجح في مسعاي. ولكن هل تعرفين ما الذي يملأني خوفاً يا سيدرا؟ تمرق في رأسي أحياناً فكرةٌ تجعلني أرتجف رعباً. فكرة أنّ لقاءَنا الأخيرَ في منزلكِ عندَ أوائل الربيع من سنة 2013 قد يكون خاتمةَ لقاءاتِنا في هذه الحياة، وأنَّ القهوةَ التي شربناها سويةً على الشرفة في ذلك الليل الرطيب هي قهوتُنا الأخيرة.

2

سبعُ دقائق إلى منتصف الليل.. حان موعد الدواء. ترك القلم والورق، ترك الكومبيوتر، ونهض من خلف طاولة الكتابة، وذهب إلى غرفة النوم، فتح بابها بهدوء قبل أن يشعل فيها النور. ألقى نظرةً من مطرحه على زوجته المريضة الغافية على السرير. كل شيءٍ كما كان بالأمس، وأمس الأول، وكما سوف يكون في غدٍ، و في بعد غدٍ. ظل يتأملها لحظةً طالت قليلاً. اقترب منها. جلس على حرف السرير وتردد في إيقاظها. جعل يتألم وهو يدقق في ملامح امرأته النائمة. وخُيّل إليه للحظة أنها باتت في لونٍ غير متجانِس. إنها صُفرةُ المرض، أو حتى إنها خُضرةُ المرض. وهاجتْ في نفسه حسرةٌ على

سعادةٍ زائلة، فاختلج بدنُه، وأخذته بنفسه الشفقة، واستسلم لشجى الليل الصاخب بالريح الباكية وراءَ النافذة وهو يسترجع أيام الصِّبا الغضّ وثورة الحسّ والحيوية الدافقة، فلم يكن يخلو من الشعور بالحبِّ إلى هذه المرأة التي كانت جميلة قبل أن تهرب النضارة من الجسد الذي أكلته القروحُ من بعد أن خلَّفتِ القلبَ حسيرا. فالأشقياءُ ـ كما قالت العرب ـ منكوبون في أفراحهم. كان لا يخلو من الشعور بالحب إلى سلمى، برغم الإشفاق البغيض الذي جعل يصيبه مؤخراً عليها. فها هي المرأة تضيق بأنفاسها مثلما تضيق بروحها العارية. والرجل يتأمل زوجته المتهالكة. صحيحٌ أنها ليست غصّة عُمْره. صحيحٌ أنها ليست وِداد التي كم عذّبته في ليالي السهاد الطويلة! غير أنه مع ذلك أحبّها هي أيضاً. ولكن ها هو المرض يسرقها منه قطعةً قطعة. فلو أنها نفْسٌ تموت جميعةً، كما قال امرؤ القيس ذاتَ حينٍ بعيد. وسلمى تحب زوجها كذلك، ولكنها باتت تشعر بنفسها قد تحولت إلى عبءٍ عليه منذ شهورٍ أربعة خلتْ بعد أن ذبل قلبها على حين فجأة، ومن بعد أن صارت طريحة الأدواء والملالة. أيّ ذنبٍ أتته هذه المرأة لكي تكون من أبناء الشقاء؟ سأل الرجل نفسه وهو يحدّق النظر إلى لون زوجته غير المتجانس. إنه العلقم المُر. وجهُ الضِّيقِ والحَزَن. إنها الحياة تقتل نفسها. ظلَّ يتأملها لحظةً طالت قليلا، متردداً في إيقاظها. ولكن لا بدَّ ممّا ليس منه بدّ. وكالعادة، أخذ كفها اليمنى بين راحتيه، وجعل يمسّد ظاهرها برفق ولين، تبدّلت ملامحُ المرأة قبل أن تصحو قليلا. فتحت عينيها بكسل. رأت أمجد يُجانبُها تقريباً على حرف السرير. قبّل ظاهر كفّها التي ما زالت في راحتيه، وابتسم لها مشجعاً، وهو يجاهد ألا تلتقي عيناهُ بعينيها. كان يخاف أن تقرأ فيهما الشفقة التي بدأت تتولد عنده تجاهها في الآونة الأخيرة. مشكلةٌ سوف تُضاف إلى المرض ومتاعبه. سوف توهن من عزيمة المرأة التي اعتدلت في رقادها مستندةً بظهرها إلى وسادتين كبيرتين بحيث صارت نصف قاعدة ونصف مستلقية، وقد خامرتها الريبة من سلوكه. لماذا لا ينظر في

عينيّ؟ سألت في نفسها متوجسة شراً. وسألت في نفسها أيضاً: ماذا لو أنه..؟ وامتنعت عن التفكير بما جال في رأسها، فغالباً ما تأتي كلمة لو في وقتها الصحيح تماماً. إنها تفتح باب الشيطان كما يقول بعضُ كتّاب الدرامة. فالمرأة صارت موسومةً بالوجع، رغم أنّ العُمْرَ ما يزال في أوّله. إنها تحتاج إلى مزيدٍ من الشجاعة، وإلى مزيدٍ من الصبر. هذه هي مقتضيات الموقف. غير أنَّ صبرها بدأ ينفد، رغم أنها امرأةٌ مؤمنةٌ بالله والقضاء والقدر خيره وشرّه. وبرغم هذا الإيمان، الذي يمكن وصفه بالقوي، فقد باتت شجاعتها على مواجهة الصِّعاب في تراجعٍ مضطرد، وقد تراءى لها أنّه من غير الممكن أن تستمر الحياة على هذه الصيغة التي تفتقر إلى أدنى درجات العدل. ولكنَّ هذه الصيغة لم تعد قابلةً للتغيير إلّا بمعجزة، بينما زمنُ المعجزات ولّى وانقضى. من هذه الزاوية كانت المريضة تنظر إلى وضعها. أما الإيمان برحمة الله فيجب أن يظلّ حاضراً، ويجب أن يظلّ كبيراً. هكذا كان يفكر الرجل وقد تعاوره الحزن والألم من بعد أن هاج دهشةً بسبب اللون غير المتجانس الذي آلَ إليه وجه المرأة المريضة. أين حُمْرةُ الوجنتين؟ أين الصدر الوارف بالغِلال، وأين الطبائع الفائرة؟ والمرأة تنظر إلى زوجها تتأمله وقد عاد يقبّل ظاهر كفّها، وتفكر بأنها صارت بالنسبة إليه ضرباً من الكمّ المهمل من بعد أن بكّرت الشيخوخةُ إلى جسدها وقد انغلقت آفاق العُمْر ومرّتِ الأوقاتُ السعيدةُ مرَّ السحاب ولم يبقَ من الحياة إلّا الشدائد. كانت جمّة العافية، نضرةٌ مثل طاقةٍ من ورود الصباح النديّة. أمّا الآن.. الأرزاء في جميع بدنها. فأين الحيوية الدافقة؟ وأين سطوةُ الجسد الفتيّ، ونفوذ الحسّ المنهوم؟ لم يبقَ شيء. لم يبقَ إلّا الرجاءُ بالشفقة البغيضة. هل هذا ما يمنعه من النظر في عينيَّ، أم تراه يخفي عني أمراً أشدَّ مضاضةً؟ رجعتْ تسأل نفسها. قدّم لها الماء والدواء. قام بواجبه نحوها وهو يسرق نظرةً إليها في الحين بعد الحين، ويستشعر ما يدور في خَلَدها، فيجد نفسه أمام السؤال المضني. أمام السؤال الذي جعل ينغّص عليه البقية الباقية

من انسجام العيش: هل الإشفاق على هذه المرأة دافعه إلى رعايتها؟. تناولت المرأة الدواء. شربتِ الماء وهي تسأل نفسها من جديد: لماذا لا ينظر في عينيّ، وماذا تراه يخفي عني؟. ولم تعثر على جوابٍ سوى أنها خيبةُ الأمل، وخمود اللَظى، وحبالُ الرجاء التي تقطّعت. هو الشجن المُضني، والذكريات الموجِعة من حلاوتها الغابرة تستبدّ بروح المرأة وبروح الرجل الذي أخذ منها الكأس وأعادها إلى سطح الكومدينو بعد أن تمنّى لزوجته الشفاء. إنها الرتابة تفرض نفسها. لم تعلّق المرأة بشيء. رجعتْ واستلقت في الفراش بحركةٍ ميكانيكيةٍ مُتعَبة، ونهض أمجد من قعدته. غطّى المرأة باللحاف جيداً، ثم أطفأ النور في الغرفة، وخرج. ذهب إلى غرفة العمل (المكتبة). وقف أمام طاولة الكتابة. أمسك بالقلم. ثم لم يفعل شيئاً. لم يفعل أيّ شيء. راح يصفن بالملكوت. مرقت كاتيا في رأسه، من دون أن يدري لماذا. لقد باغتته بحضورها الساطع. قالت له: هل تذوقتَ يوماً البطاطا (البطاطس) المسلوقة بالكزبرة اليابسة؟ قال: لا. قالت: تعال معي إلى المطبخ كي أعلمك كيف تصنع هذه الأكلة اللذيذة. كان في العشرين من عُمره. وكانت تصغره بعام واحد. كانا طالبين بعد. سقى الله تلك الأيام! ابتسم. أغمض عينيه بلاً سبب، وفتحهما بلا سبب، وراح يفكر بكاتيا. ماذا تراها تفعل الآن؟ لابدَّ أنها نائمةٌ تحلم. أو: هذا ما كان يرجوه على الأقل، فربما كانت المرأة قد عادت إلى الألم، رغم كل التطورات الإيجابية الأخيرة في حياتها البعيدة. هو يعرف الأمر معرفة طيبة، ويعرف أسباب فرحها، كما يعرف أسباب ألمها ومعاناتها، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل الشيء الكثير من أجلها، رغم أنه حاول ذلك جاهدا. ولأول مرة منذ أربعةٍ وعشرين عاماً وجد نفسه يسأل: لماذا اسمها كاتيا؟ لماذا لم يكن اسمها (ماشا) مثلاً، أو أي اسم آخر من تلك المنثورة في روايات دوستويفسكي؟ وأحس بفيضٍ من الشوق إليها. لم يرها منذ عشرين عاماً غير منقوصة. الزمن يمضي بسرعة. ونحن نمضي بصحبته. اليوم هو الثلاثاء. وغداً يحلُّ الأربعاء. وبعدَ غدٍ يأتي

الخميس. وفي الأسبوع القادم سوف نصادف ثلاثاء وأربعاء وخميساً جديدا، وكذا في الأسبوع الذي يلي القادم. الأيام تدور حول نفسها كما يدور الثور حول بئر الساقية. مغمض العينين. يدور في مسار لا يحيد عنه. فالليل يعقبه نهار. وأوراق الروزنامة تنقلب. وطفولتنا تنطحن. وتمضي بنا الأيام إلى الشباب، إلى الرجولة، إلى الكهولة، إلى الموت، والفناء. ساعتنا البيولوجية هي مَن يدلّنا على انقلاب الزمن. يتغير طعم الوقت. تتغير رائحته. يتغير لونه. للصباح مذاق الفرح. وللظهر طعم الكسل. وللعصر لون الأسى. وللمساء رائحة الحزن. ولليل أريج الياسمين. ومن كان اليوم طفلاً لن يكون طفلاً في غد. وسوف يعرف الأمر بنفسه من دون عناء. ساعته البيولوجية هي التي سوف تدله على تغيرات المذاق واللون والرائحة، فهي، عند الجميع، لا تعمل بآلية أخرى غير هذه الآلية.. «ليلة سعيدة أيها السادة!» ليلة سعيدة! ليلة سعيدة!» ولكن هل سوف يأتي الصباح؟! بالأمس كانت أمل تطرب عندما تمشي في الأسواق العتيقة، ويقول لها الباعة ممازحين: «تفضلي يا ست! تفضلي يا خانم!» كان لها في الحياة تسعٌ من سنينَ حسب، فكيف لا تطرب إذن؟ كانت تنظر إلى صديقها الكاتب بعينين ضاحكتين كمن يقول: أترى؟ إنني سيدة يا سيدي! وأمجد يقول لها في نفسه: عقارب ساعتك البيولوجية تدور بأسرع مما ينبغي يا صديقتي الصغيرة. أما شقيقها هانيبال فليس يبدو على عجلة من أمره. ما زال من العمر في السابعة. يقول للكاتب على الرصيف: «تعال نركض!» «نركض أين في هذه الزحمة؟» «فماذا نفعل إذن؟ أنا أريد أن أركض. تعال نذهب إلى المسجد الأموي ونركض في صحنه الفسيح.» إنه يريد أن يظل طفلاً، وليس يريد أن يغزو الإمبراطورية العظيمة بجيوشه الجرّارة ويهدم عاصمتها التي ملأ صيتُها الآفاقَ فُجراً وفسوقا.. روما! ماذا أنت صانعة أيتها العاهرة؟! ها قد جاءك هانيبال بجنودٍ لا طاقة لك بهم، فماذا أنتِ إذن صانعة؟..» وماذا بعد يا سيدي؟ ومن أجل ماذا كل هذا الدمار؟!» سألته إحدى نساء روما الثواكل من بعد أن أحرق

المدينة، وجعلها يبابا، فنظر هانيبال إلى المرأة ملياً، ثم لم يعرف بماذا يجيب.. بدا أنه لم يفكر بهذا السؤال من قبل: وماذا بعد؟ هل حقاً أنه كان يسعى إلى الانتقام لأهله الذين أحرقتهم روما في قرطاج؟ ربما كان كذلك. أو: مَنْ يدري؟ لعله كان مصاباً بالملل، أو لعله كان يعاني خللاً في ساعته البيولوجية، فأمر بتجهيز الجنود والأفيال من شواطىء إسبانيا وعبور جبال الألب إلى روما الفاجرة، لكي يثبت لنفسه أنه مازال طفلا، وأن مذاق الوقت مازال ثابتاً مثلما كان أول مرة: مذاق الاندهاش. أو ربما مذاق الفرح.. ولكن كاتيا حزينة منذ الصباح.. «لست أدري لماذا اختار لي أبي هذا الاسم.» هكذا قالت له مرّةً. وقالت أيضا: «ربما كان في حياته كاتيا ما، ولكنه لم يصارحني بالحقيقة، ومن الطبيعي أنه لم يعد قادرا الآن على مصارحتي بها.» فقد مات الرجل قبل عامين تقريبا. كان لكاتيا في الحياة سبعة عشر عاماً لما ارتحل أبوها عن دنياها بلا رجعة. «كان متعلّقا بابنته، حتى إنه كان يحبها أكثر من الحياة نفسها. لكنه مات فجأة.» كان في السادسة والأربعين من عمره حسب. والذي حدث باختصار: ضربته سيارة في الطريق. سيارة مرسيدس فارهة، بيضاء اللون، يقودها شابٌ صغير. هذا ما أفاد به شهودٌ عيانٌ، فقد هرب الشاب بسيارته، واختفى عن الأنظار تماماً، رغم أن الحادث وقع في قلب نهار صيفي تضيئه أشعة الشمس بقوة، وفي شارع يكثر فيه المارّة والمركبات وشرطة المرور..» لا أصدق أن أحداً لم يشاهد رقم السيارة. ـ قالت البنت ـ إننا نخاف ان نكون شهودا على شيء.» ولم يسألها طبعاً إن كان الموت نتيجة جريمة مدبّرة، لأنه يعرف أن الأمر ليس كذلك، ويعرف أنه ـ أي الموت ـ لا يعدو لعبة من ألعاب الشباب من أبناء مُحدَثي النعمة (وما كان أكثرهم من بعد انهيار الاتحاد السوفياتي!)، والذين ـ إن لزم الأمر ـ سوف يجعلون الضحايا تلتمس الصفح من جلّاديها. وهذه ليست رغبة الشباب حسب، بل هي مشيئة ذويهم أولاً. أليست هذه حالنا نحن في دمشق أيضاً؟ ولو لم يكن ذلك كذلك لما كثرت هذه الحوادث في طرقات

المدينة، ولتجرأ بعض الناس على الشهادة عند الشرطة أو حتى أمام القضاء. فأمجد نفسه لم يحرك ساكنا عندما رأى سيارة مرسيدس فارهة، حمراء اللون، تقودها إحدى الصبايا، تضرب طفلا صغيرا وتقذف به في الهواء خمسة أمتار أو ستة مع دراجته الصغيرة التي كان يركبها، ثم يسقط بعد ذلك على الأرض ويرتطم رأسه بحافة الرصيف، وتتبعج جمجمته، ويتناثر دماغه هنا وهناك نتفاً صغيرة. حدث هذا في قلب دمشق. في ساحة النجمة. قبل تسعَ عشْرةَ سنةً كاملة. كل الذي عمله أنه حاول الاتصال بالإسعاف من كابين هاتفٍ قريب. ولكنّ المراهِقة التي لم تهرب بسيارتها، على جري العادة، اقتحمت عليه الكابين فجأة، وانتزعت سماعة الهاتف من يده، وركّبتْ رقماً بسرعة عجيبة، وقالت من فورها: «بابا! ضربت ولداً بسيارتك الحمراء، وربما يكون قد مات.» «ماذا تقولين يا سعاد؟ هل وقع لك مكروه؟» «أنا بخير يا أبي.» «وأين أنت الآن؟» «في ساحة النجمة.» «ربع ساعة وأكون عندك.» «والولد؟» «ماذا عن الولد؟» «ربما يكون قد مات.» «إذن، فليرحمه الله!» وأنهى الأب المكالمة، ووضعت البنت سماعة الهاتف مطرحها، ولكنها لم تغادر الكابين الذي كان يقف أمجد ببابه ينظر إليها ذاهلاً. كانت تلصق وجهها بالزجاج وعيناها معلّقتان بالولد القتيل ودراجته القتيلة. كان شعرها مصبوغاً بثلاثة ألوانٍ فاقعة أو أربعة. وأمجد لا يفهم شيئا في الأصباغ، غير أنه قدّر، مع ذلك، أن لون شعرها الطبيعي هو الأسود. ولكن من الواضح أن البنت تحبُ اللون الأحمر ومشتقاته. حتى عيناها بدتا له حمراوين. هكذا رآهما عندما التفتتْ إليه أخيرا، وفوجئت بوجوده، وهمستْ بصوتٍ كالفحيح من بين أسنانها التي أصابها أحمر الشفاه ببعض لون الدم: «ماذا تريد؟» قال بصوت غير مسموع: «لا شيء.» ومضى. ألقى نظرة على الرصيف حيث يرتمي الولد ودراجته. كانا ذبيحين لولا بقايا حركة في دولاب الدراجة الأمامي. وكان بعض الناس قد تلبّثوا في أماكنهم أمام المنظر. ولكن أحدا منهم لم يفعل شيئاً. لعلهم كانوا مثل أمجد راغبين في تقديم الاعتذار إلى الفتاة

وذويها نيابةً عن الطفل الذي كدّر عليها صفو العيش، ولو ربع ساعة..

«نعم، إننا نخاف أن نكون شهودا على شيء.» قال أمجد للبنت التي جمعته بها الأقدار من غير ميعاد، ولم يستشهد أمامها بحادثة الولد القتيل ودراجته الذبيحة، التي كان يلزمها خمسة أعوامٍ بعد من أجل أن تصير حقيقية. خمسة أعوامٍ قبل لقاء كاتيا أولَ مرة في نهار صيفيٍّ ضاحك. كان الوقت قبيلَ الظهر بقليل، وكانت الشمس تجوز مَرَحَ الضُّحى، وتغدو أكثر قسوةً شيئاً فشيئاً. كان يقرأ في إحدى الجرائد وهو يجلس على مقعدٍ خشبيٍّ تظلله بسخاء، أغصان شجرة باسقة من فصيلة الدردار، فالشمس صارت عامودية، وصار من الصعب العثور على مكان ظليل في أي من المقاعد الكثيرة المنتشرة هنا وهناك في جنبات الحديقة حيث كان يجلس. وهذا ما دفع تلك المرأة الصغيرة، التي لا يعرف بعد أنّ اسمها كاتيا، إلى سؤاله إنْ كان بإمكانها أن تشاركه المقعد. قال لها باسماً: «إنها حديقة عامة.» ولم يعرف إن كانت البنت قد فهمت المغزى من إجابته التي ربما بدتْ له متحذلقة على نحو من الأنحاء. ولكنها، مع ذلك، قالت له: «شكرا!» كانت ترتدي تنورةً فضفاضةً من الجينز الأزرق الغامق وقميصاً أبيض بنصف كم، وتحمل على ظهرها حقيبة من القماش الرخيص حبلى بأشياءَ امرأةٍ صغيرة. خلعتْ حمّالتي الحقيبة عن كتفيها، وجلست من بعد أن أمسكتْ، وعلى نحوٍ عفوي جدّاً، بحاشية التنورة خيفةَ أن يبين شيءٌ من لحم فخذيها. إنهُ الإفراط في الحياء. إنه إلحاح الفضيلة وسرُّها المُبهَم. ورجع أمجد إلى جريدته بعد أن ألقى على المرأة نظرة. رآها صامتةً تماما، و شاردة بنظرها وفكرها حيث لا علم له أين ولماذا. واستغرقها الصمت دقيقتين أو أكثر قليلا. واختلس الشاب، أثناء ذلك، نظرة جديدةً إلى وجه هذه المرأة الصغيرة، وتمنّى لو كانت صديقته. ولم يكن يعلم بأنها سوف تكون كذلك عمّا قريب، وبأنها سوف تصير واحداً من مبررات الأسى الموجِع في حياته. وسوف يبكي بصمت

نادباً حظه العاثر. وسوف يوقن، من بعد أن تهجره، بضياع أهم مبررات وجوده في الحياة.. ولكنه لم يكن يعلم بشيء من هذا كله في ذلك النهار الصيفيّ الضاحك حين التقاها أوّل مرة، وحين تمنّى لو كانت صديقته من بعد أن شدّه الحزن في وجهها إلى تلك الأمنية على نحو جعله يفكر باستجرارها إلى حديثٍ ما قد يكون فاتحةً طيبة لتلك الصداقة التي ينشدها. غير أنّه لم يعرف كيف يبدأ الحديث.. خشيَ أن يكون متحذلقا من جديد، فتنفر البنت منه، رغم أن حذلقته هذه قد نجحتْ مرةً مع إحدى النساء. واستوقفه التفكير بالأمر بعض الوقت الذي بدا للبنت طويلاً أكثر مما ينبغي، فها هي تلتفت إلى جارها فجأة، وتسأله: «من فضلك! كم الوقت الآن؟» وأشار إلى معصمه، وقال مبتسما: «لقد نسيت ساعتي في الغرفة في بيت الطلبة. إنني أنساها أحيانا في مكان ما هناك.» ردّت البنت عليه تقول: «شكراً!» قال: «أظن أنّ النهار قد انتصف.» الحذلقة مرة ثانية. ومرة ثانية ترد عليه البنت بكلمة واحدة: «شكراً!» بحّةٌ شجيّة. وجهٌ رائع الفتنة، رغم أنه ينطق بالألم. عينان سوداوان واسعتان تغشاهما غلالة من حزن رقيق. شَعرٌ سبطٌ أشقر اللون، مربوط في جديلة (ذيل الفرس). أثمَلَه صوتُها المحزون، فطوى جريدته معلناً للبنت اهتمامه بالحديث معها، ولكنها أشاحت بوجهها عنه، والتفتتْ إلى همومها. بنتٌ طويلة القامة إلى حد ما، ناحلة القوام، بيضاءُ البشرة. بدتْ له للوهلة الأولى أنها بين الناس من ذلك النوع الذي يستعذب الألم كُرهاً عنه من بعد أن أوْهَتِ الحياةُ عزيمتَه. ثم تأكد له هذا الأمر حين رأى عينيها التائهتين عن قرب. عينان سوداوان انطفأ فيهما كلُّ نورٍ من بعد أن قذفتْ أمواجُ الحياة بصاحبتهما إلى مهاوي القنوط، ولم تترك لها بارقة واحدة من رجاء في سواد ليلها الطويل. عينان تفيضان بوابل الأسف على ما قد راح، وعلى ما هو آتٍ أيضا. عينان تنزعان مغاليق النفس، وتبوحان بمكنونات السرِّ. فالقلب يذوي حسرةً في عَياءِ الاصطبار على شدة البلوى من الهُيام. امرأة تستعذب الألم من دون أن تستعذب الخطيئة، وتأمل لنفسها السعادة

التي سرقتها منها مرسيدس فارهة، بيضاء اللون، يقودها أحد المراهقين. وفي لحظة من اللحظات التقت عينا أمجد بعيني كاتيا. لعلها كانت تراقبه. لعلها كانت مهتمةً به من بعد أن وقعتُ في حبائل الحذلقة. ولكنها أشاحت ببصرها عنه بسرعةِ مَنْ يحاول الإفلاتَ من إلقاء القبض عليه متلبسا بجريمته. وأيقن أمجد أنّ اللحظة المناسبة قد حانت. قال:

هل تنتظرين أحداً؟

التفتتْ إليه وقالت:

مكتبة
t.me/t_pdf

يبدو أنك أجنبي.

نعم هذا صحيح.

طالب؟

أجل.

ماذا تدرس؟

أنا في معهد السينما. أدرس السيناريو.

آ.. هذا شيءٌ مثيرٌ للاهتمام. هذا شيءٌ جميل.

لا أعرف إن كان جميلاً حقاً.

إنك تتحدث الروسيّة على نحوٍ جيد.

لقد انقضى عامٌ كاملٌ على وجودي في هذه المدينة. هل تنتظرين أحداً؟

سوف أجيبك عن هذا السؤال. ولكن قل لي أوّلاً: هل تعرف دوستويفسكي؟

نعم. بالتأكيد أعرفه. لقد قرأت بعض أعماله.

قرأتها بالروسية؟

لا.

إذن، فأنت لا تعرف دوستويفسكي.

لماذا تظنين بذلك؟

لأنّ روح دوستويفسكي عصيّةٌ على الترجمة إلى أية لغةٍ أجنبية.

ربما كنتِ على حق. ولكنّ لغتي الروسيّة لا تؤهلني بعدُ لقراءة هذه الروح العصيّة على الترجمة.

حاوِل.. حاوِل أن تقرأ قصة الليالي البيضاء.

من المؤكد أنني سوف أحاول. ولكننا ابتعدنا عن الموضوع الأساس: هل تنتظرين أحداً وتخافين عليه؟

اقرأ قصة الليالي البيضاء يملك الجواب عن سؤالك هذا. والآن إلى اللقاء!

ونهضتْ. وحملتْ حقيبتها على ظهرها. وانصرفتْ، من دون أن تقول كلمةً واحدة.. نظرتُ إثرَها وهي تمضي في ممر الحديقة مبتعدةً عنّي. وأسفتُ على رحيلها، وقررت أن أقرأ الليالي البيضاء بأقرب وقت. قررت أن أقرأها اليومَ. تركت جريدتي على المقعد، وانصرفت أبحث عن دوستويفسكي. وعثرت عليه. وقرأت الليالي البيضاء، وإنْ بصعوبة، وعرفت الجواب عن سؤالي.

ظلَّ واقفاً أمام الطاولة وقد عاوده السؤال الصعب: لماذا أجد نفسي دوماً عالقاً بين أمرين؟

حربين.

امرأتين.

لغتين.

شوقين.

نارين.

رغبتين.

موتين.

خيبتين.

شارعين.

هزيمتين.

كاتبين.

وهل ثمة أحدٌ سواي من البشر عاش ما عشت؟

جالَ هذا السؤال في خاطره وصالَ وقد قذف الرجل بجسده أخيراً على المقعد خلف طاولة الكتابة. ولا بد أن يكون قد أحسّ ببعض الحسرة وهو يتأمل في مرارة الجواب الذي لم يعثر على سواه: نصيب.

ولكن ماهو النصيب يا تُرى؟

لعلّه مؤامرةٌ تحيكها الحياة ضدنا بخباثةٍ نادرة. لعله الاستسلام للأمر الواقع. لعلّه رفعُ الراية البيضاء أمام جبروت القدر. تماماً مثل هذه الحرب العبثيّة التي نعايش منذ سبعٍ من سنين. إنها قدرنا المقدور. أو إنها نصيبنا من الحياة. وسلمى نصيبي أيضاً. وكذلك كانت وِداد.

نصيبُكَ في حياتِكَ من حبيبٍ ـ نصيبُكَ في منامِكَ من خيالِ

هكذا ردّد من بعد جدّه المتنبي يوم أن هجرته وِداد.

قالت لي كاتيا يومَ افتراقنا:

لا تخف، سوف تجدني دائماً منكَ قريبة. سوف أظلُّ ملاككَ الحارس.

أمّا وِدادُ فقالت لكَ يا ليفار:

إنّكَ لن تراني ما دمتَ تنظر إليَّ بعينين مفتوحتين وعقلٍ مغلَق.

أنتَ يا ليفار تعرفها خيراً منّي، فهي ليست إلّا تلك الطفلة التي

وِرثتُها عنك. نعم، أنت من أورثني وِدادَ و براءتها البلهاء، ومن ثمَّ أُنوثتها الطاغية.

كم كانت تبدو بريئةً، بل ومسكينةً أيضاً، في ذلك النهار البعيد عند أواخر الصيف أو أوائل الخريف. أظنك تتذكر كم كان لها من العمر وقتئذٍ. ست سنواتٍ لا غير. وكان لك من العمر ضعف ذلك تماماً. كان اليوم المدرسيّ الأول في حياة البنت. الوقت عند عزِّ الظهيرة اللاهبة. ساعةَ انصراف التلاميذ من المدارس. الحارات العشوائية تعجّ بهم و بهنّ. العشوائيات التي أنت ابنُها البّار، حيث قضيتَ طفولتكَ ومراهقتكَ و بكور شبابك. ثم لم تتبرأ من انتمائك لأصلك حين تكبر وتشتغل وتكتب مسلسلاتٍ تلفزيونيةً عن حواريكَ العشوائية وأنت منشغلٌ بذلك السؤال القاسي: هل نستحقُّ بؤسَنا؟ فدمشق مدينةٌ جميلةٌ، وديعةٌ، وهانئة. هكذا يراها الجميع حين ينظرون إليها من نقطةٍ ما مرتفعة في جبل قاسيون، بدءاً من قيصر ألمانيا (غليوم الثاني) الذي زارها في أواخر القرن التاسع عشر، وانتهاءً بك أنتَ يوم صعدتَ الجبل أوّلَ مرّة مع مجموعة من أولاد الحارة. كنتم خمسة أصدقاء. أنت و سعيد و سامر و أيمن و خلدون. أظنك تحب أن تعرف أخبارهم. لن أبخل عليك بذلك. أمهلني قليلاً يا ليفاز. كنتَ وقتئذٍ في الرابعةَ عشْرةَ من عمرك. شهقتَ في ذلك اليوم من الدهشة، تماماً كما فعل غليوم الثاني ذاتَ وقتٍ بعيد. ما هذه المَدينة الفاتنة؟!! أيّةُ مدينةٍ ساحرةٍ هذه التي اسمها دمشق؟! نعم، ساحرة. أمرٌ لا يقبل نقاشاً. أمرٌ ثابتٌ ثباتَ جبل قاسيون في غور الأرض السابعة. كنتَ محقاً يا ليفازُ في نظرتك تلك، فعلى هذا النحو تماماً تبدو دمشقُ حين ترنو إليها العين من إحدى قمم الجبل الشهير. والعين، شأنُها شأنُ الأغراب جميعاً، على حقٍ أيضاً، فهي لا تلتقط المنظر إلّا بعموميته. أما عند التفصيلات فمسألة الجمال هنا تصير نسبيّة إلى حدٍ بعيد، أو حتى لا تعود موجودة، وبخاصةٍ حين يتعلق الأمر بالأحياء العشوائية المنتشرة في حزام المدينة، والتي بدأتْ بالظهور بشكلٍ خجول قبلَ نحوٍ من نصف قرنٍ تقريباً، ثم نمت

كالفطور في الغابات المطريّة، خلال الأعوام الخمسين أو الستين المنصرمة.. هذه الأحياءُ التي يشكّل قاطنوها نصف سكان المدينة أو أكثر من ذلك بقليل، وهم في الغالب ينتمون إلى مختلِف الأنحاء من سوريا، مدينيةً كانت أو ريفيّة، ولكنهم، في جميع الأحوال، يتميزون بضيق ذات اليد. وحدَه الفقرُ ميزتهم الرئيسة. أناسٌ بلا حظ، وبلا قوةٍ أيضا. ربّما فقدوا الحيلة تماماً، رغم براعتهم في سرقة الماء والكهرباء من الحكومة بطرائقَ بهلوانيّة. هل كانوا يستحقّون بؤسهم؟! كان بعضهم ما زال يأمل بتغيير واقعه، وبعضهم ارتضى تماماً بذلك الواقع، وتصالح معه، حتى صار من الصعب انفصالهم عنه، وبعضهم خليطٌ بين هؤلاء وأولئك. فالمرامي هنا تتباين ولو قليلا، بخلاف الحواري التي تتشابه إلى حدّ المماثلة في أغلبية الأحيان. تنشأ البيوت عادةً من طابقٍ أرضي، ولكنّ البناء يتطور مع الأيام ليصبح هناك طابقٌ ثانٍ، أوٍ حتى ثالث، وذلك حسب توافر السيولة النقدية، وحسب تضخم الأسرة أو العائلة. بيوتٌ تتعربش على بعضها. بيوتٌ تركب بعضَها كما يركب ذكرُ الحيوان أنثاه في الغابة أو في الفلاة. هنا يعلو صياح الباعة الجوّالين. تضجُّ الطرقات بالزعيق على مدار الساعة. يسهر الناس في الصيف أمام بيوتهم جالسين على المصاطب الطينية يتسامرون وهم يدخنون السجائر الغليظة ويشربون الشاي الثقيل ويأكلون المكسّرات الرخيصة. يبصقون القشور أمامهم على الأرض مخلّفين بيادر صغيرة من النفايات الإضافية. يضجّ الكونُ بصخب الأطفال الذين يمضون جلّ وقتهم في الطرقات الضيقة، حتى عند القيلولة في عزّ الحر. يلعبون كرة القدم تحت شبابيك المنازل المنخفضة، فينتهرهم أرباب البيوت وربّاتها، ويشتمونهم ويشتمون أهلهم ومنبتهم، ويطردونهم من الحواري الضيقة بمنازلها الإسمنتية العارية، الصغيرة، الكبيرة، العربية، الإفرنجية، المتداخلة ببعضها على نحوٍ غير مفهوم بنوافذها المتقابلة عن قرب شديد، حتى لتكاد أنْ تتلاصق. بجدرانها غير المسوّرة بما يكفي، وغير المرتفعة بما

يكفي أيضاً لتحفظ للناس أسرارهم. أناسٌ بلا حظ، وبلا أسرارٍ كذلك. ولكن كيف يمكن للمرء أن يعيش بلا أسرار؟ لقد اعتدتم هذا الأمر. ارتضيتم به قدراً لكم. اعتدتم أن يعرف كل واحدٍ منكم كلَّ شيءٍ عن الآخرين الذين في الجوار، وفي ما بعد الجوار. أما الذي يريد أن يحتفظ بأسراره لنفسه فعليه أن يسعى للخروجِ من هذا العالم العشوائيّ إلى غير ما رجعة؟ هل كنتَ أنتَ واحداً من هذه الطائفة؟ لستُ أتذكر أنني كنت كذلك إلّا حين صارت أمك تشتغل خادماً في منزل الست إلهام. وهو الأمر الذي جعلك تفقد عقلك تماماً وتضرب أمك، وترميها أرضاً. كانت قد عادت إلى المنزل في ذلك اليوم تحمل طعاماً وفيراً، هو بقايا مأدبة غداءٍ أقامتها الست إلهام في منزلها الفخم الذي لا يبعد عن حيّكم إلّا بضع مئاتٍ من الأمتار حيث تطلُّ الستُّ على بؤسكم من علٍ. بقايا أنواعٍ متعددة من أطعمة الأثرياء. إنهم يتصدقون عليكم بالبقايا. وأنتم تستحقون بؤسكم. استسلمتَ للفكرة. استسلمتَ للمصالحة مع الفكرة. تعال نعترف لبعضنا يا ليفاز أنّ كلَّ الذي جرى بعد ذلك لم يكن أكثر من ضربة حظٍ ساهم فيها الأستاذ شوقي. لن تتذكره. أستاذ مادة اللغة العربية في الصف الثالث الثانوي حين كلّفكم بوظيفةٍ منزلية: اكتب خاطرةً من حياتك اليومية. خاطرتك أنت، أو ربما كانت قصتك، هي ما استوقف الأستاذ كثيراً، حتى العنوان استوقفه: (هل نستحق بؤسنا؟)، تماماً مثلما استوقف أستاذَ مادة الرياضيات (رحمه الله) الحلُّ العجيبُ الذي جئتَ به لإحدى المعادلات الرياضية المُعقّدة في الصف الثالث الإعدادي، حتى إنه قال على الملأ: هذا الولد سوف يكون له شأنٌ عظيم في مجال العلوم. ونبوءة أستاذ الرياضيات لم تصدق، فقد تراجعتَ كثيراً في المواد العلمية خلال الدراسة الثانوية، من دون سببٍ واضحٍ لهذا التراجع. أما نصيحة أستاذ مادة اللغة العربية، فقد كانت أقربَ إلى التحقيق: اتبعْ موهبتك يا ولدي ولو إلى القمر، فالموهوبُ هو الذي يترك وراءه كلَّ شيءٍ ويلحق موهبته. منَّ اللهُ عليكَ بالصحةَ وطول العُمْرِ يا أستاذ شوقي. لن أنسى أفضالك على

ذلك الولد الفقير الذي كُنتُه في تلك العشوائية حيث كانوا يطردون الأولاد الصاخبين تحت شبابيك المنازل. ولكن.. إلى أين يذهبون؟ تتذكر طبعاً يا ليفاز ملعب كرة القدم في حيّنا. الملعب الترابي الذي بلا أبعادٍ واضحة. فسحة أرضٍ في العشوائية، من المؤكد أنها سوف تتحول مع الأيام إلى بيوتٍ سكنية تشبه جاراتها. وبالمناسبة يا ليفاز، هذا ما قد حصل. ملعبٌ ارتجاليٌّ تماماً. حتى حدودُ المرميين ليست غير مفهومة حسب، بل إنها غالباً ما بدت مضحكة، رغم أنها كانت خطيرةً أيضا في بعض الأحيان. ربما كانت فردتي حذاءٍ في هذا المرمى و ذاك أو حقيبتين مدرسيتين، أو كيسين من الزبالة، أو حتى حجرين كبيرين. وكنتم تختلفون على صحة هذا الهدف أو ذاك. هل كان فوق الحذاء أو بجواره؟ بمحاذاته من الداخل إلى جهة المرمى أو من الخارج بعيداً عن المرمى؟ ويروح كلُّ فريقٍ منكم يقسم بأغلظ الأيمان بما يخدم مصلحته، ولا تصلون في النتيجة إلى اتفاق. وهكذا يبدأ التدافع، ثم الشجار. تضربون بعضكم. تتمرّغون في التراب. و كالعادة: لا غالب و لا مغلوب. مجرد طاقةٍ كان لا بدَّ من تفريغها، أو مجرد موعدٍ مع التوبيخ، أو حتى الضرب من ذويكم بسبب ثيابكم المعجونة بالتراب. تماماً مثلما انتهت إليه حالك يومَ رأيتَ وِداد أولَّ مرّة حين كان لكَ اثنتا عشرة سنة، بينما كانت هي في السادسة من عمرها بعد. كان الأولاد، وأنت واحدٌ منهم، يتشاجرون في الطرقات، أو يتمازحون بفظاظة كالعادة، في طريق عودتهم من المدرسة. والبنت تتحاشاكم خائفةً، حذرةً منكم ومن هذا العالم الذي بدا لها غريباً عن حياتها كلَّ الغرابة. كانت تتحاشاكم وهي تمشي «الحيط الحيط» في طريق عودتها من المدرسة. خطواتها يحكمها الحذر الذي دفعها إلى أن تتعثر بنفسها و تسقط أرضاً لتلفت انتباه الأولاد الأفظاظ إلى نفسها، فتجعلهم يتضاحكون عليها وقد نسوا ممازحاتهم السمجة، أو ركنوها جانباً إلى حينٍ وهم يسخرون من تلميذة الصف الأول الابتدائي التي كانت تجاهد في النهوض من عثرتها فتزداد ارتباكاً بسبب تهكماتكم الغليظة،

وتتعثر من جديدٍ وتسقط أرضاً. كنتَ وحدَكَ مَنْ خرج عن القطيع فجأة، وهبَّ لنجدة الطفلة البائسة وقد أخذتك بها الشفقة. كنتَ وحدك مثار سخرية الزملاء من حولك. كنت وحدَك من دخل في عراكٍ مع أحد الفتية من أصدقائك، الذي هو سامر، بسبب هذه البنت الصغيرة. بالمناسبة يا ليفاز، سامرٌ اختفى من الوجود قبلَ ثلاث سنواتٍ تقريباً. بعضهم يقول إنه قد تمّت تصفيته جسدياً في أحد السجون، وبعضهم ينفي أن يكون قد قُتل. أمّا وِداد، فإنها خارج البلد ولا تستطيع العودة إليه خيفةَ التصفية كذلك، رغم أنها ليست معارِضةً للنظام، وليست مواليةً له أيضا. إنها تعيش في باريس، وقد ألتقيها قريباً في بيروت بناءً على رغبتها. سوف أحدثكَ عن هذا الأمر في حينه إن حصل. أبقى الآن في ذلك النهار الصيفي البعيد. كنتَ وحدَك الشهمَ بين الجميع. كنت وحدَك من حمل في جبينه، فوق الحاجب الأيسر، في نتيجة العراك مع سامر، أثرَ جرحٍ لن يمحوه الزمن. ما زلتُ أحمل ذلك الأثر إلى اليومِ يا ليفاز. كنتَ وحدَك مَن أخذتْه أمّه إلى المستوصف حيث قطبوا لَكَ الجرح في جبينك، وحقنوك بمادة مضادة للكزاز. نعم، كنتَ وحدَك من سبح في تلك الظهيرة عكس التيار. ولكن هل تعلم يا ليفاز أنني كنتُ وحدي مَن بكى في ليالي السهاد الطويلة، مِنْ بعد أن هجرَتْني وِدادُ إلى حياةٍ لا تشبه عشوائيتنا في شيء؟ هجرتني إلى دبيّ أولاً. أقامت هناك بضع سنوات، ثمّ انتهى بها المطاف في فرنسا. معلوماتي حول خارطة طريق اغترابها ليست دقيقة، وسوف أخبرك لاحقاً بما أعرف. المهم أنها استقرت أخيراً في فرنسا بوصفها لاجئةً سورية. وفي الغربة التقت بسامر، أو بالأصح: سعتْ إلى لقائه. وربما أقامت في باريس علاقةً مع صديق طفولتك. هذا ما كنتُ أظنه على الأقل في فترةٍ من الفترات. يبدو أنني سوف أظل غير واثقٍ من هذه المعلومة تمامَ الثقة إلى يوم يُبعثون. المهم.. هل مرق ببالك لحظةً أنّ تلك الطفلة الناعمةَ ستكون واحداً من أسباب شقائكَ في مُقبِل الأيام البعيدة؟ هل مرق ببالك أنك سوف تحبها في وقتٍ من الأوقات، وبأنّ الحبَّ كلَّه ليس إلّا

شَرَكَاً تنصبه لكَ الحياة بخباثة، وبأنك سوف تقع يوماً في ذلك الشَرَكِ طائعاً؟ تتذكر طبعاً أنها كانت تخاف ركوب الدراجة الهوائية. من المؤكد أيضاً أنك تتذكر دراجتك التي اشتراها لك أبوك وأنت في السابعة من عمرك بعد. وكيف لك أن تنساها و قد كانت الهدية الوحيدة التي حصلتَ عليها في طفولتك؟ درّاجةٌ مستعملة، قديمة، أقرب ما تكون إلى الخردة، اشتراها أبوك من سوق الحرامية تحت جسر الثورة في قلب المدينة. ولكنها مع ذلك كانت صالحة للركوب في الحواري الضيقة. بقيتَ تركبها حتى الثانية عشرة من عمرك، وأنت تعمل، كلَّ يوم تقريباً، على إصلاح خللٍ ما أصابها. بقيتَ تركبها إلى أن جاء الَيوم الذي أيقنتَ فيه بأنك صرت كبيراً عليها، أو أنها صارت هي صغيرةً عليك. من المؤكد أنك تتذكر ذلك اليوم جيداً، بل من المستحيل أن تنساه، فهو اليوم الذي ظهرتْ فيه وِداد مرةً ثانيةً في حياتك، رغم أنها ابنة الجيران، ولكنك لم تكن تنتبه من قبلُ لوجودها بين الأطفال الكثيرين في الحارة. ابتسمتَ لها حينئذٍ. سألتْكَ عن جرحك الذي في طرف الجبين فوق الحاجب. كان قد مرَّ شهرٌ كاملٌ تقريباً على الشجار مع سامرٍ بسببها. قالت لك:

هل يؤلمك الجرح؟

ضحكتَ من سذاجتها، وقلت لها:

أنتِ بنتٌ بلهاء. اركبي الدراجة، فهي تناسبك أكثر مني.

لا أريد.

لماذا؟

أخاف أن أسقط أرضاً.

تخافين ومعك أمجد؟ الذي معه أمجد لا يخاف. هيا اصعدي وسوف أعلمك كيف لا تسقطين أرضاً.

والبنت تتردد قليلاً قبل أن تحسم أمرها، وتصعد إلى الدرّاجة، وأنتَ تمسك بالمقود. تساعدها. البنت تبدو خائفةً في البداية. ثم

تتشجع شيئاً فشيئا، حتى إنها تصير جذلى في النهاية من هذه المغامرة الصغيرة، وتروح تضحك، وأنتَ تغدو سعيداً بضحكها، فترفع يدك عن المقود، وتترك البنت تتدبر الأمر بنفسها. و لكنها لا تحسن التدبير، و تفقد السيطرةَ على المركبة البدائية وتسقط أرضاً. وأهرع إلى نجدتها وأنا أسألها إنْ كانت بخير. وكانت تبدو بخير لولا أثر خدشٍ صغير في ذقنها جعلها تجعر بالبكاء من شدة الخوف بسبب ظهور نقطة دمٍ في نتيجة الخدش. ويغيظك خوفها، بكاؤها، وتنتهرها:

انقلعي إلى بيتك ولا تسمحي لي أرى خِلقتك بعد الآن، وإذا رأيتك، ولو بالصدفة، فسوف أضربك.

وتمتطي دراجتك وتمضي غير راغبٍ برؤية هذه الطفلة الجبانة، من دون أن تدري بأنك سوف تراها لاحقاً مرّةً ومرتين، بل مئات المرّات، وبخاصة بعد أن تعود من غربتك الدراسية في البلاد البعيدة، ومن دون أن تدري بأنّ هذه البنتَ قدرُك الذي لن تستطيع أن تهرب منه في وقتٍ من الأوقات، وبأنك سوف تتزوج بها، وبأنَّ جلَّ حياتك سوف يدور في فلكها، حتى من بعد الطلاق معها، بل حتى إلى هذا اليوم وأنت مع سلمى التي شرعتَ تفكر بخيانتها، من دون أن تعرف كيف لا تخونها إلاّ مع وِداد. ولكن قولي لي يا كاتيا: ألن نضيع في هذه الغابة؟ مَنْ يدري يا صديقي! قد نضيع. لا شيءَ مضمون.

3

هل نستحق بؤسنا؟

الفقر ليس عيباً. كلامٌ سمعناه آلافَ المرّات بوصفه حِكمةً غيرَ قابلةٍ للطعن، أو حتى غير قابلةٍ للنقاش. لكنْ هل حقاً أنّ هذا الكلام صحيح؟ وإذا كان الفقرُ ليس عيباً كما ندّعي، فلماذا كان عليٌّ، كرّم

الله وجهَه، يريد أن يقتله لو كان رجلاً؟ وأنا أصدّق عليّاً الحكيم، ولأنني أصدّقه فإنني أومن بأنّ الفقرَ أكبرُ العيوب على الأرض. يكفي أنه يجعلنا نشعر بالمهانةِ صباحَ مساء. ورغم أنَّ هذا الشعور الذي يتملكنا مقيتٌ جداً فإننا نعيش معه في رباطٍ سريٍّ من الوئام، وفي التالي فإننا نستحق بؤسنا وقد تصالحنا مع العار. وإنْ كانت لا تعجبكم صيغة الجمع التي أكتب بها، فإنني لا أمانع أبداً في الكتابة بصيغة المفرد المتكلم، وأقول: أنا تصالحتُ مع العار. وسوف أروي لكم بعد قليلٍ كيف حدث ذلك. ولكنني الآن أضيف الآتي إلى ما سبق: لقد تصالحت مع العار لسببٍ بسيط هو أنني لست أملك عن الفقر بديلا. تعالوا ننظر إلى وضعنا من دون تجميل: العشوائية التي أقيم فيها. ما هو هذا المكان عدا كونه عشوائياً؟ السؤال ليس موجهاً لجميع الطلّاب في هذه القاعة، فأغلبية الحاضرين هنا لا تقيم في تلك البقعة الفوضوية، والتي يسمونها، رغم ذلك، حيّاً. يعتبرونها واحداً من أحياء دمشق. ومن الناحية الجغرافيّة الخالصة فإنّهم على صوابٍ في هذا، والتسمية صحيحةٌ تماماً. ولكن هل هي صحيحةٌ من الناحية الحياتية، الإنسانية؟ أعتقد بأنّ الجواب هو: لا. كلمة حيّ في لغتنا العربية هي نقيض كلمة ميّت. أظن أن جذر كلمة حيّ هو الفعل الثلاثي الماضي المفرد المذكّر الغائب: حَيي. وإن كنت مخطئاً في ظنّي هذا فأرجو من الأستاذ شوقي أن يرشدني إلى الصواب، كما أرجو منه أن يسامحني على غلطي اللغوي الذي أرتكبه رغماً عني، فأنا ببساطة لا أملك في المنزل قاموساً أستدلُّ به على الصحيح من الكلام. لماذا لا أملك قاموسا مع أنني لم أعد طفلاً، فلسوف أبلغ الثامنة عشرة من عمري بعد أقلَّ من ثلاثة أسابيع؟ أظن أن الجواب لم يعد خافياً عليكم: أنا لا أملك ثمن هذا القاموس. وحتى لو ملكت هذا المبلغ ذاتَ حين قريب فإنني لن أشتري به قاموساً في اللغة العربية العربية أو حتى الإنجليزية العربية، فالكتب عموماً ليس لها أولويةٌ عندي، رغم أنني أحبُّ القراءة، وأحبُّ الاطّلاع على أحوال الدنيا، غير أني للأسف لا أقرأ غير الجرائد

والمجلات العتيقة، التي تخلّى عنها أصحابها لسببٍ أو آخر، كما أنني أغامر أحياناً وأشتري واحدةً من جرائدنا المحلية. نعم يا أصدقائي ويا زملائي، هناك دائماً ما هو أهمُّ عندي من الكتب. الطعام مثلاً. ذلك الشيء الذي يبقينا على قيد الحياة، أو ذلك الشيء الذي يميّزنا عن الموتى، فالموتى لا يأكلون الطعام. ولكنهم في الحقيقة لا يقرؤون الكتب أيضا، ولا يرتادون المسرح أو السينما، ولا يذهبون في نزهات عطلةَ نهاية الأسبوع، ولا يفعلون كذا ولا كيت من مباهج الحياة الكثيرة التي نسمع عنها، من دون أن نعرفها. وهنا، هنا بالضبط تنعدم الفوارق بين الميّت وبين الحيّ في عشوائيتنا الفاضلة. اسألوا أيّ طالبٍ بين الموجودين في هذه القاعة من أبناء حيّنا: كم كتاباً يوجد في منزلك؟ حاضرٌ هنا، الآن، كلٌّ من سعيد وسامر وأيمن و خلدون. اسألوهم، فهؤلاءِ جميعاً ينتمون إلى فصيلة: الفقر ليس عيباً. إذن، فإنهم لن يخجلوا لا من السؤال ولا من الجواب. اسألوهم وأنا أضمن لكم أنكم سوف تحصلون على الإجابةِ ذاتها من الجميع: ولا كتابٌ واحد ما عدا الكتبَ المدرسية. حتى هذه فإنّ المكان عندنا يضيق بها. تكاد أن تتحول إلى عبءٍ علينا، ونحن لا نعرف أين نركنها. أنا شخصياً أضع كتبي المدرسية في ذلك الحيّز من البيت الذي يمكن تسميته مجازاً بِ المطبخ. أضعها جميعاً على أحد الرفوف بجوار الملح والفلفل والشاي والسكّر. وفي هذا المطبخ ذاته أدرس وأقرأ الجرائد والمجلّات البالية لأكسب بعض المعرفة، وفي المطبخ أيضاً أكتب وظائفي المدرسية، بما فيها هذه الخاطرة التي أقرأها عليكم الآن كوظيفةٍ في مادة اللغة العربية. لماذا أدرس وأكتب في المطبخ؟ الجواب في غاية السهولة: إنني لا أملك مكاناً آخرَ للدراسة، فالمنزل يضيق بنا، رغم أننا أسرةٌ صغيرةٌ جداً. أمي وأنا فقط. أنا أدرس في الليل. وأمي في الليل تنام لأنها في النهار تشتغل. ماذا تشتغل أمّي؟ قد تعتبرون صراحتي الآتية نوعاً من الوقاحة وقلّة التهذيب والتربية، رغم أن هذه الصراحة لا تحيد قيدَ أُنملة عن مقولتكم الأثيرة: الفقر ليس عيباً. باختصار يا

أصدقائي ويا زملائي، أمّي تشتغل خادماً في منزل الست إلهام. ولا تسألوني من تكون الست إلهام هذه، فأمرها ليس مهمّاً الآن. بل اسألوني من يكون زوجها. إنه رجلٌ فاحشُ الثراء. ربما كان يملك عشرات الملايين من الليرات. أي إنه واحدٌ من أغنى أغنياء دمشق. وقد جمع هذه الثروة الهائلة في زمنٍ قياسي: أقلّ من خمسَ عشرةَ سنة. اسمه السيد جلال. ويقولون له أيضاً جلال بيك. ملاحظة: الاسم ليس مستعاراً، برغم أنني لا أهدف إلى التشهير بالرجل، الذي ربما كان أحسن منّي، أو حتى أحسن منّا جميعاً، رغم أنه شديدُ الغباء كما يقولون عنه. كان جلال بيك في طفولته ولداً فقيراً. وكذلك كان في شبابه. كان أكثر فقراً من أغلبية فقراء البلد. كان فقيراً إلى درجة أنه كان يقيم في عشوائيتنا. قد لا تصدقونني لو قلت لكم إنه كان يعيش في منزلي الحاليّ الذي كان يضيق به وبزوجته الست إلهام وبطفلته الوحيدة رجاء. هذه البنت من جيلي تقريباً، فهي لا تصغرني إلّا ببضعة أسابيع. أما أبوها فهو من جيل أبي. كلاهما كان يعمل في البناء. في نفس الورشات. حتى إنهما كانا صديقين إلى حدٍ ما. أبي مات باكراً. كيف مات؟ مشهدٌ مألوفٌ في أفلام الميلودراما التي تعرضها قناة التلفزيون الثانية في بيوت الموسرين مساءَ كلِّ ثلاثاء تحت عنوان: أفلام الزمن الجميل. أفلام الأسود والأبيض. يبدو أنَّ كلَّ جيلٍ يؤمن تمامَ الإيمان بأنّ ماضيه هو الزمن الجميل. أظن أن زماننا الجميل قادمٌ بعد عشرين سنة أو ثلاثين، فانتظروه، افعلوا ذلك بثباتٍ، ومن دون يأس. أعود إلى موت أبي. في ذلك اليوم، لم يكن الرجل قد بلغ الخامسة والثلاثين من العمر حين زلّت قدمُه عن سقالةٍ عالية في إحدى ورشات العمارة، وسقط أرضاً وتهشمتْ جمجمته وقد ارتطمتْ بكومةٍ كبيرة من حجارة البناء التي يسمّونها البلوك. لا أعرف من أين جاء هذا الاسم. لن أنشغل به الآن. سوف أبقى مع جلال الذي صار السيد جلال أو حتى جلال بيك. لم يترك الحارة بعدما باع بيته، بل ظلّ مقيماً فيها. وكان يأمل بأن يرتاح من مشقة العمل في البناء وقد بدأ يشعر بالضيق من وجعٍ في

الظهر. وفكّر بأن يصنع تجارة ما بالنقود التي وفّرها من بيع البيت لأبي، ففتح دكاناً صغيرة لتجارة الأجبان والألبان في الحارة ذاتها، ولكنه لم يحقق أيّ نجاح، الأمر الذي اضطره للعودة إلى مشقّة العمل في البناء، رغم الألم في ظهره والذي صار مزمناً. كان قد استأجر منزلاً يشبه منزله السابق، ولكن ليس بعيداً عنه بأكثر من ستين متراً. منزلٌ ملاصقٌ لمنزل العم أبي علاء بائع الذرة المسلوقة صيفاً والفول النابت شتاءً. كان أبو علاء أرملَ. وكان عنده ثلاثة أطفال. علاء الذي يصغرني بسنةٍ واحدة وَ وِداد التي تصغرني بست سنوات وشمسٌ التي تكبرني بخمس سنوات، والتي صارت مجبرةً على ترك المدرسة وقد وجدتْ نفسها فجأةً مسؤولةً عن إدارة شؤون الأسرة المفجوعة بموت ربّتها، رغم أنها ـ أي شمس ـ كانت لمّا تزل طفلةً بعد. ومع هذا فقد صارت أمّاً على حين بغتةٍ من لعبة الزمن الغادرة. كانت أمي تحب هذه البنتَ كثيراً. وكانت تصفها بكلماتٍ من قبيل: (جدعة) و (قبضاية) و (أخت الرجال)، الخ... وكانت تلوم الزمن لأنني أصغر من البنت سنّاً. وأنا لم أكن أفهم في ذلك الوقت سبباً لهذه الملامة. لم أفهم السبب إلّا بعد أن كبرتُ بعض الشيء حين قالت لي أمي: هذه البنت يمكن أن تكون زوجةً صالحة. لماذا أتحدث عن شمسٍ الآن؟ وما علاقتها بجلال بيك وثروته التي لا تأكلها النار؟ في الحقيقة لا يوجد أية علاقةٍ سوى أنَّ سيرة هذا الرجل كانت تتردد كثيراً بحضوري في منزل أبي علاء، في الأماسي الصيفية، عندما كنتُ أتردد على هذا المنزل لمساعدة ابن جيراننا علاء، وأخته شمس في تقشير عرانيس (أكواز) الذرة البيضاء وتهيئتها للسلق قبل عودة الأب من عمله. كان الرجل يرجع إلى البيت منهكاً وهو يدفع أمامه عربته الخشبية الثقيلة لأكثر من ثلاثة كيلومترات حيث اعتاد أن يقف على بعض الأرصفة القريبة من إحدى أو بعض حدائق وسط المدينة العامّة ويبيع عرانيس الذرة المسلوقة بسعرٍ أفضل من ذلك الذي يمكن أن يحصل عليه في حيّنا. كنّا، علاء وأنا، نساعده أيضاً في إنزال الحِلّة النحاسية الثقيلة عن العربة وحملها إلى داخل المنزل

حيث ننظفها، ثم نضع فيها العرانيس الطازجة ونحملها من جديدٍ ونثبتها فوق مطرح بابور الكاز الكبير في تجويفٍ مخصصٍ لهذا الغرض على سطح العربة التي كان يربطها الرجل في الطريق بجنزيرٍ معدني إلى عامودٍ إسمنتيّ يقف أمام الدار بمصادفةٍ ما، أو ربّما كان يتواجد هناك هبةً من الله عزَّ وجلَّ إلى الرجل الفقير. ثم كنّا أنا وعلاء نغمر العرانيس الجديدة بالماء ونشعل تحتها نار بابور الكاز الكبير. كنت في الثالثة عشرة من العمر في ذلك الوقت، وكانت شمسٌ قد غدتْ امرأةً مكتملة الأنوثة. وكنتُ بسبب فارق السن بيننا أعتبرها مرجعاً لي في عديد المواضيع التي منها ثراء السيد جلال المفاجىء. كانت تتحدث عن الرجل من دون وِدّ. وأكثر من ذلك: فقد وصفته مرّةً بِ (ناكر العِشرة). و سألت وِداد أختها:

ماذا يعني ناكر العشرة؟

ردّت عليها شمس من فورها:

اخرسي أنتِ، ولا تقاطعيني مرّة ثانية. هذا حديث كبار. ثم لماذا أنتِ ساهرة إلى الآن؟! قومي انقبري بالفراش.

حزنتْ وِداد، وجعلتْ من فورها تبكي. لكنها نفّذت الأمر وانصرفت إلى غرفتها التي تتقاسمها مع شمس، من دون أن تتوقف عن البكاء. كنا نجلس متربعين في باحة الدار المكشوفة للسماء ونحن نقشر العرانيس. قلتُ للمرأة الصغيرة:

ليس جيداً أن ينام الطفل وهو يبكي. هكذا تقول أمي دائماً، وهكذا تتصرف معي.

ردّتْ عليَّ شمس، من دون أن تتوقف عن العمل:

خليها تنقبر نرتاح من أسئلتها البايخة. ما زالت فصعونة (طفلة صغيرة) ومع ذلك تريد أن تعرف البيضة مين باضها. المهم.. الأفندي جلال ناكر للعشرة. اسألوني لماذا؟

وكانت تتولى الإجابة من قبل أن نسألها شيئاً:

لأنه ولا مرّة بعد ما صار زنكيل (ثريّ) خطر بباله أن يزور أولاد حارته. هل تعرفون لماذا لا يزورنا؟

أنا أعرف. لأننا فقراء.

جاءنا صوت وِداد.

التفتنا إليها. كانت تقف بباب الغرفة تستمع إلى الحديث وهي تَشْرَقُ بدموعها. ضحكنا ثلاثتنا من منظر البنت الفصعونة، التي أردفتْ من فورها:

هكذا سمعت أبي يقول..

قالت شمس من خلال ضحكها:

تعالي تعالي، ليس جيداً أن ينام الطفل وهو يبكي مثلما تقول خالتي أم أمجد. لكن تقعدين ساكتة هه!

وعادت البنت إلينا، وجلستْ متربّعةً بجوار أمّها الصغيرة قبل أن تتوسد فخذَها وتغفو رويداً رويداً، من دون دموع، فقد كانت سعيدة راضيةً بعودتها إلى الجماعة، بعدما صارت غيرَ منبوذةٍ منهم. وتابعت شمس رواية الحكاية التي لا تعرف لها بدايةً ولا نهاية. هي فيما أظن حكايةٌ عشوائيةٌ تشبهنا تماماً. تشبه حارتنا، أو حيّنا بغضِّ النظر عن اسمه. إنه أحد معالِم الخراب التي نمت في حزام المدينة كما ينمو الكمأُ في قلب الأرض بعد البرق والرعد والمطر. أعطوه الاسم الذي تحبّون من أسماء العشوائيات التي تشكل حزام مدينتنا: الطبّالة، الدويلعة، الحجر الأسود، الخ... الأسماء ليست مهمّة، فهي لا تشكّل أيَّ فارقٍ بين واحدٍ من أحيائنا العشوائية وآخر. إنْ وصفتَ أحدها كأنك وصفتها جميعاً. ومن المفارقات التي تبعث على الحزن أنَّ هذه الأحياءَ كلَّها نبتتْ على حساب الشجر الذي تمَّ اقتلاعه من الأرض الخصيبة، من دون أيٍّ تفكير بنتائج مثل هذا العمل الفظيع: التصحّر. ولو سألتَ أحدَ تجّار وسماسرة الأراضي الذين مارسوا ويمارسون هذه الجريمة المحميّة بالقانون

عن هذا الأمر الفظيع الذي يقوم به، لقال لك: «المسألة وقّفت عندي أنا؟ كل الذي قطعته من الأرض بضع شجرات.» وربما كان صادقاً في جوابه، والأهم هنا من الصدق هو أنّ المستقبل غير موجودٍ في رأس هذا الرجل. المستقبل أمرٌ لا يعنيه. وربما كان لا يعني أحداً سواه أيضا. كم شجرةً قطع هو؟ وكم شجرةً قطع الثاني والثالث والعاشر والألف؟ يا إلهي! إنها ليست غابةً من الخضرة والماء والثمار، بل غابات، أو حتى سهوبٌ من النعيم. إنها حياة مدينة كبيرةٍ عريقة في تاريخ البشرية جمعاء. واحدةٌ من أقدم مدائن الأرض كما يقولون لنا في الكتب المدرسية. ربما كان عُمْرها أحدَ عَشَرَ ألفاً من الأعوام أو السنين. بالمناسبة يا أستاذ شوقي، ما الفرق في لغتنا العربية بين العام وبين السنة؟ أرجو أن تفيدنا من علمك يا أستاذنا المحترم. ليس الآن بطبيعة الأمر، بل في نهاية الحصّة. أبقى الآن مع هذه الأوراق التي صرت أخشى أنها لم تعد مجرد خاطرة، ولن تكفيها حصّةٌ مدرسيةٌ واحدة، أخشى ما أخشاه أننا سوف نعتدي على وقت الاستراحة، وعلى جزءٍ من حصّة مادة (القومية). هل هذا في متناولنا يا أستاذي الفاضل؟ ها هو الأستاذ شوقي يبتسم ويهزُّ برأسه بالإيجاب. ممتاز. إذن سأتابع القراءة وأنا مطمئن البال. أبقى مع دمشق. هذه المدينةٌ، كما قالوا لنا في كتاب التاريخ، كانت ذات حينٍ عاصمة الدنيا، أو قلب الدّنيا، كلّ الدّنيا (العالم القديم بطبيعة الحال)، من الصين في الشرق وحتى إسبانيا في الغرب، فكيف انتهت إلى عشوائيةٍ إذن؟ لماذا تقولون لنا في المدرسة شيئاً ثم تفعلون ضدّه في الواقع؟ لا أعرف إلى مَنْ أتوجه بهذا السؤال على وجه التحديد. من المؤكد أنه سؤالٌ طفوليّ بريء، رغم كونه سؤالاً محيّراً، ولا أتوقع إجابةً عنه هنا في هذا الصف الثالث ثانوي. نعم إنه سؤالٌ محيّر، فمن المؤكد أنّ المدنَ لا تشيخُ بتعاقب العصور، بل بتراكم الإهمال، أو بتراكم الفساد إنْ شئتم، بما فيه ذلك الذي لا يعاقب عليه القانون. حتى جلال بيك سوف يقول لك الكلام ذاته الذي يقوله مختلِف السماسرة، فهو تاجر أراضٍ

أيضاً. أما كيف صار يتاجر بالأراضي أو كيف صار غنياً بوجهٍ عام، فلا أظنّ أن في الأمر سرّاً من ذلك النوع الذي كانت تحاول شمسُ أن توهمنا بوجوده. إنها مجرد مصادفةٍ ما. مصادفةٌ تشبهنا. لذا فإنها مصادفةٌ عشوائيةٌ بكل تأكيد. فحتى المصادفات في حياتنا عشوائيةٌ أيضاً. إنها تماماً مثل حيّنا الذي لا تستطيع أن تعرف من أين يبدأ ولا أين ينتهي. ما هي حدودُ هذا الحيّ؟ خزّان الماء العالي من الشمال، وخزّان الماء العالي من الجنوب. خزّانان كبيران للماء في حيّنا الذي يكاد لا يعرف الماء إلّا ساعاتٍ معدوداتٍ من كامل الأسبوع. حتى صار صوت الماء وهو يصبُّ في الخزانات المعدنية الصدئة على أسطحة منازلنا أكثر عذوبةً من أغاني أم كلثوم وفيروز مجتمعتين. أمّا حدود حيّنا من الغرب فهي خزّان الكهرباء الذي وضعوا على بابه يافطةَ القراصنة الشهيرة: جمجمة وعظمتان، وفوقها عبارة: خطر الموت. ومن الشرق خزّان الكهرباء الذي وضعوا على بابه اليافطةَ ذاتَها، وقد كتبوا على الجدار تحتها بخطٍ كبيرٍ أعجف: كلب ابن كلب الذي يبول هنا. وكانت هذه العبارة تستفزنا كثيراً، وبخاصةٍ أننا نعاني شُحّاً كبيراً في التيّار الكهربائي. كنّا نعرف، أو تقريباً نعرف هوية كاتب هذه العبارة. إنه ليس موظفاً في الحكومة، ولا علاقة له بمؤسسة الكهرباء من قريبٍ أو من بعيد. بل هو ساكن البيت الملاصق للخزّان. إنه صطيف السمكري (السّباك) الذي كان يعاني في مسكنه من رائحة البول الكريهة المنبعثة من جدار الخزّان الذي تحوّل إلى مبولةٍ ليليةٍ للجميع، بمن فيهم أفراد شلّتنا. كان رجلاً في أواسط العمر، قصير القامة، ناحل القوام. كان يعيش وحيداً في ذلك المنزل الصغير، ولم يكن يختلط بأحدٍ من الناس. كنّا نراه في الصباح، في طريقنا إلى المدرسة، خارجاً من منزله يحمل قُفّةً من الكاوتشوك الرخيص فيها عدّة الشغل: إزميل، مطرقة، مفك براغي، مفتاح إنكليزي أو مفتاحين متفاوتي الحجم، وبعض بكرات الأشرطة اللاصقة بأكثر من لونٍ واحد: سوداء وزرقاء وشفّافة أيضاً. ونادراً ما كان يطرح السلام

على أحد، ودائماً ما كان يردُّ السلام على الجميع بنبرةٍ محايدةٍ باردة: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. لماذا كان يعيش هذا الرجل وحيداً؟ أين أسرته؟ أم إنه غير متزوج؟ أم تراه هارباً من زوجته؟ لم نكن نعرف أجوبة عن هذه الأسئلة الّتي، وبكلِّ صراحة، لم تكن تشغلنا كثيراً. إنه مجرد رجل غريب ظهر في حيّنا فجأة، وأقام فيه. مجرد رجلٍ غريبٍ، ولكنه يشبهنا. يشبهنا تماماً، فكلّنا ههنا غريبٌ وفقير. هو واحدٌ منّا إذن، بغضّ النظر عن قصّة حياته وما فيها من أسرارٍ لا بدَّ وأنها صغيرةٌ وتافهةٌ مثلُ أسرارنا جميعا. ولكنني أظنه كان يخاف منّا، أفراد الشلّة، ويتحاشانا. أما نحن، ولأننا أوغادٌ بما يكفي، أو لأننا لا نخاف الفقراءَ من أمثالنا، فقد صرنا نكايةً بهذا الصطيف و تلك العبارة نبول على ذلك الجدار كلَّ ليلة قبل أن ينفرط عقدنا ونرجع إلى بيوتنا في قلب الليل ونحن نغنّي أحياناً أغاني العشق والغرام، وبخاصةٍ في فصل الصيف حيث كنا نجتمع كلَّ مساءٍ عند ناصية الحارة الشرقية. كنا في النهار نشتغل. كنا نشتغل بأيِّ شيءٍ متاح لنا: في الحفريات، في الكهرباء، في الطلاء. في أي شيءٍ، أو بالأصح: في كل شيء، فأشغالنا تشبهنا أيضاً بعشوائيتها. وفي المساء نتجمع عند ناصية الحارة الشرقية. وكنّا نسمّي تلك البقعة الصغيرة من العالم: المكتب. مكتبنا. من نحن؟ سعيد و أيمن و خلدون و سامر و كاتب هذه السطور طبعاً. كنّا في ذلك الصيف قد بلغنا الخامسة عشرة من العُمْر، وكانت أمارات البلوغ صارت واضحةً علينا جميعاً. تغيّرات فيزيولوجيّة جليّة للناظر، وتغيّراتٌ نفسيّةٌ أيضاً تحتلّ حيّزاً واسعاً من معظم هواجسنا وأحاديثنا اليوميّة: البنات. بنات حارتنا. بنات حيّنا. ليلى قصيرة وسمينة، ومجنون ليلى شاعرٌ أبله وإلّا لما أحبَّ بنتاً لها هذا الاسم. سميرة عجفاء. وِداد ما زالت طفلة تطلب الحليب مع الكعك. بثينة شهيّة، ولكنَّ من المؤكد أنّ الشهيّةَ أكثر من الجميع هي شمس، فهذه امرأةٌ بكلّ ما في الكلمة من معنى. وهنا كنت أتدخل من فوري طالباً من الأولاد عدم الاقتراب من سيرة هذه البنت، فهي شقيقة صديقي

علاء الذي لا ينتمي لشلّتنا. في الحقيقة أنّ علاء ليس صديقاً لي. إنه مجرد ولدٍ في الجوار. ولدٌ فقيرٌ وطيّب القلب، ولكنه غير موفق في دراسته. كان لعلاء صديقٌ واحدٌ فقط في الحيّ كلّه: إبراهيم. ولدٌ ضعيف البنية على نحوٍ يبعث على التأمل، حتى لونه دائم الصفرة. ربما كان يعاني فقراً حاداً بالدّم، ولكنه، مع ذلك فائق اللطافة، شديد التهذيب. قليل الاختلاط بالأولاد الآخرين، فلا يلعب معنا كرة القدم، ولا يدخل في شجاراتنا الصبيانية مهما كانت الأسباب. هو من جيل صديقه علاء تماماً. جاءا إلى الحياة في نفس اليوم ونفس الشهر ونفس السنة. تلازما منذ بكور الحياة، وظلّا متلازمين إلى أنْ فرّقتهما تلك الحادثة الفظيعة التي سوف آتي على ذِكرها بعد قليل. كان من النادر أن ترى أحد الولدين في مكانٍ ما، من دون أن يكون صاحبه لصيقاً له. كنتَ تجدهما غالباً جالسيْن على الأرض في الحارة متجاوريْن وقد استندا بظهريهما إلى جدار أحد المنازل، وراحا يتحدثان بهدوء، بصوتٍ خفيض، ويظلّان كذلك لساعاتٍ طِوال، بلا أي ملل. كنت أعجب من أمرهما دائماً، وكنت أسأل نفسي أحياناً عن طبيعة الموضوعات التي يمكنهما أن يتحدثا بها كلَّ يوم طوالَ هذا الزمن المديد من دون كللٍ أو ملل. تعمّدتُ مرّةً أن أجلس بجوارهما لأعرف عن أي شيءٍ يتحدثان؟ جلستُ ولزمتُ الصمت. لم يمانعا بحضوري، وتابعا الكلام وكأنني غير موجودٍ معهما. سمعتُ في ذلك النهار حديثاً غريباً عليَّ إلى حدٍ كبير. كان إبراهيم يحكي لعلاء عن كيفية قصّ أظافر اليدين والقدمين. عن قلامات الأظافر المقصوصة. يجب وضعها في محرمة. ثم يجب دفن المحرمة في باطن الأرض. كان إبراهيم يتحدث بثقةٍ وهدوء. كان يتحدث بقناعة تامة بما ينطق به لسانه. تملكني الفضول إلى معرفة هذا الولد عن قرب. توجهتُ إليه بالسؤال: لماذا يجب أن نفعل ذلك؟ قال: لأن قلامة الظفر المقصوصة كانت قطعةً حيّةً من أجسادنا شأنها شأن القلب والدماغ وكلّ عضوٍ آخر، وبما أن أجسادنا قد جاءت من التراب، فإلى التراب يجب أن تعود. يجب أن تعود كلُّها. كاملةً وغيرَ

منقوصة. لا فرق بين جزءٍ وآخر. قلت له: ولكنّ قلاماتِ الأظافر المقصوصة باتت أجزاءً ميتة. قال بكثيرٍ من هدوء: نعم، هذا صحيح، ولكن هل يكون القلب حيّاً حين ندفنه تحت الأرض؟ بدا لي إبراهيم ولداً غريباً في تفكيره الذي لا يشبه الطريقة التي نفكر بها نحن أفراد الشلة. قلت: فهل يجب أن ندفن البعوض والصراصير أيضاً حين يرشّون عليها المبيدات الحشرية أو حين يقتلونها بأية طريقةٍ أُخرى؟ قال: أصلاً يجب أن نمتنع عن قتل البعوضة والصرصور، فهي أيضاً مخلوقات الله. كان إبراهيم ولداً يتيم الأب، وأمه مجرّد ربّة منزل، وكان له أختٌ اسمها بثينة تكبره بست أو سبع سنوات، هي بثينة ذاتها التي وصفها أحد أفراد شلتنا بِ الشهيّة، وهي التي تنفق على الأسرة الصغيرة من عملها آنسةً في واحدةٍ من رياض الأطفال على أطراف عشوائيتنا. أرجع إلى علاء. لم يكن الولد كسلان في المدرسة، ولكنَّ عقله لم يكن موهوباً بالدراسة. كلُّ إنسانٍ موهوبٌ بما خُلقَ له. طلب مني العم أبو علاء أن أعير دراسة الصبيّ اهتماماً. صرت أساعده ببعض المواد المقررة عليه، وبخاصةٍ منها الرياضيات والفيزياء. ولكنني في المحصّلة لم أحرز معه أيّ تقدم. فإما أنني كنت معلّماً فاشلاً، وإما أنه كان طالباً بطيء الاستيعاب. وفي الحالين جاءت النتيجة واحدة: لقد ترك الولد المدرسة، واشتغل في محل حِدادة خارجَ الحي. ويبدو أنه بعد سنتين على مهنته الجديدة بدأ يتقن مصلحة الحدّادين. وهذا شيءٌ جيد بلا ريب، فأنْ تكون عاملاً ماهراً لهو خيرٌ من أن تكون مهندساً أخرق. كنت أشعر بمسؤوليةٍ ما تجاه علاء، وبالتالي تجاه أخته المكتملة الأنوثة. مسؤولية تقتضيها شهامة الصِّبا العنترية في مواجهة بقية أفراد الشلّة. ولهذا لم أكن أسمح لهم بالاقتراب من سيرة شمس. كنّا نتداول قصص البنات كلَّ ليلةٍ تقريباً قبل أن نعود إلى منازلنا ونمارس العادة السرّية على وقع تصوراتنا وخيالاتنا حول أجساد فتيات حارتنا العاريات. لعلّ سامراً كان أقلّنا مشاركةً بهذه الأحاديث، رغم أنه محبوبٌ من البنات أكثر منّا جميعاً. كنَّ يغمزنه ويبتسمن له على

نحوٍ ليس فيه التباس. حتى رجاء ابنة جلال بيك الثريّ كانت تغمزه وتبتسم له. كانت تزور عشوائيتنا، التي هرب منها والداها قبل حينٍ بعيد، مرّةً كل أسبوعٍ أو مرتين. وكان الجيران يقولون عنها: هذه البنت أحسن من أهلها، فهي لم تنسَ العِشرة. ولكنهم ـ أي الجيران ـ لم يكونوا يعرفون السبب الحقيقي المتخفّي وراءَ زيارة البنت إلى حيّنا. إنه سامرٌ الذي لم يكن يعيرها التفاتاً. وكما أسلفت قبل قليل كان أقلّنا مشاركةً في الحديث عن المرأة بشكلٍ عام. ولكنه بالمقابل أكثرنا مدعاةً للضجر، فمعظم أحاديثه كان يدور حول كلمةٍ واحدة: فرنسا. فرنسا التي لا تشبهنا في شيء، وبخاصةٍ في العلاقة بين الأولاد والبنات. الحرية الفرنسية والثورة الفرنسية التي قرأنا عنها في كتاب التاريخ في الصف الثالث الإعدادي. الثورة التي غيّرتْ وجه العالم من الإقطاع والرجعية و العبوديّة إلى الأخوّة والعدالة والمساواة، فرنسا التي اقتلعتِ الفقرَ من جذوره مرّةً وإلى الأبد بثورتها المجيدة. والأهم من هذا كلّه: فرنسا التي جلبت الحرّية للبشرية جمعاء. فرنسا أُمُّ الدنيا لأنها أمُّ الحرية. كان سامرٌ يردد هذا الكلام على مسامعنا كلَّ يوم. وكلَّ يوم كنا نروح نتثاءب عندما يشرع صاحبنا بالحديث عن فرنسا اللُّؤلؤة، كما كان يصفها أحياناً. وكنّا في غيابه نسميه: الشيوعي، وكنّا واثقين من سلامة هذه التسمية، و لدينا الدليل القاطع على شيوعيته: غرامُه غيرُ المحدود بالثورة الفرنسية. فهل غير الشيوعيين يقوم بالثورات؟. كنّا من شدّة معرفتنا بالشيوعية نشتم لينين الرأسمالي مصّاص دماء الشعوب!. في ذلك الصيف الذي بلغنا فيه الخامسة عشرة من العُمْر وجدنا أنفسنا فجأةً مضطرين لنقل مكتبنا من ناصية عشوائيتنا الشرقية إلى الناصية الغربية منها، فقد حدثتْ واقعةٌ فظيعة كادت أن تصل إلى حد قتل أحد أفراد الشلّة. ولكنَّ أحداً منّا لم يمتْ، مع أنَّ تلك الليلةَ أبت أن تنتهي من دون موت. كلُّ شيءٍ ابتدأ تلك الليلةَ من (أبو الخير). الشرطي أبو الخير. ورغم أنه واحدٌ منّا إلّا أنه كان يعتبر نفسه مالكَ الحارةِ وحارسَها الأمين من الأشرار، الأوغاد، الأغراب

الذين يضمرون بنا شرّاً. وهؤلاءِ في الحقيقة لم يكن ثمة وجودٌ لهم إلّا في أفلام الكرتون التلفزيونية المصنوعة للأطفال، بالإضافة طبعاً إلى مخيّلة الرجل الذي تمادينا في أذيّته من دون أن نتعمّد الأذى. كان أبو الخير، على وجه العموم، رجلاً طيباً، وكان كلّما التقاني في الطريق يسألني السؤال ذاتَه:

هل تسمع كلمة أمك أم إنك تعذبّها؟

لا، كيف أعذبها وهي أمي؟ ثم إنني لم أعد طفلاً.

أمك امرأة مناضلة، وإنْ كنت تعذبها فسوف آخذك إلى المخفر (قسم الشرطة)، وأعمل لك فلقة (عقوبة قاسية).

ولم يكن يقصد ما يقول طبعاً. إنها تلك الوصاية المجّانية لا أكثر. ولكن ماذا حدث لنا مع الشرطي (أبو الخير)؟ في قلب ليلةٍ صيفيةٍ بلا قمر، في واحدةٍ من أبشع ليالي العُمْر، وبعد أن أفرغنا ما في مثاناتنا من نتانة على جدار الخزان الكهربائيّ الملاصق لمنزل صطيف، رحنا نغوص في الأزقة المعتمة عائدين إلى بيوتنا متخمين بتخيلاتنا الصبيانية عن مفاتن أجساد بنات حارتنا الناضحات بالغواية.. كلُّ شيءٍ في تلك الليلة الفارقة ابتدأ بمصادفة تشبه بقية أشياء حياتنا. كان أيمن بطل هذه المصادفة، فقد لاحظ حركةً خلف ستار نافذةٍ مضاءةٍ في إحدى الغرف ونحن نمرق من أمام منزل (أبو الخير)، فتوقف عن المشي وراح يراقب ما خلف النافذة. استوقفه منظرٌ لم يشاهد له مثيلاً في حياته من قبل. كان يراه من خلف الزجاج عبر ثقبٍ في الستارة شبه المهترئة. كان أبو الخير يركب زوجته فوق فرشةٍ ممدودةٍ على الأرض. استوقفنا تخلّفُ أيمنَ عنّا، فعدنا إليه نستطلع الأمر. وشاهدنا العجب العُجاب. كان ظهر (أبو الخير) لنا بخلاف زوجته التي كانت تواجهنا تماماً. لاحظتِ المرأة زحمة خيالات الوجوه وهي تتحرك خلف ستارة النافذة، فنبّهتْ زوجها إلى المصيبة التي حلّت بهما. التفت الرجل إلى النافذة وهو يوشك أن يصل إلى النشوة فوق امرأته، وتأكد صحة ادّعائها.

كنا في تلك اللحظة نمارس العادة السرية جماعةً في بثٍ حيٍ مباشر. انقطعتْ شهوةُ الرجل رغماً عنه، ونهض من فوق امرأته، وهو يتلفت هنا وهناك بحثاً عن سرواله الداخلي. متنا من الرعب، لكننا لم نكن قد وصلنا إلى النشوة بعد، فبقينا متلصصين على المرأة التي راحت من سوء حظنا تغطي جسدها حتى وجهَها بشرشفٍ كبير. عثر الرجل على سرواله الداخلي، وما إنْ ارتداه حتى اندفع إلى خزانة الثياب البالية واستلَّ من هناك مسدساً. وكان هذا آخر ما رأيناه، فقد اختفينا بلمح البصر في الحواري المتداخلة. رحنا نركض بسرعةٍ قياسيةٍ يعجز عن تحقيقها أبطال الأولمبياد في السباقات الطويلة أو حتى القصيرة. اختفينا عند مفترق أحد الأزقّة. ومن حسن حظّنا أنّ التيّارَ الكهربائيَّ كان قد انقطع في تلك اللحظة. من جديد: إنها العشوائية تفعل فعلها، تتآمر معنا لا علينا هذه المرّة. وقفنا في العتمة خلف الجدران المتآكلة، ورحنا، مثلما كان يفعل شارلي شابلن في أفلامه، نحاول أن نتلصص على مسرح الجريمة، مرعوبين من أن يكون الرجل قد عرف أياً منا. وفجأةً سمعنا إطلاقاً للنار. كان الرجل يقف في الظلام عارياً إلّا من سرواله الداخلي الأبيض وسْطَ الحارة الضيقة وهو يطلق النار من مسدسه. ثلاث رصاصاتٍ طائشةٍ في العتمة. واللافت في الأمر أنّ الرصاصات لم تكن في الاتجاه الذي هربنا فيه، بل في الاتجاه المعاكس. وكنا نسمع صوت الشرطي يزعق في الفراغ:

عرفتكم يا أولاد الكلاب. عرفتكم واحداً واحداً. توقّف عندك يا ابن الحرام أنت وإياه. والله لأعمل من جلودكم طبولاً للحرب.

كان يصرخ على أشباح. وكان يطلق النار على أشباح. لم يذكر في شتائمه وتهديداته اسم أيٍ منا. وهذا ما جعلنا عديمي الخوف، مرتاحي الفِكر، فالرجل لَم يتعرف هوية المتلصصين على خصوصياته الحميمة. وفي تلك اللحظة، وقع ما لم يكن في الحسبان: ارتفع فجأةً هرجٌ ومرجٌ في قطعةٍ من الحيّ تعاكس مكان

تواجدنا. عند المكتب تقريباً. أو هكذا خمّنا. صراخٌ وعويل، شتائم ونداءات استغاثة، وهذه كلّها وصلت إلى مسامع (أبو الخير) على نحوٍ قويّ، فنفض الرجل من رأسه آثار مصيبته الشخصية، وقد تذكر أنه شرطيٌ أوّلاً، فاندفع باتجاه الهيصة الحاصلة شاهراً مسدسه، وكان ما يزال في سرواله الداخلي فقط. بقينا ننظر إثرَه إلى أن ابتلعه الظلام. وكنّا فضوليين جداً لمعرفة حقيقة ما قد حصل هناك عند المكتب، ولكننا آثرنا السلامة، فرجعنا إلى بيوتنا خائفين متسللين ونحن نسمع إطلاق النار. لا بدَّ أنه الشرطي أبو الخير يستخدم مسدسه. ولكن فجأةً صار إطلاق النار متبادلاً. فما حقيقة الذي جرى على رصيف مكتبنا تلك الليلة؟ (ملاحظة بين قوسين: أشعر بالانزعاج، بل حتى إنني أشعر بالألم والاشمئزاز وأنا أكتب عن هذا الأمر الفظيع. كما أخشى من أن يهبط مستوى هذه الخاطرة إلى دركٍ لا أريد النزول إليه. ولكن ما العمل؟ إنها حياتنا، ويا للأسف!.) لقد شعر صطيف السمكري الذي كان يصارع رائحة البول الكريهة طمعاً في أن ينال قسطاً من النوم، وبينما هو ينشوي من الحَرِّ بسبب انقطاع التيّار الكهربائي وانعدام هواء المروحة الوحيدة التي تُلَطِّف عليه حياتَه، وبسبب انغلاق جميع نوافذ البيت، أي: لهذه الأسباب مجتمعة قرّر الرجل أن يفتح نافذة الغرفة حيث ينام طمعاً في الحصول على شيءٍ من ابتراد. لكنه، وما أن فتح تلك النافذة، حتى شاهد في العتمة حركةً غريبة: أشباحٌ تتحرك من حول ومن خلف حاويةٍ معدنيةٍ كبيرةٍ تفيض بالزبالة، كما سمع نداءات استغاثةٍ خفيضة مجبولةً بتوسلات الضعفاء المتذللة، فما كان منه، أي صطيف، إلّا أن اندفع إلى عدّة الشغل خاصته في الحمّام، وتناول من هناك مطرقة متوسطة الحجم، وخرج من البيت متسللاً قاصداً حاوية الزبالة. ويا لهول ما رأى! كان أربعة شبابٍ غرباء عن حيّنا يتناوبون، بين الزبالة، على اغتصاب ولدٍ لم يبلغ طور المراهقة. فوجيء الشباب بحضور صطيف الذي وقف بعيداً عنهم بضع خطوات رافعاً المطرقة بيده معلناً استعداده لقتالٍ دمويّ إن لم ينفّذوا أوامره

من فورهم: يتركون الطفل يذهب في حال سبيله، ويبقون في أماكنهم حتى يأذن لهم بالانصراف. في البداية أطاعوه. وربما فعلوا ذلك من أجل المماطلة ريثما يتدبرون الخطّة المناسبة للتصرف معه. ثم أحاطوا به. وأخيراً سيطروا عليه. سيطروا عليه تماماً. قال له كبيرهم، كما جاء في إفادة الطفل لعناصر الشرطة لاحقاً: حسناً، سوف نطلق سراح الولد، ولكننا سنضعك في مطرحه. قالوا له ذلك بعد أن انتزعوا منه المطرقة الحديدية بطبيعة الحال. ثم بطحوه أرضاً وهو يقاوم ويصرخ ويشتم ويلعن، بلا فائدة، ففي نهاية ذلك كلّه، نجح أحدهم، بمساعدة البقية، في الاعتداء جنسياً على الرجل الضئيل الفقير الشريف، وكان يمكن أن يتناوب الجميع على اغتصابه لولا وصولُ أبو الخير الذي صار شاهداً على الجريمة، أو شاهداً على الفضيحة، وربما كان هذا الشاهدُ آخرَ مَنْ رأى صطيف حيّاً، ففي صباح اليوم التالي عثروا على الرجل الضئيل منتحراً. لقد شنق نفسه في غرفة نومه التي تطلُّ على حاوية الزبالة. أمّا الجناة فقد نفدوا بجلودهم إلى الآن. وأما الطفل الذي لم يبلغ طور المراهقة فقد أقام في إحدى مشافي الحكومة أسبوعين أو أكثر، أجرى له خلالهما الأطباء ثلاث عملياتٍ جراحية في شرجه.. صرنا، بعد تلك الليلة المشؤومة، لا نخرج من البيت من دون سكّينٍ في حزامنا. كما صرنا نتجنب الظهور في تلك الأنحاء الملعونة. ومنذ تلك الليلة، فقدنا مكتبنا الأثير، وخسرنا معركتنا التافهة مع صطيف البطل الذي خرج في جنازته أكثرُ من نصف سكّان الحيّ، كما اعتبره أحد رجال الدين شهيداً، وأقام له صلاة الجنازة، الأمر الذي أدانه بعض المشايخ بحجّة أنّ المنتحِر لا تجوز عليه الصلاة.. خسرنا، بعد رحيل صطيف، معركتنا التافهة معه وإلى الأبد، فلم نعد نتبول على جدار الخزّان الشرقيّ، كما أننا صرنا نخاف من أن نتبول على جدار الخزّان الغربيّ، فمن يدري؟ ربما كان يقيم هناك أبو خير آخر حيث قد يكون في انتظارنا مسدسٌ آخر، وبكلماتٍ ثانية: صرنا نصدق اليافطة الموضوعة على باب الخزّان: خطر الموت.

لقد غدتْ هذه الحادثة الفظيعة نقطة تحولٍ في حياتنا، فلم نعد نتثاءب عند حديث سامرٍ المملّ عن الحرية في فرنساه الحسناء. ولكننا بقينا دائمي الترحم على صطيف البطل ودائمي الحنين إلى لياليه وخزّانه ومبولته. على أية حال، كان الصيف بعد تلك الليلة المرعبة على وشك أن ينفد. ولكنه أبى أن يرحل من دون مصيبةٍ ثانيةٍ نزلت على الجميع كالصاعقة. إنها بثينة. بثينة الشهيّة. لقد اختفت البنت فجأة. اختفت من البيت. اختفت عن أنظار الحي. في الليلة الأولى على غيابها كنا نشاهد أمها تروح في طرقات الحي وتجيء مع ابنها إبراهيم الذي يرفض أن يقتل الصرصور لأنه خلقُ الله. كانا يمضيان في الطرقات واجمينْ تماماً. واجمينْ ومتوجسينْ. وكانا يسألان عن البنت بحذر، بهمس. حدث هذا في أحد الأيام العشرة الأخيرة التي تسبق عيد الأضحى عندَ أواخر الصيف تقريباً. توجها أولاً بالسؤال لدى شمس، فقد كان ثمة علاقةٌ طيبة تربط البنتين ببعضهما، وبخاصةٍ أنهما متقاربتان في السن. وهكذا انضمّت شمسٌ إلى موكب الباحثين عن الفتاة المفقودة، وتبعها شقيقها علاء إكراماً لصديقه إبراهيم. وشيئاً فشيئاً بدأ ينكشف للجميع سر الحكاية: بثينة اختفت. وفي اليوم التالي مباشرةً صارت الحكاية على الألسن كالآتي: بثينة هربت مع عشيقها. أصبح هذا الحديث شغل الحيّ الشاغل. وقبل نهاية اليوم الثاني على الاختفاء أخذت الثرثرة منحىً غريباً: بثينة هربت مع مجموعةٍ من الشباب لأنها لا تشبع من ممارسة الرذيلة. يا للعار! وتكاد نسوة الحيّ أن يبصقن على إبراهيم وأمه في الطريق. يا الله! إننا مولعون بخباثة الظن كما لو كنا نتنافس بالقباحة. وفي نهاية اليوم الثالث الملآن بالثرثرات المهينة ظهرت الحقيقة أخيراً: بثينة ترقد في إحدى مشافي الحكومة مصابةً بالصدمة النفسية إثر تعرضها لاعتداءٍ لا شأنَ له بالجنس من قريبٍ أو من بعيد. إنها مجرد سرقة. كانت البنت في ذلك اليوم قد تقاضت مرتبها الشهري. هل كانت مراقَبة؟ ربما. اعتدى عليها ثلاثةٌ من الكلاب الآدمية. اعتدوا عليها في الطريق. في

وضح النهار. قاومتهم. ضربوها. فقدتِ الوعي. خطفوا حقيبتها اليدوية، وفرّوا هاربين. اتصل أحد الناس بالشرطة التي وصلتْ متأخرةً كعادتها. نقلوا البنت إلى أحد المشافي الحكومية حيث رقدتْ ثلاثة أيام فاقدةً الوعي، وليس في حوزتها شيءٌ يدلُّ على هويتها، فكان لا بدّ من انتظار صحوتها. ويا ليتها ظلّتْ فاقدةً الوعي! فهيَ لم تصحُ إلّا متأخرة، أو متأخرةً جداً. لم تستفق من غيبوبتها إلّا وقد أصبحت عاهرةً في نظر أهل الحيّ، والنساء منهنَّ بشكلٍ خاص. من السهل أن أتهمك بأيِّ شيء، ولكن من الصعب أن تثبت براءتك. حتى تقرير المستشفى يصير بلا أية قيمة أمام قوة الشائعة. وبسبب حساسية حقيقةٍ كهذه جاء أحد رجال الشرطة إلى الحيّ ليلاً، وقصد منزل العم (أبو علاء)، وانفرد بالرجل. حكى له القصة، وطلب منه أن يرافقه إلى المستشفى، وأن يحضر معه ابنته شمس بناءً على طلب المجني عليها. وهذا ما كان. في صباح اليوم التالي رجعت شمسٌ إلى الحي وقصدت منزل أم إبراهيم. جلست إلى المرأة، وحكت لها ما جرى بعباراتٍ جاهدت البنت في انتقائها بحيث تكون لطيفة الوقع على امرأةٍ محافظة. بكت أم إبراهيم، وندبت حظها، وأعلنت استسلامها لِـ النصيب. ومع حلول ظلام اليوم ذاته، استلمت الأم ابنتها من المستشفى بعد أن وقّعت على تعهدٍ عند الشرطة بعدم التعرض للضحية بالأذى. رجعتا إلى الحي في سيارة أجرة تحت جنح الظلام برفقة العم (أبو علاء). شاهدهم بعض الجيران الذين قضوا ليلتهم يتسلون بحياكة العشرات من القصص حول حقيقة ما جرى لبثينة. وفي النهاية طلع الصباح. ثم جاء المساء. وغَبَرَتْ ثلاثة أيام، وجعلت سيرة بثينة تتراجع عن الألسن، الخبيثة منها والطيبة. وكما قال أحد «حكماء» عصره: (زَوِّجْ بنتك لابنك، وعيار الفضيحة أسبوعين.) ثم غبرت ثلاثة أيام أُخَر، وكادت سيرة البنت «العايبة» أن تختفي من أحاديث الجميع، وبخاصةٍ أن عيد الأضحى صار على الباب، فانشغل الناس بتجهيز متطلبات العيد، وراح بعضٌ لا بأسَ به منهم يفكر بتأمين الأضاحي. في ليلة ذلك العيد كان الزحامُ في الحيّ

شديدا. كنّا نتسكع نحن الأصدقاء الخمسة كما نفعل عشية كل عيد. كانت أم كلثوم تغني الأغنية ذاتها من مسجلات أغلبية المحال التجارية التي تسهر حتى طلوع الشمس: حبيبي يسعد أوقاته. ونحن الخمسة نجيء هنا ونروح هناك في حوارينا العشوائية. والليلة عيد عَ الدنيا سعيد. ويمضي بنا السهر. نشتري لأنفسنا شيئاً ما إن كان لدينا بضع ليرات جمعناها طوال السنة خصيصاً لهذه المناسبة: حذاء، قطعة ثياب، الخ... ويطلع الفجر. ويبدأ ذبح الأضاحي في محال الجزّارين، أو حتى من قبل الأهالي أمام أبواب المنازل، وتنسفح الدماء على الأرصفة. والليلة عيد ع الدنيا سعيد عز وتمجيد وإنتَ حبيبي. ونتعب أخيراً من الصياعة. يتفرق شملنا. الناس تغسل الدماء من أمام عتبات منازلها. وأذهب إلى بيتي. أمرّ من أمام منزل بثينة. كانت أم إبراهيم تشطف الدماء من أمام الباب .

كل عام وإنتِ بخير خالتي إم إبراهيم!

وإنت بخير يا ابني يا أمجد!

وأرجع إلى منزلي. أمي استيقظت من نومها للتو.

كل عام وإنتِ بخير ماما!

كل عام وإنت بخير حبيبي! شو اشتريت للعيد؟

اشتريت قميص.

ريته مبروك انشالله! أعملك فطور؟

لأ، شكراً، أكلت سندويشة فلافل مع الشباب وشربنا كازوز. بدي أنام.

نام تقبرني. نوم العوافي يا رب!

على فكرة، خالتي إم إبراهيم دابحة ضحية. الهيئة إنه قصة بثينة انتهت على خير.

إي الحمد إلك يا الله!

وأدخل في فراشي. أدخل في النوم. أنام خمس ساعات. أصحو. أجد أمي تجلس على فراشها متربعةً، شبه باكية. لا أفهم شيئاً. أسأل:

خير ماما؟ صاير شي مو منيح لا سمح الله؟

بثينة.

شبها بثينة؟

دبحوها اليوم الصبح. دبحها أخوها إبراهيم. أكيد هاد ترتيب أمه الله لا يوجهلها الخير.

بهذه الجريمة. بذلك الدّم المسفوح على الرصيف في صبيحة العيد ودّعتُ، وإلى الأبد، سنوات المدرسة الإعدادية.

ولكن ما زال في الذاكرة متسع عن تلك الأيام.

كان عامٌ دراسيٌ جديدٌ على وشك أن يبدأ. كنّا نعيش حياتنا بالقطعة، بالمفرّق، بالمؤقت، يوماً بيوم. ماذا كنا ننتظر؟ ربما كنا ننتظر أن نكبر لنصير قادرين على أن نعمل، ويصير عندنا نقود ونساءٌ وبيوت صالحة للاستهلاك الآدمي. كان يصيبنا الضجر لأننا لا نكبر بسرعة، ولأنّ أيامنا تمرّ بطيئةً بطيئة، رغم أنها أيام أعمارنا، ورغم أنّ أيام العمر معدودة. كنا نستعجل الوقت أن ينصرف. ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجلي. ولكن هل كان امرؤ القيس، بقطع النظر عن أسباب طلبه الغريب هذا، يجهل تلك الحقيقة البسيطة: الليلة التي تنجلي لا تعود إليك، حتى لو كنتَ أشهرَ من الشمس في الشِعر، أو أغنى من أكبر الأثرياء في العالم؟ بالشعر يا امرأ القيس لا تستطيع شراء قوتِ يومِك، ولكنك بالنقود تستطيع أن تِشتري ما لا يخطر ببال، إلّا الوقت. ونحن كنا نصرف وقتنا بالمجّان، وعلى نفس الوتيرة: فرنسا والبنات. أو إن شئتم: البنات وفرنسا، التي صار يخيّلُ إلينا أنها من أملاك سامرٍ الشخصيّة. وإنْ لم يكن الأمر كذلك، فلماذا لا يملُّ الفتى من الكلام عنها بهذا الحب الكبير؟ لماذا لا

يتحدث مثلنا عن البنات اللائي كنّ يستلطفنه أكثر من أيّ أحدٍ آخرَ منّا، حتى رجاء الثريّة الوحيدة عند أبويها. وفي الحقيقة أن رجاء ليست إلّا واحدةً من مجموعة من أمثالها كانت تحوم حول فتى الحيّ المُدلل، كما سمّاه أيمنُ ذات حين. وكنا في دخيلة أنفسنا نغبطه، بل نحسده. وكنّا في غيابه نتساءل عن السبب الكامن وراء إعجاب البنات به. الإعجاب الذي يحيّرنا أشدَّ الحيرة، فهذا الفتى ليس أكثرنا وسامةً أو جراءةً في المجازفات الغرامية التي يحققها الولد مع مختلِف البنات. إذن، ما السرّ الكامن وراء هذه النجاحات غير المسبوقة التي كان يحققها الفتى؟ كنّا دائمي التساؤل: هل لأنه شيوعيّ مثلاً؟ كنّا جميعاً على استعدادٍ لأن نصير شيوعيين ونعشق الثورة الفرنسية مقابل أن نحصل على جزءٍ يسيرٍ من المكاسب الكبيرة التي يتمتع بها صديقنا محطّم قلوب العذارى. ولكن كيف نصير شيوعيين؟ وهل الشيوعية ديانةٌ يمكن أن نعتنقها؟ اتفقنا على استدراج صديقنا إلى حديثٍ بهذا الشأن، وسألناه عن ماهيّة الشيوعية، فاستغرب السؤال أيّما استغراب، وضحك وقال موجهاً كلامه إليّ:

ماهيّة؟! من أين جئتَ بهذه الكلمة؟ وما معناها أصلاً؟

وأنا في الحقيقة لا أتذكر أين ومتى سمعت هذه الكلمة المغرقة في الفصاحة، ولكنني أتذكر أنها أعجبتني (على الأرجح أن أكون قد قرأتها في إحدى الجرائد)، فأحببت أن استخدمها في الحديث مع سامرٍ عن الشيوعية كي أبرهن له على أننا لسنا جهلة كما يحب أن يتصورنا. قلت له وأنا أهرب من الموضوع كي لا ينفضح جهلي:

لا تهرب من الموضوع يا سامر. سألناك: ما هي الشيوعية؟

ومن أين لي أن أعرف ما هي الشيوعيّة؟

ولم نقتنع بجوابه.

إذن لماذا تحب فرنسا والثورة الفرنسية كلَّ هذا الحب؟

وما شأن الثورة الفرنسية بالشيوعية؟

كيف هذا؟ وهل غير الشيوعيين يقوم بالثورات؟

أنتم يا أصدقائي بُلهاءُ كلَّ البلاهة. هل تعرفون لماذا؟ لأنكم لا تقرؤون غير الكتب المدرسية.

وهل تقرأ أنت غير الكتب المدرسية؟

لا، طبعاً.

فلماذا إذن تستثني نفسك من بلاهتنا؟

لأنني أنصت جيداً لحكايات أبي، فأنا لست كسولاً وملولاً مثلكم، ولست أحمل جوعي في بطني أو بين فخذيّ. ثمّ إنني أحمل دماغاً في رأسي وليس أحشاء دجاجة.

ولم نفهم شيئاً ممّا قال سوى أنه يتعالى علينا. فكاد سعيدٌ أن يتقاتل معه بسبب أحشاء الدجاج الذي يملأ رؤوسَنا، ولكنني تدخلت في الوقت المناسب ومنعتُ نشوب المعركة. غضب سامرٌ في ذلك المساء، وترك المكتب وانصرف. واتفقنا بعد انصرافه على أنه يكذب علينا ليظلَّ محتكراً بنات الحيّ لنفسه. فماذا يعني أنّ الجوع عنده ليس بين فخذيه؟ وماذا يعني أنه ينصت جيداً لحكايات أبيه، وأبوه لا يختلف في شيءٍ عن آبائنا؟ نصف أمّي. قال أيمن:

من المؤكد أنه يكذب علينا بهذا الكلام غير المفهوم ليغطّي على الحقيقة عملاً بقول الشاعر:

إذا جئتَ فامنح طَرْفَ عينيكَ غيرَنا لكي يحسبوا أنّ الهوى حيثُ تنظرُ

نظرنا إلى بعضنا متفاجئين من فصاحة أيمن، وسألناه:

مَنْ يكون هذا الشاعر؟

قال:

الأخوين رحباني.

وكان دليله على ذلك أن فيروز تغني كلمات زوجها. وصدقناه، فالدليل قوي. كان من السابق لأوانه بعد أن نعرف أنّ هذا الكلام لشاعرٍ من العصر الأموي اسمه عمر بن أبي ربيعة. على أية حال، لم يكن مثل هذا الأمر يشغلنا وقتئذٍ كما يشغلنا صديقنا الشيوعي. وهكذا فقد بقينا حائرين في أمر سامرٍ بضعة أيّام أُخَر بعد القطيعة معه. والنكتة في الموضوع أننا لم نلاحظ عليه أية حركةٍ تشي بعلاقته بأي من البنات. بصراحة: كنّا نراقبه. أو حتى نتجسس عليه. صديقي سامر! بالأصالة عن نفسي، وبالإنابة عن بقية الشلة وأمام الأستاذ شوقي وجميع طلّاب صفنا أتوجه إليكَ بالاعتذار بسبب التجسس الذي مارسناه عليك قبل ثلاث سنوات، والذي كان عملاً غبياً حتماً، فلا شيء في حيّنا يستأهل التجسس. كان سامرٌ وما يزال ولداً فقيراً مثلنا، ولكنه لم يكن وحيد أهله، بل إنه من أسرةٍ كثيرة العدد، وكان هو، وما زال طبعاً، كبير أخوته. أما أبوه فيشتغل موظفاً في مستودعات شركة الإسمنت الحكومية. كان على العموم ولداً لطيفاً يعزّ علينا أن يخرج من الشلّة. وحين يئسنا من العثور على دليلٍ واحد يرشدنا إلى سرّ الغواية التي يتمتع بها فتى الحيّ المدلل استسلمنا لفكرة أن الأمر كلّه نصيب، أو ضربة حظ تأتي من غامض عِلم الله، فتوقفنا عن التجسس، وصالحناه مع سعيد، ورجعنا إلى حياتنا الطبيعية. كان خلدون في تلك الفترة قد أحبّ عزّة ابنة صاحب محل القرطاسية الوحيد في ذلك الجزء من الحي. كانت تصغرنا بعام كاملٍ تقريباً. كيف نجت هذه البنتُ من سامر؟ كنّا نتساءل. إنها بنتٌ رقيقة حلوة. كانت تمرُّ بنا في الأماسي الباكرة، وكانت تخصّ خلدون بنظرةٍ تذيب قلوبنا جميعاً من سحرها. وكنّا نتأوه في سرّنا من النشوة. ثم تطور الأمر سريعاً بين الاثنين إلى ما هو أبعد من النظرات الملتاعة، فقد تجرأتِ البنتُ ورمت، أثناء مرورها بنا، ورقةً صغيرة، تبيّن في ما بعد أنها رسالة غرام رفض خلدونُ أن يطلعنا على محتواها، غير أنه ردَّ على الرسالة بمثلها. وكان يمكن للأمر أن يتطور إلى ما هو أبعد من مكاتبات الغرام لولا

أن (عزيز) شقيق عزّة اكتشف أمر رسالة خلدون. أشكُّ في أن يكون قد اكتشف الأمر بالمصادفة. لا بدّ وأنه كان يراقب تحركات أخته المريبة. وعلى رأي صاحب القول الشهير: كاد المريبُ أن يقول خذوني. فكانت النتيجة أن ضرب الولدُ أخته أثناء التحقيق معها لمعرفة هوية ابن الكلب الذي يكتب لها رسالةً في الغرام. واضطّرت البنت تحت التعذيب للاعتراف بالحقيقة. جاءنا عزيزٌ غاضباً، قاصداً الشرّ بخلدون. وكان في يده عصا غليظة. كنا نجلس على رصيف مكتبنا الجديد. سألَنا من دون مقدمات:

من يكون خلدون بينكم؟

التفتنا إليه. فهمنا القصة من نظرةٍ واحدة. أجبنا جميعاً:

أنا خلدون.

هذا يعني أنكم متفقون يا أولاد الكلب. جئتم إلى هنا لتعملوا عصابة يا زعران؟

وهجم علينا ملوّحاً بالعصا الغليظة التي تفاديناها جميعاً بنجاحٍ لافت. وسيطرنا على الولد بسرعة عجيبة وأخذنا منه العصا وبطحناه أرضاً. وثبّتناه كما يفعل المصارعون في الحلبات. ولكننا لم نضربه. إكراماً لأخته على الأقل. قلت له:

اسمع، نحن لا نريد أن نضربك، وعموماً لا نريد مشاكل هنا، لا معك ولا مع أيّ أحدٍ آخر. لذلك الله يرضى عليك أن تقصر الشر وتتركنا بحالنا. اتفقنا؟

أومأ بعينيه أن نعم اتفقنا، وهو ما يزال مبطوحاً على الأرض. تركناه. نهض. ابتعد عنّا بضع خطوات قبل أن يلتفت إلينا، ويقول:

تكاثرتم عليّ يا أولاد الحرام؟ أنا سوف أربّيكم.

وانصرف راكضاً. لم نلحق به، ولم نعطِ لتهديده أدنى اهتمام. واكتفينا بنصح صديقنا العاشق أن يهديء اللعب في الفترة القادمة.

وانصرفنا بعدها لممارسة تسليتنا الجديدة في مستقرنا الجديد. كان في الجوار ثمّة دكانٌ صغيرة تبيع الدخان والمكسّرات الرخيصة والعلكة (اللِبان)، وما شاكلها. كنا في تلك الفترة قد بدأنا التدخين، من دون أن أعرف بدقة كيف تم ذلك أو كيف ابتدأ. ولكن من المؤكد أنه ابتدأ من هنا. من هذه الدكان، فقد كان صاحبها الشاب الطويل البدين يبيع الدخان ليس بالعلبة حسب، ولكن بالقطعة أيضاً. أي بالسيجارة الواحدة. أحد أفراد الشلة اشترى من هذه الدكان سيجارةً ذات وقتٍ قريب. لا أعرف من يكون ذلك الذي اشتراها. ولكن من المؤكد أنه لم يكن أنا. إنني واثقٌ من هذه النقطة. الذي أتذكره أن أيمن هو من قدّم لي السيجارة مشتعلةً، وقال:

جرّبها.

وجرّبتها. جرّبناها نحن الخمسة. كنّا نمررها لبعضنا بمهابةٍ وسرّية، وكأننا ندخن سيجارة حشيش. ورحنا نسعل. سعلنا كثيراً. وشتمنا صاحب الدكان الذي يبيع المواطنين بضائع مغشوشة. وقررنا الانتقام منه. أتذكر أننا كنّا نناديه حدّو، رغم أن اسمه صفوان. ولكن كيف ننتقم؟ كان يضع على واجهة محله الصغير الزجاجية ورقةً كبيرةً كتب عليها بخط يده الذي يشبهه حتماً، فكلُّ إنسانٍ يشبه عملَه، وكلُّ عملٍ يشبه صاحبَه:

لا يوجد عندنا طوابع.

كانت هذه أغرب عبارةٍ قرأتها في حيّنا منذ ولادتي فيه وحتى اللحظة الراهنة. فمَنْ عندنا الذي تلزمه الطوابع؟ وأيُّ نوعٍ من الطوابع تكون؟ ماليّة. بالتأكيد لا، فليس في حيّنا أيّةُ دائرةٍ حكومية. إذن، ماذا؟ طوابع بريدية. مرّةً ثانية: بالتأكيد لا، فليس يوجد لدينا صندوق بريد واحد. والأهم من هذا: نحن بشرٌ بلا عنوان. وإن وُجد العنوان فهو يكون من قبيل: بجانب بقالية زمزم، أو مقابل اللحّام أبو أنس، أو فوق مشغل النجاح للخياطة، الخ... والأهم من كل ما سبق هو أنه ليس لدينا من نكاتبه ويكاتبنا. حتى مواعيدنا مع

الأغراب تكون كالآتي: نتقابل عند تقاطع الطريق الفلاني مع الطريق العلّاني، أنا أرتدي قميصاً أزرق وبنطلون مخمل أصفر وفي قدميّ حذاء من الكاوتشوك الأسود وفي يدي كتاب الجغرافيا للصف التاسع.. لم يكن لدينا من نكاتبه، ولم نكن بحاجةٍ لأن نكاتب أحداً، أو نطلب شيئاً من أحد. كان كلُّ واحدٍ منّا يفهم في كل شيْء، من تسليك البالوعة إلى تصليح الباب والشبّاك وتمديدات الكهرباء وطلاء الجدران، بل حتى كنا نفهم بالبناء العشوائي. كنا مكتفين بفقرنا من العالم. كنا مكتفين بفقرنا من عيادات الأطباء والصيدليات. كان أهلونا يسقوننا منقوع البابونج لكافة الأمراض، أو منقوع الميرمية، أو منقوع النعناع. إنها مدارسُ متعددة في طَبابة الأولاد. وكلُّ أمٍّ تنصح سواها من الأمّهات باتّباع مدرستها وهي تسهب في شرح محاسن دوائها وذمّ بقية الأدوية. وهكذا ليس يوجد في أبداننا من آثار الأطباء إلّا تلك الندوب الصغيرة على أذرعتنا في نتيجة اللقاحات المختلفة. وللإنصاف فقط أقول إنّ أمهاتنا يستأهلن جائزة نوبل في الطب، فنحن أولادهنّ لا نزور الأطباء حين نمرض، رغم وجود عيادة الدكتور عصام في حيّنا. وهو في الحقيقة طبيبٌ جشِع. لقد أخذ من العم (أبو خلدون) مئة ليرة كاملة مقابل الكشف عليه حين مرض العم بوجعٍ في الصدر. قال الدكتور عصام في نهاية المعاينة إنّ المريض مُصابٌ باحتشاءٍ في عضلة القلب، وَ وصف له دواءً واحداً فقط: أسبرين الأطفال. حبّة واحدة كل يوم بعد الغداء. وكان يحيّرنا أمرُ هذا الطبيب. كيف يصف دواءً للأطفال إلى رجلٍ ضخم الجثة؟! لا بدّ وأنّ هذا الطبيب حمار. وفوق كونه حماراً فهو يسرق الناس لقاء معاينتهم في عيادته. هذا الطبيب الجشع أوقدَ عندنا الحماسة لخدمة أهلنا في المستقبل. سامر يريد أن يصير طبيباً، ويعالج الناس بالمجّان. أيمن أعلن أنه جحشٌ في الدراسة، وأنه سوف يرسب حتماً في الامتحانات الثانوية. ولهذا فإنه مستعدٌ لأن يكون ممرضاً عند سامر، أو سكرتيراً، أو حتى بوّاباً. اعذرني يا أيمن على وقاحتي. سعيد لا يعرف ماذا يريد أن يصير. هو دائماً

يقول: فلتأتِ كما تشاء. أظنه يقصد الحياة. رغم أنه شاطرٌ بالمدرسة كما تعرفون. خلدون ليس مؤمناً بالأعمال الخيريّة، ومن المؤكد أنه سوف يصبح تاجراً في المستقبل، فهو، حسب معلوماتي المتواضعة، الشخصُ الوحيد في العالم الذي يساوِم الصيدلاني على ثمن علبة أسبرين الأطفال التي يشتريها لأبيه الضخم. أنت أيضاً سامحني على وقاحتي يا خلدون، الذي أرى أنّ من واجبي إنصافك. في الحقيقة يا زملائي الكرام أنَّ لدى خلدون نظرية كاملة متكاملة حول هذا الشأن. أظنه يستأهل أن يصير في المستقبل ليس تاجراً فقط، بل حتى وزيراً للاقتصاد والتجارة، أو ربّما وزيراً للخارجية. لقد شرح لي مرّةً فحوى نظريته. ولكنني، في الحقيقة، نسيت هذا الفحوى، ولم يعلق بذهني من تلك النظرية إلّا بعض العبارات. قال لي: الحياة بازار. ولأنها كذلك ينبغي يا صديقي أن تساوِم على كل شيءٍ فيها. وإن لم تفعل أصبحت حماراً مثل صديقنا أيمن، وركب الناس على ظهرك. هل تحب أن يركب الناس على ظهرك؟ قلت: لا، بالتأكيد لا. قال: إذن، ساوِم. ساوِمْ على كلِّ شيءٍ في حياتك. قلت: كيف كل شيء؟ قال: كل شيء يعني كل شيء. قلت: حتى في الحب؟ قال: في الحبِّ قبل الأسبرين، فالعواطف أيضاً لها ثمن، وغالباً ما يكون هذا الثمن باهظاً. إذن، ساوِم على عواطفك، ولا تتركها نهباً للمرتزقة وعابري السبيل. بل حتى إنْ جاءك عزرائيل ليقطع عنك أنفاسك الأخيرة فعليك أن تساوِمه، هو يريد أن يقبض روحك، فماذا ستأخذ منه أنت بالمقابل؟ يجب أن تعرف ذلك يا أمجد. يجب أن تعرف ماذا ستكسب من الموت في مقابل الحياة.. هذه هي شلّتنا يا زملائي الكرام. لم يبقَ إلّا أنا الذي لم يكن يفكر بغير الفيزياء. سوف أصير عالِماً كبيراً، وسوف أساعد جميع البشر. ولكنَّ هذا كلَّه كان سابقاً لأوانه. المهم أننا كنا مكتفين بفقرنا من كل شيء، بل حتى من كلّ العالم، فلا أحدَ يريدنا ولا نحن نريد أحداً، فأيُّ نوع من الطوابع تلك التي يتبرأ الرجل الطويل البدين من وجودها في دكانه العجفاء؟ ولماذا التبرؤ من أصله؟ فهل الطوابع من فصيلة الممنوعات؟ لا بدَّ وأنّ في

الأمر سرّاً. ووظيفتنا هي اكتشاف ذلك السر. بل إنّ هذا الأمرَ واجبٌ علينا. قرّرنا أن نذهب إليه فرادى وبفاصلٍ زمنيٍ قصير بين الواحد والآخر. أجرينا قرعةً لنعرف من يكون البادِيء. والقرعة اختارتني أنا أولاً. لم أعترض على النتيجة. ذهبت إلى الدكان واثقَ الخطى. طرحت السلام على صفوان بأدبٍ مبالغٍ به:

السلام عليكم عمي حدّو!

وعليك السلام. ماذا تريد؟

الحقيقة أنا كتبت رسالة إلى ألمانيا ويلزمني طوابع.

كنت أتحدث بمنتهى الجدّية، حتى خُيّل إليَّ تلك اللحظةَ أنني أصلح للتمثيل في هوليود، وأنني لست أقل شأناً من مارلون براندو أو ألان ديلون. ردّ الرجل عليّ وهو يكبت في داخله انفعالاً يوشك أن ينفجر:

لا يوجد عندنا طوابع.

شكراً يا عم!

قلت بأدبٍ ممزوجٍ بالمسكنة، وانصرفت. ثمّ كان دور سعيد. من بعده خلدون. ثم أيمن. وأخيراً سامر الذي خرج من الدكان راكضاً وحدّو يركض خلفه يحمل شاكوشاً وهو يشتم ويلعن:

متآمرين عليّ يا أولاد الحرام؟ تفو عليكم وعلى أهاليكم.

كنّا قد هربنا من أمامه بسرعة البرق، بينما هو المسكين يتدحرج خلفنا كالبرميل من فرط بدانته. تجمّعنا عند زاوية إحدى الحارات نتفرج على حدّو الذي أيقن بأنه لن يستطيع اللحاق بنا، فتوقف لاهثاً، ونحن نضحك عليه. وثمّ جلس على الأرض من التعب وراح يجوح وينوح ويقول ويعيد:

يا أمّة الله! يا أمّة محمد! ما عندي طوابع، ما عندي طوابع.

لقد كان منظره وهو على تلك الحال يقطّع القلوب. لقد أشفقتُ

عليه. بل إننا جميعاً قد أشفق عليه، حتى إننا نظرنا إلى بعضنا نظرةً كلّها توبيخ، وهممنا بالعودة إلى الرجل والاعتذار منه. وكدنا نفعل لولا ظهورُ عزيزٍ المفاجيء في مواجهتنا. كان يقترب منّا على رأس جيشٍ من أقاربه وأولاد حارته مسلحين بالعصيّ والحجارة. جاء الولد بهدف الانتقام. جاء ينفّذ وعيده الذي لم نكترث له في حينه. نظرنا إلى بعضنا خائفين متسائلين: ما العمل؟ إنه خطر الموت. مرة ثانية: اليافطة تصدق. وكان الجواب واحداً لدى الجميع: الهروب الكبير. فاستدرنا على أعقابنا خاسرين، ولحق بنا جيش العزيز، وانهالت علينا الحجارة كالمطر. ولكننا خرجنا من المعركة بأقل الخسائر الممكنة. بعض الجروح الطفيفة. ولم نعد بعد هذه الواقعة نتجمع إلّا في داخل زقاقنا كمن يحتمي بأهله وعشيرته والشرطيّ الطّيب (أبو الخير). وصرنا نمارس الضجر والانتظار الذي لا ينتهي. ولكنْ ماذا كنّا ننتظر؟ لا أعرف. لا أحدَ منّا كان يعرف الجواب عن هذا السؤال الحياتيّ البسيط. لا أحد منّا كان يعرف الجواب عن هذا السؤال الوجودي الكبير. هل كنّا نفكر بالوجود أم بالعيش؟ عن نفسي أقول: كنت أفكر بكل شيء بما في ذلك تلك المرحلة الجديدة من حياتي والتي صرتُ وقتئذٍ أقف على عتبتها، فذلك العام الدراسي القادم ليس كجميع الأعوام التي سبقته. إنه الصف العاشر أو الأوّل ثانوي، كما يسمّونه أيضاً. أي إنه بداية المرحلة التي سوف تحدد كلّ شيءٍ على علاقةٍ بمستقبلنا. من المؤكد أننا لن نبول على الجدران بعد اليوم. ولن نتلصص من النوافذ على خصوصيات البشر، ولكننا سنظل نحلم بالبنات من دون ريب.

نعم، هي مرحلةٌ جديدة علينا. ولكن من الأفضل أن أرجع إلى الحديث بضمير المفرد المتكلم. هي مرحلةٌ جديدةٌ عليّ وقد صرتُ أخشى بأنّ الذي في رأسي ليس بعيداً عن أحشاء الدجاجة، كما قال سامرٌ ذات مرّة. أنا ولدٌ لا يمكنه الإنصات إلى ما يقول أبوه، حتى لو كان ذلك الأب نصف أمي، فأنا، وأظنكم تعرفون هذا، يتيم الأب مذ بلغت الثامنة من عُمْري. إذن، عليّ أن أنصت إلى كلام آباءٍ آخرين من

أجل اكتساب بعض المعرفة. وهؤلاءِ الآباءُ متوافرون، في الحقيقة، بكثرةٍ خارجَ الكتب التي لا أستطيع شراءها، بينما يمكن الحصول عليهم بالمجان تقريباً: الجرائد. يجب الاعتراف بأنّ الجرائد عندنا هي الأرخص ثمناً بين معظم دول العالم. إنها في متناول الجميع، حتى أفقر الفقراء منّا. صرت أشتري جريدةً كلَّ يوم تقريباً. وأروح أسهر معها في المطبخ بعد الانتهاء من واجباتي المدرسية. وكنت أقرأ كلَّ شيءٍ فيها، وبخاصةٍ الصفحة الثقافية، التي لم تكن تخلو غالباً من قصيدةٍ أو قصةٍ قصيرةٍ أو خاطرةٍ لأحد كتّابنا المعروفين، الذين أجدني مديناً لهم بالكثير.

والآن يا أصدقائي و يا زملائي.. ها هي مرحلة الدراسة الثانوية تنقضي إلى غير ما رجعة. الجامعات في انتظارنا. أنا شخصياً أتمنى أن أدرس الفيزياء. هذا كان حلمي منذ المدرسة الإعدادية، ولكنني بتُّ أخشى من ألّا أكون قادراً على تحقيق هذه الأمنية، فلعلّكم لاحظتم أنّ درجاتي في المواد العلميّة قد غدتْ في تراجعٍ مستمر خلال المرحلة الثانوية، ولكنني سوف أدرس جيداً قبل الامتحانات التي باتت على الأبواب. أتمنى النجاح في مسعاي، كما أتمنى التوفيق للجميع. وماذا بعد؟ ها هي حصّة اللغة العربية لهذا اليوم تنقضي أيضاً، وكذلك تكاد تنتهي هذه الخاطرة التي أقرأها عليكم بناءً على رغبة الأستاذ شوقي المحترم، الذي لا أعرف لماذا اختار خاطرتي أنا بالذات لتتم قراءتُها على الملأ. إنني أطمع يا أستاذنا الكريم بأن تبلغني الجواب عن الأمر في نهاية الحصّة.. أمّا الآن يا أصدقائي ويا زملائي فاسمحوا لي أن أعود إلى سؤاليَ الأول:

هل نستحق بؤسنا؟

وبعد هذا السؤال الذي لا أملك عنه جواباً وافياً أكمل الكلام في النقطة التي أجّلت الحديث حولها قليلا:

العار الذي تصالحتُ معه.

بما أنَّ الفقر ليس عيباً كما نقول في الحِكَم والأمثال، فقد اعترفتُ لكم من دون شعورٍ بالعار بأنّ أمي تعمل خادماً في منزل الست إلهام زوجة جلال بيك الذي جمع ثروةً هائلة، من دون خارطةٍ واضحةٍ لطريق بناء الثروات. إنه ليس توماس إديسون بطبيعة الحال مخترع المصباح الكهربائي. ذلك الاختراع الذي ما زلنا لا نستفيد منه كثيراً في هذه المدينة التي يقولون عنها: أقدم عاصمةٍ في التاريخ. كما أنه ـ أي جلال بيك ـ ليس كارل بنز مؤسس شركة مرسيدس لصناعة السيارات الفاخرة التي يركبها جلال بيك ذاته، كما يركبها أمثاله من الأثرياء والمسؤولين. حقيقة ثروة هذا الرجل ما زالت مجهولة، الأمر الذي فتح أبواباً واسعةً للتكهن والتأويلات والقيل والقال. حتى شمس لديها عديد السيناريوهات بهذا الخصوص. واحدٌ من هذه السيناريوهات يقول: إنّ شخصاً ما قد اختلس من الحكومة ثلاثة ملايين ليرة، وإنّ هذا الشخص صديق السيد جلال. ولأنه ـ أي ذلك الشخص المجهول ـ لم يكن يجرؤ على إظهار مسروقاته في الوقت القريب، فقد أخفى المال في مكانٍ لن يخطر ببال الحكومة بأية حالٍ من الأحوال. وكانت عشوائيتنا هي ذلك المكان المنشود، فترك المبلغ أمانةً عند صديقه جلال الذي لمّا يصر سيّداً بعد. ولأنّ ميّتَ الحكومة لا يموت فقد تم إلقاء القبض على السارق الذي أنكر تهمة الاختلاس من أساسها. ولأنّ الحكومة أيضاً لا تفهم بالعواطف أو بالمشاعر، فقد حقّقت مع السارق بقسوة، حتى يمكن القول إنّ الرجل مات عند الشرطة تحت التعذيب. وبموته صارت الملايين الثلاثة المسروقة من أموال الشعب ملكاً حلالاً، رغم أنه بالشرع وبالقانون، حرامٌ طبعاً، للسيد جلال الذي بات قريباً من لقب بيك. اشترى مزرعةً للدواجن كان صاحبها يريد أن يبيعها على وجه السرعة بداعي السفر إلى كندا وقد حصل على حق الهجرة إليها مع أسرته. وهكذا اشتراها منه السيد جلال بنصف سعرها الحقيقيّ تقريباً. وكان الوسيط بين البائع والشاري رجلاً قريباً للسيّد جلال يشتغل منذ سنواتٍ كثيرة، عاملاً في محلٍ يبيع الفرّوج النيء بمنطقة

المرجة في قلب دمشق. وهذا القريب نفسه صار مدير المشروع الذي أصاب نجاحاً هائلاً في بيع البيض والدجاجِ. وكما يقولون: المالُ يجرُّ المال. ولأن الحكومة لا تسأل: من أين لكَ هذا؟ فقد بدأتْ تجارة جلال بيك تتوسع وتتنوع حتى غدا واحداً من حيتان المال والأعمال، سيّما وأنّ أياديه امتدّت فوق المدينة وشملت العقارات والأراضي، بما فيها عشوائيتنا، وبخاصةٍ تلك البقعة من الأرض التي كنّا نسمّيها اعتباطاً: ملعب كرة القدم. لقد كان عند شمس خيالٌ واسعٌ لكتابة السيناريوهات المختلفة. ليتني كنت أملك خيالاً واسعاً كخيالها! كنت، إنْ فشلتُ في الفيزياء، أدرس فنّ صناعة السيناريو وأصبح كاتباً مهمّاً في مجال السينما والتلفزيون. إنَّ هذه البنت قادرةٌ على أن تسرد لكم عشرة سيناريوهات مختلفة كليّةً حول قصة ثراء جلال بيك المفاجىء. وربما صار عند أختها وِدادَ أيضاً مثل هذا العدد من السيناريوهات، رغم صغر سنّها، فهي اليومَ لم تتجاوز الثانيةَ عشْرةَ من عمرها. وهذا كلّه، في الحقيقة، غيرُ مهمّ. لذلك تعالوا نختصر موضوع الثروة بتلك العبارة الشهيرة: (الله فتحها على الرجل). وكما نعلم جميعاً فإنّ إرادةَ الله لا رادّ لها. المهم الآن ـ بخلاف ما كان عليه الأمر قبل قليل ـ ليس السيد جلال بيك، ولكن الست إلهام نفسها. فهي امرأةٌ على النقيض من زوجها. لم تنسَ العِشرة، لأنّ العِشرة لا تهون إلّا على أولاد الحرام كما يقول المثل. والمرأة تؤكد كلَّ يوم أنها ابنةُ حلال صافية. ولأنها ابنة حلال فهي تشتغل بأصلها الأصليّ. وبسبب كل ما سبق فقد عرضتْ على أمّي أن تشتغل خادماً عندها في المنزل. وإذا كانت لفظة خادم لا تعجبكم، فاستبدلوها بكلمة (لفّاية) المعدّلة عن كلمة خادم للتلطيف، مع أنني شخصياً لا أراها لطيفة. على أية حال، و من أجل الحقيقة فقط، فإنّ الست إلهام لا تستخدم أيّاً من اللفظتين السابقتين عند الحديث عن أمّي. بل هي تستخدم في وصفها كلماتٍ لطيفةً فعلاً: جارتنا أم أمجد. يبدو أنها لم تنسَ العِشرة حقاً، و يبدو أنها حقاً بنتُ الحلال الصافي. حتى عندما عرضت على أمي العمل لديهم، قالت لها: ألا تساعدينني في

شغل البيت يا جارتنا؟ حدث هذا قبل عام تقريباً. أي أنني كنتُ على وشْك أن أبلغ السابعةَ عشْرةَ من عمريً. كنت بعد المدرسة أشتغل بأيّ شيءٍ مُتاح أكسب منه ولو ثلاث ليراتٍ تساعدنا على العيش أنا وأمي. لم أكن في البيت يومَ زارتنا الست إلهام بسيارتها المرسيدس الفارهة التي صارت حديث الحارة لفترةٍ طويلة. ولم أكن في البيت يوم خرجتْ أمي في سيارة الست إلهام لتساعدها في إعدادِ وليمةٍ كبيرة أقامها جلال بيك في منزله على شرف أحد وزرائنا الموقّرين. رجعتُ إلى البيت في ذلك اليوم بعد المساء بقليل. كنتُ تعباً. سألتُ أمّي (أرجو المعذرة لأنني أكتب الحوار أحياناً بالعامّية. إنني أجدها أسرع من الفصحى. أسرع في إيصال الفكرة وأوضح في التعبير عنها. في الحوار على الأقل، أو في الحوار تحديداً. ما أقوله لكم عن الوضوحِ والسرعة جاء من تجربتي في كتابة هذه الخاطرة. وفي الأحوال كلّها، فلنعتبر الأمر تجربة، ولنتعامل معه على هذا الأساس، من بعد إذن الأستاذ شوقي طبعاً، الذي أعرف سلفاً أنّ هذا الأمرَ لن يروقه، فأرجو المعذرة يا أستاذيَ الفاضل!):

شو طابخة اليوم؟

ردّتْ عليّ بشيءٍ من حذر:

خير الله كتير. عنا كذا طبخة.

كذا طبخة؟ من إيمت كان عنّا كذا طبخة؟!

لم أعتد طوالَ وجودي في الحياة أن يكون عندي أكثر من أكلةٍ واحدة. أكلةٌ لا يحقّ ليَ اختيارها. الخيارات غير موجودة في قاموس حياتي. أكلةٌ واحدةٌ فقط. وغالباً ما كانت هذه الأكلة نوعاً واحداً من المقالي: البطاطا (البطاطس) المقلية، الباذنجان المقلي، القرنبيط المقلي، الخ... قالت لي أمّي:

روح عَ المطبخ واسكب اللي بدك ياه.

وَ وجدتني ذاهلاً من جوابها. ماذا يحدث عندنا؟ ذهبت إلى

المطبخ. وكم دهشني المنظر! كان المجلى مغطىً بالأواني البلاستيكية الممتلئة بنحوٍ من سبعة أصنافٍ من الطعام، بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة أصنافٍ من الفاكهة ومثلها من الحلوى. كانت كلها من الأنواع الفاخرة، ولكنها كلها كانت بقايا. أتذكر منها الآن على نحوٍ خاص: بقايا قالب كاتو لا شك في أنه غالي الثمن جداً. قد تسألونني: لماذا كانت هذه الأشياء موجودةٌ على المجلى؟ الجواب باختصار: لأننا لا نملك برّاداً (ثلّاجة) في المنزل. قلّبت الأمر لحظةً في رأسي وأنا أتأمل هذه اللوحة الغريبة عن حياتي كلَّ الغرابة قبل أن أعود إلى الغرفة حيث تجلس أمي منتظرةً ردّة فعلي، أو حتى مترقّبة. سألتُ من فوري:

من وين كل هالأكل؟

من عند الست إلهام يكتّر خيرها. و فوق منهن عطتني مية ليرة.

لشو عطتك المية ليرة؟ صَدَقة؟

لأ يوه شو صدقة ما صدقة؟! شغل.

شغل شو؟

كان عندهن عزيمة غدا كبيرة، و أنا ساعدتها.

خدّامة؟

شو خدّامة ما خدّامة؟! عم قلك شغل.

يعني خدّامة. أو خلينا نقول لفّاية. هيك ولّا مو هيك؟

حاجتك بقى إنت التاني. والله الست إلهام ما في أطيب من قلبها هيّ والسيد جلال.

زعقتُ بها و قد بدأت أفقد أعصابي:

إي بدّي ألعن أبو الست إلهام على أبو السيد جلال.

روق لك ابني، الناس لبعضها.

الناس لبعضها بالمعروف مو بالشحادة. هون بتصير الناس عبيد لناس تانية. هادا الأكل بترميه بالزبالة فوراً.

لأ ما رح أرميه.

بترميه غصبٍ عنك.

عم ترفع صوتك فيني لك أمجد؟

عند هيك شغلات برفع صوتي فيكي وباللي خلفوكي كمان.

وعم تسب أهلي يا ابن بطني؟ أنا هيك ربّيتك؟

وهنا نهضتْ من قعدتها، ورفعتْ يدها لتصفعني على وجهي، فما كان منّي إلّا أن أمسكتُ كفّها بجماع قبضتي، و دفعتها عني بقوة، فسقطتْ على الأرض، وراحت تجوح وتنوح. و لم تأخذني بها رحمةٌ أو شفقة. و نسيت الإحسان بالوالدين وأنا أبربر على مسامعها بمختلِف الشتائم، و نسيت كذلك أنّ الجنّة تحت أقدام الأمهات. كنت أتوعد وأهدد بأنني سوف أرتكب جريمةً أبشع من الجريمة التي ارتكبها إبراهيم في صبيحة العيد، في حال رجعتُ إلى البيت بعد قليل وَ وجدتُ هذه الأطعمة الفاسدة بجوار كتبي المدرسيّة، أو في حال عادت هي تعمل خادماً عند إلهام الزفت أو غيرها من الإلهامات المماثلات. وخرجت من البيت وأنا على هذه الحال، وكدت أن أتقاتل مع بائعِ جِرارِ الغاز الذي كان يمرّ في زقاقنا تلك اللحظة، مع أنّ هذا الرجلَ ألطفُ عناصر حياتنا كلها. إنه لا يطرطق على جِرار الغاز بأداةٍ معدنيةٍ غليظة، كما تفعل أغلبية بائعي الغاز معلنةً عن قدومها بجلبةٍ و فظاظة. بل هو على النقيض منهم جميعاً. مسجلة سيارته الصغيرة تبثّ أغاني فيروز طوالَ الوقت. فقط فيروز.. يمّا الحلو ناسي الهوى يمّا، وليل الحلو طير وعَبَر يمّا.. مررتُ به، من دون أن أطرح عليه السلام. فاجأتْه هذه الحركة مني. قال إثري:

أغنيتك المفضلة عمّي أمجد.

ردّيت عليه بفظاظة:

ما عندي أغاني مفضّلة.

لاذ الرجل بالصمت والحيرة. و تابعتُ طريقي. ذهبت إلى قلب المدينة مشياً على الأقدام. كان الطقس على شيءٍ من برودة. رحت أصيع في الشوارع على غير هدى. بقيت صائعاً حوالي ثلاث ساعات أو أكثر بقليل تراجعتْ خلالها في رأسي حِدّة نوبة الغضب رويداً رويدا. و رويداً رويداً كذلك بدأ يلوح في قلبي طيفٌ من الحزن، فقد أبكيتُ أمي. أبكيتُ المرأة التي تحبني كما لن تحبني امرأةٌ سواها مهما طال بي العُمْر. صحيحٌ أنني لم أقصد أن أضربها في نوبة الغضب التي لا تشبهني، ولكنَّ الصحيح أيضاً أنني قد أبكيتها. وهذا وحدَه يكفي لدفعي إلى شدوق الندم. رجعت إلى البيت تلك الليلةَ في وقتٍ متقدم. فتحت باب المنزل بهدوء، وأغلقتُه بهدوء. المنزل مُظلم، وكل شيءٍ من حواليَّ ساكن. أخذتُ طريقي إلى المطبخ. «الأغذيةُ الفاسدة» ما زالت كما تركتها في ثورة غضبي التي هدأتْ قليلاً. ذهبتُ إلى غرفة المنزل الوحيدة. فتحت بابها بهدوء، وأشعلتُ فيها النور بيدٍ مرتجفة. كانت أمي ترقد ساكنةً في الفراش. لست أدري إنْ كانت نائمة. خطر لي أن أرتمي عند قدميها أقبّلهما. لكنني لم أفعل. كنت أشعر بأني خسرت المباراة من قبل أن تبدأ اللعبة. وجعل هذا الشيء يغيظني. أطفأت النور. أغلقت الباب. رجعت إلى المطبخ المضاء. سرحت بنظري على بقايا أطعمة الأثرياء. كنت أشعر بالجوع. اقتربت من تلك البقايا. وامتدّت يدي مرتجفةً إلى إحدى الأواني. تناولت منها قرصاً من الكبّة المحشوة بلحم الغنم والكثير من الصنوبر و اللوز. رفعت القرص إلى فمي. قضمت قطعةً منه. غُصَّ حلقي، وغصّ قلبي، وسالت الدموع على وجنتيْ، وشعرت بأنني أختنق، فرميتُ بقايا قرص الكبّة في كيس الزبالة الأسود، وبصقتُ هناك ما كان منه في فمي، وكنت أشعر بالاختناق فعلاً، فأطفأتُ

النور في المكان، وَ وجدتني أجلس على الأرض منكمشاً على نفسي في زاوية المطبخ، بجانب المجلى. ألقيتُ برأسي على ذراعيّ وقد صالبتهما فوق ركبتيّ. كنت مقهوراً، حائراً. ماذا أفعل يا ربي؟ كيف لي أن أحصل على الراحة؟ كيف لي أن أحصل على السكينة والسلام؟ غرقت في أفكاري التي كانت كلها سواداً في سوادٍ. ولكي أهربَ من هذا العذاب رحت أستنجد بعلم حساب المسافات الذي كنت مغرماً به. كم بقي لي من زمنٍ أعيشه في هذه الحياة الرديّة؟ كم سنةً؟ كم شهراً؟ كم أسبوعاً؟ كم ساعةً؟ كم دقيقةً؟ كم ثانيةً؟ وهل الثانية هي أصغر وحدات قياس المسافة في الزمن؟ لا شكّ بوجود وحدةٍ أصغر منها أو أقصر. وحدة يعرفها العلماء وأجهلها أنا. حسناً، فلتكن الثانية التي أعرفها أنا هي وحدة القياس اللازمة. الثانية بالنسبة إلى الضوء تساوي ثلاثمئة ألف كيلو متر، ولكنها بالنسبة إلى عدّاء المسافات القصيرة في الأولمبياد لا تزيد عن عشرة أمتارٍ فقط، أما بالنسبة إليّ فمن المؤكد أنها لن تزيد عن سبعة أمتار. إذن، عليَّ أن أضرب السبعة في ستين لأحصل على سرعتي في الدقيقة، ثم أضرب الحاصل في ستين أُخرى، ثم في أربعٍ وعشرين، ثم في ثلاثمئة وخمسةٍ وستين، ثمّ في عدد سنوات العذاب التي أفترض أنني سوف أعيشها. رحت أضرب الأرقام ببعضها، من دون يأسٍ مرّةً من بعد مرّة. ولكن مهلاً. الأمور لا تسير على هذا النحو الاعتباطي. هناك قوانين صارمة بهذا الخصوص: الزمن يساوي المسافة تقسيم السرعة، والمسافة تساوي حاصل ضرب السرعة بالزمن، والسرعة تساوي المسافة تقسيم الزمن. يلزمني قلمٌ وَ ورقة. عقلي ليس كومبيوتراً. ها هي الكتب والدفاتر والقلم على الرف بجانب الشاي والسكر والقهوة والأغذية الفاسدة. ولكنها تبدو بعيدةً جداً، رغم أنها بجواري. أظنني كنت قد بدأت أفقد كلّ ملمحٍ للنشاط. لم يبقَ عندي إلّا هذه الرأس الثقيلة. ولكنَّ جزءاً منها ما زال يعمل بعد، فما زلت بعد كل عمليةٍ حسابيةٍ جديدةٍ أقوم بها، أصل دائماً إلى النتيجة ذاتها: لن أعيش أكثر من ثانيةٍ واحدة من زمن سرعة الضوء حتى لو

بلغتُ من العمر ألفَ سنة. ولكن، أتراني لا أرتكب خطأً جسيماً حين أعتبر سرعة الضوء هي ذاتها سرعة الزمن؟. أم تراني أهلوس، وأنّ الزمن لا سرعة له؟ بل إنه شيءٌ ثابتٌ، بينما المتحول هو نحن. هو الكائنات الحيّة. ليس الجماد بطبيعة الحال. من المؤكد أنّ الحجارة والتراب ثابتةٌ كالزمن. إذن، يا ليتني كنت ترابا! كنت أتحايل على الحزن والقهر في غمرة الحسابات الطويلة، فتوقفتْ دموعي عن الجريان رويداً رويدا. ورويداً رويداً كذلك بدأتُ أفقد الحواس، حتى أغفيت. كان الليل بارداً بعد. كم طالت غفوتي؟ لا أعرف بالضبط. ربما كانت ساعةً واحدة، أفقت بعدها وأنا أرتجف. ويبدو أنّ أكثر من كابوسٍ قد زارني في المنام خلال تلك الساعة. ولعلّني صرخت أستغيث طالباً الرحمة. وفزعتْ أمي في الغرفة الوحيدة، وجاءتني لاهثةً حافيةَ القدمين، وارتمت عليَّ وهي تقرأ المعوّذات. وأفقتُ من نومي ومن هلوساتي بين ذراعيها، وهي تولول بصوتٍ مخنوق:

ولي على قامتي! ولي على قامتي! ولي على قامتي!. سلامة قلبك يا حبيبي يا أمجد.

كنت أسمع صوتها كما لو أنه قادمٌ من كوكبٍ آخر. كنت ما أزال أرتجف. إنها الحمّى ترجّني رجّا.

ولي على قامتي! الولد سخن متل النار. قوم حبيبي قوم.

وساعدتني على النهوض من قعدتي. وكنتُ مثلَ خرقةٍ بالية. أخذتني إلى الغرفة. مدّدتني على الفراش وأنا بكامل ثيابي. خلعتِ الحذاء من قدميّ. دثّرتني بعديد الأغطية الثقيلة. انصرفتْ بعد ذلك مسرعةً إلى المطبخ، وراحت تعدُّ لي منقوع الميرمية، فقد كانت أمي من أتباع هذه المدرسة في علاج الأولاد. ولكنَّ الميرمية لم تنجح هذه المرّة. بقيتُ أشكو من الحمّى ومن الهلوسات. كنت أنام وأصحو. وكنت كمن يسأل: أين أنا؟ وكنت أرى أمي، وأكاد أن أسأل: من تكون هذه المرأة؟ ولماذا تندب وتبكي؟ كانت تقول: يا حبيبي يا أمجد! يا حبيبي يا أمجد! وأكاد أن أسأل أيضاً: من يكون

أمجد الذي تبكيه هذه المرأة الغريبة؟ ولكنّ الوسن الثقيل يمنعني من السؤال الذي يظل بلا جواب. ثم أستيقظ ويدُ المرأة قد حطّتْ على رأسي وهي تقرأ آية الكرسيّ بصوتٍ خاشع، فأتخيل أنني قد متُّ، وصعدت إلى السماء، وها قد جاءت ساعة الحساب. وأغيب في النوم من جديد، ثم أستيقظ ولا أثر لتلك المرأة الغريبة بجواري. كانت قد خرجت من البيت بعد انتصاف الليل. ذهبت تطلب المساعدة من الجيران. كان منزل أيمن الأقرب إلينا من منازل بقية أفراد الشلّة. كان الفتى نائماً. أيقظتْه أمي من النوم وجميعَ أهله. هبّ الفتى لنجدة صديقه. أتذكر أنني شاهدته بجواري في إحدى لحظات اليقظة. وأتذكر أنه كان بالبيجاما. وأتذكر أنه اختفى، وأنه ظهر من جديد، وكان يسقيني رغماً عني شراباً مرَّ المذاق. أتذكر أنني قلت له: هادا إنت؟ حتى بالحلم عم تطلعلي يا رجل؟! وأتذكر أنه ضحك، وقال: إي بدي أجيك مع المي من الحنفية كمان. وساعدني، بل أرغمني، على ابتلاعِ قرصين كبيرين من دواءٍ أبيض اللون. كان الفتى قد ذهب ركضاً يبحث عن صيدليةٍ مناوبة. وربما كان يعدو بسرعة الضوء. وكان ما زال بالبيجاما بعد. وأتذكر أنني أغفيت. ثم لم أستيقظ حتى الصباح. لم يكن لأيمن أثر في المكان. كانت أمي تغفو بجواري. لم أستوعب في البداية شيئاً مما حصل لي في ليلتي الفائتة، حتى إنني قلت لأمي: ماما ليش نايمة هون؟ وأفاقت المرأة على صوتيَ الواهن، وقالت:

يا حبيبي يا أمجد! موتتني من الرعبة عليك. صار لازم تاخد الدوا. كيف حاسس حالك؟

أنا منيح. بس راسي عم يوجعني.

راسي أنا انشالله ولا راسك.

كانت تريد أن تبكي وهي تكاد أن تهلِك من الأسى على ما أصاب ابنها الوحيد من غمٍ وقهرٍ وحمّى. وعانقتني وهي تقول:

الحمد لله! السخونة راحت. الحمد إلك يا رب! والله رفيقك أيمن بينشدّ فيه الضهر، بينشرب مع المي العِكرة. فتل نص البلد بعز الليل وما رجع إلّا وجايبلك دوا عطاه ياه الصيدلي، وقال له هادا الدوا منيح والمريض بيخف عليه بسرعة، وهاي ليك الحمد لله خفّيت. الحمد لله على سلامتك يا عمري إنت يا أمجد!

وأتذكر أنني تذكرت. تذكرت السبب والنتيجة، العلّة والمعلول. والمرأة تضمّني إليها. تعانقني بقوةٍ. تعانقني كما لم تفعل من قبلُ مرّةً، وكأنها تخشى أن تفقدني إلى الأبد، كانت تعانقني وتبكي، فما كان مني إلّا أنْ عانقتها فجأة، وبكينا نحن الاثنين معا. إذن، لقد صفحتُ عنها. لقد سامحتها على فقرنا المقدور. وهكذا تصالحتُ مع العار أخيراً، فما زالت أمي تعمل خادماً عند الست إلهام، وما زلت أتناول بقايا الأطعمة المسمومة حتى هذا اليوم.

هل أستحق بؤسي؟

هل نستحق بؤسنا؟

قالت لي شمسُ تواسيني من الحزن الثقيل الذي نزل عليَّ بعد حكايتي مع قرص الكبّة المسموم، ذلك الحزن الذي ما زال يتملّكني بالغصّة إلى اليوم، رغم أنني تصالحتُ مع العار:

لا تحزن يا صديقي.

هوِّن عليك يا أمجد.

إنّ الله لن ينسانا من رحمته.

المسألة كلُّها مسألةُ وقت. مسألة صبر.

إنّ الله يمتحننا.

ولكنْ لماذا يمتحننا الله يا شمس؟

لا تكفر بالله يا أمجد. إنه يمتحن صبرنا على البلوى لحكمةٍ نجهلها نحن عباده الفقراء. علينا أن نصبر يا صديقي. علينا أن

ننجح في الامتحان. من يدري؟ لعلَّ القادم أفضل، فما لا يأتي بالصبر قد يأتي بمزيدٍ من الصبر.

كنّا نجلس في باحة المنزل ونحن نقشّر عرانيس الذرة البيضاء. فسألتها وِدادُ التي كانت تساعدنا وقد صارت في الحاديةَ عشْرةَ من عُمْرها، أي أنها لم تعد تلك الطفلة الصغيرة الفصعونة:

كيف يعني؟

يعني اخرسي. بعدك صغيرة على هذا الكلام.

حزنتْ وِدادُ من جواب شمس، و تركتْ ما بيدها، ونهضت و انصرفت و هي تبكي. لا أتذكر هذه البنتَ إلّا خائفةً، أو باكيةً، أو هاربة.

4

في الألم يتساوى البشر، فالوجعُ لا دينَ له.

قبل قليل.. على الرصيف المُبَلل ببقايا المطر. عند بناء المهندسين بالقرب من ساحة المحافظة في قلب دمشق، أو حتى في قلب القلب منها. وتحت أضواء المصابيح الشاحبة. طفل له من العمر حوالي ست سنوات. كان يجلس متربعاً على الأرض الباردة مرتجفاً. كان يبكي وهو يأكل سندويشة أظنها من الفلافل (الطعميّة) ـ لم يساعدني الضوء الشحيح على تمييز نوعها، ثمَّ إنَّ بصري قد بدأ يتراجع في الآونة الأخيرة، حتى إنني زرت اليومَ طبيبَ عيونٍ لهذا الغرض. قال لي بعد الفحص: صار لا بدّ من نظارةٍ طبيّة. نظّارة مزدوجة. هناك انحراف، وهناك مدٌّ أيضاً. وأعطاني وصفةً كتب فيها درجة الانحراف والمدّ في كلِّ عين. ذهبت إلى محلٍ يبيع

البصريات، واخترت شكل ونوع أولى نظّارات حياتي. سوف أضعها على عينيّ ابتداءً من مساءِ بعدِ غدٍ.. أبقى الآن مع الطفل الذي يبكي وهو يأكل الفلافل. كان يقف بجانبه رجل في حوالي الأربعين من العمر، وهو يتحدث بالموبايل بصوتٍ مرتجف، فقد كان الرجل يبكي أيضاً، ولكن بمرارة.. واضح أنّ الاتصال صعب، مشوّش، ومع ذلك، فإنّ الرجل لم يكن يرفع صوته المتحشرج أصلاً.. الهيئة أنه خجلٌ من أن يسمعه أحدٌ من الناس أو من أن يراه مكسوراً.. لهجته توحي بأنه قادمٌ من جهة البادية السورية.. منطقة داعش والأمريكان.. دفعني الفضول لأن أحاول أن أسمع شيئاً ولو يسيراً ممّا يقول.. توقفتُ مطرحي على الرصيف ووجهي باتجاه فندق أمية، بحيث أبدو كأني أنتظر أحداً ما.. تصرفت هكذا طبعاً حتى لا أجرح كرامة هذا الإنسان المقهور.. بقيت واقفاً في مطرحي حوالي دقيقتين مُنصتاً، لكنني ما قدرت أن أفهم شيئاً من كلامه سوى: نحن بأمان بأمان بأمان (كررها حوالي عشر مرّات)، أنتم أين صرتم؟ هذه أيضاً كررها حوالي خمس مرّات قبل أن ينقطع الاتصال تماماً ويقعد الرجل بجانب الولد الذي ما عاد قادراً على أن يكمل مضغ السندويشة من شدة البكاء.. من جهتي شعرت بالخجل أمام هذا الوجع.. مشيت، وبدأت أضع بعض السيناريوهات للمشهد الذي رأيته وسمعته.. جال في رأسي عديد الاحتمالات.. ربما كانت أربعة.. والأربعة كانت تأخذني إلى نفس المطرح: هذا الرجل مع ابنه بالكاد هربوا من مجزرة بعيدة.. بالكاد وصلوا إلى دمشق التي من الواضح أن ليس لهما فيها أحد، والرجل يحاول بلا جدوى الاطمئنان على بقية أهله.. ابتعدتُ.. تابعت طريقي.. شعرت بحاجة مُلّحة لكأسٍ كبيرةٍ من القهوة.. نزلت باتجاه مقهاي المفضل الذي أرتاده منذُ تسعَ عشرةَ سنة: مقهى هافانا.. يا الله! منذ أن مرضت سلمى لم أحضر إلى هنا..

دخلتُ المكان

توقفت في مطرحي وسْط المقهى،
وألقيت في الأرجاء نظرة طويلة
كنت أتمنى لو أسمع صوت أحدٍ من الأصدقاء القدامى يناديني..
سامر مثلاً:
هنا أمجد هنا!
غير أني للأسف ما سمعت شيئًا..
مع أنّ الناس كانت كثيرة،
لكن ما من أحدٍ منهم عرفني،
ولا أنا عرفت فيهم أحدا،
يا ترى هم كانوا الغرباء؟
أم أنّ الغريب كان أنا؟
مكتبة
t.me/t_pdf
شعرت بغصّة في الصدر..
قررت أن أغادر المكان..
وما إنْ وضعتُ قدمي على الرصيف حتى سمعت صوتاً يناديني.
كان صوتاً ليس غريباً:
كيف حالك يا أستاذ أمجد؟
التفتُّ إلى صاحب الصوت..
إنه ماسح الأحذية..
قبل الحرب كان ما يزال شاباً بعد،
لكنه الآن صار كهلا إلى حدٍ ما..
أهلاً (أبو خليل)!

أين هذه الغيبة الطويلة يا أستاذ أمجد؟

كنت مسافراً يا (أبو خليل)..

لا أعرف لماذا كذبت عليه..

أنت ما أخبارك يا (أبو خليل)؟

على حطّة يدك يا أستاذ.. كأنك منصرف؟!

لا، لست منصرفاً، سوف أقعد هنا وأشرب فنجان قهوة..

نظر الرجل إلى الحذاء في قدميّ..

مثل العادة..

أهم شيء في الدنيا هو لمعة الحذاء..

هكذا دائماً كان أبو خليل يقول..

وأنا أيضاً، مثل العادة، شبه ابتسمت..

وربما شعرت بالفرح لأنَّ ثمّة مَن عرفني أخيراً وعرفته..

أنا بانتظارك يا (أبو خليل)..

دخلت المقهى من جديد،

وجلست في المكان المُتاح..

مكاني المفضل كان محجوزاً من الغرباء..

وطوال الوقت لم تكن تفارقني صورة الأب والابن وسندويشة الفلافل المبللة بالدموع السخينة.

كان ثمّة خواءٌ في روحي.

يا الله!

أما آن لهذه الفجوة أن تنردم؟!

هربتُ من الغمِّ الذي حازني إلى الموبايل. وما إنْ فتحت

الجهاز حتى أغلقته فقراءة الأخبار لن تنقذني ممّا أنا فيه. وعادني ذلكَ الإحساس الغريب: لا شيءَ ولا أحد يمكنه أن ينقذني من لجّة الأسى الذي نزل بي إلّا وِداد. وفجأة.. يا الله! ها هي وِدادُ تقف أمامي. إنها هي فعلاً، ولكن رجعتْ بها السنُّ إلى حين كانت في العاشرة أو الحادية عشرة عندما كنّا نجلس متربعين في باحة الدار المكشوفة للسماء ونحن نقشر عرانيس الذرة وشمسٌ تقول لها: اخرسي وكفاكِ أسئلة، هذا حديث كبار وأنتِ ما تزالين صغيرة.. بنتٌ سميراءُ حلوة. هكذا كانت وِداد. وهكذا كانت الطفلة التي وجدتُها فجأةً تقف أمامي. ولكن وِدادَ كانت بنتاً سميراءَ نظيفة، فقد كانت شمسٌ توليها رعايةً واهتماماً كبيرين. وأما هذه البنتَ فمنكوشةُ الشعر، متسخةُ الوجه والثياب. كانت تنظر في عينيّ مباشرةً ويدُها مبسوطةٌ أمامي.

شو بدك؟

سألتُها. لم تردَّ على سؤالي. بقيتْ تنظر في عينيَّ ويدها مبسوطةٌ أمامي بلا ارتعاش. كان واضحاً لي أنها تطلب نقوداً. واضح أنها متسوّلة. في الماضي لم يسمحوا يوماً بدخول المتسوّلين إلى هذا المكان. يبدو أنَّ الحرب قد جاءت بتقاليدَ، أو حتى بقوانينَ جديدة في مختلِف مناحي الحياة من حولنا. مددتُ يدي إلى جيبي، وتناولت قطعة نقديةً ورقية من فئة مئتي ليرة، ومددتُها للبنت. التقطتْها بأطراف اثنين من أصابعها، ولم تقل أيَّ شيء، ولا حتى شكراً. وأكثر من ذلك، فقد رمقتني بنظرةِ غضب لأنني رجلٌ بخيل. هذه النظرة شجّعتني لأن أدردش معها، حتى وإنْ كانت متسوّلة. ولكنها كانت قد أدارت لي ظهرها وانصرفت إلى طاولةٍ ثانية. ناديتُها:

يا بنت!

توقفتْ. التفتتْ إليَّ نصفَ التفاتة، وسألتني بعينيها أن ماذا تريد؟ قلت:

شو اسمك؟ وِداد؟

اسمي نجاح.

نجاح؟ متأكدة؟

ضحكت، وقالت:

طيب لا تزعل. اسمي الأميرة نجاح.

وانصرفتْ إلى الطاولة التالية. قلتُ إثرَها:

استني لحظة.

ومن جديد التفتتْ إليَّ نصف التفاتة، وقالت ضجرةً مني:

وبعدين معك؟

وين ساكنة؟

ساكنة؟! أنا ماني ساكنة.

قصدي وين بتنامي؟ وين...

قاطعتني:

بالجنينة. جنينة المزرعة. بتعرفها؟

ولم تنتظر منّي ردّاً، بل شوّحت بيدها أن: اتركني بما أنا فيه. وذهبتْ إلى طاولةٍ أخرى وقوم آخرين، ومدّت يدها أمامهم بثبات. ولكنَّ أحداً منهم لم يُعطِها شيئاً. عبستْ في وجوههم. وتذكرتني. فنظرتْ إليّ من جديد، وانتبهتْ إلى أنني لا أرفع بصري عنها. وشجّعها هذا الأمر على أن ترجع إليّ مرّةً ثانية. جاءتني عابسة تماماً. ومدّت يدها من أجل النقود. قررتُ أن أُطيل معها الحديث، ولهذا كان يتوجب عليَّ أن أكون كريماً أكثرَ من ذي قبل. أعطيتها قطعة نقدٍ ورقية من فئة الخمسمئة ليرة (دولار أمريكي واحد. لاحظي يا سيدرا الدَرْكَ الذي هوتْ إليه قيمة الليرة خلال هذه الحياة

القصيرة). التقطتْها باليد اليسرى، بينما ظلّت اليمنى ممدودةً أمامَ وجهي، وظلّتْ عبوسَ النظرة. قالت وعيناها في عينيَّ مباشرة:

بدّي كمان.

استسلمتُ أمامَ عنادها، وأعطيتها ورقةً ثانية من فئة الخمسمئة. قالت كلمةً واحدة:

كمان.

قديش يعني كمان؟

كتير.

قديش كتير؟ ألفين؟ تلاتة.

عشر تالاف.

عشر تالاف؟!

عشر تالاف.

وشو بدّك فيها؟

لازمتني.

بشو لازمتك؟

لازمتني ضروري.

فهمت إنه ضروري. بس شو هوّ هادا الضروري؟

بدّي سقِّط.

شو هو اللي بدّك تسقطيه؟

بدّي سقّط اللي ببطني.

كانتْ تتحدث بيقين. وأنا كمنْ استوعب المقال ولم يستوعبه. نظرتُ إلى بطنها. رأيتُها بطنَ طفلة طبيعية في العاشرة من عمرها أو الحادية عشرة. لا شيء يوحي بصدق ما تقول. وخطر لي أنَّ

كلامها عن الحمل والإجهاض ليس إلّا تطويراً لوسائط التسوّل في البلد الذي يطحنه الفقر من بعد أن طحنته الحرب. ورأيتُ أنَّ الحديثَ مع متسولةٍ صغيرة كذّابة، حتى وإنْ كانت تشبه وِداد، لنِ يضيف شيئاً إلى ما خبرته من كثير المتسوّلين قبلها، فقررتُ أن أنتهي من هذا الحوار. التفتُّ إلى جهاز الموبايل كمن يعلن انتهاء الحديث. وجاء أبو خليل من أجل أن يأخذ الحذاء الذي أنتعله، وانتهر البنت وأمرها بأن تنصرف، ولكنها لم تمتثل للأمر. ظلّتْ تمدُّ يدها بإصرارٍ أمام وجهي. وظهر بباب المقهى فجأةً رجلٌ طويلٌ عريض فظُّ المظهر، ونادى من هناك بصوتٍ غليظ:

نجاح! تعالي.

ولبّتِّ البنت النداء. سحبت يدها من أمام وجهي وانصرفتْ إلى صاحب الصوت الغليظ.

عندما جاءني أبو خليل بالحذاء النظيف المُلمَّع قال لي:

هؤلاء عصابة يا أستاذ. يجب أن تحترس من أمثالهم في المستقبل.

5

استبقاني الأستاذ شوقي في الصف وقتَ الاستراحة بعد حصة مادة (القومية) التي طار نصفُها، و قال لي:

أجيبك أولاً عن سؤالك حول الفرق بين السنة وبين العام. السنة هي العام، والعام هو السنة من حيث عدد الفصول والشهور والأسابيع والأيام. ومع ذلك الفرق موجودٌ في الغاية من الاستخدام. موجودٌ عند التوصيف. السنوات عِجاف والأعوام سِمان. هذا باختصار شديد. والآن قل لي الحقيقة يا فتى..

تفضل يا أستاذ.

هل ساعدك أحدٌ في كتابة هذه الخاطرة أو حتى هذه القصة؟

لا يا أستاذ. ثم إنه لا يوجد مَنْ يساعدني. أمي بالكاد تعرف كيف تكتب اسمها.

وماذا عن الجيران؟

كلهم مثل أمي يا أستاذ.

وهل العنوان من عندك أيضاً؟

بالطبع يا أستاذ. ثم إنه عنوانٌ عادي.

أنت تراه عادياً؟

بالتأكيد يا أستاذ.

حسناً.. ولكن قل لي: لماذا أهملتَ ترقيم الصفحات؟

لا أعرف. نسيت الأرقام وأنا مسترسلٌ بالكتابة.

كنت مسترسلاً؟ هذا أمرٌ جيد. حسناً.. إنها حوالي ثلاثين صفحة. أو أكثر بقليل. أليس كذلك؟

تقريباً يا أستاذ.

ولكن لماذا خطَكَ صغيرٌ إلى هذا الحد؟ لقد أتعبتَ مني البصر في قراءة هذا النص.

أنا آسف يا أستاذ. إنني في الحقيقة لم أكن أملك الكثير من الورق غير المُسطَّر.

ولماذا لم تستخدم الورق المُسطَّر؟

لقد حاولت ذلك. ولكنني شعرت بأنّ الأسطر تقيّدني.

تقيّدك؟

نعم.

مفهوم. حسناً. كم استغرق بكَ الوقت في كتابة هذه الصفحات الثلاثين؟

لا أعرف. لم أنتبه للوقت الذي ابتدأتُ فيه بالكتابة. ربما كانت التاسعة مساءً، ولكنني متأكدٌ من الوقت الذي توقفتُ فيه عن العمل.

متى كان ذلك؟

عندما كان المؤذن في مسجد الحيّ ينادي في الناس لصلاة الفجر.

أي إننا نتحدث عن سبع ساعاتٍ تقريبا.

أظن ذلك.

هذا الإنجاز الطيب في سبع ساعاتٍ فقط؟

نعم، فأنا في الحقيقة لم أكن أخترع شيئاً يتطلب أكثر من هذا الوقت. كنت أرسم حارتنا التي أعرفها كما أعرف باطن كفّي.

ماذا قلت؟ ترسمها؟

أجل.

هل تمارس الرسم بالريشة والألوان؟

لا.

ولكنك ترسم بالكلمات.

ربما كنت كذلك.

هذا جيد.. أنت الآن في الثامنةَ عشْرةَ من عمرك. أي إنك تقف عند مفترق طرق الحياة الرئيس، فهذه سنتك المدرسية الأخيرة، والجامعة صارت بانتظارك. إذن، بماذا تفكر للمستقبل؟

بصراحة يا أستاذ كنت وما زلت أطمح بالحصول على منحةٍ دراسيةٍ إلى ألمانيا.

وماذا تحبّ أن تدرس في ألمانيا؟

كما كتبتُ في الخاطرة: الفيزياء.

تريد أن تدرس الفيزياء و تنسى ترقيم الصفحات؟!

ما علاقة هذه بتلك؟

لا أعرف. مجرد سؤال. وهل المنحة في متناولك؟

لا. بالتأكيد لا. أولاً يجب ضمان الحصول على المُعدّل كاملاً في الشهادة الثانوية. وثانياً هناك الواسطة. وأنا لا واسطة عندي.

الواسطة. نعم. صحيح. للأسف. لا واسطة عندك. هذا واضح، فهل عندك خطةٌ بديلة؟

لا. لا يوجد خطّة بديلة. يوجد المُتاح، الممكن. ربما كان الأدب الإنجليزي على الأرجح، فعلاماتي في هذه المادّة غالباً ما جاءت عالية.

الأدب الإنجليزي خيارٌ لا بأسَ به، ولكن لماذا لا تدرس الرسم بالكلمات؟

تقصد الكتابة يا أستاذ؟

أجل.

وهل الكتابة تأتي بالدراسة؟

لا طبعاً. الكتابة تأتي بالموهبةْ أوّلاً. والموهبة لا تأتي بالدراسة، و لا تأتي بالواسطة كذلك، لأنها ـ أي الواسطة ـ تجيء من البشر، وكلّ ما يمنحك إيّاه البشر مؤقت، ومآله التلاشي، مآله الضياع والخيبة المريرة، فهم يعطونك أشياءَ بالمجّان، والأشياءُ المجّانية غالباً ما تكون الأغلى ثمناً، لأنها ليست إلّا مصيدة الغرور الذي يقتل الموهبة.

فهل تراني موهوباً يا أستاذ؟

في الحقيقة إنه سؤالٌ ليس ذكياً. أما الجواب عنه فلسوف يكون مجرد حماقة.. لماذا تبتسم؟

لأنني لم أفهم شيئاً من جوابك.

حسناً، سوف أقول فكرتي بكلماتٍ أكثر بساطة: أنت أنجزت نصّاً طيّباً في سبع ساعاتٍ فقط، غير أنك لا تستأهل بعدُ صفة موهوب. لكن من يدري؟ قد تستأهل هذه الصفة بعد عشر سنوات. إذن، امهلني عشر سنواتٍ أُخرى قبل أن أجيب عن سؤالك.

عشر سنوات؟!

المثابرة يا بنيّ.. المثابرة. فلا موهبةَ بلا مثابرة. نحن نسمّي الموهبة موهبة لأنها هِبةٌ من الله عزَّ وجلَّ، وما يهبه الله لنا يكون فيه شيءٌ منه: الخلود. والخلود هو التجسيد الصارخ للحب الأبدي. أجل، الموهبة سمةٌ إلهية خالصة يصطفي بها الله بعض عباده القادرين على تحمّل المشاق، ولذا فإنَّها، أي الموهبة تحتاج إلى شغل كبير، إلى تعب، إلى دراسة، فالدراسة تصقل الموهبة.

وماذا عليَّ أن أفعل خلال هذه السنوات العشر؟

اسمع يا بنيّ، الموهوب يترك كل شيء ويلحق موهبته. إذن، الحق موهبتك، اتبعها، ولو إلى القمر. في هذه الصفحات الثلاثين قلمٌ واعدٌ يا أمجد. لا أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا. لا أستطيع أن أقول: أنت مشروع كاتبٍ أيها الفتى. أكررها للمرّة الأخيرة: هناك الاجتهاد، هناك التعب، هناك المثابرة، فالموهبة من دون التعب والمثابرة لا تساوي قرشاً واحداً، وهناك الثقافة بطبيعة الحال، وعموماً هناك المعرفة بالحياة، والمعرفة باللغة أيضاً، فاللغة هي سلاح الكاتب لأنها أسلوبُه الذي يميّزه عن سواه. إنَّ مخزونك اللغويّ ما يزال فقيراً إلى حدٍ ليس بقليل، ولكنْ لا خوفَ عليك من هذا الأمر، فأنت ما تزال صغيراً، ورغم ذلك لديك صورٌ أدبيةٌ جميلة، ولديك أيضاً صورٌ سينمائيةٌ جميلة. لماذا لا تدرس أدب السيناريو مثلاً؟

كيف؟ وأين؟ هل عندنا في سوريا مثل هذه الكليّة؟

لا، للأسف. ما زلنا متخلّفين في هذا المضمار مثل تخلفنا في الفيزياء و بقية العلوم.

إذن، كيف سأدرس السيناريو؟

منحة دراسية إلى بلدٍ أوروبي.

وماذا عن الواسطة؟

هذه الصفحات الثلاثون هي واسطتك. وأنا سوف أكون الوسيط بينك وبين المنحة.

هل عندكم معارف مهمّون في البلد يا أستاذ؟

لا، ليس تماماً. وفي جميع الأحوال، دع هذا الأمر لي. إنْ أخفقتَ في الحصول على مبتغاك في الفيزياء كلّمني، وأنا سأبذل أفضل ما لديّ من أجل أن تحصل على منحةٍ دراسية تناسبك.

ثم ابتسم وأردف:

أظنك سوف تكتب لنا قصصاً أغنى وأجمل من سيناريوهات شمس، ومن سيناريوهات أختها الصغيرة الباكية. ماذا كان اسمها؟

وِداد يا أستاذ.

نعم، صحيح، وِداد. تبدو بنتاً لطيفةً و بريئة.

هي كذلك فعلاً يا أستاذ.

6

اعذرني. لا أستطيع مساعدتك في شيء. قضيتُكَ صعبةٌ جداً، فأنتَ مصابٌ بالحنين.

لشدَّ ما تمنيتُ يا سيدرا لو أكتب رواية عن وِدادَ في وقتٍ من الأوقات! ولشدّ ما حاولت ذلك طوالَ اثنتي عشرة سنةً خلت (هي زمن طلاقنا كما تعرفين)! نعم، لقد تركتني وِداد قبل اثنتي عشرة سنة

تقريباً. هل تركتني من أجل سامر صديق الطفولة؟ الجواب: ربما كان لا، وربما كان نعم. لست واثقاً من هذه النقطة. ولكنني واثقٌ من أنه ـ أي سامر ـ قد لعب دوراً ما في طلاقنا أنا وَ وِداد، من حيث يدري أو من حيث لا يدري. لقد حقق الرجل حلمه وسافر إلى فرنسا «الشيوعية» قبل أكثرَ من خمسةَ عشرَ عاماً. كان قبل ذلك قد درس العلوم في جامعة دمشق. واشتغل لفترة قصيرة مُدرّساً في إحدى المدارس الإعدادية. ولكنّ مهنة التدريس لم تَرُقْ له، فراح يتّبع دوراتٍ في هذا المجال الواسع الذي كان جديداً، إلى حدٍ ما، على البشر، وبالأخص علينا نحن في هذا البلد: المعلوماتية، التي استطاع أن يتقدّم فيها آماداً قبل أن يحصل على منحةٍ دراسية من إحدى الشركات الفرنسية التي تشتغل في مجال البرمجيات. أقام في باريس حيث درس وتخرج واشتغل، وحصل لاحقاً على الجنسية الفرنسية. هل كان ثمّة علاقةٌ جسدية بين وِداد وبين ذلك الصديق القديم بعد الطلاق معي؟ الجواب هو: نعم. أو: أحبُّ أن يكون الجواب نعم، برغم أنّ وِداد قد أنكرت ذلك مرّةً، ومرّتين، وعشرَ مرّات. ولكنني أحبُّ أن أكون واثقاً من أنها كذبت عليَّ مرّةً، ومرّتين، وعشْرَ مراتٍ، بل وعشرين مرّة. أحبّ أن أعتقد بأنه قد حدث بينهما علاقةٌ من هذا النوع يومَ أن صارت المرأة في فرنسا. إنني واثقٌ من هذا الحب أو هذه الرغبة، مثلما أنا واثقٌ من أنَّ سامراً قد ساعد وِدادَ بشكلٍ من الأشكال، إبّانَ الحرب، في الوصول إلى باريس، كما ساعدها، من قبلُ، بالحصول على عملٍ في إحدى محطّات التلفزة الفضائية في دولة الإمارات العربية المتحدة. في دبيّ تحديداً. وأومن، عدا هذا كله، أنّ وِدادَ كانت قد أحبت سامراً وهي مراهقةٌ بعد، حين كنتُ أنا بعيداً عن البلد للدراسة، شأنها شأن بقية بنات عشوائيتنا. ما السرُّ الكامنُ في ذلك المراهِق؟ ما السرُّ الكامن في هذا الشاب؟ من أين يأتي بكل تلك الجاذبية وبكلّ تلك السطوة الطاغية على قلوب البنات، رغم أنه ليس أكثرنا وسامةً أو جراءة في المغامرات مع النساء؟ لا أعرف. إلى اليوم لا أعرف. لم يبقَ بنتٌ في

حيّنا إلّا وقعتْ في هواه. وَ وِداد لم تكن استثناءً. أكاد أجزم بهذا الأمر. وأكاد أجزم بأنّ سامراً قد صرفها عنه، في ذلك الوقت، كما فعل من قبلُ مع بناتٍ عديداتٍ سواها، من دون أدنى شعورٍ بالأسف، فقد كان الوحيد بين أفراد الشلّة الذي لا يحمل جوعه بين فخذيه، ولا يحمل في رأسه أحشاءَ دجاجة كما كان يتهمّنا. وعلى الأرجح أن يكون قد صرف وِدادَ عنه بلطافةٍ كعادته، وليس هي مَنْ انصرف عنه بإرادتها. أجدني أتحدث عن هذه النقطة الأخيرة بسندٍ قوي، ليس بسبب ثقتي بِما قالت لي وِدادُ سابقاً أو بما قد تقول في المستقبل بهذا الشأن أو ذاك، ولكن بسبب معرفتي الجيّدة بها، فهي شخصيةٌ ذاتُ طبقاتٍ عدّة. أو بكلماتٍ ثانية: إنها شخصيةٌ ذاتُ أبعادٍ متباينة، بخلاف سلمى ذاتِ البُعدِ الواحد التي يغمرها نورٌ ساطعٌ من جميع جوانبها، بحيث تغيب عنها الأسرار، وتكون مقروءةً بالكامل من أولِ نظرة. والشخصية ذات البعد الواحد، كما نقول في الدرامة، هي الأقلُّ مدعاةً للتعاطف، حتى لو كان الخيرُ جوهرَ هذا البعد. أما الشخصية ذات الأبعاد المتعددة فهي تلك المَحوطَةُ بالظلال أو بالغموض الذي يبقى الأكثر مدعاةً للتأمل، والأكثر مدعاةً للتشويق، حتى وإن كان الشرُّ جوهرَ تلك الخلطة من الأبعاد المتباينة حتماً. وهكذا تماماً كانت وِداد. لا أقصد طبعاً أن أقول: إنّ هذه المرأة قد كانت شرّيرة. لا، أبداً. ولكنها مع ذلك فقد كان يصعب قراءتها، ولو من عشرين نظرة. أنا واثقٌ من أن سامراً قد صرفها عنه وقتئذٍ مثل ثقتي بأنّ قلبها لم ينصرف عنه في يومٍ من الأيام، حتى وهي تعيش معي تحت سقفٍ واحد، وتعلن كلَّ صباحٍ وكلَّ مساءٍ، بأنها تحبني حبّاً لا عديلَ له بين سائر العاشقين. وبالمناسبة، لقد كانت صادقةً تماماً في أقوالها تلك. وكنت بالتالي أصدّقها تماماً. أصدّقها دائماً، من دون أن أتوقف يوماً عن التشكيك في صحة ما تقول، وذلك ليس بسبب سامر، بل بسبب سواه أيضاً. أظنُّ أنّ العقلَ عندها منزلُ الشيطان، ولهذا فإنها لم تكن تعوِّل عليه في كثيرٍ أو في قليل. خرجتْ من البيت ذاتَ أحد أيام زواجنا لتشتري من دكانٍ (نوفوتيه) في الجوار شيئاً

من إكسسوارات الشعر أو الثياب. غابت ستَ أو سبعَ دقائق لا أكثر، ورجعتْ إليَّ بعدها عاشقةً لرجلٍ آخر. باختصار: لقد وقعتْ في غرام البائع الشاب الوسيم في دكان النوفوتيه. ربما كنتُ أبالغ بعضَ الشيء حين أقول إنها وقعت في غرام ذلك الشاب، ولكنني مع ذلك فإنني لا أجانب الصوابَ إلّا قليلا. رجعتْ إلى البيت في ذلك المساء، بعد تلك الدقائق الست أو السبع، متوهجةً على نحوٍ غير عاديّ. متوهجةً، رائقة، مبتهجةً، ومترنّمة. وعندما سألتُها عمّا بها، قالت: لا شيءَ سوى أنّ الحياة حلوة، بل شديدةُ الحلاوة. قلتُ تعقيباً على كلامها: خير اللهم اجعله خير. ولكنني كنت أسرُّ في نفسي شيئاً من الخوف والريبة. وفي اليوم التالي تبينّ أنّ لخوفي وريبتي ما يبررهما، ففي المساء أيضاً، عادت وخرجت من البيت لست أو سبع دقائقَ أخرى لكي تشتري شيئاً لا تحتاجه من إكسسوارات الشعر أو الثياب. ومن جديد: رجعتْ إلى البيت متوهجةً، مترنّمة. وقد لفتَ هذا الأمرُ انتباهي بقوة. سألتها عن حاجتها إلى شراء شيءٍ اشترتْ مثلَه بالأمس فقط. لم تردَّ عن سؤالي. كنّا في الصالون، وكانت أمي حاضرة. تركتنا أنا وأمي في الصالون، وذهبتْ إلى غرفة نومنا. لحقتُ بها إلى هناك. أغلقتُ الباب خلفي جيداً، ورجعتُ إلى سؤالي عن حاجتها إلى شراء شيءٍ لا تحتاجه. قالت: هل تعدني بألّا تغضب؟ قلت: أغضب من أجل أيّ شيء؟ قالت: من أجل بضع ليراتٍ تمَّ إنفاقها بلا جدوى. قلت: وهل سبق لي أن اكترثتُ مرّةً لأمرٍ تافهٍ كهذا الأمر؟ قالت: لا. أعرف أنك لن تكترث لأمرٍ مثل هذا. قلت: إذن، من أجل أيّ شيءٍ أغضب أو لا أغضب؟ قالت: يجب أن تعدني أوّلاً. قلت: حسناً، إنني أعدكِ بألّا أغضب. صمتتْ لحظةً طالت قليلاً وهي تحدّق في وجهي النظر. قلت: إنني أسمعك. قالت بصوتٍ ضعضعه الانفعال: في هذه النوفوتيه التي دخلتها بالأمس أوّل مرّة يوجد شابٌ جميل، جميلٌ جداً. لاحظي معي يا سيدرا أنها لم تقل: شابٌ وسيم، بل جميل. أعترف لكِ يا صديقتي بأنني كدتُ أن أفقد صوابي، ولكنني مع ذلك تماسكت، وقلت: في الشارع أيضاً ثمة شبابٌ جميلون، وفي الجامعة

أيضاً، وكذلك في المواصلات، وفي كل مناحي المدينة، فماذا إذن؟ قالت: لا أعرف، ولكنني منذ مساءِ أمس وأنا أفكر بهذا الشاب، أفكر بابتسامته على وجه الخصوص. قلت ببرودة أعصابٍ، برغم الغيظ الذي كان ينهشني تلك اللحظة: حسناً، ها أنا ذا لم أغضب كما ترين، ولكنني سأقولها لكِ بكلٍّ وضوح: إنَّ من حقّكِ أن تعجبي بهذا الشاب أو بسواه، رغم أن الذي أراه على وجهك يفوق مجرد الإعجاب. لكن، ومن أجل أن نكون متعادلينْ، أظن أنّ من حقي أنا أيضاً أن أطالبك بأن تؤجّلي ممارسة هذا الحقَّ إلى ما بعد الطلاق الذي يمكن أن ننهيه في هذه اللحظة إنْ كنتِ ترغبين بالأمر. قلت لها ذلك الكلام بهدوء، ولكن بثقة، وثبات، فقد كنت جادّاً تماماً في ذلك الطرح أو تلك المقايضة التي بدتْ لها قاسية. الطلاق هو الذي بدا لها قاسياً، حتى إنها راحت تنظر إليّ بدهشةٍ وقد انعقد لسانها، فارتمت فجأةً على السرير، وراحت تبكي، ثمّ تحوّل بكاؤها إلى نشيجٍ مكتوم. من المؤكد أنها كانت تخشى أن تسمع العجوز بكاءَها، فتتدخل في الأمر وتكبر الحكاية وتتشعب بحيث يصير من الصعب لملمتها بسهولةٍ بعد ذاك. ألقيتُ عليها نظرةً وهي تنشج وقد طمرتْ رأسها في الوسائد. ولم تأخذني بها شفقة. تركتها على تلك الحال، ورجعتُ إلى الصالون، وجاهدتُ في حضرة أمي بأن أبدو هادئاً، ولكنني أشكّ في أنّ العجوز لم تستشعر شرّاً، غير أنّها جاهدت هي أيضاً بأن تبدو كمن لم ينتبه لشيء، حتى إنها تظاهرت بالنعاس، وانصرفت إلى غرفتها بعد أن تمنّتْ لي ليلةً سعيدة. أظنها قد تمنّتْ لي ذلك من قلب قلبها، إذ من المؤكد أنها كانت تشعر بأنَّ ابنها الوحيد ليس بخير. كانت تشعر بذلك دائماً. يبدو أن الأمّ تملك عدداً أكبر من الحواس التي يملكها الآخرون من البشر. لقد قالت لي مرّةً: أنت ابني، ولو تغيّر نَفَسُك فإنني أعرف ما أصابك من فرحٍ أو من حزنٍ، حتى من دون أن تقول لي كلمةً واحدةً عمّا أصابك. نعم، لقد تظاهرتْ بالنعاس وانصرفت إلى غرفتها لكي تترك أمامي فسحةً للتفاهم مع زوجتي حول الموضوع الذي يشغلني، وينغصّ عليَّ

ليلتي. لم أرجع إلى وِدادَ بعد انصراف أمّي إلى غرفتها. لقد تعمّدتُ ألّا أرجع إليها، فقد كانت فكرتي حول صراع الحقّ مع الحقّ ثابتة: من حقّ الزوجة أن تعشق على زوجها، ولكنْ من حقّ الزوج أيضاً أن يمارس حقّه في الطلاق. إنها معادلةٌ بسيطة: حقٌّ بحق. تماماً مثلُ عينٍ بعين وسنٍ بسن. وفكّرت تلك اللحظة بأنَّ أسوأَ الدرامات هي تلك التي تعرض صراعاً بين الحق والباطل، بينما يكون أقواها ما يعرض صراعاً بين الحق والحق. وقلت في سرّي: سوف أفكّر بهذا الأمر لاحقاً. ذهبتُ إلى المكتبة. إلى جدّي البعيد: المتنبي. جلست إلى الطاولة. فتحت الديوان. ماذا لديكَ اليومَ لي يا جدّيَ البعيد؟

إذا غدرتْ حسناءُ وفّتْ بعهدِها فمِنْ عهدِها ألّا يدومَ لها عهدُ

أراحتني هذه الكلمات القليلة التي تركها لي جدّيَ الراحل قبل ألْفِ عام. كان كمن يقول لي: لا تحزن يا ولدي، فهذا هو القانون الأسمى الذي يحكم العلاقة بين المرأة والرجل، وأنت لا تملك حياله القوة اللازمة لدفعه بعيداً عنك، فدعِ الخلقَ للخالق، ولا تبتئس. بيتٌ واحدٌ من الشعر يختصر الحكاية كلّها. رحت أغوص في الديوان، حتى نسيت وِدادَ، بل حتى إنني قد نسيت نفسي تلك الليلة، ولم أرجع إليها إلّا بعدما كان الليل قد انتصف عندما انفتح باب غرفة المكتبة فجأة، وأطلّت وِدادُ عليَّ. لم أكلف نفسي عناء النظر في وجهها. أظنها كانت متهدّلةً تماماً. من المؤكد أنها قد ذرفت الكثير من الدموع خلال تلك الساعات القليلة التي انقضت على لحظة المكاشفة البلهاء. دنتْ منّي. وقفتْ خلفي مباشرةً. أحاطت رقبتي بيدين واهنتين، وأرْخَتْ رأسها على رأسي. لا أظنها كانت تنشد الغفران من وراء هذه الحركة بقدر ما كانت تنشد الصلح. لا بأس. فليكن الصلح، فأنا لا يهمّني أن يعود كليبٌ حيّاً. ليس هذا ما أسعى إليه في علاقتي بهذه المرأة التي حتى حين تكذب عليَّ فإنها تكذب بصدق. همستْ لي تقول إنها حزينةٌ لأني أشكُّ بإخلاصها لي. لم أعلّق بشيء على كلامها. رَبَتُّ بيدي على ظاهر كفّها المحيطة برقبتي. وكنت

بتلك الحركة كمن ينهي هذا الفصل السخيف من تلك المسرحية الرديئة تأليفاً وإخراجاً وتمثيلا، رغم بعض الألم المجّاني الذي سبّبته لي قسوة اللحظة. على أية حال، لم تعد هذه الذكريات مهمّة الآن، والمرأة تطلب لقاءً في بيروت، كما كان يبدو لي خلال اثنتي عشْرةَ مِنْ سنينٍ حاولتُ خلالها أن أكتب روايةً عن وِدادَ وعن زواجنا الذي دام أعواماً ثلاثةً أو أكثر بنصف سنةٍ تقريباً. ولكن لشدَّ ما أخفقتُ في مسعاي!. انتهتْ كتابتي كلّها إلى مسوّدةٍ (معالجة) كبيرة بعض الشيء من أجل فيلمٍ روائي طويل أشكُّ في أنه سوف يرى النور في يومٍ من الأيام. مُسوّدةٌ لا تعدو أن تكون أكثر من ملخّصٍ للرواية المُشْتهاة.

بالمناسبة، أكتب لكِ اليومَ يا سيدرا والنظّارة الطبيةُ على عينيّ. لم أألفها بعد. قال لي رجل البصريات: بعد يومين أو ثلاثة تتأقلم معها. قلت له: تقصد أتعايش معها. ضحك، وقال: نعم بالضبط، تتعايش. في النهاية جميعنا يتعايش مع كلٍّ شيء.. ها نحن نخرج من عتمة الغابة سالمينْ.. أنتِ دليلٌ رائعٌ يا كاتيا.. ها نحن نخرج إلى الشمس، إلى الحضارة، ثمة محطة مترو في القريب من هنا. أشتاق إلى كأسٍ من الجنّ بالليمون أو الصودا، فماذا عنكَ أنت؟ أشتاق إلى ما تشتاقين يا صديقتي. هيّا بنا.

كنتُ من العُمْر في الثانيةَ عشْرةَ يومَ رأيتُ وِدادَ أوّل مرّة.. التقيتها في طريق العودة إلى البيت من المدرسة. كانت في السادسة من عمرها بعد.. تلميذةٌ في الصف الأول الابتدائي، سُمَيْراءُ، ناحلةٌ، لها شعرٌ أسودُ كثيفٌ ترميه خلف رأسها وقد ربطوه لها في جديلةٍ سميكة على شكل ذيل الفرس. بنتٌ تشبه أغلبية بنات حيّنا العشوائيّ في كل شيءٍ تقريباً، ولا يميّزها عنهنّ إلّا شدّةُ الخوف الذي يكاد أن يتحول عندها إلى واحدةٍ من نوبات الهلع في اللحظات العصيبة كتلك اللحظة التي خرجتْ فيها من المنزل لمواجهة العالم في يومها

المدرسيّ الأول. كانت تتحاشى كل شيءٍ وكلَّ أحد في طريق عودتها إلى البيت ذاتَ نهارٍ قائظٍ من شهر أيلول (سبتمبر). هو النهار ذاته الذي تشاجرتُ فيه مع سامرٍ بعنفٍ وصل إلى حد إراقة الدماء. وهي البنتُ ذاتُها التي حملتُ بسببها في جبيني، فوق الحاجب الأيسر، علامةً فارقةً سوف تصاحبني إلى القبر حتماً. تكررت لقاءات المصادفةِ عشرات المرّات، بل المئات منها، فنحن أبناء حيٍّ واحد. حيٌّ عشوائي يعاني فيه الناسُ من أنفسهم قبل أيّ شيءٍ آخر، كما قال سامرٌ ذاتَ مرّةٍ يصف نفسه ويصفنا معه. قلتُ له يومئذٍ: أنت على صوابٍ تماماً يا صديقي، فنحن، في حقيقة الأمر، نعاني من أنفسنا قبل أيِّ شيءٍ آخر.. مئات اللقاءات التي لا تساوي في المحصّلة إلّا صِفراً من اللقاءات، فكلانا (وِداد وأنا) كان يكبر، بينما يبقى فارق السنوات الست ثابتاً، وهكذا فإننا عملياً لم نتقابل إلّا صِفراً من المرّات حتّى بلغتُ الثامنةَ عشرةَ من العمر. سافرتُ بعد تلك السنّ بعيداً بعيداً عن البلد الذي لم أرجع إليه إلّا في الرابعةِ والعشرين من عمري. هنا، نعم هنا بالضبط، أو هنا فقط، التقيتُ وِدادَ أوّل مرّة. التقيتها في الحارة بالمصادفة. لم أعرفها. ولكنها عرفتني من النظرة الأولى. اقتربتْ منّي باشّةً، وسلّمتْ عليّ بفرح. امرأةٌ صغيرةٌ، غضّةٌ، يانعةٌ، طويلةُ القامة، قمحيةُ اللون، طليقةُ الروح، بعينين عسليتين وسيعتين، وشعرٍ أسودَ غزيرٍ مثل شلّالٍ في الربيع. باختصار: ليست على شيءٍ من تلك الطفلة ذاتِ السنوات الست. وهكذا فإنني كنت أسأل نفسي أثناء حديثها إليّ: من تكون هذه المرأة الصغيرة الجميلة؟ ويبدو أنها حزرت ما يدور في خَلَدي، فاختصرتِ التوضيح كله بسؤالٍ واحد:

هل ما زال الجرح القديم يؤلمك؟

هنا هتفتُ من فوري:

وِداد، أنتِ وِداد، أليس كذلك؟

هتفت البنت من فورها أيضاً وهي تكاد أن تطير من الفرح، فقد كان في روحها بقايا طفولة بعد:

ها قد عرفتَني أخيراً. كم أنا سعيدةٌ بعودتك إلينا سالماً!.

ضحكتُ وقلت:

سالماً؟! أنا لم أكن في الحرب يا وِداد.

قالت:

الغربةُ أشدُّ فتكاً من الحرب..

سألتُ عن أخبارها. عرفت منها أن سنوات المدرسة قد انقضت إلى غير ما رجعة، وبأنها سوف تدخل قريباً إلى الجامعة، إلى كليّة الإعلام تحديداً، وبأنها تطمح لأن تصير في المستقبل إعلاميّةً كبيرة، فتنتشل أهلها من الفقر، وتساعد أبناء حيّها الطيّبين، وقبل هذه وتلك: «سوف أصير مشهورة.» وبأن لديها أسئلةً كثيرةً تطرحها عليّ لأنها مشتاقةٌ جداً لمعرفة أخباري في الغربة «البغيضة»، فالحارةُ، بل الحيّ كلُّه، قد افتقدني زماناً طويلا.. تكررت اللقاءات ثلاثَ مرّات في حواري حيّنا المتشابكة، ومرّتين في منزل العم (أبو علاء). كان علاء يقيم بعيداً عن دمشق حيث صار يشتغل في مصفاة النفط في مدينة حمص وسْطَ سوريا. وكان الأب ما يزال يعمل في بيع عرانيس الذرة المسلوقة صيفاً والفول النابت شتاءً، وكانت شمس ما تزال تساعده في تقشير العرانيس مع أختها وِداد. ستة أعوام لم يتغير خلالها شيءٌ في حارة نسيَها الزمن. وهكذا لم يعد مستحبّاً بالنسبة إليّ أن أتردد على منزلٍ ليس فيه إلّا امرأتان صغيرتان، برغم أن شمساً قد رحبّت بي بحرارةٍ صادقة. وهكذا أيضاً، ظلّتْ لقاءاتي بوِدادَ مرهونةً بالمصادفة. آخر تلك المصادفات كان مدبّراً. رنَّ الجرس في منزلنا عندَ صبيحة أحد الأيام من خريفيَ الأول في دمشقَ بعد الغربة. كنت وحيداً في المنزل. فتحت الباب، وإذ بي أمامَ

وِدادَ وجهاً لوجه. كانت الابتسامة مشرّعةً على وجهها. قالت من فورها:

حظّي جيد. لم نعد نراك بالصدفة في أزقّة حيّنا العشوائي.

هذا من سوء حظي يا وِداد.

هل خالتي أم أمجد في المنزل؟

لا، ولست أعرف أين هي الآن. أظنها قد ذهبتْ إلى سوق الخضار لتشتري طبخةً ما.

إذن، حظّي ليس جيداً.

لماذا تقولين ذلك؟

لأنني مشتاقةٌ لخالتي أم أمجد، بينما هي غير موجودةٍ في المنزل.

تستطيعين أن تنتظريها. ادخلي.

لا، لن أدخل.

لماذا؟

لكي لا يكون الشيطانُ ثالثَنا.

وضحكتْ، وضحكتُ، وقلت:

وماذا إنْ كان الشيطانُ ثالثَنا؟

لا، أنا لا أحب الشياطين، فهي تغمز للبشر بأن يرتكبوا الموبقات.

ورنّتْ في الحارة ضحكةٌ خليعة، برغم ما فيها من طفولة. وَ وجدتني أضحك أنا أيضاً. قلت:

وأنتِ لا تحبين الموبقات. أليس كذلك؟

لا أعرف. لم أجرّبها.

حسناً، خالتك أم أمجد ليست موجودة في المنزل، فهل سنظل بالباب واقفينْ إلى أن تعود؟

لا طبعاً. ماذا تفعل أنت في هذه اللحظة؟

إنني أقرأ.

تقرأ ماذا؟

أقرأ روايةً أمريكية غير مترجمةٍ إلى اللغة العربية. أحاول أن أستعيد لغتي الإنكليزية التي كدت أن أفقدها في المغترب الروسيّ.

هل تعرف؟ أنا أيضاً أحتاج لتقوية لغتي الإنكليزية. سوف أتبع دورةً في أحد معاهد اللغة ذات وقت قريب.

هذا جيد، وبخاصةٍ أنك سوف تدرسينَ الإعلام. تلزمك اللغة الإنكليزية ويلزمك المعرفة بالكومبيوتر أيضاً، وإلّا كنتِ أمّية.

أنت عل حق.

بما أنني على حق، فهل سنظلّ بالباب واقفينْ؟

لا طبعاً.

إذن ادخلي.

لا، لن أدخل.

ما بك تبدين مترددة وكأنك تريدين أن تقولي شيئاً ما تخجلين من الإفصاح عنه؟

حسناً.. أظنّ أنّ لغتك الإنكليزية تستطيع الانتظار قليلاً. أم إنّ الحالة إسعافية؟

لا ليست إسعافية، فماذا تقترحين؟

أريد أن أحتفل بعودتك إلينا سالِماً على طريقتي.

وما هي طريقتك يا آنسة وِداد؟

ألا تشتاق إلى المثلجات الدمشقيّة؟

بلى، قليلاً.

إذن هيّا بنا.

هيا بنا إلى أين؟

إلى سوق الحميدية.

وماذا نفعل في سوق الحميدية؟

كيف ماذا نفعل في سوق الحميدية وهناك أصل المثلجات؟ المثلجات الدمشقية الأصلية بالقشطة الطازجة والفستق الحلبي. ألا تعرف محل بكداش؟

ومَنْ مِنْ سكان دمشقَ لا يعرفه؟

إذن، هيا بنا.

ولكنه بعيدٌ يا وِداد.

وماذا في ذلك؟ سوف نركب الميكرو باص. أم أنك صرتَ تخجل من ركوب مثل هذه المواصلات؟

المواصلات لا تعنيني. إنني لا أخجل حتى من ركوب الطُنْبُر (عربة خشبية يجرّها بغلٌ أو حمار).

إذن هيا بنا. سوف أسبقك إلى موقف الميكرو باص.

وانصرفتْ. ولبستُ ثياب الخروج، ولحقتُ بها إلى الموقف. وركبنا الميكرو باص. وذهبنا إلى سوق الحميدية الطويلة ذات السقوف القبابية. وتناولنا المثلجات الدمشقيّة الأصلية في محل بكداش. يسمونها أيضاً المثلجات العربيّة. محتوياتها ليست سراً: الحليب والقشطة والفستق الحلبي. لا أدري إن كان هناك مكوّناتٌ ثانية. السر يكمن في طريقة إعداد هذه الخلطة. السر الذي لا

يبوحون به للعامّة من الناس. قالت لي وِدادُ ونحن نتناول تلك المثلجات اللذيذة في المحل الشهير:

كم أحب هذا الصنف من المثلجات! رغم أنني لا أحب موقع هذا المكان!

لم أفهم. ما هو الذي لا تحبينه؟

هذا المحل قريبٌ من دمشقَ القديمة، أو حتى إنه في داخلها. أليست سوق الحميدية جزءاً من المدينة القديمة؟

ولماذا لا تحبين دمشق القديمة؟

لأنني لا أحب المتاحف. جميع المتاحف والآثار.

لماذا؟

أنا بنتٌ عصرية.

وبماذا تتنافى العصرية مع التراث؟

كيف يعني؟

أقصد ما هو الرابط المتعاكس بين الاثنين؟

ألا يوجد رابط متعاكس؟

سألتْ بتوجس. ضحكتُ. شعرتْ بالارتباك. انسحبتْ بهدوء من هذا المأزق الذي وجدتْ فيه نفسها. قالت:

هل تحبها أنت؟ أقصد دمشق القديمة.

هل تصدقين لو قلت لك إنني أكاد لا أعرفها.

طبعاً أصدق، فأنت لا تكذب. ولكن لماذا لا تعرفها؟

زرتها وأنا مراهقٌ مرّتين أو ثلاثاً. كنت مع الشلّة. وفي كلِّ مرةٍ كنا نضيع في متاهة حواريها المتشابهة المتشابكة، فتوقفنا عن تلك الزيارات الغبيّة. كان هذا منذ تسع سنواتٍ تقريباً.

لا تقل لي إنك اليومَ تحنُّ إليها.

لا، لن أقول لك ذلك، فليس عندي إليها شيءٌ من حنين. ومع هذا فإنني لا أمانع في أن أزورها مرةً جديدة.

معي؟ أقصد اليوم؟

لم لا؟ نقوم سويةً بجولةٍ في جنبات التاريخ. ما رأيك؟

لست متحمسة لمثل هذه الجولة، ولكن بما أنها برفقتك، فلا بأس.

ثم رحنا بعد المثلجات اللذيذة نتسكع في الطرقات على غير هدى. قضينا النهار بطوله تقريباً تائهينِ في أزقة وحواري دمشقَ القديمة. كانت في الحقيقة مطارح بهيجة.. حدث هذا في عام 1999 .. كان نهاراً خريفياً ناعماً مثل الغيوم اللبنية التي غشيتْ صفحة السماء طوال الوقت الذي قضيناه معاً. كدنا نضيع في تلك المتاهة الفاتنة. ولكننا لم نسأل أحداً من الناس عن الطريق. فقد كنا سعيدين بضياعنا، بجهلنا بالمكان. جلسنا أخيراً في مقهى النوفرة على الرصيف خلفَ البوّابة الشرقية العملاقة لمسجد بني أميّةَ الكبير. شربنا القهوة، وتحدثنا طويلاً. كان جلّ حديثِ البنت يلتف ويدور حول نقطة واحدةٍ تقريباً:

سوف تصير شخصاً مشهوراً عمّا قريب. أليس كذلك؟

ربما أصبحت مشهوراً. لا أعرف.

كيف لا تعرف؟ سوف تكتب مسلسلاتٍ للتلفزيون. أليس كذلك؟

أجل.

إذن، إنك سوف تصبح مشهوراً. أنا واثقةٌ من هذا، فأنت شابٌ ذكيّ. سوف تصبح مشهوراً وغنيّاً أيضا.

على فرض أنني أصبحت مشهوراً وغنيّاً. هل يزعجك هذا الأمر يا وِداد؟

لا أبداً، بالعكس. إنه يسرّني جداً، ولكنه مع ذلك يخيفني قليلا.
ولماذا يخيفك؟
بصراحة؟
طبعاً بصراحة.
أخاف من أن تنسانا.
أنساكم؟ كيف؟
تهرب من ماضيك. من فقرنا.
محال أن أنساكم يا وِداد.
محال؟ وكيف تكون واثقاً؟ هل تتذكر السيد جلال رحمه الله؟
ماذا تقولين؟ هل مات السيد جلال؟
ألم تكن تعرف؟ ألم تخبرك بالأمر خالتي أم أمجد؟
لا، لم تخبرني. ولكن كيف مات؟ بأيّ مرض؟
لم يكن مريضاً.
إذن؟
مات بالتخمة.
لا أفهم.
وهل هذه يا شاطر تحتاج إلى فهم؟ ظل يأكل حتى انفجر.

ورغم أنه لا شماتة في الموت إلّا أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك، فضحكتُ. وكانت وِداد قد ضحكتْ من قبلي. و كان في ضحكتها رنّةٌ طفوليةٌ شائقة، حتى وإنْ بدتْ خليعةً بعض الشيء. قلت:

نعم، إنني أتذكره. فليرحمه الله. على أية حال، أنت تبدين محققةً يا وِداد. قد أصيب شهرةً، وقد أصيب مالاً أيضاً. أكاد أكون واثقاً من هذا الأمر، ولكنني، رغم ذلك، محال أن أنساكم. هل تعرفين

لماذا؟ لأنني شخصٌ أنانيٌ يا وِداد، فأنتم بالنسبة إليَّ خزّان الصور والمشاعر والحكايات التي سوف أكتبها وأصبح بسببها مشهوراً وغنيّا. هل تريدين اعترافاً يدينني أقوى من هذا الاعتراف؟

ماذا أفهم من هذا الكلام؟ هل سوف تكتب عنّا؟

أجل، سوف أكتب عنّا.

أظنك تحب أن تكتب عن شمس. أليس كذلك؟

وقد أكتب عن شمسٍ أيضاً، وعلى سيرة شمس، لماذا لم تتزوج إلى الآن؟ أظنها شارفت الثلاثين، أم تراني أخطيء في الحساب؟

لا، لا يوجد خطأٌ في الحساب، إنها في التاسعة والعشرين.

إذن؟

لا أعرف. اسألها أنت. أليست صديقتك؟

بلى، صديقتي، ولكن الحديث في شأنٍ كهذا ربما بدا محرجاً.

لا أظنه سيكون محرجاً بالنسبة إلى شمس. المهم.. هل ستكتب عني أنا أيضاً؟

قد أكتب عنكِ أنتِ أيضاً.

باسمي الصريح؟ وِداد؟

ربما فعلت ذلك. وربما حوّرت بالأسماء بعض الشيء.

كيف؟ ماذا يمكن أن يصير اسمي؟

لا أعرف. هناء مثلاً.

مممممم

ألا يروقكِ اسم هناء؟

بلى، لا بأس به. ولكن هل أستطيعِ أن أبوح لكَ بسرٍ يؤرقني؟

بالتأكيد، تفضلي.

مكتبة
t.me/t_pdf

وهنا فتحت البنت حقيبتها اليدوية، واستخرجت منها ورقةً صغيرة، وأنا لا أرفع بصري عنها. تنهدتْ، وشبهَ اختلستْ إليّ نظرةً قبل أن تشرع بالقراءة بصوتٍ مضعضعٍ من الانفعال:

ذلك الذي عرفتُه قبل الميلاد و الموت و المطر لم يكن إلّا أنت.

وصمتتْ. هذا كل ما كان مكتوباً في الورقة الصغيرة. صمتتْ تماماً، من دون أن ترفع بصرها عن الوريقة بين يديها اللتين خُيّل إليّ أنهما كانتا ترتجفان. رفعتُ بصري عن اليدين إلى الوجه. بدا لي واجماً، مثل وجه من ارتكب أمراً فظيعاً. تعاطفتُ معها إلى حد الحزن عليها. إنها لم تكبر. ما زالت تلك الطفلة الخائفة في يومها المدرسيّ الأول. ولعلّها على حقٍ في خوفها الآن أيضاً، فهذا هو يومها الأول مع الحب الذي تتحايل على التعبير عنه بالموت والميلاد والمطر. هكذا كنت أعتقد. رسمتُ على شفتيّ ابتسامةً غبيّة، رغم أنني كنت أشعر بشيءٍ من الغبطة وليس بالكثير منها، فأنا لم أعد ذلك الولدَ المراهق الذي كان يسكر من الحب وسيرته. قلتِ:

لا أفهم. أين السر في هذا الكلام؟

وبدت البنت كمن لا يروقه هذا «الغباء» الذي أمارسه. من الواضح أنها كانت تعتمد على الفِطنة التي لا بدَّ وأنني «أتمتع» بها كما كانت تعتقد، فطوتِ الوريقة ومرّرتها باتجاهي على سطح الطاولة، وقالت:

تستطيع أن تحتفظ بها.

واستدركتْ من فورها، وأضافت:

إن كنت تحب.

طبعاً. بالتأكيد. نعم. أحب أن أحتفظ بذكرى منكِ غالية.

طويتُ الوريقة، ودسستها في جيب سترتي الداخلي. وهنا بدت البنت مستعجلةً الانصراف وقد بلغ الارتباكُ لديها منتهاه. قالت:

هل نمشي؟ سوف تغرب الشمس ويهبط الظلام قريباً. يجب أن أكون في البيت قبل عودة أبي من العمل.

كما تحبين.

دفعتُ ثمن القهوة، ونهضنا. ومشينا باتجاه عشوائيتنا البعيدة. مررنا بعديد الأسواق والأحياء التي لم نكن نعرف أسماءها في ذلك الوقت. مررنا بِ (القباقبية)، وكنا صامتينْ تماماً. ثم اتجهنا إلى (البزورية) فَ (مدحت باشا)، ودخلنا في (الشاغور)، وكنا ما نزال صامتينْ.

وعلى الرصيف الأيمن في الشارع الرئيس من حي الشاغور، وفي قطعة النهار الأخيرة، توقفتِ البنتُ فجأةً عن المشي، وعن الصمت أيضاً. نظرتْ في عينيّ مباشرةً، وقالت لي كلمتين اثنتين:

أنا أحبك.

لم يفاجئني هذا الاعتراف، الذي لم أكن متشوقاً كثيراً لسماعه! ورغم ذلك رحتُ أحتضن كفّ الشابّة الجميلة في راحتيّ. وقد فعلت هذا بشيءٍ لا يخلو من التعاطف معها. وبشيءٍ من التعاطف أيضاً قبّلتُ ظاهر الكفّ كنوعٍ من التقدير للبنت على جراءتها. فعلتُ ذلك على رصيف شارعٍ مزدحمٍ في حيٍّ محافِظ. وقد أثار هذا الأمر عند المرأة الصغيرة عديد النزعات المتباينة: الخجل والارتباك والدهشة والحيرة والخوف والفرح، إضافةً إلى ما كانت تظنّ بأنه الحب. وقبل هذا كلّه، ربّما أشعلتْ هذه الحركة مني هرمونات الشباب الفائرة في جسد البنت الفتيّ، فقد استسلمتْ في لحظةٍ لرغبةٍ غامضةٍ تغمز لها بطلب مزيدٍ من النشوة، فأغمضتْ عينيها وهي تقف قبالتي مباشرةً. كانت كمن ينتظر منّي أن أقدّم لها ذلك المزيد. أو هكذا تراءى الأمرُ لي. غير أنّي خيّبت ظنّها ورجاءها، حتى إني تعمدّت أن أقول لها:

ما بكِ يا وِداد؟ هل تشعرين بالتعب؟

كيف تراني أنت؟

سألتْ بصوتٍ مضعضعٍ من الانفعال، وقد فتحت عينيها أخيراً، ولكن بأضيقَ ما يكون. قلتُ:

أراكِ بخير.

إذن، أنا بخير.

الحمد لله! هيا بنا، فقد غابت الشمس. من الأفضل أن نأخذ سيارة أجرة.

لم تعلّق على ملاحظتي بشيءٍ. مشيتُ، ومشتْ خلفي. كانت تتبعني كالمنوّم مغناطيسياً. استوقفتُ إحدى سيّارات الأجرة. صعدنا إليها. جلستُ أنا بجانب السائق، وجلستْ هي على المقعد الخلفي. وبقينا صامتينْ طوال الطريق إلى عشوائيتنا البعيدة. كان الظلام قد هبط على المدينة التي أنيرت بالمصابيح الكهربائية. اقتربت البنت مني برأسها، وهمست في أذني:

من الأفضل أن ننزل عند طرف الحيّ من الغرب.

ولم أسألها عن السبب من وراءِ طلبها هذا. إنه واضحٌ لي تمام الوضوح، فهذه المنطقة بعيدةٌ قليلاً عن حارتنا، ومن المؤكد أنّ البنت لا تريد أن يرانا أهل الحارة قادمينْ معاً. قلت لها:

كما تحبّين.

وهذا ما كان. توقفتِ السيّارة بنا عند الطرف الغربيّ من الحيّ. عندَ المكتب. مكتبنا: سامر وسعيد وأيمن وخلدون. عند عزّة أخت عزيزٍ وجيشه الجرّار. عند الدكان العجفاء وصاحبها الطويل البدين الذي كنّا نناديه حدّو، بالرغم من أنّ اسمه صفوان. كان الرجل منشغلاً في تلك اللحظة مع أحد الزبائن. رأيته عبر واجهة المحل الزجاجية. لقد كبر في السّن وازداد بدانةً، وصارت حركته أثقل من ذي قبل. كانت الورقة التي كتب عليها بخطٍ يشبهه حتماً: (لا يوجد

عندنا طوابع) ما تزال في مطرحها. يا الله! تسع سنواتٍ انقضتْ على ذلك اليوم الذي اقتنعت فيه بأنني أصلح للتمثيل في هوليود. تسع سنواتٍ انقضت على حفلة التعذيب الذي مارسناه على هذا الرجل المسكين. كُلُّنا طُغاة. كُلُّنا طُغاة. كُلُّنا طُغاة. وعادني السؤال القديم: أيّ نوعٍ من الطوابع هذه التي يتبرأ الرجل من وجودها في دكانه العجفاء؟ وابتسمتُ. وخطر لي أن أذهب إلى صفوان وأعتذر له عن فعلتنا الشنيعة القديمة، وأسأله عن سرّ هذه الورقة التي كتب عليها أغرب عبارةٍ قرأتها في حياتي، حتى إنني توقفت هنيهةً أمام واجهة الدكان ورحت أعيد قراءة الكلمات حرفاً حرفا، كمن يريد أن يتأكد من صحّة ما هو مكتوب فيها. ولم تفهم وِدادُ سبباً لتوقفي هذا. سألتني:

ما بك؟

ودخل إلى الدكّان وجهٌ غاب عنّي طويلاً، ولكنني رغم ذلك تذكّرت صاحبه من النظرة الأولى. ثمّة وجوهٌ تمرق في الحياة خطفاً، ثم لا تستطيع أن تنساها حتى لو حاولتَ النسيان، فكيف لي أن أنسى هذا الوجه الذي رأيته كثير المرّات، حتى وإن غاب عني وغبت عنه تسعاً من سنين؟. إنه إبراهيم. الولد الذي ذبح أخته بثينة الشهيّة في صبيحة العيدِ المبارك. مسكينةٌ بثينة الشهية! نصيبها أن تكون ضحيةً مرّتين. عندما لا نجروُ على الجلّاد نقول: الحق على الضحية. لقد رأيت دم البنت مسفوحاً على الرصيف مثل دم غنمةٍ ذبيحةٍ أو دجاجة. هذا المنظر سوف يبقى محفوراً في رأسي ما حييت. هذا أمرٌ مؤكد. رأيت امرأةً تغسل الرصيف من دم ابنتها المُباح. كانت نشِطةً، ورائقة، وربما كانت تدندن بكلمات أغنيةٍ ما بالمناسبة: يا ليلة العيد أنستينا. تبادلتُ معها التهنئة بالعيد: «كل عام وإنتِ بخير خالتي أم إبراهيم!» «كل عام وإنتَ بخير يا ابني يا أمجد!» كان ينقصها فقط أن تقول لي: تفضل لتناول كأسٍ من الدماء الشهيّة بمناسبة عيد الأضحى المبارك. بقيتُ أنظر إثرَ الطفل القاتل

الذي ربما كان ضحيةً هو أيضا. كان يشتري السجائر الغليظة. لم يعد طفلاً. لن يعود طفلاً في وقتٍ من الأوقات. نصيب. لقد كبر هو الآخر. صار شابّاً، ولكنه ما زال ناحلاً، أصفر البشرة. كم سنةً سجنوه؟ لست أدري. كان قد ذهب إلى قسم الشرطة على قدميه، والسكين التي ذبح بها أخته في يده. فوجىء به رجال الأمن على تلك الحال. قال لهم: لقد ذبحتُ أختي العايبة، وهذا هو دمها على السكين لم يجف. يُحكى، كما نقل أبو الخير، أنّ أحد الشرطة المناوبين قال للولد: عفارم عليك يا جدع! ويُحكى أيضاً أنّ ذلك الشرطيَّ نفسَه قد جاء الولدَ بكوبٍ من الشاي الساخن. ويُقال أيضاً - وهذا الكلام سمعتُه من (أبو الخير) همساً ذاتَ وقتٍ غير بعيد - إنَّ الولدَ إبراهيم بريءٌ من دم أخته براءةَ الذئبِ من دم يوسف، وأنّ الأمَّ هي مَنْ ذبح البنت، وهي مِنْ أقنع الولد بتلبّس الجريمة لأن عقابه لن يأتي كبيراً كونه قاصراً بعد. قلت للشرطي المتقاعد: اللهُ وحدَه يعلم الحقيقة، وفي الأحوال كلّها تبقى بثينة ضحيّة مسكينة، وهذا هو نصيبُها من الحياة. ولكن ما هو النصيب؟ فكّرت باللحاق بإبراهيم إلى داخل الدكان. كنت أريد أن أطرح عليه سؤالاً واحداً فقط: هل ما تزال تدفن في الأرض قلامات أظافرك المقصوصة؟. ولكنّ وِدادَ رجعتْ تسألني، كمن يحتجّ على هذا التلكؤ الذي أمارسه:

ولكن ما بك؟

وانقطع التيّار الكهربائي فجأةً كالعادة. غرق الكون في الظلمات، وقد توارى القمر خلف غيمةٍ كبيرة تسرح في السماء الرحيبة. قلت:

لا شيءَ يا وِداد.

إذن، هيّا بنا!

هيّا بنا!

ورحنا نجوس الطريق في عتمة الأزقة الضيّقة المتشابكة.

وكان صوت عبد الحليم حافظ يأتينا من مسجلةٍ عبر أحد الشبابيك المفتوحة، على قِلّتها، فقد كان الطقس ذلك المساءَ مشوباً ببعضٍ من برودة: (رميت الورد، طفيت الشمع يا حبيبي). وكان رجلٌ يصرخ بامرأته، من نافذة بيتٍ آخر، ويرميها بأقذع الكلام. وكان أمامنا كلبٌ وقطٌ شاردان يتقاتلان، ولكن من دون قتال. الكلب ينبح والقط يموء. وكلاهما قد كشّر عن أنيابه معلناً بذلك استعداده لتمزيق جسد غريمه، ثمّ لا يفعل شيئاً آخر، فقد كان واضحاً لي أنّ كلاً منهما خائفٌ من عدوه أشدّ الخوف، وأنهما مكتفيان بالمهاترة، مكتفيان بالتعادل. كان منظرهما يبعث على الضحك. وسقط وراءنا كيس زبالة من نافذةٍ في الطابق الثاني كنّا نمرّ من تحتها في تلك اللحظة. وأحدث سقوطه دويّاً وكأنه قد انفجر. وخافت وِداد، حتى إنها شهقت من الفزع. وتعربشت بذراعي. أم تراها افتعلتْ ذلك الخوف؟ أظنها قد جاهدت في أن تبدو كمن يبحث عن الأمان. فهل كانت في الحقيقة تبحث عن شيءٍ آخر؟ وَ ربتُّ بيدي المحررة على ظاهر كفّ البنت التي تمسك بذراعي، وكنتُ بذلك كمن يقول لها: لا تخافي يا صغيرتي، فلسوف نعبر هذه الأرض. سوف نعبر هذا الظلام. وتابعنا طريقنا. وانزاحت الغيمة الكبيرة في السماء رويداً رويدا، فلاحَ لي فيها القمر من ثلمةٍ بين بعض البيوت. رفعتُ بصري إليه وابتسمت، وقلت أخاطبه في سرّي: مساء الخير أيها القمر العطوف! ردَّ على ابتسامتي، وقال: مساء الخير يا صديقي! وقالت لي وِداد:

لماذا تبتسم؟

آ...؟ لا شيءَ يا وِداد.

كيف لا شيءَ وأنتَ لم تردَّ على سؤالي؟!

أيُّ سؤال هو؟

كيف أيّ سؤال؟

وتوقفتْ عن المشي، فتوقفتُ. جعلتْ تنظر إليَّ بثبات. بإصرار.

بعنادٍ طفولي. كان ينقصها فقط أن تضرب الأرض بقدمها من الغضب عليّ.

ما بكِ تنظرين إليّ هكذا؟ وعن أيّ سؤالٍ تتحدثين؟

السؤال الذي طرحته عليكَ الآن، وهو ذاته الذي طرحته عليك ونحن في داخل أسوار المدينة القديمة.

هل تصدقين أنني لا أتذكره. يبدو أنني صرتُ أقف على عتبة الزهايمر وأنا ما أزال من العمر في الرابعة والعشرين فقط.

لا، إنك لست تقف على عتبة الزهايمر. أنت تتهرب من الموضوع. هذه هي الحقيقة.

أيّ موضوع الذي أتهرب منه؟ وأية حقيقة؟ وعن أيّ سؤال أصلاً تتحدثين؟

حسناً.. لقد قلت لك في المدينة القديمة: أنا أحبك. وقد كرّرت هذا تواً. أنا أحبك.

وهل هذا سؤال؟!

لماذا تبتسم؟ إنه أكبر الأسئلة في حياتي.

ربما كنتِ على حقٍ يا وِداد. وأنت الآن تطالبينني بالجواب عن أكبر أسئلة حياتك.

بالتأكيد. تفضل. ماذا تقول؟ إنني أسمعك.

فما كان منّي إلّا أنْ ضممتُها إليّ، وقبّلتها على شفتيها. هكذا، من دون أية مقدّمات. لم تكن قبلةً خاطفة. بل كانت قبلةً عميقة، وطويلة. توقفتِ الأرضُ عند البنت عن الدوران في تلكَ اللحظة (كما أخبرتْني لاحقاً). توقف الكلب والقط عن العراك الخلّبيّ، وتلاشى النباح والمواء. توقف الرجل عن شتم زوجته. اختفى القمر من صفحة السماء وقد تكاثرت فيها الغيوم على حين فجأة. كفَّ العالم عن الصخب، وحلَّ فراغٌ شاملٌ في رأس البنت. وحده صوت عبد

الحليم ظلّ مسموعاً في الصمت المهيب صادحا: رميت الورد طفيت الشمع يا حبيبي. وخلّصت البنت شفتيها من شفتيّ. وفتحتْ عينيها أخيراً. كانتا فارغتين تماماً، وذاهلتين من الدهشة التي نزلتْ بها بسبب ما قد حصل. كانت نظرتها إليّ ثابتة، ولكنها فارغة، زائغة. ولم تنطق بحرف. أظنها كانت تحب أن تصفعني على وجهي. ولكنها استدارت بحركةٍ مفاجئة، وانصرفت عنّي. ثمّ راحت تهرول بطول الزقاق. لا تريد أن ترى أحداً، ولا تريد أن يراها أحد. تريد أن تختفي. فقط أن تختفي. وتركتني واقفاً في مطرحي حائراً في أمري وأمرها. هل ألحق بها؟ سألتُ نفسي. لم أفعل. تركتها تبتعد عني في فراغ الحارة المُظلم، وقد اتخذتُ قراري بألّا أصنع مشهداً ميلودرامياً قد يكون مبتذلاً. وكنت أفكر على النحو الآتي: سوف أراها في غدٍ أو في بعد غدٍ، بمصادفةٍ أو من دون مصادفة، في أزقة عشوائيتنا الأليفة. ورحت أجرجر نفسي إلى المنزل. ولم أكن أعرف إنْ كنت فرحاً أو حزيناً. ومرق بائع جرار الغاز: واصِل علينا السَّفَر، صوت الرواحل شجاني. وتبادلتُ مع الرجل تحية المساء. ورجعت إلى المنزل. وسألتني أمي إنْ كنت جائعاً. وأكّدت لها أنني جائعٌ إلى القراءة فقط. وطلبت إليها أن تذهب لتنام. دخلتُ إلى المطبخ. صنعتُ قهوةً رديئةً كالعادة. أظنُّ أنني أسوأُ مَنْ يصنع القهوة بين جميع رجال الأرض ونسائها. جلست أشرب قهوتي الرديئة، ورحت أعيد قراءة رواية (الأبله) باللغة الروسية طبعاً. ما من كاتبٍ فتنني في جميع الأدب العالمي كما فعل دوستويفسكي (دَسْتَيّيفْسْكِي). أجدني دائم الدهشة أمام قدرته العجيبة على بعثرة الأضواء والظلال في جنبات لوحاته الخلّابة. ما من شكٍ في أنه أبرع الرسّامين على مرّ العصور. أروع من فان غوخ، بل وأروع من مايكل أنجلو وليوناردو دافنتشي. كلّما شاهدت أعمال هؤلاء الفنانين الثلاثة العظماء وجدتني أقارنها، من دون إرادةٍ مني، بلوحات دوستويفسكي المرسومة بالكلمات، ودائماً ما كنتُ منحازاً في المفاضلة بين الجميع إلى الساحر الروسي الذي ما إنْ أبدأ

بقراءته حتى لا يتركني ولا أتركه إلى أن أختنق. أما في تلك الليلة فلم أكن قد قرأت أكثر من سبع صفحاتٍ حين وجدت نفسي شارداً عن كاتبي المفضّل وقد سطعتْ صورةُ وِدادَ أمامي، وشغلتني عن كلّ شيءٍ عداها. ما الحكاية؟ سألت قلبي. هل أحبها؟ لا أعرف. على أية حال، إنّ غداً لناظِره قريب. وفي غدٍ خاب ظنّي، وكذلك خاب في بعدِ غدٍ، بل إنَّ ظنّي قد ظلَّ خائباً لأكثرَ من أسبوعٍ كامل، فلا أثرَ للبنت في أزقتنا التي كنتُ أُكثرُ فيها التجوالَ طوالَ هذه المدّة، من دون جدوى. وهو الأمر الذي سبّبَ لي بعض الحيرة، وشيئاً من الخوف. هل وقع مكروهٌ ما للبنت مثلاً؟ ولم ينقذني من الخوف والحيرة إلاّ المصادفة التي جمعتني بشمسٍ في واحدةٍ من طرقاتنا العارية. قابلتني كعادتها بحرارة. سألتها عن أخبار العم (أبو علاء) وعن أخبار علاء، وأخيراً عن أخبار وِداد. قالت لي إنها لا تعرف ما الذي أصاب هذه البنت، فهي منذ أسبوعٍ تقريباً تكاد لا تخرج من المنزل. ودعتني لزيارتهم، وَ وعدتها بأنني سوف أزورهم هذا المساء حتى من قبل عودة العمّ (أبو علاء) من الشغل مع عربته الخشبية الثقيلة، وقلت لها أيضاً: لقد اشتقت لتقشير عرانيس الذرة. وكنت صادقاً في قولي هذا أيضاً. لا بدَّ وأنه الحنين إلى الخوالي كان يدفع بي إلى مثل هذا الأمر، وليس رغبة اللقاء بوِدادَ حسب. وفي مساء ذلك اليوم وفيتُ بوعدي لشمسٍ التي استقبلتني بترحابٍ كعادتها، بخلاف وِدادَ التي تجاهلتني طوالَ الوقت الذي قضيته في منزل العم (أبو علاء) حيث جلست متربعاً على الأرض أساعد في تقشير عرانيس الذرة التي جعلتْ تلفظ أنفاسها الأخيرة مع حلول الخريف، واستمعتُ إلى آخر القصص والسيناريوهات حول الحارة وأهلها. كانت شمس ما تزال راويةً جيدة. ورجع العمّ أبو علاء إلى البيت، وساعدتُه في إنزال الحِلّة عن العربة، وفي تنظيفها، وتهيئة وجبة العرانيس الجديدة للسلق. ولكنَّ الأهمَّ من هذا كلّه أنني التقيت أخيراً بوِداد، رغم أنها كانت طوالَ السهرة تكاد لا تنظر إليّ. وبدا لي أنها كانت في خجلٍ مني. ولم تُتَح لي فرصةٌ مناسبة للحديث معها في شيء. غير أني

استطعت في إحدى اللحظات أن أهمس لها بالقول: سوف أنتظركِ في العاشرة من صباح غدٍ عند موقف الميكرو باص. ولكنها همستْ لي تقول: لن أحضر. قلت: كما تحبين، ولكنني سوف أنتظرك.. وعند العاشرة من صباح اليوم التالي جاءت البنت إلى الموعد المحدد من طرفي والمرفوض من طرفها. التقينا صامتينْ، حتى إننا لم نتصافح. ركبنا الميكرو باص، وجلسنا متجاورئن، صامتينْ كالأغراب، وذهبنا إلى قلب المدينة. تحاشينا هذه المرّة الذهاب إلى دمشقَ القديمة، فقد باتت هذه القطعة من العالم فألَ شؤم نريد أن نهرب منه كلانا. جلسنا في إحدى كفتيريات حيّ الروضةً وكنّا ما نزال شبه صامتينْ. سألتها إنْ كانت في خجلٍ مني. قالت: لا.

قلت:

ما بكِ إذن واجمة؟

قالت:

إنني غاضبةٌ عليك.

قلت:

ولماذا أنت غاضبة عليّ؟

قالت:

لقد أوجعتني.

قلت:

كيف أوجعتكِ؟

قالت:

تلك القبلة كانت موجِعة. ليتك كنتَ بلطافة سامر!

لا أفهم هذه المقارنة بيني وبين سامر. هل قبّلكِ هو أيضاً؟

لا، لم يفعل، حتى إنه لم يحاول ذلك. وقد صرفني عنه بهدوء.

صرفكِ عنه؟! فهل كنتِ تعرضين نفسك عليه؟

ما هذا الكلام السخيف؟ كيف أعرض نفسي عليه؟!

إذن، ما الحكاية؟

سامر شابٌ لطيف. هذه هي الحكاية كلّها.

هل هو لطيفٌ لأنه لم يقبّلك؟

هو لطيفٌ وكفى. ثمّ ليس هو من صرفني عنه، بل أنا التي تركتْه ومضتْ في حال سبيلها.

ألا تلاحظين أنك تقولين الشيء وضدّه في آنٍ معاً؟

كلامي واضح، وأنا لست متناقضة.

كما تحبين.. ولكن هل أنا همجيٌ في نظرك؟

لقد أوجعتني بتلك القبلة.

كيف أوجعتك؟

لقد أوجعتني وكفى.

كيف يعني كفى؟

قلتُ بنزق، فردّتْ بعصبية:

كفى يعني كفى.

حاضر يا آنسة وِداد.

قلت لك: لقد أوجعتني. لقد كانت تلك القبلة مثل عضّة ذئب. أوجعتني مثلَ ذئبٍ جائع.

أنا مثل ذئب؟

لا، أنت لست مثل ذئب. بل أنت الذئب بذاته.

ما هذا الكلام الفارغ الذي تقولين؟

لا، إنه ليس كلاماً فارغاً. ولو كان كذلك فمن أين جاءني هذا الإحساس بالوجع؟!

أنا آسف. هل تقبلين أسفي؟

حسناً.. إنني أسامحك. ولكن بشرط.

شرط ماذا؟ إنني أسمعك. تفضلي.

ألّا تكرر هذه العضّة في المستقبل. وألّا تكون ذئباً بعد اليوم.

ألّا أكون ذئباً؟ ولكنَّ النصيحة التي يعطيها الأب لابنه هي: كنْ ذئباً.

يا سلام على هكذا آباء!! ويا سلام على هكذا نصيحة: كن وحشاً!!!

لا، لا، ليس بهذا المعنى.

كيف إذن؟ وبأيّ معنى؟

هل تعرفين مثلاً أن الذئب لا يأكل ذئباً؟

وما الفرق ما دام يأكل بقرة أو دجاجة؟. لماذا تضحك؟

لأنّ اصطيادَ الدجاج من اختصاص الثعالب.

حسناً، ولكنَّ ذئبك المدلل يأكل البقرة والخروف.

صحيح، غير أنه لا يفعل ذلك إلّا عندما يكون جائعاً فقط.

ولكنه دائماً ما يكون جائعاً.

ليس بالضرورة.

ما هذا الجواب العبقري! ثم إنه ليس التعليق المناسب على ملاحظتي.

نعم، إنه ليس التعليق المناسب، ولكنه مرق في خاطري فأحببت أن تسمعيه.

إلى أين تريد أن تصل؟ هل تودُّ أن تقول لي: كوني ذئبة؟

لا، ليس تماماً، ولكن هل تعرفين أنّ الذئب مخلوقٌ شديد الوفاء لمبادئه؟ فهو مثلاً لا يتزوج إلّا مرةً واحدة طوالَ حياته، يتزوج بذئبةٌ واحدة فقط، ويكون لها شديد الإخلاص. وهي بالمقابل تكون شديدة الإخلاص له. فالذئب هو الحيوان الأكثر وفاءً بين جميع المخلوقات على وجه البسيطة. هل تعرفين هذا؟

وما أهمية أن أعرفه؟ وعموماً لماذا تقول لي ذلك؟ وما شأني أنا بهذا الأمر؟

تقصدين ما شأنك بالوفاء؟

ما هذه الأسئلة الغريبة؟ هل تسعى إلى التحقيق معي؟

لا، أبداً، أنا آسف. أعتذر.

تعتذر عن أيّ شيء بالضبط؟

أعتذر عن كل شيء خطر ببالي أو لم يخطر.

تقول إنّ نصيحة الأب لابنه: كن ذئباً. أمّا نصيحتي أنا إليك فهي الآتية: لا تكن ذئباً. لا تكن ذئباً معي أنا على الأقل. هذا طبعاً إنْ كنت ترغب بصداقتي. هل ترغب بصداقتي؟

أجل، بالتأكيد. إنني أرغب بصداقتك رغبةً كبيرة.

إذن، لا تكن معي ذئباً بعد اليوم.

حاضر يا آنسة وِداد. لن أكون معك ذئباً بعد اليوم. ولن أسبّب لك ألماً في القبلة التالية.

لن يكون هناك قبلةٌ تالية.

كيف ذلك؟ على ماذا سنعيش إذن؟

أقصد، لن تكون أنت البادىء بأية قبلةٍ تالية. لن أسمح لك بذلك أبداً. هذا شرطي. هل يناسبك؟

نعم، يناسبني، بل ويفرحني أيضاً، فهو ينسجم تمام الانسجام مع أحد المبادىء التي حكمتْ علاقتي بالجنس اللطيف.

أيُّ مبدأٍ هو؟

ألّا أكون المبادر إلى العلاقة أو البادىء بها.

إذن، لماذا بادرت إلى تقبيلي في تلك الليلة؟

لا أعرف. ربما كان القمر هو السبب. أو ربما كان السبب أغنية عبد الحليم حافظ.

عفواً؟

لا تفكري بالأمر. على أية حال، لقد كانت المرّة الأولى، وآمل أن تكون الأخيرة كذلك. فلا تؤاخذيني يا جميلة.. «عيناكِ أعلنتا أنَّ الربيع صحا.

ما هذا؟ غَزَل؟

ربما. أو لعلّهُ عديلُ الغزل.

عديل؟! يا لها من مراوغة لغوية مُبتذلة!!

ورنّتْ في الكفتيريا ضحكةٌ طفوليةٌ رقيعة. وتصالحنا.

7

حارة نسيها الزمن..

أظن أنَّ هذه الكلمات اسمٌ لقصةٍ أو روايةٍ سوريّةٍ قديمة. أو ربّما كانت اسماً لمسلسلٍ تلفزيونيٍّ قديم. نسيت. وبصرف النظر عن اسم ماذا يكون هذا العنوان فإنه مناسبٌ تماماً لعشوائياتنا، جميع عشوائياتنا، بما فيها ذلك الحيُّ الذي أقيم فيه، والذي ابتعدت عنه

ستة أعوام كاملة، وحين رجعت إليه وجدته لم يتحرك قيد أنملة باتجاه الأحسن. وليت الأمر كان يتوقف عند هذا الحد! فقد كانت الأمور فيه تزداد سوءاً. كلُّ شيءٍ سيءٍ صار أكثر: الفقر، البطالة السافرة والبطالة المقنّعة، الضجيج، الزبالة، الأطفال الصاخبون في الحواري الضيقة، المراهقون الذين يبولون على الجدران ويتلصصون على خصوصيات الناس الحميمة، البناء الذي يركب بعضه بعضا كما يركب ذكر الحيوان أنثاه في غابة الإسمنت هذه.

إنها دورة الحياة.

ولكن ما هذه الحياة الكلبيّة؟!

وحدَه بائع جِرار الغاز ظلّ لطيفاً مع الحياة بأغاني فيروز البهيجة: يمّا الحلو ناسي الهوى يمّا، وليل الحلو طير وعَبَر يمّا.

كان سامرٌ قد تخرج من كلية العلوم في جامعة دمشق وصار يشتغل في تدريس هذه المادة في إحدى مدارس الحكومة الإعدادية، وكان سعيد مع زوجته هبة قد تخرجا من كلية الطب البشريّ، ولكنْ بقي أمامَهما ثلاثُ سنواتٍ أخرى في الاختصاص، هبة تريد أن تختص بالأمراض النسائية، بينما يرغب سعيد في أن يختصّ بالأمراض الباطنية، وكانا يعيشان سويةً مع طفلتهما أمل، أو حبيبتيَ الصغيرة، في إحدى غرف منزل العم (أبو سعيد). وكان خلدون ما زال يساوِم الصيدلاني على ثمن علبة أسبرين الأطفال التي يشتريها لأبيه الذي لم يعد ضخماً بسبب كثرة ما نزل به من أمراض. ما زال يساوم على ثمن علبة الأسبرين، برغم أنّ أموره المادّية قد بدأت تتحسن على نحوٍ ملحوظ، فهو لم يدخل الجامعة بعد الشهادة الثانوية، بل شرع بالعمل في ورشة صغيرةٍ للملابس الداخلية النسائية، وما إن مرّت سنتان على عمله في تلك الورشة حتى تركها، وراح يشتغل على تأسيس ورشةٍ مماثلةٍ خاصةٍ به. وقد نجح في بناء مشروعه الشخصيّ مع أنه كان لم يزل في الواحدة والعشرين من عمره. لقد بدأ يصيب نجاحاً لافتاً، حتى إنه اشترى سيارةً، صحيحٌ

أنها سيّارةٌ قديمة، ولكنها تفي بمتطلباته على نحوٍ لا بأس به. الوحيدُ الذي لم يحالفه التوفيق في حياته هو أيمن، فقد انتهى به الأمر لأن يكون بائعاً جوّالاً يبيع أيَّ شيء، من الملبوسات المستعملة إلى الملوخيّة والبطيخ والباذنجان. لقد صدق الرجل حين قال: أنا جحش في الدراسة، فقد رسب في امتحانات الشهادة الثانوية سنتين متتاليتين، فانصرف إلى البيع على عربةٍ خشبيةٍ في طرقاتنا المهترئة.

باستثناء سعيد، لم يكن أحدٌ من الشباب قد تزوج. كان أيمن يقول: ومن أين أنفق على الزوجة؟ وكان خلدون يقول: ولماذا أنفق على الزوجة؟ وكان يضيف: احسبوها جيداً يا شباب. هل أنا بحاجةٍ إلى الأنثى؟ نعم، أنا بحاجةٍ إلى الأنثى، كلُّنا بحاجةٍ إلى الأنثى. ولكن ألا توافقونني الرأي بأنه حتى المومس تكون أقلَّ كلفةً بألف مرّةٍ من كلفة الزوجة؟ كانت هذه الأحاديث كلُّها تدور حول مائدة غداءٍ باذخة أقامها خلدون بمناسبة عودتي من الغربة، كان الرجل ينوي إقامة تلك الوليمة منذ منتصف الصيف تقريباً، ولكنها ظلتْ تتأجل حتى حلّ الخريف بسبب المشاغل الكثيرة التي كان صديقنا مرتبطاً بها. كانت وليمةً باذخةً بحق في أحد مطاعم الغوطة المُشتَجِرة. قلت لخلدون يومئذٍ ممازحاً: هل ستساوِم النادل على تسعيرة ما أكلنا وشربنا اليومَ؟ قال: طبعاً. قلت: في جميع الأحوال سوف يكون المبلغ كبيراً. قال: يبدو أنك فهمت نظريتي في المساوَمة على نحوٍ خاطىء، فالمساوَمة لا تعني البخل في حالٍ من الأحوال، فأنا لا يهمني كم سأدفع، ولكن يهمني أن أعرف ماذا أخذت مقابل هذا الدفع وماذا دفعت مقابل هذا الأخذ. هل هذا يستحق ذاك، وهل ذاك يستحقّ هذا؟ إنني أسعى إلى العدالة. فقط العدالة.. أظنه كان يهرف. على العموم كانت جلسةً لطيفة. وبدا لي خلالها أننا لم نكبر إلّا قليلاً عن طور المراهقة. فما زالت البنات محور ثرثراتنا. جاءت إلى الحديث سيرة صطيف السمكري، واقترح سامر أن نقف دقيقة صمتٍ حِداداً على روحه. وكذلك جاءت سيرة البنت الذبيحة: بثينة الشهيّة. ولكننا لم

نقف دقيقة صمتٍ حِدادا، بل قرأنا على روحها الفاتحة ونحن نشرب العرق، واستغفرنا ربَّنا، وانهلنا باللعنات على أمِّ البنتِ الذبيحة وعلى شقيقها الذي تمّ الإفراج عنه بعد أربع سنواتٍ قضاها في سجن الأحداث. أظنهم يسمّونها الإصلاحية، أو إصلاحية الأحداث. ترحمنا على أرواح جميع المغدورين من أهل عشوائيتنا. وطرح سعيدٌ فجأةً هذا السؤال:

أيُّ أشكال الموتِ برأيكم أكثر بشاعةً من سواه؟ حرقاً؟ خنقاً؟ غرقاً؟ ذبحاً؟

قلت ممازحاً من أجل أن نخلص من هذه السيرة:

الموت حبّاً.

ردّ سعيد:

لا أحدَ يموت من الحب. عليك أن تختار نوعاً آخر.

قلت:

لا بأس. الموت قهراً.

قال سعيد:

هذه فيها وجهة نظر؟

قال سامر:

الموت خنقاً.

قال سعيد:

أليس الموت حرقاً بأصعب؟

ردّ سامر:

لا يوجد ما هو أصعب من أن تمنع عنّي الأكسجين.

قال أيمن:

الأصعب هو الموت جوعاً.

قال خلدون:

بل الموت تخمةً، كما مات السيد جلال. ولكن ماذا عنكَ أنت يا سعيد؟

قال سعيد:

الموت هو الموت، فليرحمنا الله جميعاً برحمته. تعالوا نطوي هذه الصفحة. تعالوا نرجع للحديث عن البنات.

وكان يغمز من قناتي، فتفرّغتِ الشلّة لي أنا. ألحّوا عليّ بالسؤال عن علاقتي بالنساء في غربتي الطويلة. النساء الشقراوات. لا شك في أنّ لهنّ مذاقاً مختلفاً. حدثتهم باستحياءٍ عن قصة حبٍ عشتها في موسكو مع بنتٍ حلوةٍ اسمها كاتيا. ولكنها هجرتني. ولم أَزِد على ذلك شيئاً حول علاقتي بالمرأة خلال أعوامي الستة الفائتة، رغم إلحاحهم عليَّ بالرغبة في سماع المزيد. كانوا يحبّون أن يعرفوا لماذا هجرتني كاتيا. بل إنّ خلدون أصرّ على معرفة السبب، ولوبكلماتٍ قليلة. وكيف أشرح شيئاً صعباً بكلماتٍ قليلة؟ قلت: كنّا مجرد مراهقين، بل حتى طفلين. ولدٌ وبنتٌ. طفلان يلهوان بالحياة، والحياةُ تلهو بهما. لسنا روميو وجولييت. لا، أبداً. كنا بعيدين عن ذلك كلَّ البعد. طفلان يلهوان، حتى في الجنس، بل حتى في الشجارات التي غالباً ما كانت صغيرة، ولكنها، في الوقت نفسه، يوميّةً أو شبه يوميّة. ولم يفهم الشبابُ شيئاً ممّا أقول، فأضفتُ باختصار ؟ وكنتُ أكذب: لقد كانت البنت تحبنّي، ولكنها حملتْ من رجلٍ آخر. وتطايرت عبارات الاستهجان في الجو من الجميع، باستثناء سامر. كان صامتاً معظم الوقت، حتى إنّه لم يقل في تلك الجلسة ولو كلمةً واحدة عن فرنساه الحسناء، كما لو أنه قد نسيها، ولم يكن يقول شيئاً بخصوص المرأة بشكلٍ عام. حتى بدا لي أنه

زاهدٌ عن النساء، برغم أنه ما زال فتى الحيّ المدلل، فقد قال أيمن عنه:

إنّ دائرة المعجبات بسامرٍ آخذةٌ في الاتساع. يُحكى أنّ شمساً قد وقعت في حبّه أيضاً.

ردّ سامر:

هذا هراء.

قال سعيد:

أنا لا أستطيع أنْ أسلّم بصحّة هذا الكلام، ولكنني لا أستطيع أن أنفيه أيضاً، فهو يبدو لي قريباً من المنطق.

تابع أيمن:

بلى، هذا صحيح. وأكثر من ذلك: وِداد تحبُّ سامراً هي الأُخرى، وإنّ الشقيقتين تتنافسان على قلب شابٍ واحد، وإنهما تتشاجران بسبب هذا الحبّ أحياناً.

عاد سامرٌ يقول:

هذا هراء.

علّق خلدون:

شمسٌ تحب أمجد. لقد كانت تذوب من الشوق إليه طوالَ ست سنوات.

ووجدتني غير متحمسٍ للدفاع عن شمسٍ كما كنت أفعل في زمنَ المراهقة. اكتفيت بالقول:

هذا الذي تقول سخيفٌ يا خلدون.

ضحك خلدون، وقال:

يبدو لي أنّ ما يقوله أيمن هو الصواب. شمس واقعة في غرام سامر، وكذلك وِداد.

إذن، الشائعات كثيرة حول فتى الحيّ المدلل. أما الذي ليس شائعة فهو أنّ البنت الأكثر وضوحاً والأكثر جراءةً في الإعلان عن حبها لهذا الشاب هي رجاء ابنة جلال بيك رحمة الله عليه. لقد ذهبت البنت ذات صباح أحد الأيام الصيفية إلى مستودعات مؤسسة الإسمنت الحكومية وطلبت لقاء العم (أبو سامر)، وحين قابلته قالت له بكل وضوح، ومن دون الكثير من المقدّمات: جئت أطلب يد ابنك سامر لنفسي على سنة الله ورسوله. وهذا الكلام سمعتُه من العم (أبو سامر) شخصياً في جلسةٍ اعتبرها خاصةً جداً، أو حتى سرّيةً جداً. كان يريد أن يعرف رأيي بهذه البنت: هل هي سويّة العقل؟ هل هي مجرّدُ بنتٍ جريئةٌ، أم تراها مجنونة؟ وفي الحقيقة أنني لم أستطع أن أجيبه بشيءٍ ذي جدوى: أنا يا عمّي لا أعرف هذه البنت إلّا عن بعد، ومنذ أيام المراهقة. قال: بماذا تنصحني إذن؟ هل أصارح ابني بالأمر؟ قلت: نعم، بالتأكيد. إنّ من حقّه أن يعرف ما قد حدث من شأنٍ يخصّه. لست أدري إن كان الأب قد صارح ابنه لاحقاً في الأمر أم لا. لم أكن مكترثاً بشأن رجاء، وما زلت كذلك إلى اليوم. ولكنني بالمقابل كنت مكترثاً بشأن وِداد. أو بالأصح: وجدتني فجأةً مكترثاً بشأن هذه البنت من بعد تلك القبلة الذئبية. وَ وددتُ لو كنت أجلس وحيداً مع سامرٍ في ذلك المطعم المشتجر، فقد كنت، وما زلت، ملآناً بالثقة في صدق ما يقول هذا الشاب. ولكنّني أجّلت السؤال عن الأمر بعض الوقت لأنّ وجود بقية الشلّة حول المائدة كان يحول دون السؤال بأريحية، ومن غير أن تحوطه التعليقات الصبيانية الخبيثة. لكنْ حتى بعد أن رجعنا إلى الحيّ لم يتسنَّ لي أن أنفرد بسامرٍ ولو خمس دقائق فقط. كنا جميعاً مخمورين تقريباً، إلّا خلدون. إنه لا يشرب الكحول، ليس عن تديّنٍ، ولكن لأنّ الكحول تجعله ضعيفاً في المساومة بشكلٍ عام. رجعنا تلك الليلة إلى حيّنا محشورين في سيّارة خلدون التي كادت أن تخذلنا على الطريق الطويلة. كنا نغني تلك الأغاني ذاتها التي من سنوات المراهقة، وكنا نتدافع بغلاظةِ أيام المدرسة الإعدادية، وأكثر من ذلك، ومن دون أيّ اتفاق، وجدنا

أنفسنا نتوجه إلى خزان الكهرباء الملاصق لمنزل صطيف الذي ترحمنا عليه قبل قليل، ورحنا نبول على الحائط بشراهة. أفرغنا حتى آخر قطرةٍ في مثاناتنا، كما لو كنا ننتقم من سنوات الحرمان الكثيرة. وندمنا على ذلك في اليوم التالي أشدّ الندم. أفلم نقف دقيقة صمتٍ على روح بطلنا الفقير الشجاع؟ وفي اليوم التالي أيضاً خجلتُ من مكاشفة سامرٍ بالسؤال الذي كان بالأمس يؤرقني، ثم لم أعد أجده كذلك. إنْ كان أمر وِدادَ يهمني فعلاً فإنّ الواجب يحتّم عليّ أن أكتشف بنفسيَ الجواب عن ذلك السؤال. عندما رجعت إلى المنزل تلك الليلة عاتبتني أمّي بسبب رائحة الكحول التي تنبعث مني. قالت لي: هذا حرام. وحاولتْ أن تأخذ مني عهداً بألّا أشرب الكحول مرّةً ثانية، وَ وعدتها بأن أحاول، وأقنعتها بأن تذهب إلى الغرفة لتنام لأنني سأجلس إلى الطاولة الصغيرة في المطبخ، وأكتب. كان يستبدُّ بي شوقٌ إلى الكتابة، فقد آن الأوان أخيراً لأن أبدأ مشروعيَ الخاص بي أنا أيضاً. ليس لديّ ورشةٌ لصناعة الألبسة الداخلية النسائية. ولن يكون لديّ عيادةٌ طبية في يومٍ من الأيام، ولا حتى عربةٌ أبيع عليها البطيخ والباذنجان والملابسَ العتيقة. ورشتي قلمٌ وَ ورقٌ وطاولةٌ صغيرة وبنتٌ اسمها وِداد وشابٌ اسمه سامر وقمرٌ معلّقٌ في السماء. هذه هي جميع العناصر التي أملك. أعترف الآن بعد مرور كل تلك السنوات الطِوال بأنني مدينٌ لوِدادَ وسامرٍ والقمر بصناعة أوّل مسلسلاتي التلفزيونية، الذي بنيته من لا شيءٍ تقريباً، فحين جلست إلى الطاولة أكتب تلك الليلة لم يكن في رأسي أية قصة، ولا أية أفكارٍ كبيرةٍ أو حتى صغيرة. لم يكن لديّ، كما أسلفت قبل قليل إلّا تلك العناصر القليلة التي لم أكن أعرف بعد كيف أربطها ببعضها: رجلٌ وامرأةٌ وقمر. ومن هذه العناصر الثلاثة كان واضحاً لي أنني لن أكتب قصةً واقعيةً عن عشوائيتيَ الأليفة، بل قصةً تجنح في معالجتها إلى الرومانس. والعنوان الذي وجدته الأنسب لتلك الكتابة يؤكد هذا الجنوح: ظلُّ القمر. ولم أكن أشعر بالاستياء من هذا الشيء. بل ربما كنت راضياً عن الأمر تمامَ الرضى، حتى لو

كانت وِدادُ في الواقع تميل إلى سامرٍ وليس إليّ أنا. فالكاتب يستطيع إعادة بناء الواقع كما يحب، أو كما يحلم، فهو مع القلم والورق كلّيُّ القدرة. وفي الأحوال جميعها ليس سيئاً أن أقدّم نفسي لجمهور التلفزيون العريض ككاتبٍ رومانسي في عملي الأول. وقتُ العشوائيات سوف يأتي من كلّ بد. لكلٍّ آنٍ أوان. ركنتُ أسس الكتابة الدرامية جانباً. قلت في نفسي يومئذٍ: أعود إليها فيما بعد، فالمهم الآن أن أحصل على جسم القصة. شرعت بالعمل، واسترسلت به، أو حتى غرقت، وقد خلطتُ أوراق اللعب ببعضها على نحو بهلوانيٍّ إلى حدٍ كبير. حين استيقظتْ أمي من نومها عند صلاة الفجر وجدَتْني ملتصقاً بالطاولة والقلم والورق في المطبخ. أظنها أشفقتْ عليّ. حاولتْ أن تقنعني بالذهاب إلى الفراش. ولكنها لم تنجح. بقيتُ ملتصقاً بالطاولة وكأنني جزءٌ منها وهي جزءٌ مني. ثم لم أنتبه للوقت الذي صرفتُه على تلك الحال إلى أن رنّ الجرس في المنزل مرّةً ومرّتين وثلاثا. أين أمي؟ لماذا لا تفتح الباب؟ هل يُعقل أنها ما تزال نائمة؟ نظرتُ إلى الساعة حول معصمي. إنها تمام التاسعة وعشرين دقيقة. انشغل بالي على أمي، فليس من عادتها أن تنام إلى مثل هذا الوقت. هل هي مريضة؟ ذهبت إلى غرفة المنزل الوحيدة. لا أثر للمرأة هناك. انصرفت إلى الباب، وفتحته. إنها وِداد. قلت لها باسماً:

أنت ابنة حلال يا وِداد.

ضحكت كعادتها تلك الضحكة الرقيعة، وقالت:

لماذا تقول ذلك؟

لأنني قضيت وقتاً طويلاً أكتب عن بنتٍ اسمها وِداد. ادخلي.

هل خالتي أم أمجد موجودة؟

لا. سنكون وحيدين أنا وأنت. ولكنني أعدك بأن الشيطان لن يكون ثالثنا.

يا خسارة!

لماذا يا خسارة؟ هل صرتِ تحبين الموبقات؟

ومن جديد رنّتْ ضحكةٌ خليعةٌ في الحارة. قلت:

هل سنظلُّ بالباب واقفينْ؟

قالت:

لا، بل سوف أدخل. أحب أن أعرف ماذا كتبتَ عني.

دخلتْ. أغلقتُ الباب خلفها. ذهبنا إلى المطبخ. فوجئت البنت بكمية الورق الذي لم يعد أبيض على سطح الطاولة الصغيرة، حتى إنها قالت:

واو!. متى كتبتَ هذا الكلامَ كلّه؟ يبدو أنك استيقظتَ باكراً جداً.

كنتُ قد جلست إلى الطاولة من جديد، ورجعت إلى الكتابة. قلتُ من دون أن أنظر إليها:

بل إنني لم أنم الليل.

لا أفهم. كيف لم تنم الليل؟

لقد سرقتني الكتابة فنسيت أن أنام.

ولكنك سوف تتعب هذا النهار.

هل أبوح لكِ بسرٍ صغير؟

نعم، بالتأكيد. إنني أعشق الأسرار الصغيرة.

أنا يا وِدادُ مريضٌ بالأرق.

وهل الأرق مرض؟

أظنه كذلك. على أية حال، إنه لا يخيفني حتى لو كان مرضاً، فقد خبرته على نحوٍ جيد. سبق لي أن سهرت ثلاثة أيامٍ بلياليها.

ومن أجل أي شيءٍ سهرتَ ثلاثة أيامٍ بلياليها؟

من أجل إحدى البنات.

هل أعرفها؟

لا. إنها بنتٌ بعيدةٌ من هنا اسمها كاتيا.

هل تركتْك؟

أجل. ولكنها قالت لي عند الوداع: لا تخف. سوف أظلُّ ملاكَك الحارس.

ماذا يعني هذا الكلام؟ وعموماً لماذا تحكي لي عن هذه البنت؟

بسبب الأرق الذي أعاني، فالشيء بالشيء يُذكر. ما أخبار شمس؟

شمس بخير.

هل تتشاجران؟

نتشاجر؟! من أجل أي شيءٍ نتشاجر؟

لا أعرف. مجرد سؤال.

لماذا لا تنظر إلي وأنت تكلمني؟ لماذا لا تتوقف عن الكتابة؟

هل تحسنين صناعة القهوة؟

إلى حدٍ ما.

إذن، هيّا. إلى العمل.

لن أصنع لك أية قهوة قبل أن تنظر في وجهي وتخبرني ماذا كتبت عني.

أنا لم أقل إنني كنت أكتب عنك. قلت: كنت أكتب عن بنتٍ اسمها وِداد.

لقد أقنعتني كثيراً بهذا الجواب. فكم وداداً تعرف أنت؟

لا أعرف واحدةً سواك.

إذن، اعترف: ما الذي كتبته عني؟

تركتُ القلم أخيراً، ونظرت إلى البنت، وقلت لها:

في الحقيقة إنني قد كتبت عن بنتٍ اسمها وِداد وعن ولدٍ اسمه سامر.

وهنا بدا على البنت شيءٌ من غضب، ولكنها جاهدتْ في أن تظلّ هادئة. قالت:

لماذا لا تصدقني؟

لماذا لا أصدقك بخصوص أي شيء؟

بخصوص علاقتي بسامر.

ببساطة، أنا لا أصدقك لأنك تكذبين. ـ واستدركتُ: بالمناسبة، هذا الأمر لا يزعجني.

قالت محتدّة:

ولكنه يزعجني أنا. يزعجني ألّا تصدّقني أنت بالذات.

لماذا أنا بالذات؟

لأنّ أمرك يهمني.

يهمك في أي شيء؟

في كل شيء. أنت كلك تهمني.

وماذا عن سامر؟

حسناً، حسناً، لقد ضقت ذرعاً بسامر، وسوف أخبرك بالذي جرى بيني وبينه. ـ وصمتتْ لحظة: حسناً.. لقد قبلته على شفتيه مرّةً.

ثم ماذا حدث؟

اسمع، لقد بدأت أضيق ذرعاً بك أنت أيضاً.

سألتك: ماذا حدث بعد القبلة؟

هل هذا تحقيق؟ هل أنا موجودةٌ في قسم البوليس؟

ارتفع صوتها بالصراخ. قلتُ بهدوء:

اسمه قسم الشرطة وليس قسم البوليس. هذا أولاً. ثانياً: بالتأكيد لا. أنتِ لستِ في قسم الشرطة، وهذا ليس تحقيقاً. إنه فضول المهنة لا أكثر. أريد أن أعرف إلى أين أمضي بهذه الكتابة التي أنا بصددها.

امضِ بها إلى حيث أنني تركتُ سامراً، وللأمانة، هو مَن تركني. حتى إنه قال لي كلاماً غريباً في رفضه لتلك القبلة.

كلامٌ غريبٌ مثل ماذا؟

قال: أنا يا وِداد لا أحمل جوعي بين فخذيّ، فاعذريني. وتركني ومضى في حال سبيله.

وأنت تصدّقين هذا الكلام الغريب؟

كان يبدو صادقاً، أو حتى في غاية الصدق. ـ وصمتت من جديد: والآن قل لي: هل ما زلت تريدني أن أصنع لك القهوة؟

نعم، بالتأكيد.

وشرعتِ البنتُ تصنع القهوة. وشرعتُ أفكّر وأنا أتأملها: إنني لستُ إلاّ بديلاً من سامر.. فدائماً في الحب، ثمة نساءٌ ورجالٌ يتصرفون تماماً مثل مدربٍ كرة قدم مأزوم أثناء سير المباراة. تجده يلقي بين الحين والحين نظرةً إلى مقاعد البدلاء. وفي هذه الحال يكون السؤال الجوهري الذي يطرح نفسه أمامي هو: هل ترضى بأن تلعب دور البديل في حياة وِدادَ من بعد هذه المكاشفة الساذجة؟ أو بالأصح: من بعد تلك القبلة الذئبية؟ ثم أليس من الجائز

أن تكون التبديلات التي يقوم بها المدرب أثناء سير المباراة هي الأكثر نجاعةً في بعض الأحيان لأنها هي من يأتي بالحلول المرجوّة؟

سنرى.

8

كانت تلك القبلة الذئبيةً الموجعة خطوتي الأُولى إلى وِداد. أو فلأقل: كانت الشرارة الأولى التي أوقدت في قلبي ذلك اللهيب الذي سوف أصطلي به في مقبل السنين. والأهم هنا من الوجع، كما قالت لي وِدادُ في تلك الكفتيريا، إنها كانت قبلةً تبعث في النفس على الحزن والندم.. ولكنَّ البنتَ لم تقل لي الحزنُ والندمُ على ماذا، فقد أحببتها قليلاً وأحبّتني كثيراً. أو أحببتها كثيراً وأحبتني قليلا، أو إنَّ أحدنا لم يقع في هوى الآخر بتاتاً في تلك المرحلة. أو هذا ما خُيّلَ إليَّ وإليها. جميع الاحتمالات السابقة تبقى قائمة. وفي الأحوال كلّها فقد ظلّتْ تلك القبلةُ يتيمةً طوال أربعة أعوام قضيناها سويةً في المواعدات المتباعدة حيناً والمتقاربة في أحيانٍ أُخرى، تماماً كما كتبتُ في (ظلّ القمر)، وكأنني كنت أتنبأ بما سوف يقع لي من أمرٍ مع وِداد. أربع سنواتٍ لم نعد نخشى خلالها ارتياد المدينة القديمة، بل حتى على العكس من ذلك: صرنا نحبّ تلك القطعة من العالم التي تركها لنا الأجداد البعيدون جميلة وبهيّة، بخلاف العشوائيات التي يجب أن نشعر بالخجل منها نحن الأحفاد من زمن العار والخيبة. كانت جميع لقاءاتنا خلال خريفنا الأول وشتائنا الأول تتم في مقهى النوفرة العتيق. ثم ما إن جاء الربيع حتى تركنا هذا المكان من دون سبب واضح يدعو إلى ذلك. أو لعل السبب من وراء ذلك خجل وداد من تدخين السجائر في الطريق، رغم أنها ليست تخجل من تدخين

الأركيلة على الملأ. صرنا نلتقي في إحدى الكفتيريات قريبا من شارع الصالحية غير بعيدٍ عن مركز المدينة. وبقينا نلتقي في تلك الكفتيريا حتى إلى ما بعد الطلاق. كان لنا موعد ثابت عند السادسة مساءَ الإثنين في كل أسبوع. لكن، ومن دون سبب واضح أيضا، لم يعد الزمان مساء الإثنين بل صار مساء الأحد. أما أنا فقد بقيت أحن إلى مقهى النوفرة في قلب دمشق القديمة. بقيت أذهب إلى هناك من حينٍ إلى حين. ثمة شيء يشدّني دائما إلى تلك الأمكنة. ثمة شيء هناك يستثير خيالي، ويدغدغ جنبات الروح مني. حتى إنني صرت أذهب إلى هناك أحيانا من دون أن يكون ثمّةَ موعدٌ بيني وبين وِداد التي انتسبتْ أخيراً إلى أحد معاهد اللغات من أجل تقوية لغتها الإنكليزية. وذات مرة ذهبتُ إلى المقهى العتيق في ساعة متقدمة. كان الليل قد انتصف. ولم أفهم ما الذي دفع بي إلى الخروج من البيت في تلك الساعة، أو من أجل أي شيء ذهبت إلى المدينة القديمة. حتى إني توقفت في منتصف الطريق متردداً. ولم أعرف في تلك اللحظة سببا حقيقيا لترددي المفاجيء. لم أعرف السبب إلا بعد ساعة تقريبا، أو حتى بعد ساعة ونصف ساعة. كنت قد صرت في سوق (البزورية) وكنت قادما من شارع (مدحت باشا). فكّرت خلال ترددي ذاك على النحو الآتي: هل أنحرف إلى اليمين عند منتصف السوق وألف من حول (قصر العظم)، أم أتابع طريقي إلى أمام بحيث أصير في مواجهة المدخل الجنوبي للمسجد الكبير، ثم أنحرف من هناك إلى اليمين وأمشي بمحاذاة السور الجنوبي حتى نهايته؟ الهدف من الطريقين واحد. إنني أقصد مقهى النوفرة المواجه لمدخل المسجد الشرقي. سوف أجلس هناك على الطريق وأدخن بعض السجائر وأشرب فنجاناً أو فنجانين من القهوة. ومن يدري؟ قد أصادف وِداد! وهذا ما كنت أرجوه طبعاً، رغم أنني أعلم بأنه يندرج تحت بند المحال، والسبب في ذلك واضحٌ جداً: إن وِدادَ ليست في دمشق. وأنا أعرف هذا الأمر معرفة أكيدة، وأعرف أنها سافرت بالأمس مع أهلها إلى مدينة حمص من أجل زيارة علاء الذي يشتغل

في مصفاة النفط، وأنها لن ترجع إلى دمشق قبل غدٍ، وأعرف أن موعدي معها يوم الإثنين وليس يوم الجمعة. المكان نفسه، الساعة السادسة مساء. كنت قد قلت لها: نلتقي الساعة السادسة والنصف. قالت: لماذا ليس السادسة؟

فهل يناسبك هذا الوقت أكثر؟

نعم، فأنا مضطرة دائماً على أن أتركك عند الثامنة قبل أن يرجع أبي إلى البيت. وهكذا نكسب بتقريب الموعد نصف ساعة إضافية.

ولكن درس اللغة الإنكليزية في المعهد ينتهي الساعة السادسة.

قالت:

أفكر في الاعتذار عن هذه الحصّة.

التقينا يوم الإثنين الفائت عند السادسة وخمسٍ وثلاثين دقيقة. وصلتُ إلى المقهى قبل الموعد بنصف ساعة. لم أطلب أركيلة ولكنني كنت قد شربت فنجانين من القهوة ودخنت ثلاث سجائر قبل أن تجيء وِدادُ متأخرةً خمس دقائق. جاءت من اتجاهٍ غير الذي توقعت أن تطلّ عليّ منه. ظننت بأنها سوف تطلّ علي من الغرب، فأنا أعرف أنها في المعهد، وأن المعهد في شارع 29 أيار (مايو). كانت قد قالت لي: الدرس ينتهي عند السادسة.

قلت:

فمتى تحبين أن نلتقي؟

الساعة السادسة والنصف.

وهو كذلك.

ذهبتُ إلى الموعد باكراً، وجاءتني متأخرة خمس دقائق من اتجاه غير الذي توقعت أن تطل عليّ منه. كنت أظن بأنها سوف تخرج من المعهد وتذهب مشياً إلى ساحة الصالحية القريبة وتستقلّ

من هناك سيارة أجرة، ثم تحاول أن تقنع السائق بالمجازفة في إيصالها إلى سوق العصرونية عن طريق القلعة الممنوعة على سيارات الأجرة بالقرب من نُصب صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين الشهيرة، وتدلف بعد ذلك مشياً إلى زقاق باب البريد حيث يقع مطعم أبو العز الشهير. وتلفّ عند نهاية الزقاق على اليسار بحيث تصير في مواجهة المدخل الغربي لمسجد بني أمية الكبير من جهة سوق المسكيّة. ولا يبقى أمامها بعدئذٍ إلا أن تدور من حول المسجد نصف دورة فيقع بصرها أول ما يقع عليّ أنا جالساً من دون أركيلة على الدرجة الثانية من الدرجات الفاصلة بين حرم المسجد وبين الزقاق الواسع الشهير.

كان مساء بارداً هبّت فيه ريح خفيفة محملة بالصقيع. لا بد أنها ريح قطبية المنشأ، ورغم شدة البرد، لم أجد عندما وصلت إلا كرسياً واحداً شاغراً في المقهى الذي تحب أغلبية زبائنه الجلوس في الطريق المواجه لمدخل المسجد الشرقي. وكان ذلك الكرسي الشاغر أقرب ما يكون إلى المدخل، أي إلى الغرب. إذن، أنا لم أرتب الأمر. المصادفة وحدها هي السبب في ذلك. ولكنني كنت سعيداً بتلك المصادفة. سوف يقع بصر وِدادَ أول ما يقع عليّ أنا.

هذا ما فكرت به، ولم أكن أعلم بأنها سوف تجيئني من الاتجاه المعاكس بحيث أصير آخر ما يقع عليه بصرها. جاءت متأخرة خمس دقائق، مستعجلة ومتلهفة، ترتدي معطفاً من جوخ داكن الخضرة، وتلف حول رقبتها شالاً صوفياً أخضر فاتحاً.

قالت: هل تأخرت؟

قلت: لا.

أنا آسفة.

على أي شيء تأسفين؟ فأنت لم تتأخري.

بل تأخرت قليلاً. رفض سائق التكسي أن يأتي بي عن طريق القلعة، فجئت عن طريق باب توما البعيدة.

قالت ذلك وجلست على أحد الكرسيين اللذين تدبرهما لي النادل الذي ما زال في طور المراهقة. كنت قد طلبت منه كرسياً لأنني في انتظار صديق فتدبر لي اثنين بدلاً من واحد.

ماذا تأخذين؟

أركيلة وكأساً من الزهورات المغلية.

ناديت على النادل وطلبت أركيلة وزهورات وقهوة. قالت لي بعد أن انصرف النادل:

ما أخبارك؟.

قلت بصوت خفيض:

اشتقت إليك يا وِداد.

أشاحت بوجهها عني. أطرقت ببصرها إلى الأرض، كمن يخجل من سماع مثل هذا الاعتراف. وأنا فهمت الأمر سريعاً. وسريعاً كذلك عملت على تغيير جهة الحديث.

قلت:

كيف اللغة الإنجليزية؟

قالت:

هربت من الحصّة.

وصمتتْ. وكانت لا تنظر إليّ بعد. ولم أسألها عن أسباب هروبها. انشغلتُ بالنظر إلى وجهها الحبيب. بدا لي متعباً. من أين يجيء تعب الوجه إلى فتاة لمّا تبلغ التاسعة عشرة من عمرها بعد؟ ومرة ثانية لم أسألها عن السبب. أشحت أنا أيضاً ببصري عنها، ولكن ليس إلى الأرض، بل إلى السماء فرأيت القمر. بدا لي أليفاً،

ودوداً، وصديقاً لنا نحن الاثنين. رأيته يبتسم كمن يقول: مساء الخير! وكدت أن أردّ على التحية بمثلها ولكنني خشيت ألا أبدو مفهوماً أمام صديقتي الصغيرة، فلذتُ بالصمت ورجعت بناظري إلى الأرض. اصطدم بصري بالباب الشرقي للمسجد. باب عملاق من خشب ثمين وعتيق، ثُبِّتتْ في يمينه على الجدار الشامخ لوحة من رخام كتب عليها: المسجد الأموي، بناه الوليد بن عبد الملك سنة 96 ه. ولم تفاجئني هذه المعلومة بشيء، فأنا أعرف بأن الذي بنى مسجد دمشق الكبير هو الوليد الذي ربما كان أقوى الرجال في تاريخ العرب الطويل من بعد أخيه هشام الذي قال يصفه ابن خلدون: هشام رجلُ القوم. حاولت أن أردّ الّتاريخ الهجري إلى التاريخ الميلادي. لم أصل إلى نتيجة دقيقة فتوقفت عن الأمر واكتفيت بالنتيجة العامة: أواخر القرن السابع الميلادي، أو مطلع القرن الثامن. ثم لم أتوقف عن النظر إلى قطعة الرخام حيث المعلومة السهلة التي خلت من المفاجأة، رغم ما بعثته في نفسي فجأة من إرباك وحيرة، فاسم الوليد مقرونٌ في ذاكرتي منذ المراهقة بحادثة فريدة من نوعها في التاريخ الإسلامي. ولكنني لست واثقاً إن كان الوليد صاحب هذه الحادثة هو ابن عبد الملك أو إن كان أحد أبناء عمومته من بني أمية. أظنه ابن عبد الملك. كيف ذلك؟ تساءلت بصوت مسموع. رفعتْ وِدادُ بصرها من الأرض أخيراً ونظرت إلي وقالت: ماذا؟

هل تعرفين من يكون الوليد؟

طبعاً أعرف من يكون الوليد، إنه من أقوى رجالات العرب. أو ربما كان أقواهم على الإطلاق.

ربما كان هذا صحيحاً. ولكن ليس عن قوته أتحدث الآن.

إذن، فعن أي شيء تتحدث؟

هل تعرفين ماذا يكتب المؤرخون عن هذا الرجل؟ يقولون إنه

كان ملحداً، ويقولون إنه ارتكب ما لم يجرؤ شخص آخر على ارتكابه.

وما هو ذلك الشيء الذي ارتكبه؟

يقولون إنه مزّق المصحف، وبعثر أوراقه في الهواء، وقال مخاطباً الكتاب الممزق:

وإذا لقيتَ ربَّك يوم حشرٍ / فقل يا ربي مزّقَني الوليدُ.

وهل هذه الرواية صحيحة؟

لا أعرف. ولكن ماذا لو كانت صحيحة؟ كيف يبني رجل كافر مسجداً بحجم ملعب للخيول؟ ومن أين تأتيه الحماسة لعمل جبار كهذا العمل؟

قالت: لا أعرف. وصمتت، وجاء النادل حاملاً طلباتنا، ووضعها أمامنا على تربيزة نحاسية قديمة ناحلة، وانصرف. كنا نجلس على الدرجة الثانية، درجة بطول الزقاق كله، وبعرض ثلاثة أمتار تقريباً. كانت الأولى بعرض مترين أو يزيد قليلاً، أما الثالثة فليس يبلغ عرضها أكثر من نصف متر شأنها شأن البقية الباقية التي انشغلتُ بعدّها لحظة فاكتشفت أنها ثلاث عشرة درجة، وكلها من الحجر الأسود القاسي. حجر عتيق لا يبين له عمر فيبدو قريباً من النفس، وأليفاً كالقمر. وفكّرتُ: هل للرقم ثلاثة عشر مدلولات خاصة في الترا ث العربي؟ ولم تمهلني وِداد بالتفكير في الأمر طويلاً. قالت:

ربما كان ما رويته عن الوليد صحيحاً، وهكذا يكون لهذا الرجل شأن مع ربه. أو بالأصح: يكون شأنه مع ربه فقط. وتلك مشكلته هو. وليتدبّر أمره مع الله كما يشاء. ولكن، ألا تلاحظ أننا جميعاً، أقصد أحفاد هذا الرجل، في ورطة معه؟

ورطة من أي نوع؟

ألا ترى؟ «وبسطَتْ كفّها باتجاه الجدار العملاق» ألا ترى إلى

هذه الفوضى؟ هذه الأتربة؟ تلك الحفر؟ ذلك الإسمنت البغيض يتعشّق بالتراث متطفلاً على إنجازات الأقوياء؟

لقد لاحظت أكثر من ذلك، فقد جئت إلى هنا من الطريق المحاذي للسور الجنوبي. ثمة حفريات كثيرة، وثمة ورشات عمل، إنهم يرممون شيئاً ما فيما أظن.

كنت لا أرفع نظري عنها. بدتْ متأثرة، متألمة وحزينة. حتى إني لمحت في عينيها الوديعتين طيفاً من الدموع. وسألت نفسي عن أسباب تأثرها. لم تكن البنت متدينة في يوم من الأيام. حتى إنها لا تعرف الفارق بين النذر وبين الزكاة التي هي أحد أركان الإسلام الخمسة. ورجعتْ تنشغل بأرجيلتها، ورحت أنظر إلى أصابعها الطويلة الناحلة تمسك بمبسم الأركيلة مترفقة، من دون أن ترفع عينيها عن الماء المقرقر في جوف الزجاجة بعد نفسٍ من الدخان سحبته بشفتيها الناعمتين. نفثت الدخان من بين شفتيها بهدوء وتمتمت: أولاد الكلب! واحتقن وجهها بالغيظ من قبل أن تضيف: هذا ليس فيلماً سينمائياً، أو مسلسلاً تلفزيونياً، أو رواية، أو مسرحية. مثل هذه الأشياء يمكن أن تكون رديئة، من دون أن يكون في الأمر جريمة. أما هذا التاريخ، فكيف يسمحون لأنفسهم بأن يجعلوه رديئاً؟!

قلت: إنك تبدين غاضبة هذه الليلة يا وِداد، تبدين غاضبة وحزينة أيضاً.

قالت: يبدو أنني حزينة فعلاً.

فهل أنتِ كذلك بسبب هذا الحديث عن أعمال الترميم؟

لا. حتى إنني لم أفكر في الأمر إلا بعد أن رويتَ لي تلك الحادثة عن الوليد.

فلماذا أنتِ حزينة إذن؟

لا أعرف، ولكن لا تغضب مني أرجوك! ثم تعال لا نتحدث في الأمر.

فهل يريحك الصمت؟

يريحني الصمت عن هذا الموضوع.

وأنا أحترم صمتك يا صديقتي.

لا تغضب أرجوك!. ثم أردفت من فورها: ولا تتشوش.

ولماذا أتشوش؟

لأنك تحبني. أليس تحبني؟

أظن أنني أميل إليك يا وِداد.

تميل إليّ؟ هل هذا أقلّ من الحب أم أكثر؟

لا أعرف. ربما كان عديل الحب.

عديل؟! رجعتَ إلى المراوغةٌ اللغوية! أليس كذلك؟

ربّما كنتِ على حق. ولكنني ما زلت لا أفهم: لماذا عليّ ألّا أتشوش؟

مكتبة
t.me/t_pdf

باختصار؟

كما تحبين.

وبدا عليها التردد والحرج. قلت كمن يمدّ لها يد العون:

هل الأمر على علاقةٍ بشابٍ آخر؟

انسَ الموضوع. أرجوك أن تنساه.

قلت:

سأحاول.

وصمتُ. وصمتتْ. وتذكرت أيمن: قال لي مرّةً وأنا أعاني من الهلوسة والحمّى بعد حكايتي مع قرص الكبّة المسموم: سوف أنزل

لك من الحنفية مع الماء. وها هو سامرٌ هو الذي ينزل من الحنفية مع كل شيء، فدائماً هنالك شابٌ ما اسمه سامر وظيفته في الحياة أن يحطّم قلوب العذارى. لذتُ بالصمت، ونظرتُ إلى القمر، فرأيته حزيناً على فتاته الحزينة. همس لي يقول: ليلة سعيدة يا صديقي!

ومال على جدار المسجد وغاب. وبقيتُ أنظر إثره وأتأمل في وداعه لي منذ مساء الإثنين الفائت وحتى منتصف ليل الجمعة لمّا وقفتُ وسط سوق البزورية المقفر متردداً، من دون أن أعرف سبب ذلك التردد. المحال التجارية القديمة قدم المدينة العتيقة مقفلة، ليس لأن اليوم هو الجمعة حسب، ولكن لأن من عادة أصحاب هذه المحال الكثيرة أن يبدأوا ليلهم باكراً مثلما يبدأون نهارهم، فهم نهاراً يشتغلون، وليلاً يسبتون. والحياة تنقضي بين الليل والنهار، وبين السوق وبين البيت، أو بين أي مكان ومكان. تنقضي بغتةً، ونؤمن بأنها كانت قصيرة، أو هكذا يخيّل إلينا. فها أنا ذا قد بلغت فجأة الخامسة والعشرين من العمر. عندما كنت طفلاً ثم مراهقاً كنت أومن بأنني لن أعيش حتى أبلغ الخامسة والعشرين، أو إنني سوف أنتحر حتماً عند هذه السن إن بلغتها، فهذا زمنٌ بعيدٌ جداً، وطويلٌ جداً. غير أني لم أنتحر، بل على العكس تماماً: صرت أحب الحياة أكثر. فهل وِدادُ هي السبب؟ هل بدأت أتعلّق بها؟ لا أظن ذلك، مع أني كنت بالأمر شديد الفرح، رغم ميل البنت إلى سامر. فأنا لست أتوق الآن إلى شيء مثل توقي إلى لقاء هذه الطفلة التي أجهل ما أفعل بها، مثل جهلي بالسبب الذي جعلني أتوقف في منتصف الطريق متردداً، والذي لم أعرفه إلا بعد ساعة، أو حتى بعد ساعة ونصف: كنت أخشى اللقاء بسور المسجد الجنوبي حيث الحفريات مستمرة، وحيث الإسمنت البغيض يتعشق بالتراث متطفلاً على إنجازات الأقوياء، كنت أخشى ذلك لأنه يذكرني بغضب وِداد وحزنها، فأنا لا أستطيع أن أرى طفلتي حزينة، حتى ولو في الذاكرة. ولهذا انحرفت على نحو غريزي عند منتصف السوق إلى اليمين، دخلت في إحدى الحواري الضيقة، ودرت من حول قصر العظم، وصرت في حلٍ من

اللقاء بالإسمنت البغيض، وتابعت طريقي قاصداً مقهى النوفرة لكي أدخن بعض السجائر وأشرب فنجاناً أو فنجانين من القهوة. ومن يدري؟ قد أصادف وِداد، رغم أنها ليست في دمشق.

تصويب: الوليد الملحد الذي مزّق المصحف ليس الوليد الذي بنى المسجد الكبير. وليس ابن عمه. بل ابن أخيه. هذا ما قرأته لاحقاً على ألسنة بعض الرواة. إنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك. هو أيضاً آلت إليه الخلافة وصار أميراً للمؤمنين. يحكى أنه كان شديد الوله بالشعر والموسيقى والكحول والنساء، وأنه ترك وراءه عدداً من القصائد الجميلة. وأنا في الحقيقة لم أكن قد قرأتُ أياً منها قبلَ ذلك الوقت.

ومن جديد تتالت بيننا اللقاءات على نحو منتظم، وصار كل منّا يعرف عن الآخر أشياء كثيرة جداً. عرفت أنها طفلة غاضبة، ومتألمة، طفلة تحب الأطفال. طفلة تكره الأطفال. طفلة صارت تدخن السجائر (توقفت عن التدخين بعد الزواج)، وترفض العرسان الذين يدقّون باب بيت أبيها وأختها. ترفضهم من دون أن تراهم. «لن أتزوج بهذه الطريقة البلهاء.» طفلة سريعة الوقوع في الحب، طفلة تتعذب بسبب طفل اسمه سامر أراد أن يلهو بها (هكذا قالت لي. أشكّ في صحة قولها، فقد سبق واعترفت أمامي بأنَّ سامراً هو الذي رفض قبلتها.) فتركته إلى طفل سواه التقته مع بداية عامها الدراسي الأول في الجامعة، فقد نجحت في الشهادة الثانوية، وانتسبت إلى كلية الإعلام. كان الطفل الجديد يريد أن يلهو أيضاً. أين موقعي من هؤلاء الأطفال؟ أعترف لكَ يا ليفاز بأنني كنت أتعذب بسبب علاقتي بهذه البنت، لأن العلاقة بها تفتقر إلى الشرعية ما دامت تقع في بؤرة المنافسة غير العادلة. ولهذا، أيقنت بأن المضيَّ في العلاقة إلى أبعدَ مما وصلت إليه سوف يكون عملاً فظيعاً. أية فجاجة هذه؟ وأي مصير ألقى عليّ بظلاله الثقيلة الباردة؟!

أربع سنواتٍ في المواعدة قبل أن نتزوج. ثم أكثر من ثلاثة أعوامٍ في الوئام الجسدي والنفسي قبل أن تخرج المرأة من حياتي فجأةً، بل فجأة تماماً، وإلى الأبد.. وللدقة: إلى الأبد إلّا يومين.

طلبتِ الطلاق مساء ذات يوم من أواخر صيف سنة 2006. طلبته من دون مقدمات، من دون أية مقدِّمات، على كثرة تلك المقدّمات. كلّ شيءٍ صار فجأة ، برغم أن هذا ال «كل شيءٍ» كان متوقعاً منذ حكاية الشاب الجميل الذي يبيع إكسسوارات الشعر والثياب في دكان النوفوتيه. طلبتِ الطلاقَ، وأصرّت عليه، فقلت لها بعدما لم أقتنع بالدافعِ الحقيقيّ من وراء هذا الطلب:

لكِ ما تريدين.

كان الطلاق مخالعةً بالتراضي. وهكذا لم تكن الإجراءات معقدّة، بل سهلةً وسريعة. (قد تسألينني يا سيدرا: لماذا وافقتَ على الطلاق بهذه السهولة؟ وأنا لا أعرف كيف أجيبك عن هذا السؤال الذي يبدو بسيطاً في ظاهره، بينما هو في واقع الحال شديد التعقيد. فهل أقول لكِ مثلاً إنني قبل ذلك الوقت، أي قبل الطلاق، لم أتعلّق بوِدادَ في يومٍ من الأيام طوالَ أعوام زواجنا الثلاثة ونصف؟ لم أتعلّق بها، رغمَ الوئام الذي كان يبسط على أيامنا أجنحته الحانية، ورغم أنني كنت أميل إليها حقاً، كما قلت لها ذات مرّة. وأنّ هذا الميْل ليس عديل الحب في واقع الحال، بل هو دونه مرتبةً من كلّ بد. هل أعود وأقول إنني معها قد أوشكتُ على الطلاق مرّةً من قبل، حين قلت لها: حقٌّ بحق؟ وأنني لهذا السبب بالذات، وجدت الأمر عليَّ هيّناً في المرّة الثانية؟ هل تبدو أجوبةٌ كهذه مقنعةً لكِ؟ أم أعترف بأنني ما أحببتُ وِدادَ يوماً إلّا من بعد الطلاق معها؟ هل تتذكرين قصة الشاعر الذي هام حبّاً بطليقته حتى أصابه الجنون؟ ذلك الشاعر ليس إلّا أنا، رغم أنّ اسمه قيس بن ذريح. لا أعرف إن كانت هذه الأجوبة مقنعة. كما لا أعرف إن كنت لا أناقض نفسي بنفسي.) المهم.. تركتني وِدادُ ورحلتْ للعمل في دبيّ. ولكنها أخفقتْ

هناك في تحقيق الشهرة والنجومية التي كانت تحلم بهما كما تعلمين، رغم أنَّ دبيّ مدينةٌ مناسبةٌ لصناعة الأحلام والنجوم. ولكن يبدو أن الزحام فيها شديدٌ يا ليفاز. وقبل هذا، فإنّ وِدادَ ذاتَها ليست أكثر من بلهاء في مثل هذه المنافسات التي تحكمها الشراسة. أقامت هناك خمساً من سنين: من أوائل سنة 2007 وحتى أوائل سنة 2012 . كانت قد مرَّت سنةٌ كاملةٌ تقريباً على اندلاع الحرب في سوريا عندما وجدت المرأة نفسها في دبيّ بلا عمل. بلا أيّ عمل، وربما كادت أن تصير بلا مأوى أيضاً، وهي بالكاد تقدر على نفقات العيش الباهظة في تلك المدينة الكونيّة. ما الحل إذن؟ كان أوان العودة إلى سوريا قد فات. حتى شمسُ لم تشجعِ أختها على العودة بسبب احتمالات الموت التي كانت تكبر يوماً بعد يوم بفعل رصاصات القنّاصين وقذائف الهاون. تلك القذائف العشوائيَّة مثل بقية أشياء حياتنا. وهكذا صار مستقبل المرأة المغتربة غامضاً، فقرّرت مع ذلك أن تترك دبيّ. ارتحلت إلى بيروت لكي تكون دمشقُ في متناول اليد. فمن يدري؟ قد تنتهي الحرب قريباً. قالت في نفسها: علَّ وعسى! أقامت في بيروت عند هذه الصديقة وعند تلك بضعةً من شهور. ورقعة الحرب السورية لم تكن في انحسار، بل على النقيض من ذلك. كانت الرقعة تتوسع أكثر فأكثر. وكان شكل الحرب يصير مجنوناً أكثر وأكثر. ما العمل إذن؟ لا يمكن للمرأة أن تعيش عالةً على الآخرين إلى الأبد. صار وضعها يزداد سوءاً يوماً بعد يوم. الوضع النفسي أولاً، فكادت أن تنهار وقد غدتْ دمشق بعيدة المنال، رغم قربها الشديد. وهنا تراءى لها اللجوء إلى أوروبا مخرجاً وحيداً من أزمتها الخانقة. اتخذت القرار الصعب. سافرت إلى مصر. إلى الإسكندرية. ومن هناك ركبت إحدى سفائن الموت. ولكنَّ السفينة لم تغرق، بل وصلت بعد رحلةٍ عسيرةٍ إلى شواطىء الجنوب الإيطاليّ حاملةً على متنها مئات المهاجرين غير الشرعيين من جنسياتٍ مختلفة، أغلبيتهم من السوريين. وفي جنوب إيطاليا وجدتِ المرأةُ نفسها وحيدةً أمام رياح الغربة. كان هذا في ربيع 2013. أي:

حين كنتُ عندكِ في القاهرة يا صديقتي. مرّةً ثانية، تقف المرأة أمام السؤال الصعب: ما العمل؟ ولا يخطر ببالها إلّا سامراً الذي يقيم في باريس. اتصلت به، وطلبت مساعدته على نحوٍ صريح، وربما كانت قد بكتْ على الموبايل، فما كان من الرجل إلّا أن استجاب لنداء الاستغاثة. انطلق بسيارته من شمال فرنسا إلى جنوب إيطاليا. إلى مدينة كاتانيا الصقيلية في ما أظن. طوبى لمن وافى الخائفَ الجوعانَ أياماً بخبزه! حمل سامرٌ المرأةَ المحطَّمة بشكلٍ عشوائيّ، وذهب بها إلى باريس. (حصلت وِدادُ لاحقاً على حق اللجوء في فرنسا لعشر سنوات. أظنهم يسمّونها في القانون الدوليّ: حق الحماية). وما زالت هناك إلى اليوم تعيش بلا خوفٍ في بلادٍ بعيدٌ وِصالُها.. بلادٌ غريبةٌ، باردةٌ، اسمها فرنسا.. هكذا وصفتها وِدادُ لي في إحدى رسائلها إليّ. ما زالت إلى اليوم تعيش في منزل سامرٍ الذي كان يصيب نجاحاً لافتاً في عالم البرمجيات الرحيب. المهم أنها التقتْ بالشاب الذي تعرفه مثلما تعرفني مُذ كانت في السادسة من عمرها بعد، والذي يبدو لي أنها قد أحبته حين كانت في طور المراهقة. هل تراه في ذلك الطور من الحياة قد صرفها عنه بهدوء؟ أم تراه قبّلها قبلةً ليست ذئبية، فهربت منه؟ هل تعرفين يا سيدرا؟ يُخيّل إليّ أحياناً أنّ هذه المرأة تكاد أن تكون هاربةً من روايات بلزاك طوراً، ومن روايات دوستويفسكي طوراً آخر، وفي بعض الأطوار لا أراها إلّا هاربةً من دواوين شعراء الصوفية العرب. إنها فعلاً ذات طبقاتٍ متعددة. أو إنها نفسٌ تقاطَرُ أنفسا. هي، على الأقل، شخصيةٌ مثنوية تستسلم صاغرةً لشتّى ألوان التناقضات والسلبيات التي تتسع لها طبيعتها، دونَ أدنى اكتراثٍ لأنْ تظلَّ أمينةً لذاتها، تعصف بها الازدواجيةُ فتقضي على تناغمها. لها مزاجان، وهما لا يتناوبان، وإنما يظهران معاً دفعةً واحدة، فتكون أقربَ إلى المحبّة حين تُفرط في الكراهية. إنَّ حدسَها قلِقٌ يرصد التقلّب. وهكذا فهي مؤهلةٌ للدخول في علاقات حبٍ متعددة، كما أنها تجهل الغيرة. في باريس، أقامت في منزل سامرٍ بطبيعة الحال. هل كانت

تعاشره بعد أن صارت تقيم في بيته؟ هي تجيب عن هذا السؤال بكلمةٍ واحدة: لا. أما أنا فإنني أومن بأن الجواب هو: نعم. على أية حال، فمن المؤكد أنها عاشت معه ما بقي له من عُمْرٍ في الغُربة. والباقي من عمره كان قليلا، بضعة شهورٍ لا أكثر. لقد عاد الرجل إلى سوريا من منفاه الاختياريّ عند أواسط الحرب تقريباً. رجع في أواخر عام 2013 عندما كانت الناس قد بدأت بالرحيل عن سوريا أفواجاً أفواجا، وقد أخذت الحرب ذلك الطابع المجنون في القتل والدمار. لا أستطيع الجزم بأنه كان يقف في صفوف المعارضة. ولكنه بالتأكيد لم يكن يقف في صف النظام. التقيته هنا في دمشق مرّتين بعد ذلك التاريخ. لقاؤنا الأول كان بالمصادفة، وعلى شيءٍ من عَجَلَة، وقد شابَهُ بعضُ الفتور، برغم أننا تبادلنا خلاله أرقام هواتفنا النقّالة. من الطبيعي أنّ وِدادَ هي سبب ذلك الفتور، فكيف أكون مبتهجاً بلقاء رجلٍ يساكن المرأة التي كانت زوجتي؟ المرأة التي صرت مجنوناً بها. فتورٌ وبّختُ نفسي عليه لاحقاً، فوِدادُ لم تعد زوجتي منذ زمنٍ بعيد، والرجل صديق طفولة، رغم كلِّ شيء، وقبل كلّ شيءٍ أيضا. وكان من واجبي أن أُبدي به اهتماماً أكبر مما أبديت في لقائنا الأول. وسوى ذلك: خشيت أن يكون قد فهم فتوري تجاهه نوعاً من الخوف الذي أبديه على نفسي من مقابلة شخصٍ ربما كان يعادي النظام. ولهذه الأسباب مجتمعة قررت الاعتذار عن سلوكي غير الصحيح، فاتصلت به، وأصرّيت على أن أدعوه لتناول طعام الغداء في أحد مطاعم قلب المدينة. والتقينا. كان غداءً متأخراً. تقريباً ساعةَ الغسق. سألت عن أخبار أبيه وأمه وبقية أخوته. قال إنهم عموماً بخيرٍ من بعد أن هجروا العشوائية، وإنه قد استأجر لهم بيتاً في ضاحية قدسيا الهادئة. تذكرنا الماضي. سألني عن أصدقاء الطفولة فرداً فرداً. أجبته بقدْر ما أعرف عنهم، فقد باعدت بيننا الأيام. خلدون غدا صاحب ورشةٍ كبيرةٍ نسبياً تصنع ملبوساتٍ داخليةً نسائية. أظنه ترك البلد مؤخراً، وسافر إلى مصر، وافتتح منشأةً مماثلة لتلك التي كانت له هنا والتي تعرضتْ للنهب والتخريب.

سعيد طبيبٌ كما تعلم. هو طبيبُ باطنيةٍ ناجحٌ يقصده الكثير من المرضى. أظنه يتذكر الدكتور عصام جيداً، ولهذا فإنه يجلد الأغنياء من زبائنه، ويتعاطف مع الفقراء الذين يعالجهم بالمجّان، أو بالمجّان تقريباً. إنني أزوره في العيادة في أحيانٍ متباعدة، عند المرض على الأقل، أيّ مرض، حتى لو كان مجرد زكام. أيمن كاد يُبكيني مرّةً. لقد تشرّد كثيراً بعد أن هجر العشوائية، وبعد أن فقد البيت والدكّان التي قدمناها له هديةً بمناسبة زواجه. إنه يعمل نادلاً في مطعم شعبي دخلته يوماً لأتناول وجبةً من الفول، وإذ بي أمام الصديق العتيق وجهاً لوجه. استقبلني بحفاوةٍ بالغة، رغم استغرابه من ارتيادي مطعماً شعبياً كهذا المطعم، وراح يعلن جميع العاملين في المكان بأنَّ صديقه الذي يظهر اسمه كثيراً على شاشات التلفزيون قد جاء خصيصاً لرؤيته لأنه مشتاقٌ إليه. وأصرّ على أن يدفع من جيبه ثمن صحن الفول. سألني سامر عن شمس أيضاً. قلت: ما هذا السؤال؟ وِداد تعرف الجواب خيراً مني. قال: ليس بالضرورة. قلت: على أية حال، هذه المرأة اختفت من الوجود. سمعت بعضهم يقول إنها ترقد في خيام اللاجئين السوريين في لبنان. قال: مسكينة، كانت بنتاً طيبة، وكانت تستحق نصيباً خيراً من هذا النصيب. قلت: نعم، إنك على حق. وكدتُ أسأله إنْ كان قد أحبّها ذاتَ يوم. ولكنني لم أفعل. بل رجعت إلى الحديث عن أفراد الشلة وأهل العشوائية الذين تشردوا في أصقاع الدنيا. حدّثت سامراً عن الجميع، ولكنني لم أروِ له شيئاً من الوجع الذي تركتْه لي وِدادُ برحيلها المفاجىء عنّي. بل إننا في المرّتين لم نأتِ على سيرة وِدادَ إلّا عرَضاً، فقد كان ثمّة ما يشغل على الرجل كاملَ تفكيره. شيءٌ أعظم من جميع الشؤون الشخصيّة: البلد. قال لي:

سؤالك القديم لم يفارقني لحظةً واحدة طوالَ اغترابي.

أيُّ سؤالٍ هو؟

هل نستحقُّ بؤسنا؟

ابتسمت و قلت بالفرنسية التي لا أعرف منها إلّا بضع كلماتٍ فقط:

سي لا في (هكذا الدنيا). أليس هذا ما تقولونه في فرنسا؟

ردَّ عليَّ يقول:

ولكنَّ الدنيا في فرنسا ليست هكذا. الدنيا ليست هكذا لا في فرنسا ولا في سواها من البلاد الكثيرة التي زرتها. هي هكذا عندنا فقط. ألا تشعر أنت بالقهر؟

بماذا تريدني أن أجيبك؟

تستطيع ألّا تجيب عن سؤالي. على أية حال، أنا أعرف موقفك من هذا الوضع. إنه واضحٌ في مسلسلاتك التلفزيونية. لقد شاهدت بعضها. أنت تكتب عنّا. وهذا في الحقيقة شيءٌ تستحق عليه الشكر.

قلت بلهجةٍ أردتُ لها أن تكون مرحة، من أجل التخفيف من قسوة الحزن الذي يخيّم على الجلسة:

علامَ الشكر؟ فأنا أتقاضى المال في مقابل هذه الكتابة.

وضحكتُ، وجاملني جليسي وشبهَ ضحك. وتابعنا طعامنا.

أتذكر أنني قلت له ونحن نشرب القهوة بعد الطعام:

الناس تهرب من سوريا جماعاتٍ جماعات بينما أنت تهرب إلى سوريا. كيف ولماذا؟

ردَّ عليَّ بشيءٍ من استفاضة. قال:

أنت كاتب سيناريو. تصور المشهد كالآتي:

أنت نائمٌ في منزلك. مستغرقٌ بالنوم في قلب ليلةٍ شتائيةٍ باردة. تستيقظ فجأةً على جلبةٍ قويةٍ مصدرها المنزل الذي يجاورك. تستيقظ مفزوعاً بالطبع. لا تفهم من فورك ماذا يحدث هناك. ولكنك شيئاً فشيئاً تدرك أنّ جيرانك يتعرضون للسرقة والاعتداء النفسي

والجسدي من قِبَلِ عصابةٍ ما. وحين تتيقن حقيقة ما يجري تجد نفسك أمام واحدٍ من خيارين: إما أن تُؤْثرَ السلامة و تتظاهر بأنك لم تسمع شيئاً ثم تعود إلى الاستغراق في النوم، وإمّا أن تهبّ من فورك لنجدة جيرانك المساكين. هل هناك خيارٌ ثالث؟ هل هناك احتمالٌ ثالث؟ لا أظن بوجود مثل هذا الاحتمال الثالث. لو سلكتَ الطريق الأول فأنت تضمن سلامتك الشخصية، من دون أن تتعرض لأدنى مساءلةٍ من أية جهة، لا من القضاء مثلاً، ولا حتى من الشرطة. فأنت لم ترتكب مخالفةً قانونية تستوجب عقاباً من نوع ما. تستطيع أن تجيب عن أسئلة الشرطة بكلماتٍ قليلة: لم أسمع أي صراخ، فقد كنت نائماً بعمق. وسوف تتركك الشرطة بحال سبيلك وينتهي الموضوع كلُّه هنا بالنسبة إليك. ولكن ماذا لو هبّيتَ لنجدة الجيران؟ هناك طبعاً احتمالٌ قوي لأن تتأذى في بدنك، وقد يبلغ الأمر بك حدَّ مفارقة الحياة. أي القتل. إذن، هنا تقتضي الحكمة منك أن تأخذ بالخيار الأول، فتضمن أنك لن تتعرض للأذى البدني. ولكن، في هذه الحال، هل تضمن أنك لن تتعرض للأذى النفسي في مُقبِلِ الأيّام؟ هل تضمن أنك سوف تعيش الباقيَ من عمرك مرتاح البال؟ هل تضمن بأنّ ضميرك لن يؤنبك طوالَ حياتك الباقية؟ هل تضمن أنك لن تتعرض في المستقبل لنوباتِ الحزن الصاعقة؟ أقول لكَ يا صديقَ الطفولة إنني أريد أن أعيش الباقي من عمري مرتاح البال و الضمير. ولهذا السبب بالذات رجعت إلى البلد بغضّ النظر عمّا ينتظرني فيه. واجبي أن أكون بجانب أهلي في مصيبتهم، أمّا الأعمار فهي بيد الله. فأنا إنْ لم أهرب اليومَ إلى سوريا فإنه لن تكون أمامي مناسبةٌ ثانيةٌ لعمل الصواب مدى الحياة. وهذا ما لن أغفره لنفسي، وما لن تغفره لي سوريتي، ولا حتى في يوم القيامة، فأنا سوريٌ قبلَ أن أكون فرنسياً.

وشعرت في لحظةٍ بالخوف عليه. رأيته كالسّاعي إلى حتفه بظِلْفِهِ.

قلت:

كلامٌ جميل هذا الذي تقول. ولكنْ ما الذي تستطيع أن تفعله لأهلك المنكوبين؟

قال:

الإغاثة. هناك في أوروبا عديد المنظمات الإنسانية الجاهزة لتقديم عديد المساعدات. ونحن ننسق معهم.

من أنتم؟

مجموعة شبابٍ سوريين من أمثالي يحملون جنسياتٍ أوروبيةً مختلفة.

قلت:

حسناً. لن أدخل معك في التفصيلات. ولكنني أريد أن أنبهك يا سامر إلى أمرٍ مهم. جواز سفرك الفرنسي لن يحميك هنا يا صديقي. فهل تعرف هذا؟

ابتسم و قال:

أعرف. بالتأكيد أعرف. على أية حال، إنني لا أحمل مدفعاً أو حتى مسدساً. كل ما أملكه هو كومبيوتري الشخصي. ثمّ هناك بعض التنسيق مع جهاتٍ حكوميةٍ سوريّة، فلا تقلق بشأني.

ورنّ هاتفه النقّال. فتح الخط، وقال للمتصل الذي تبين أنه امرأة:

أهلاً رجاء! لا لا، لم أنسَ الموعد طبعاً. وكيف أنساه؟ أنا الآن في المطعم. دعاني أمجد على الغداء. حاضر حاضر. لا، لست بحاجةٍ إلى سيارة. حسناً.. إلى اللقاء!

وأغلق الخط. سألتُه:

مَنْ تكون رجاءٌ هذه التي من الواضح أنها تعرفني؟

قال:

وكم رجاءً تعرف أنت؟

آ.. تقصد رجاء بيك؟

ابتسم وقال:

عيب عليك يا رجل! إنها بنتٌ مسكينة. لقد وقعتْ في الثراء بالغلط.

ونظر إلى ساعته، وأضاف:

والآن سوف أتركك. عندي موعدٌ مهم من قبل أن أذهب إلى رجاء. وقبل أن أنسى: وِدادُ تبلغك تحياتها الحارّة، أظنّ أنها ما تزال تحبكَ وتحنُّ إليك. و ربما كانت تحبك اليومَ أكثر من السابق. ـ وصمت لحظةً وأضاف: أظنك ترغب في أن تسألني عنها.

قلت في نفسي: ماذا أسألك عن وِدادَ يا سامر؟ هل تعاشرها؟ ولم أجرؤ على البوح بالذي في القلب. قلت:

قديماً كنت أحبُّ أن أسألك عنها.

قديماً؟ قديماً متى؟

عندما كنّا شباباً.

وما الذي منعك من سؤالي عندما كنا شباباً؟

لا أعرف. ربما كان الخجل هو ما منعني.

تخجل مني وأنا من أقرب الناس إليك؟!

هذا ما حصل.

حسناً. وماذا كنتَ تريد أن تسألني؟

قبل زواجي بوِداد كانت البنت تبدي تردداً تجاه هذا الأمر.

ثمّ ماذا؟ لماذا سكتَّ؟ أين السؤال؟

هل كان هذا بسببك أنت؟

بسببي أنا؟ كيف؟ تقصد أنني كنت أؤثر عليها؟

أو ربما كنتَ تحبها مثلاً.

هل تعرف أنك تدفعني إلى الضحك، بينما مزاجي لا يسمح لي بهذا الشيء؟

كيف أدفعك إلى الضحك؟ لماذا؟

أنا أحب وِداد؟

وما عيب وِداد؟

لا عيبَ فيها سوى أنها بلهاء. صحيحٌ أنها جميلة ورائقة، ولكنها بلهاء، حتى إنني استغربتُ زواجك أنت بها.

كيف بلهاء؟

بالمناسبة، إنني لا أذمّها بهذا النعت، فهي بلهاء لطيفة. لقد كتبتْ لي مرّةً رسالة غرام وهي مراهقة بعد. جاء في تلك الرسالة: ذلك الذي عرفته قبل الميلاد والموت والمطر لم يكن إلّا أنت. إنني ما زلت أحفظ تلك الكلمات حرفياً عن غيب. ها ها ها.. أظنها كتبت لكَ لاحقاً العبارة ذاتها. هل ظنّي في مطرحه؟

لا. ظنك ليس في مطرحه.

عجيب!. فقد كنت أومن بأنها لا تملك عبارةً ثانية تقولها سوى هذه التي من المرجَّح أن تكون قد أخذتها من كتاب: أجمل مئة رسالة غرام. على أية حال، آملُ أنّك لا تعيش في الشكّ، فقد سمعتك تقول في أحد مسلسلاتك التلفزيونية: الشكُّ عديلُ الجحيم. يكفينا الجحيم الجمعيّ الذي نحن فيه يا أمجد، فما حاجةُ كلٍّ منّا إلى جحيم يخصّه؟ جحيمٌ جمعيّ واحدٌ يكفينا ويزيد يا صديقي. وأقول لك كي أبرّد قلبك، أنا لم أسافر من باريس إلى كاتانيا في الجنوب الإيطالي من أجل نجدة وِداد إلّا لأنها ابنة الجيران القديمة، هذا إذا لم أقل إلّا

لأنها قد كانت زوجة صديقي السابقة. صديقي أمجد. أو صديقي الأزليّ. هل يكفيك هذا الجواب أم أزيد عليه؟

قلت:

كما تحب.

قال:

كما أحب؟! هذا يعني أحد أمرين: إما أنك لم تقتنع بما قلت لك، أو أنك ترغب بسماع المزيد فعلاً.

في الحقيقة إنني أرغب بسماع المزيد.

حسناً. ـ وصمت لحظة وتنهد بعمق، وأضاف: سوف أبوح لك بسرٍ صغير. إنَّ وِدادَ هي أحد أسباب وجودي هنا الآن.

لم أفهم. كيف ذلك؟ هل تقصد...

قاطعني يقول:

نعم، بالضبط. كما تظن.

وما أدراك بما أظن؟

قال كمن يرمي حملاً ثقيلاً عن كاهله:

إنني أهرب منها يا أمجد، فأنا لن أخون، في يومٍ من الأيام، المبادئ التي حكمتْ حياتي. وأنت يا صديقي أحد هذهِ المبادىء. الصداقة عموماً أحد هذه المبادىء.

كلامٌ جميل. ولكنْ أين الخيانة؟ وِدادَ لم تعد زوجتي منذ سنواتٍ كثيرة. أليس كذلك؟

لا، ليس كذلك. فأنا لا أعرفها زوجةً لرجلٍ لا أعرفه، بل إنني لا أعرفها إلّا زوجةً لأقرب أصدقاء حياتي. وهنا الخيانة.

هل تقصد أنها كانت تسعى معك إلى...

قاطعني من جديد:

دعك من التفصيلات. لقد قلتها لك قبل قليل: ما حاجة كلٍ منّا إلى جحيمٍ يخصّه؟

وخُيّل إليَّ للحظة أنّ الحديث في التفصيلات سوف يوجعه. وهنا، هنا بالذات أيقنتُ بأنه أقام علاقةً جسديةً مع المرأة التي كانت زوجتي. وأيقنت أيضاً بأنّ الحديث في هذا الأمر سوف يؤلمنا نحن الاثنين، فامتنعت عن المطالبة بمعرفة المزيد. قلت:

حسناً. لعلّك على حق. لن أسألك شيئاً بعد الآن عن هذه المرأة.

ابتسم، وقال:

هذه المرأة!! اسمٌ لا بأسَ به. ولكن تريد الحق؟ أظنّ أن هذه المرأة ما زالت تحبك وتشتاق إليك.

هي قالت لك ذلك؟

نعم.

وهل صدّقتها؟

نعم، فقد كانت تبدو صادقة، بل أكثر من صادقة.

على أية حال، شكراً لها، وشكراً لك أنت أيضاً. ولكنني لم أعد أرغب بسماع المزيد عنها، وأرجو أن تحترم رغبتي هذه.

كما تحبُ يا صديقي. كما تحب.

جاءني النادل بفاتورة الحساب. دفعت المبلغ المطلوب إضافةً إلى بعض الإكراميّة، ولملمت أشيائي، ونهضت، ونهض سامر، وقال:

لا تعرف مقدار سروري بلقائك، وبأنك ما تزال بخيرٍ في هذه المقتلة التي نحيا.

وأنا كذلك مسرورٌ بلقائك يا سامر. وسوف أكون مسروراً أكثر لو بقيتَ أنت أيضاً بخيرٍ في هذه اللعنة التي شملتنا جميعاً.

خرجنا من المطعم. خرجنا من الفندق. وقفنا على الرصيف لحظة. كانت الطائرات الحربية تهدر فوق رؤوسنا. اتفقنا على لقاءاتٍ قادمةٍ حتماً حسْبَ وقت فراغه، وعلى أنني في انتظار مكالمةٍ هاتفيةٍ منه. ثمّ تصافحنا، وانصرف، ولكنني لم أره بعد ذلك، رغم أني بقيت أنتظر منه اتصالاً إلى أن علمت من الفيس بوك بنبأ اعتقاله بعد ثلاثة شهورٍ تقريباً على لقائنا الثاني والأخير. أرجو ألّا يكون قد تعرض في المعتقل لمكروهٍ جسيم كما يُشاع، فأنا في الحقيقة أحب سامراً، رغم تعقيدات قصتنا المشتركة مع وِداد. أحبه مذ كنّا أطفالاً نلهو بكرة القدم في ذلك الملعب الارتجالي ونتقاتل على صحة الهدف الذي جاء فوق الحذاء أو بجانبه من داخل المرمى أو من خارجه.

لم يكن بيني وبين وِدادَ اتصالٌ خلال اغترابها المتعدد الأطراف سوى مرّاتٍ قليلة.. بعض هذه المرّات كان مراسلاتٍ ورقية، وبعضها الآخر كان على الفيس بوك. فاجأتني قبل أربع سنواتٍ تقريباً (مذ وصلتْ إلى فرنسا) بطلب صداقة. لهفتُ على قبوله. وبعد الموافقة على الطلب بدقائقَ قليلة بعثت إليَّ بهذه الرسالة المقتضبة:

ذلك الذي عرفتُه قبل الميلاد و الموت و المطر لم يكن إلّا أنت.

وفي يومٍ آخر غير بعيدٍ عن سابقه أرسلتْ إليَّ الرسالة ذاتها من جديد. ثم ظلّتّ تعيد إرسالها لعشرين يوماً متتالياً وأكثر.

يا ربي!

هل كانت تعيش في فراغٍ مميت؟

أم تراها فقدت عقلها؟

أو:

هل كانت تعاقبني على ذنبٍ لا أعرفه؟

سألتُ قلبي:

ماذا دهاها؟

لم أكتب يوماً عن وِدادَ بعد رحيلها عن البلد..

ربما كنت أخاف على مشاعري من التأذي فوق أذى الهجر المفاجىء وتباريحه المضنية.. كنت دائماً أقول في نفسي: سوف أكتب روايةً عن هذه المرأة ذاتَ وقت، و سوف تكون روايتيَ الأخيرة.. رواية ذاتيّة. وسوف يكون اسم الرواية: الحزن.. وأتخفى فيها وراء اسم مستعار: عروة على الأرجح، رغم أن التخفّي في الكتابة، كما أَعتقد، ليس بالأمر الحسن، بخلاف ما يقول بعض حكماء الأدب: كتْمُ الهوى أفضلُ من البوح به وأَوجَعُ.. ولكنني أميل إلى البوح في الكتابة وليس إلى ضدّه، ففي الكتم يفقد الأدب شيئاً من براءته، من طلاوته، من صدقه، فالكتابة سهلة. الصِّدق هو الصعب. ثمّ هناك نقطةٌ ثانية لا تقلُّ أهميةً عن سابقتها، رغم ارتباطها بها على نحوٍ وثيق: عدمُ التنكر في الكتابة وراءَ أسماءٍ مُستعارة. هل طرحنا على أنفسنا يوماً هذا السؤال: لماذا نحن العربَ نحبُّ الشِعرَ العِذريَّ هذا الحبَّ كلَّه؟ لماذا حتى الأطفال الصغيرون عندنا يعرفون قصة مجنون ليلى. القصة التي غدتْ جزءاً من موروثاتنا الأدبية الشهيرة، بل ومن موروثاتنا الشعبية أيضاً.. إن هذا الشاعر الذي رحل عن الدنيا قبل أكثرَ من ألفٍ وثلاثمئة سنة ترك لنا وراءه مجموعة كبيرة من قصائد الغزل المتخمة بالشوق والجوى. ولكنْ هل هذا وحدَه يكفي لأن يعيش شاعرٌ في وِجدان أمّةٍ كاملةٍ إلى الأبد؟ ربما كان يكفي. ولكنه مع ذلك يظل ناقصاً شيئاً ما. ما هو هذا الشيء؟ وهنا تكمن المفارقة. إنه بالضبط ذلك الشيء الذي ليس موجوداً في قصائد الشاعر، بل هو موجودٌ خلفها، أو أمامها، أو بين سطورها. هذا الشيء هو باختصار: الحكاية. حكاية العشق التي عاشها قيسٌ مع ليلاه. والأمر الذي ينطبق على مجنون ليلى ينسحب على بقية المجانين الذين أعطيناهم اسم: الشعراء العِذريون. وما أكثرهم: قيس وقيس وجميل وعروة وكُثَيِّر و ذو الرِّمة، والصَّمّة القُشيري، والقائمة تطول. جميعهم ترك لنا فيضاً من الوَلَه والعِشق وحرقة الفؤاد. ولكنهم جميعاً تركوا لنا إرثاً هائلاً من حكايات

الغرام. كيف تم ذلك؟ أظنُّ أنّ الجواب سهل: جميع هؤلاءِ الشعراء العظماء لم يتخفّوا وراء أسماءٍ مستعارة وهم ينظمون قصائدهم. نحن لا نعرف أسماءهم حسب، بل إننا نعرف أسماء حبيباتهم أيضاً، كما نعرف أسماء ومواقع الأماكن التي ارتادوها في حيواتهم المحكومة بدوام الرحيل خلف هؤلاء المحبوبات. نعرف جميع الأسماء الحقيقية، كما نعرف أيضاً الكثير من تفصيلات الحب الحقيقية التي عاشوها. وهذا، على الأقل، أحد أسباب حبّنا لذلك الشعر الرقيق.. جميل بثينة هو جميل، وقيس ليلى هو قيس.. مرّةً ثانية: إنني أخالف أولئك الحكماءَ الرأي. ورغم ذلك لا ضير في التخفي وراء أسماءٍ مستعارة، فلا شيء يستحق أن يتأذى الآخرون من أجله، فأنا أعيش في زمنٍ غير زمن قيس ليلى وقيس لبنى. إنني أعيش في زمن العولمة والإنترنت والفيس بوك وسواه العديد من وسائط التواصل السريع. كنت أخشى من أن أُسيءَ إلى وِدادَ إن أنا كتبت اسمها الصريح. لا شيءَ يستحق أن يتألم الآخرون بسببه لمجرد أنّ ذلك الشيءَ يؤلمنا. المهم أنني سوف أكتب رواية الحزن ثم أعتزل من بعدها الكتابة الروائية. سوف أعتزلها إلى الأبد.. وحين شرعتُ أخيراً أكتب روايتيَ الموعودة، لم يكن يشغلني أحدٌ إلّا وِداد، فقد كنت مؤمناً في غمرة الموت العبثيّ الذي نصارع في أوجِ حربنا العبثية بأنَّ هذه فرصتيَ الأخيرةُ في غبار العمل.. ومع ذلك، بل ورغم ذلك، لم أكتب عن المرأة التي هي حكاية حياتي جميعةً إلّا فصلاً واحداً من الحزن وتباريحه: قصّة من أجل قارئٍ واحد..

تبيعيني ليه كان ذنبي إيه؟

فصلٌ واحدٌ من عديد المشاهَدات، فقد وجدتني منشغلاً، رغماً عني، بالبلد وأهل البلد في هذه المأساة المرعبة التي نعايش، وهكذا فإنني لم أرَ في وِدادَ إلاّ قطعةً من الوجع. ما راحٍ منه وما هو في الطريق بعد، رغم أنها برحيلها عني تركت لي قرحةً في القلب حملتُها معيَ الزمانَ الباقيَ كلّه.. بوجلٍ فعلت ذلك، احتراماً لقدسيّة الإثم الذي

ارتكبنا ذاتَ وقتٍ بعيد حين بقيْنا متسكعينْ في الطرقات حتى العشيّة..

بصمتٍ حملتُ قرحة قلبي

في الليل والنهار

في الحلِّ والترحال

في الصّحوِ والسُّكرِ

والنوم واليقظة

والحرب والسّلام

والصحة والمرض

والزواج والطلاق

والوحدة والرفقة

وما تذمّرتُ يوماً

ولا أبديتُ

«الذي لم أكن أُبدي

فهذا الجرحُ جرحي

والقلبُ المقروح قلبي

فلا إثمَ على الآخرين

ولا ذنبَ فيه لهم..

إذن، فلأحتفظ بالألم لنفسي..

قرحةٌ نازفةٌ

أعيش معها في وئام

أداريها

أنظّفها

ألمّعها

من أجل أن تكون لائقةً بقبلة الحزن..

قبلةٌ حكمتْ حياتي..

رسمتْ مصيريَ الذي كم حاولتُ التمرد عليه! وكم رجعتُ إليه صاغراً!

فكم من النساء وقع معي في الغرام

ثم كم تخلّين عني!!

أيها الركب المهاجر!

قِفْ

تروَّ..

رفقا بهذا القلب المفطور..

«وما استغربتْ عيني فِراقا رأيتُه

جميعهنّ يتخلّين عني..

وحدها وِداد تأبى أن تفارقني..

يزورني طيفُها في النوم من حينٍ إلى حينِ..

يعاتبني على تخلّفي عن موافاتها إلى حيثُ السكينةُ والسلام في غربتها البعيدة..

والغربة، كما قالت لي وِدادُ يوماً، أشدُّ فتكاً من الحرب.

وربما كانت محقّةً في قولها هذا، فالغائب في حكم الميّت.

فماذا إذن؟

يا أيتها النفس المطمئنة!..

يأتيني الطيف بلا إذن. يسلبني هناءة البال ويرتحل. يمضي إلى صاحبته المقيمة بسلام في البلاد البعيدة، ويترك قلبي نازفاً من قرحته الناشطة..

زارني الطيفُ هذا الصباحَ أيضا

جاء يطالبني بحصته من الحزن..

فتحت عينيّ المجهدتين بعد سهرٍ طويل

ألقيت نظرة على ساعتي اليدوية فوق سطح الكومدينو في جواري

تمام السابعة والربع

لم أكن قد أغفيت إلّا قبل نصف ساعة..

فإلى متى يا ربي؟!

عقلي مشوش

دخّنت سيجارتين على الريق مع قهوة مرّة في غرفة العمل (المكتبة).. ثم خرجت إلى الشرفة..

صباح رائق..

ألقيتُ على المدينة نظرة..

صباحُ الخير يا دمشق!

باحةُ المدرسةِ الابتدائية خاويةٌ من الأولاد وصخبهم، فلا مدارسَ في يوم السبت..

عساكم بخيرٍ يا أولاد!

صباح هادىء

العصافير تزقزق

لا تفرُّ كعادتها مذعورةً من هدير الطائرات ودويِّ المدافع..

تركتُ الشرفة إلى غرفة العمل، إلى أوراق رواية (الحزن) المفروشة على سطح الطاولة..

هذا الحزن ليس على حياةٍ غابرة، بل إنه على بلاد عاثرة، فدعي يا وِدادُ هذا الوجع لي..

أما أنتِ

حسناً

إليكِ ما قد جرى

يقولون:

كلُّ إنسانٍ يشبه ألمَه.

ولكنَّ هذا الألمَ لا يشبهني يا وِداد.

فأنا لا شأن لي بترانيم الميلاد والموت والمطر وابنِ الفارض والحب الإلهي

أنا رجل لا يليق بالسماء لأنني مغروسٌ في وحل الأرض..

فأيّ مصير هذا الذي كان ثمنا لقُبلة غابرة؟!

عقلي مشوشٌ يا وِداد

عقلي مشوش يا حبيبتي..

أريد أن أنام،

فإلى اللقاء

إلى اللقاء!

وأعود إلى الفراش

إلى نفسي..

قرحةٌ في القلب

وذمةٌ في الروح

هذا ما تركته لي المرأة الصغيرة بعد رحيلها عني، ثم بعد رحيلها عن البلد،

ولكنها بعثت إليّ بعد الرحيل رسالةً قصيرةً من دبيّ.

كل الذي في تلك الرسالة كان كلمتين اثنتين فقط:

أفكر بك.

قد تسألينني يا سيدرا:

ماذا كانت تريد المرأة من وراء هذه الرسالة المختصرة سوى الاعتراف لكَ بالحب؟ لا أعرف الجواب عن هذا السؤال يا صديقتي. الذي أعرفه أنها كانت رسالةً بخيلة العاطفة. كانت رسالة تشبه صاحبتها. ثمَّ فجأةً لا تعود المرأة كذلك، فتكتب لي ببعض الاستفاضة مرةً ومرتين وثلاثا. إليكِ ما كتبته لي مؤخراً على الفيس بوك:

أمجد الغالي..

الغالي..

الغالي..

قلت لكَ مرةً: أمنيتي أن أموت على حضنك وبين يديك. وفي الحقيقة أنّ تلك لم تكن مجرد أمنية، فقد عاهدت قلبي على ذلك. وها أنا ذي أنقض بنفسي العهد الذي قطعته على قلبي. إنني أموت يا أمجد. لستُ مريضة. لا تقلق. صحتي جيدة. إنني أموت من الشوق. من الحنين. ولكنَّ المشكلة ليست هنا، فكلُّنا مائتٌ. السعيد مائت، والشقيّ مائت، وكذلك الفقير والغنيّ، والظالم والمظلوم، والسارق والمسروق، والجلّاد والضحية. وبكلمةٍ واحدة: الجميع. إذن، المشكلة عندي ليست في الموت. المشكلة يا صديقي أنني أموت بعيداً عنك. أموت في بلادٍ غريبةٍ، باردةٍ، وغير محايدة اسمها فرنسا. أتذكر كثيراً هذه الأيامَ ما قاله امرؤ القيسِ مرّةً:

أجارَتَنا إنّ المزارَ قريبُ.
إنني أحسد ذلك الشاعر العظيم..
أجارتنا إنّا غريبان ههنا وكلٌّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ
ولكننا بعيدانِ أنا وأنت
بعيدان أكثر مما ينبغي أن يكون عليه البُعد
والمزارُ ليس قريبا
إذن، فإنك لن تزورني
أم تراكَ سوف تفعل ذاتَ حين؟
قريباً ذلك الحينُ كان أو بعيدا
أم تظنني لا أستأهل منك هذه الزيارة
ألمْ يُصلِحِ اليومانِ ما أفسد الأبدُ
أم إنك بقيتَ من بعد ذينك اليومين غاضباً عليّ
أليس الغضب ما منعك من رؤيتي حينَ كنتُ في متناولك
هل أذكّرك بتلك الواقعة من جديد
هل أذكّركَ بتجاهلكَ لي حين كنتُ في دبيّ، وجئتَ أنت المدينة ضيفاً
أم تراها كانت زيارة عمل
حتى إنني لا أعرف من أجل أيّ شيءٍ كنتَ هناك
الذي أعرفه أنك تجاهلت وجودي في المدينة
على أية حال، أنا لست غاضبةً عليك بسبب تلك الحادثة
ولستُ حتى ألومك على هذه القطيعة معي
فأنا أعرف أنّ خروجي من حياتك قد عذّبك في ليالي السهاد الطويلة

وضاعف عندك منسوب الأرق

إنني لست غاضبةً عليك

أنا حزينةٌ فقط

حزينةٌ على نفسي أولاً

لماذا جرتِ الأمورُ على هذا النحو

هل يرضيك لو قلت لك

أنا آسفة

أنا نادمة

أعرف أنّكَ لن ترضى بهذا القليل

ولكن

أقولها لكَ بكلّ الصدق الذي في الكون:

«عرفتُ الهوى مذ عرفتُ هواكَ

إذن، أنا أشكرك يا أمجد

أشكرك لأنني ما عرفت العشق إلّا منذ تلك القبلة الموجِعة في قطعة العشية الأولى حين كان عبد الحليم حافظ يغني لنا أنا وأنت: رميت الورد طفيت الشمع يا حبيبي..

تلك القبلة الذئبية

القبلة التي تبعث في النفس على الحزن

ولا تسألني الحزن على ماذا

أظن أنّ الجواب بات واضحاً

فأنا أوقدتُ شموعي من زمان

إنه الحب الذي عرفته أخيراً

الحب الذي كنت أخسره معك بالعِشرة
الشغل والنجومية كانت حجّتي في الهروب منكَ ليس إلّا
فأنا من زمانٍ أيضاً أطفأتُ شموعي
بعضنا يتسوّل المال
بعضنا يتسوّل الحبَّ
بعضنا يتسوّل الشهرة
بعضنا يتسول الأمن والأمان
بعضنا يتسول الشفقة
جميعنا يتسوّل السعادة
إلّا أنا أتسوّل العذاب
أشتري، فمن يبيع
هذه هي لعنتي معك
القلبُ وذاكرةُ القلبِ
هل أهذي
ربما
ربما
ربما
ربما كنتُ أهذي
لستُ واثقةً من ذلك
لست واثقةً من شيءٍ سوى أنني أحنُّ إليكَ وأخاف عليك
رغم أنني أنا السبب في كلِّ الذي جرى
فكيف أشرح لكَ المسألة

كان الأسهل عندي أن أطلب الطلاق
أن أخسرك أنت
وأحتفظ بحبك إلى يوم يبعثون
فمن يدري؟
قد نلتقي ثانيةً في حياةٍ غير هذه الحياة
في الآخرة يا صديقي
وعندئذٍ لن تضيع مني مرّة ثانية
لن أفقدك مرةً ثانية
بل سوف أحتفظ بك
ولن أموت بين يديك
فليس بعد الموت موت
بل سوف أحيا معك
معك وحدَك
يا حبيبي
يا حبيبي
يا حبيبي
ولكن
هل تعرف ماذا؟
«لا النأيُ يُسلي
ولا القلبُ يصبرُ
فأنا امرأةٌ يقتلها الحنين و الشوق إلى الخوالي
بالمناسبة، ما الفرق بين الشوق والحنين

فماذا لو التقينا ولو ساعةً واحدة

أعرف أنك قد تزوجت

وأنّ زوجتك مريضة بمرضٍ عُضال

إنني أدعو لها بالشفاء في كلّ يوم

وكم أودُّ لو أنني كنت أقف إلى جانبك في هذه المحنة التي تكابد

ولكنك تعلم أنني أخاف من المجيء إلى دمشق

فقد أكون عبئاً ثقيلاً عليك

عبئاً ثقيلاً جداً

لا أريدك أن تتسوّل الرحمة من أجل حبيبةٍ غابرة

ثم من يدري؟

قد يعتقلونني على الحدود

وقد ألقى في دمشقَ مصير سامر

هذا أمرٌ ليس بالمستبعد طبعاً

وإنني لا أمانع بمثل هذا المصير لولا أنه سوف يحول دون لقائنا

فماذا عن بيروت؟

أقترح بيروت، رغم أنَّ الحنين يقتلني إلى رصيف مقهى النوفرة وراء البوابة الشرقية لمسجد بني أميةَ الكبير، وليس إلى مطرحٍ آخر سواه. يقتلني الشوق إلى تلك القطعة من العالم التي أعلنتُكَ فيها حبّي لك وانتمائي إليك. يقتلني الحنينُ إلى تلك المحطّة الفارقة في حياتي على الرصيف الأيمن من حيٍّ الشاغور الدمشقيّ المحافظ يومَ أن قبّلتَ ظاهر كفّي على مرأى من الملأ، من قبل أن

تقبّل شفتيَ في عشوائيتنا المظلمة معلناً بتلك القبلة الذئبية حبك لي وانتماءَكَ إليّ. إنّه رصيفُ العُمْر. عُمْري أنا. عُمْري كلُّه

أرجوك أن توافق

أرجوكَ أن تحقق لي هذه الرغبة الأخيرة في الحياة

إنني لم أعد أريد شيئاً أكثر من اللقاء

فقد ملكتُ من قبلُ كلَّ شيء

سوف أتصل بك من بيروتَ قريباً

فانتظرني

فقط انتظرني

ولكن قلْ لي أوّلاً

إنك موافقٌ على اللقاء

فقط قل لي إنك موافقٌ على اللقاء

ولا تنتظرني

لأنني سوف أكون قد سبقتك إلى الوعدِ.

9

كان يوماً ممتعاً يا كاتيا.

لا تقل كان يا صديقي، فما زال في اليوم بقية.

تثاءَبَ وقد دهَمَهُ وَسَنٌ مخادع، فليس هذا وقت ذهابه إلى الفراش، بل إن الإيواء إلى فراش امرأة مريضة لهوَ من الأمور التي لا تبعث فيه أية حماسة. جسمان منفصلان إلى الصباح، إلى الأبد، أو

حتى إلى الأبد ويوم، كما تقول كلمات الأغنية الإنكليزية الشهيرة. نعم، إنها غربة الجسد، وربما كانت غربة الروح أيضاً. فأي مصير هذا الذي جِيكَ لي في ليل؟! أيّ مصيرٍ هذا الذي حاكه لي النصيب في سراديب العتمة المدلهمّة؟!

سأل نفسه وهو يتفكر بامرأته التي يقول الأطباء إنّ أيام عمرها الباقية باتت معدودة. كان ثمّة أفكارٌ مفترسةٌ تهيج في طوايا نفسه وتحرمه الهناءة وهدوء البال وهو يجلس خلف طاولة الكتابة، من دون أن يكون لديه شهيةٌ لكتابة حرفٍ واحد. كيف جاءها المرض؟ ماذا يعني أن يكون الداءُ خلْقياً؟. ليس له إلّا ترجمةٌ واحدة: نصيب. والنصيب في النهاية ليس إلّا ترجمةً للعجز عن الترجمة، فمن ذا الذي يستطيع أن يترجم لفظة القدر إلى أية لفظةٍ حياتيةٍ مجانسة؟ ولذا يصير من العبث السؤال عن الأسباب، فهي سانحة دائماً، فلكل إنسانٍ ألمُه، ولكلِّ ألمٍ أسبابه. ومع ذلك: هذا كثير.. امرأتان صغيرتان ضائعتان منٍ بعد كاتيا الصغيرة أيضا. هذا كثير بالنسبة إلى حياةٍ واحدة. ودادُ قديماً، وحديثاً سلمى التي يعترف بأنه لم يبادلها حبّاً بحبٍ إلّا قليلا. عرفها عن طريق الفيس بوك. واحدةٌ من بعض معجباتٍ برواية الحزن. راسلته على الخاص في الحائط الأزرق معربةً عن ذلك الإعجاب. شكرها بدماثة. كان كمن يصرفها عنه، فهو ليس مؤمناً بالعلاقات الافتراضية. كان يعيش وحيداً، إلّا من أمّه، مذ هجرَتْه وِداد. وصار يعيش، مذ ماتت أمُّه، وحيداً إلّا من نفسه. وحيداً مذ قامت الحرب. وحيداً مذ هجر الأصدقاءُ الدارَ. وحيداً مذ صار يرتاد مواقع التواصل الاجتماعي. وحيداً في الظلام، في البرد، في الحرّ، في المقهى، في الزحام، وفي طرقات الحرب الخاوية إلّا من دويِّ المدافع في ليالي الشتاء الطويلة. وحيداً مذ هجر الكِتابَ والمكتبة والقلم والورق. وحيداً مذ صار جلَّ همّهِ انتظارُ عودة التيّار الكهربائيّ للعمل من أجل أن يشحن بطارية الموبايل حتى منتهاها، ويشحن كذلك بطارية الكومبيوتر المحمول،

فقد كانت هذه الأجهزةُ ونيسةَ أيامه الوحيدة. وفي جميع الحالات كان راضياً بوحدته. وربما كان سعيداً بها أيضاً. كان سعيداً بها إلى حدّ أنه كان يزداد بها التصاقاً من يومٍ إلى يوم. فهذه الوحدة تشبهه. تشبه رماديَّته. تشبه ضبابية موقفه من الأحداث الدامية التي تعصف بالبلد. تشبه جهله بالقصف بالقنابل والصواريخ، فلم يسبق له، قبلَ الحرب، أن سمع قصفاً ما عدا قصفَ الرعد في الخريف وفي الربيع، فهو لم يخدم في الجيش لأنه معفىً من الخدمة كونَه وحيدَ أمّه حيّةً ومتوفاة. لقد زاده موت أمّه توحداً مع وحدته، كما زاده تعلقاً بها، حتى صار يخشى أن يفقدها في يومٍ من الأيام. لم يشتغل خلال الحرب إلّا قليلا، رغم كثرة الوقت الذي أتاحته له وحدته الأثيرة: رواية واحدة ومسلسل تلفزيوني واحد في سبع سنينَ باتت كاملة. صرف وقته مع الموبايل على مواقع التواصل المختلفة يحاول أن يفهم الذي يجري من حوله. يحاول أن يعرف حال البلاد والعباد. لم يغادر دمشق خلال الحرب إلّا مرتين اثنتين فقط: زيارتي إليكِ في القاهرة يا سيدرا، وسفرة عملٍ قصيرةٍ إلى بيروت. كان يعود بعدها إلى وحشته. إلى كومبيوتره. إلى موبايله. إلى مواقع التواصل الافتراضي. وكان يقول في نفسه على الدوام: إنّ ما عاش افتراضياً فليمت كمثلِ ما عاش. ولكنَّ سلمى كانت عنيدة في العلاقة به، وكأنها تقول: ما وُلدَ افتراضياً فليكن له في الحياة نصيبٌ من العيش. ظلّتْ تراسله على الخاص، وظلَّ يصرفها عنه بلطافة، ولكنْ مِن دون جدوى. لم تترك منشوراً واحداً من منشوراته القليلة دون أن تضع له إشارة إعجاب، ودون أن تترك تعليقاً أيضاً في أغلبية المرّات، كمن يسجّل دوام حضوره. كتب منشوراً ذاتَ يومٍ على صفحته، قال فيه:

يصفُ الأطباءُ مَرَضَ ارتفاع الضغط الشريانيّ بكلمتين اثنتين: القاتل الصامت. أمّا أنا فلستُ أرى قاتلاً صامتاً في الحياة سوى الحنين.

علّقتِ البنتُ على منشوره هذا بسؤال:

تحنُّ إلى ماذا بالضبط يا أستاذ؟

أجابها ممازحاً:

ليس إليكِ يا صديقتي الافتراضية.

ضحكتْ، وقالت:

أكيد ليس إليَّ حنينُك، فلا يمكنكَ أن تحنَّ إلى شخصٍ لا تعرفه. وبالمناسبة، ماذا يضيركَ لو أصبحنا أنا وأنت صديقينْ في العالم الواقعي أيضاً؟

أربكتْه دعوتها الصريحة إلى الصداقة الحياتية. دعوتها المعلَنة، فقد كانت تكتب على العامّ هذه المرّة. قال:

لا أعرف.

انتقلت البنت من فورها إلى الكتابة على الخاصّ. قالت:

واضح أنك تهرب من الجواب. على أية حال، سوف تبقى دعوتي إلى الصداقة قائمة. إنني أملك الوقت الكافي للانتظار. وهكذا، اسمح لي أن أعود إلى سؤالي الأول:

إلى مَنْ حنينُك بالضبط؟

إلى ليفاز.

قال كمن ينهي الحديث. أو كمن يرمي عن كاهله حِملاً ثقيلاً غامضاً.

ما هذا الليفاز؟

سألتِ البنتُ ضاحكةً، وأردفتْ:

هل هو نوعٌ من الطعام؟

كيف يشرح لها المسألة؟ كيف يقول لها: إنني أمضي على

رصيف العمر أفتش عن نفسي، عن الولد الفقير الذي كنتُه، وإنك لن تفهمي ما أقول؟ ولماذا عليه أن يشرح أصلاً؟ تظاهر بالممازحة، وقال:

لا. ليفاز ليس نوعاً من الطعام، بل هو نوعٌ من الفودكا التي يشربها شعب روسيا الباردة لأنه يبعث الدفءَ في جسومهم.

آ.. الآن فهمت. تقصد أنه نوعٌ من الكحول.

بالضبط. إنه نوعٌ من الكحول القوية.

وظنَّ أنه بهذا الجواب قد أنهى الحوار، ولكنّه سرعان ما اكتشف خطأ ظنّه.

هل تشرب الكحول يا أستاذ؟

أجل، في أحيانٍ قليلة.

ولكنَّ هذا حرام.

هل أنتِ متديّنة؟

نعم. إنني أصوم وأصلّي، وأومن بالله وبالقضاء والقدر خيره وشرّه. هل يزعجك هذا؟ أقصد هل يزعجك أنْ أكون كذلك؟

ولماذا يزعجني أمرٌ كهذا؟ أمي أيضاً كانت امرأةً متديّنة. وأنا كنت أحبُّ أمي كثيراً.

كنتَ وكانت، فهل هي متوفاة؟

أجل. ماتت قبل سنواتٍ عديدة.

فليرحمها الله.

شكراً لكِ! والآن اسمحي لي أن أعود إلى شغلي. هل تسمحين؟

ماذا تقول؟! طبعاً أسمح. بكلِّ تأكيد. ولكن أرجو أن تسمح لي أنت بالمقابل أن أكاتبكَ من حينٍ إلى آخر؟ أم إنَّ هذا الأمر يزعجك؟

لا. لا يزعجني يا صبيّة.

شكراً! ألف شكرٍ على سعة صدرك!

أهلاً وسهلاً! تصبحين على خير!

تصبح على مليون خير!

وانتهت الدردشة هنا بالنسبة إليه، حتى إنه شعر بالراحة. ولكنها في الحقيقة لم تكن إلّا راحةً مؤقتة. لم تدم لأكثرَ من خمس دقائق، وجد نفسه بعدها يسعى إلى بعضٍ من المعرفة بهذه المرأة المجهولة. دخل إلى حساب البنت على الفيس بوك، وراح يقلّب به. لم يعثر على شيءٍ لافتٍ للاهتمام. بعض التهاني المتبادلة مع عددٍ محدودٍ من الصديقات ببعض المناسبات الخاصة والعامّة. حتى الصورة الشخصية لم تزده إلّا غموضا: باقةٌ من أزاهير الصباح النَّديّة. واستغرب من نفسه أن يدخل إلى خصوصيات الآخرين. لم يسبق له أن فعل هذا الأمر من قبلُ منذ أيام المراهقة يومَ تلصص على الشرطي (أبو الخير) وهو يضاجع زوجته، ثم حين كان يحاول، مع بقية الشلّة، أن يعرف السرّ الكامن وراء نجاحات سامرٍ غير المسبوقة مع البنات. لم يتلصص بعد تلك الوقائع البعيدة على أحدٍ من البشر. فلماذا يفعل هذا الآن؟ شعر بعدم الرضا، حتى إنه قال في نفسه يوبّخ نفسَه: كفى سخافة! وخرج من حساب البنت معتبراً أن كلَّ الأمور قد انتهت عند هذا الحد. وكانت بالنسبة إليه كذلك بالفعل، منتهية. لكنها لم تنتهِ بالنسبة إلى سلمى إلّا مؤقتاً، فهي لم تعدْ تفوّت أية فرصة للحديث إلّا وكانت تستغلّها حتى النهاية إلى أن بعثت له يوماً بسؤالها الصعب: لماذا تحب أن تعيش دائماً في الماضي يا أستاذ؟ أليس الحاضر أولى؟

كان هذا السؤال بعد منشورٍ (على الفيس بوك) كتبه عن علاقته القويّة برصيف العمر:

`كنت في ذلك اليوم شاباً صغيراً بعد. طالبٌ في معهد السينما في

موسكو. أغلبية الطلاب غائبةٌ بسبب الإجازة الصيفية. حتى كاتيا كانت مسافرة. الوقت بُعيدَ العصر. جهّزت لنفسي في المطبخ المشترك في بيت طلبة المعهد ما أتناوله على الغداء: بطاطا مقليّة مع البيض (مُفرّكة). حملت المقلاة وخرجت من المطبخ. الممر أمامي طويل. فجأةً، ومن وراء أحد الأبواب، جاءتني أغنيةٌ باللغة الإنجليزية لم أسمعها من قبل. كلماتها عذبة، أما اللحن فيها فينطوي على شجنٍ واسع الطيف. انشدّيت لتلك الأغنية رغماً عني، فوقفت أمام الباب أستمع إليها وأنا أجاهد في عدم الإيتاء بأية حركة من شأنها أن تلفت انتباه مَنْ في الداخل:

Just tonight I stood before the tavern
Nothing seemed the way it used to be
In the glass I saw, a strange reflection
Was that lonely woman really me?

الصوت بالغ الشجن، ومن المؤكد أنّ مَن هو في داخل الغرفة شخصٌ وحيد، أو حتى مهجور. وفجأةً انفتح الباب. يبدو أنني أخفقتُ في الحفاظ على الهدوء المناسب، فانكشف أمري. كانت صبيةً من جيلي، أو أصغر بعام واحدٍ أو عامين. ورغم أنها شقراء جداً إلّا أنها جميلةٌ جداً. بنتٌ لا أعرفها. لم يسبق لي أن رأيتها. وهذا أمرٌ نادر الحدوث لأنّ مجموع طلّاب المعهد لا يتجاوز الأربعمئة في كلّ الصفوف في جميع الكليّات في مبنىً واحد. وهكذا فإنّ أيَّ طالب في معهدنا يعرف جميع زملائه حتماً، ولو بالوجه حسب، سيّما أنّ الدوام إلزاميّ ستة أيام في الأسبوع، وسيّما أيضاً أن بيت الطلبة مختلط. كانت البنت الغريبة ترتدي تي شيرت أزرق وشورت أبيض، وكان على وجهها ابتسامة المنتصر. كانت بتلك الابتسامة كمن يقول لي: قبضتُ عليك بالجرم المشهود يا متلصص. يا الله! كم كانت ابتسامتها شائقة، رغم طيفٍ من حزنٍ شفيف كان يلوح على محيّاها! قلت، والحديث بالروسيّة طبعاً: أنا آسف! الأغنية هي التي شدّتني

إلى الوقوف عند بابك. ردّت عليّ بصيغة الجمع: لا تعتذروا، فلو كنت مكانكم لفعلت مثل ما تفعلون الآن. الأغنية جميلةٌ حقاً. وأنا لا أملّ من سماعها.. أدركتُ من لهجة البنت أنها ليست روسيّة. قدّرت أن تكون قادمةً من شمال أوروبا. من فلندا على الأرجح. وربما كان اسمها إنجريد. التفتتْ البنت إلى المقلاة في يدي، وسألتْ: ما هذا؟ قلت: طعام. كبرتْ ابتسامتها وهي تقول: أحقاً طعام؟. لخبطني هذا السؤال، رغم ما فيه من مزاحةٍ جليّة. ولكنني، رغم ذلك تماسكتُ وقلت: تفضلي نتناول طعام الغداء سويةً. قالت: يبدو أنها أكلة لذيذة، لكنني حصلت على وجبتي. وفي جميع الأحوال: شكراً لكم!. لم تكن تعجبني صيغة الجمع التي تخاطبني بها، فنحن الطلاب غير معتادين على أمرٍ كهذا إلّا في علاقتنا بالأساتذة أو كبار السن من الأغراب. لقد شعرتُ من إصرارها على استخدام هذه الصيغة بأنها تبني جداراً بيني وبينها. جدارٌ نبنيه سريعاً، نرفعه، نشيّده عند مواجهة الآخر الغريب، من دون أن ندري لماذا نفعل ذلك بالضبط. ربما كنا نفعل هذا على سبيل الاحتياط من المجهول الذي نظنه يتربص بنا خلف الجدار مباشرةً.. قلت لها: لماذا تخاطبينني بصيغة الجمع، فنحن طلاب على بعضنا؟ قالت: لأنني لا أعرفكم، والاحترام واجب. هنا قلت في نفسي: «واجب شو يا هبلة؟! هل هذا وقت الواجبات؟ احكيلك شي كلمة مفيدة. خاطبيني بصيغة المفرد. قولي لي: تعال أعزمك أو تعزمني على كاسة بيرة باردة، قدح فودكا. الطقس حلو يا جميلة، وكلانا شباب صغار وهرموناتنا فايرة للسما.» هذا الكلام الذي قلته في نفسي هو في الحقيقة ما كنت أطمع بسماعه من إنجريد. لكنها خيّبت أملي ولم تنطق بحرف واحدٍ مما كنت أشتهي سماعه. حتى إنها لم تقل أيّ شيء سواه. كلانا وقف ساكناً في مواجهة الآخر. طال الصمت بيننا حوالي نصف دقيقة حارت خلالها العيون في محاجرها. لماذا الحَيرة؟ ومن أجل أي شيء؟ مجرد لحظةٍ عابرة بين شخصين غريبين. لا شيء لافتٌ في المسألة. ولهذا قررت أن أنتهي من الأمر كلّه من قبل أن تبرد البطاطا، أو من قبل أن ترجع

كاتيا (تلك الطالبةُ الرقيقة التي أحببتها أكثر مما أحبتني، لكنها حملت من رجلٍ سواي، كما قلت لأفراد الشلّة ذاتَ حينٍ بعيد، وكنت كاذباً بالطبع، مع أنّ هذا الكذب لم يكن يغيّر في الحقيقة شيئاً: لقد هجرتني كاتيا إلى رجلٍ أحبّته أكثر مما أحبتني).. قبل أن ترجع من السفر البعيد. رسمتُ على وجهي ابتسامةً غبيةً كمن يعتذر عن ذنبٍ لم يرتكبه، وانصرفتُ إلى غرفتي. يبدو أنّ البنت لم تتوقع مني هذه الحركة. لم تتوقع هذه النهاية لتلك المصادفة التي كان يمكن لها، بقليلٍ من شجاعةٍ، أن تكون حلوةً فعلاً، فقد جاءني صوتها الذي بدا لي حزيناً أو حتى مكسوراً، وأنا ما أزال في الممر: بالمناسبة، أنا لست طالبةً هنا. ربما كانت تريد من وراء ذلك أن تقول لي: «تعال، فقد لا تراني مرّةً ثانية.» توقفتُ. التفتُ إليها وفي رأسي هذا السؤال: أتراها تهدم الجدار الذي أقامته بنفسها قبل قليل؟ ربما كانت كذلك. ومع هذا فإنني لم أفعل شيئاً ذا جدوى. ابتسمتُ. فقط ابتسمت، ثم تابعت الطريق إلى غرفتي، بينما الأغنية ما تزال مستمرة (Was that lonely woman really me?)، ودخلتُ إلى الغرفة، وانقطع الصوت، وما عدت رأيت إنجريد إلى الآن.

في مساء هذا اليوم تذكرت ذلك النهارَ الصيفي العتيق. تذكرت إنجريد.. يا الله! واحدٌ وعشرون عاماً انقضى على أول وآخر مرة التقيتها فيها. ترى كيف صارت اليومَ تبدو، هذا إن كانت ما تزال على قيد الحياة طبعاً؟ الزمن لا يرحم «ولا نقدر عليه». هذا أمرٌ مؤكد. كل الكائنات تموت. الجمال يموت. يعتق مثلما تعتق بقية أشياء الحياة. اليومَ سألت نفسي: أتراها أنجبت؟ أتراها تزوجت؟ ترى هل حقاً أنها كانت تهدم الجدار الذي أقامته بنفسها قبل لحظةٍ قصيرةٍ حين قالت إثري بصوتٍ بدا لي موجوعاً: «أنا لست طالبة هنا»؟ ولكن لماذا لم تتجرأ وتقل لي بدلاً من ذلك: تعال نذهب إلى أحد البارات و نشرب زجاجة بيرة باردة؟. وسألت نفسي اليومَ أيضا: ولكن ماذا عني أنا؟ لماذا لم أرجع إليها وأبدأ الحديث من جديد؟ هل كان ذلك بسبب كاتيا؟ بالتأكيد لا، فلم تكن تخلو العلاقات

الطلّابية من بعض التشابكات المغفورة غالباً. خناقةٌ كلامية، وصراخٌ، ودموعٌ، وحشدٌ للغات الحزن والتذلل والتوبة، وقطيعة لا تدوم أكثر من أسبوعٍ أو أسبوعين، ثمّ تصفو من بعدها المشارب، وتعود المياه إلى مجاريها. إذن، ماذا جرى لي مع إنجريد بالضبط؟ لم أعثر على جوابٍ عن هذا السؤال سوى أنني دائماً كنت أترك القرار للبنت. والسبب بذلك في الحقيقة يعود إلى أنني كنت دائم الخوف من أن أجد نفسي مرفوضاً من الجنس الآخر في ما لو كنت أنا المبادر إلى العلاقة، بخلاف ما توحي به حالي. يقولون: الحب للشجعان. ولكنني للأسف لستُ أنتمي إلى هذه الفصيلة من البشر. كنت أترك المبادرة للبنت متعللاً بتلك الحجّة الرمادية التي استخدمتها طوالَ العمر: أنا رجلٌ متحضرٌ لا يحق له التحرش بالجنس اللطيف. هل كانت حجةً مقنعةً للآخرين، أو حتى لنفسي؟ لا أعرف. ولكنْ هكذا عشت حياتي، وإنني لست نادماً على ذلك، رغم الحسرة التي تصيبني من حينٍ إلى حين وأنا أقف على رصيف العمر وتمرق منٍ أمامي لحظاتٌ كتلك التي عشتها مع إنجريد حين قالت لي: لا أملُّ سماعَ هذه الأغنية.. الأغنية التي كلها استجداءُ الرفقة: هل تلك المرأةُ الوحيدة كانت حقاً أنا؟.. الحياة خيارات. هذا أكيد. ولكنَّ المصادفةَ ماذا تكون؟ أليست تنسف جميع الخيارات؟ فلو كنت قد رجعت إلى إنجريد فماذا كان سيتغير في حياتي أو في حياتها؟ هل كان من الممكن أن تكون مجرد علاقةٍ عابرة مثل العديد سواها من علاقات زمن الشباب البهيج؟ أم إنَّ شيئاً مغايراً كان يمكن أن يحدث؟ شيءٌ ما جوهري؟ أكثر من عشرين سؤالاً مرق اليومَ في رأسي، من دون أن يكون عندي جوابٌ أكيدٌ على أيّ واحدٍ منها. الشيء المؤكد الوحيد الذي حدث معي اليومَ هو أني شعرت بالحنين إلى إنجريد، وابتسامة إنجريد، وحزن إنجريد، لأنني اليومَ وأنا أشرب القهوة في الكفتيريا سمعت أغنيةً قديمة، أظنها إنكليزية، كلماتها تقول:

قبل قليل وقفتُ أمامَ الحانة

لا شيءَ بدا كما ينبغي أن يبدو

رأيت في الزجاج انعكاساً غريباً

هل تلك المرأة الوحيدة كانت حقاً أنا؟

انتهى المنشور في الفيس بوك يا عزيزتي سيدرا. المنشور الذي كان هدفي من نشره ذلك الاستغلال غير الخبيث الذي مارسته عليكِ أنتِ أيضاً ذاتَ مرّة قريبة حين كتبت عن الطفل وسندويشة الفلافل (الطعمية) المبللة بالدموع والمطر. إنني أقرأ التعليقات، وأعرف بالتالي ردود الأفعال، وأسترشد بها في الكتابة التي أكون بصددها. وهذا كان هدفي من المنشور السابق الذي ربما كان يمثّل الانعطافة الكبيرة في علاقتي بسلمى، أو الأصح: في علاقة سلمى بي، فقد راسلتني بعده على الخاصّ، تقول:

حسناً، أنت رجلٌ تخاف أن تكون مرفوضاً من الجنس اللطيف. ورغم أنني لا أتصورك هكذا، ورغم أنني لم أفهم الرابط بين التحضّر وبين الارتباك في العلاقات الإنسانية، إلّا أنني استطعت أن أفهم من ذلك كلّه أنك لا تبادر إلى العلاقة بالجنس الآخر، ودائماً ما تترك لهذا الآخر حرّية المبادرة من عدمها. ربما كان الخوف من الرفض هو هاجسك فعلاً كما تقول. أو من يدري؟ ربما كان هذا الأمر واحداً من المبادىء التي حكمتْ حياتك. و في الحالتين أنا أحترم ذلك دون شك. ولكن دعني أقلْ لكَ أمراً يتيماً: أنا لست إنجريد. ولهذا فإنني لست عاجزةً عن المبادرة، رغم أنني امرأةٌ متدينة. باختصار: تعال نتعارف. تعال نلتقي.

لم يفاجئه هذا الطلب، فقد سبق له، منذ أن صدرت رواية (الحزن) في أوائل صيف عام 2014، أن تعرض لمثل هذا الموقف عديد المرّات. بل تعرّض لما هو أكثر من ذلك ثلاث مرّاتٍ، أو حتى أربعاً: عروضٌ للزواج. وهكذا صار لديه خبرةٌ في التعامل مع مثل هذا الطلب الذي كان يراه مخيفاً من نساءٍ صغيراتٍ ساذجات، وكان

دائماً ما يخرجٍ منه بحذاقةٍ ليس فيها إيذاءٌ لمشاعر الطرف الآخر، كأن يقول مثلاً: ما حاجتكِ يا صبيّة إلى رجلٍ كهل، أم أنك تحبين أن تلعبي في الحياة دور الممرضة؟ وكان يُتبع هذا السؤال بضحكة باهتة. قالت له إحداهنّ:

إنه ليس بالدور السيء، ولست أمانع في أن ألعبه.

ضحك ، وقال:

أما أنا فإنني أمانع في ذلك. لا أحب أن أسرق حياة أحدٍ من البشر، حتى إنني أقف بشكلٍ مبدئي ضد عقوبة الإعدام.

ضحكت البنت و قالت:

مَنْ جاء على سيرة عقوبة الإعدام؟ إنني لا أفهم هذا الخلط.

خلط؟ ربما كنتِ على حق. يبدو أنه خلطٌ فعلاً، أو حتى هَذَر. هذه هي مساوىءُ الكهولةِ يا صبية: الخلط. الهَذَيان. رجلٌ مثلي يجب أن تهربي منه لا أن تطلبي يده للزواج.

كان في كل مرة يتكلل تمثيل الخلط والهذر والهذيان عنده بالنجاح في الهروب من هذه السيرة. لقد سبق له أن جرّب الزواج مرّةً، ولكن تلك كانت وِداد. كانت قصة حياته كلّها تقريباً. أما الزواج الذي يعرفه من بعض البشر، فلا شيء إلّا الخلط، الأسْر، وتمثيل السعادة. لا شيءَ حقيقيّ. «هل تحب الملوخية أكثر أم الفاصولياء؟» كل شيءٍ من تحت يدك رائعٌ يا زوجتي العزيزة.» سلسلةٌ من المجاملات اليومية التي لا تنتهي. أو سلسلةٌ من الادّعاءات التي تسمم الروح صباحَ مساء. المشكلة ليست في الزوجة. المشكلة في الزواج. لقد سمع هذه العبارة عشرات المرّات من معارفه المتزوجين. وأحياناً كان يسمع العبارة بشكلٍ معكوس: المشكلة ليست في الزواج، بل المشكلة في الزوجة. ولأنّ كلَّ الطرق تؤدي إلى روما فقد وجد نفسه، من بعد وِداد، دائم الهروب من «الزوجات» المحتملات، حتى ولو اضطرّه الأمر إلى تمثيل التقدم في السن عائقاً

لا رجعةَ عنه، أو حاجزاً لا يمكن القفز من فوقه. وهذا ما حاوله مع سلمى أيضاً ليلةَ اقترحتْ عليه التعارف. كتب لها يقول:

ومن أجل ماذا التعارف؟

من يدري؟ ربما كان القَبول و الرضا.

تقصدين الزواج؟

أقول ربما. و ما دام بالحلال طبعاً فأين الغلط في ذلك؟

المسألة ليست بالحلال والحرام.

أين المسألة إذن؟

كم عمرك يا صبية؟

إنني في أواخر الثالثة والعشرين.

أما أنا فإنني في أوائل الواحدة والأربعين.

وماذا يعني هذا؟

يعني أنّ فارق السنّ بيننا كبير من أجل الزواج.

قل لي من فضلك: هل قرأتَ رواية: عن الحب والموت؟

لا أفهم الدّاعي من سؤالك. فهل هذه الرواية على علاقةٍ بحديثنا عن الزواج وفرق السن؟

لا، ليس تماماً.

إذن، ما الحكاية؟

لا يوجد حكاية. إنها روايةٌ عن الحب. عن الحب فقط. هي روايةٌ جديدة إلى حدٍ ما. صدرت قبل سنةٍ تقريباً.

أعرف ذلك. سمعت بهذه الرواية. ولكنَّ الذي لا أفهمه هو: ما علاقة الحب بحديثنا؟!

لماذا تضحك؟

إنني لا أضحك.

كما تريد. على أية حال، إنني لن آخذ من وقتك الليلةَ أكثر مما أخذت. أعرف أنك مشغولٌ بالكتابة. أراسلك غداً، إن كنت لا تمانع.

لا، إنني لا أمانع.

إذن، تصبح على خير!

تصبحين على خير! تصبحين على ألْف خير!

وخرجت البنت من الفيس بوك، وتركته حائراً في أمره. كان يلحّ عليَّ سؤالٌ واحد: لماذا لم أصرفها عني بهدوء كما فعلتُ من قبلُ مع فتياتٍ عديداتٍ سواها؟ أم تراني سأمضي في النهاية إلى زواجٍ جديد؟

أظن أن الجواب بات واضحاً يا سيدرا، فهل سئمتُ أخيراً مِن وَحدتي؟ لا، أبداً، بل إنني كنت أزداد بها تشبثاً، أو حتى وَلعاً وهِياماً والتصاقا. إذن، ما هذا الذي يحدث لي؟ ولماذا أظنّ أنّ الجواب بات واضحاً؟ الحق أقول لكِ: يبدو أنني كنت قد سئمت أخيراً من العطالة التي كنت أعيشها في وَحدتي. العطالة والكسل وانعدام الشهية إلى الشغل. أشياء الحياة لا تتحرك من تلقاء نفسها. إنني أعرف هذا الأمر جيّداً، فأنا في البداية وفي النهاية رجل درامة، والدرامة ليست إلّا جملة العلوم الإنسانية مجتمعة، وفي طليعتها عِلمَ المنطق. منطق النفس البشرية العامّ، السائد، حتى عندما يكون غير منطقيّ. أشياء الحياة تحتاج إلى أفعالٍ تنقلها من حالٍ إلى حال. والأفعال لا تأتي إلّا بالعلاقات. بل إنّ الحياة هي الآخرون، حتى ولو كانوا أعداءً لنا. فنحن البشر لسنا علب كونسروة نظيفة ومعقّمة، وكلُّ واحدةٍ بحالها. نحن بشرٌ نريد أن نعيش الحياة. والحياة علاقات. وفي العلاقات قد يحدث لنا أيّ شيء. قد ننجرح، وقد نتوسخ، أو حتى ننكسر، وفي الأحوال كلّها ليس أمامنا سبيلٌ آخرُ إلى العيش. ما من تغييرٍ إلّا ويحتاج إلى فعلٍ ما حتماً. حتى إنني سألت نفسي: ألا يُعقل أن تتحرك هذه العطالة بالزواج على

سبيل المثال لا الحصر؟ نعم، لقد كنت في سأمٍ من العطالة والبطالة ومواقع التواصل الاجتماعي وهدير المدافعِ وَ وجبات الطعام الجاهزة، وكل شيءٍ كان من هذا مُدانيا. وقد زادني سأماً مما سبق أنّ سلمى كانت عنيدةً في إصرارها على بلوغ الهدف الذي تضعه نصب عينيها. رجعتْ بعد ليلتين اثنتين تكتب لي. كانت في هذه المرّة كمن يستفزّني. كيف يُعقلُ أنني لم أقرأ رواية شهيرةً، جميلةً، و مهمّةً مثل (عن الحب والموت)؟ وأكثر من ذلك: من المؤكد أنني قرأتها، ولست أرغب في دخول نقاشٍ حولها مع فتاةٍ جاهلة!!. وأنا في الحقيقة لم أكنْ أعرف تلك الروايةَ لأنني كما أخبرتكِ من قبل يا عزيزتي متوقفٌ عن القراءة منذ سبع سنواتٍ تقريباً. وهكذا فقد كنت متخلّفاً عن مجاراة البنت التي يبدو أنها نهمةٌ لقراءة المشهور من الأدب الجديد. ردّيتُ عليها في تلك الليلة بشيءٍ من مرارة:

أنا لم أقل إنك فتاةٌ جاهلة. وأكون معكِ صريحاً أكثر وأضيف:

أنا كاتبٌ جاهل.

قالت من فورها:

لا، هذا كثير. التواضع شيءٌ جميل طبعاً، ولكن ليس إلى هذا الحد.

أيّ حد؟

أن تصف نفسك بالجاهل.

لكنني أقول الحقيقة، و لست أتواضع. أنا كاتبٌ لا يقرأ سوى المواقع الإخبارية منذ أربع سنواتٍ تقريباً، رغم أنَّ لديّ مكتبةً منزليةً ضخمة.

قالت:

هل من الممكن أن أفهم لماذا تتهرب من الحديث بالموضوع بهذه الطريقة؟

أنا يا آنسة لا أتهرب من الحديث في الموضوع.

إذن، تتهرب من الحديث معي.

ولا هذه أيضاً. ولكنني في الحقيقة مشغولٌ قليلاً.

أنت مشغول، وأنا أعطلك. أعتذر. سوف أقول لك: تصبح على خير! ولكن قبل ذلك عندي لك سؤالٌ أخير: هل أستطيع استعارة بعض الكتب من مكتبتك الضخمة؟

هنا لذتُ بالصمت لحظة وأنا أقلّب عواقب السؤال في رأسي. استعارة الكتب!! أي اللقاء. أي الانتقال من الافتراضي إلى الواقعيّ. الحيلة واضحة. لا أستطيع أن أنكر مشروعيتها، فكلّ إنسانٍ يسعى إلى تحقيق مصلحته. وهذا حقّه طبعاً. وربّما كان واجبه أيضاً. تجاه نفسه على الأقل. العلاقات بين البشر تحكمها المصلحة. حتى الحب، في نهاية الأمر، ليس إلّا مصلحة. مصلحة نفسية في المقام الأول. في رواية (الحزن) تقول البنت لصديقها الذي تهوى: نَفْسي هي التي تطلبك. هل ثمّة أنانيةٌ تفوق هذه الأنانية؟ وهل ثمة مصلحة أكبر من هذه المصلحة؟ تلبية الحاجات والرغبات. هذه كلّها مصالح مشروعة. أفهم هذا الأمر جيداً، وأوافق عليه، من دون تحفظ. ولكن الشيء الملحّ الآن هو: كيف أردّ على طلب البنت بحيث أتحاشى معها اللقاء الذي كنت راغباً عنه في ظاهر الحال؟ أما الباطن فربما كان مختلفاً بعض الاختلاف: الرغبة في التغيير الذي حدثتك عنه قبل قليل. خطر ببالي أن أقول لها: إنني لا أقرأ باللغة العربية يا آنسة. مكتبتي كلّها باللغتين: الروسيّة والإنجليزية. وهذا ليس صحيحاً بالطبع. الصحيح أنّ أغلبية الكتب عندي باللغة العربية التي أعشقها. ولو قلت للبنت ما قد خطر ببالي أكون قد وقعت في الكذب طبعاً. إذن، لماذا أضطر للكذب؟. و طال صمتي بعض الشيء. ومن المؤكد أنّ البنت قد حزرت أنني أماطل بالجواب الذي بدا لها أنه قد سبّب لي بعض الحرج. قالت:

هل انشغلت عني يا أستاذ؟

ليس تماماً. كنت أشعر بالعطش. ذهبت إلى المطبخ وشربت الماء.

مكتبة
t.me/t_pdf

ريته صحة انشالله!

على قلبك يا صبية.

هل أكرر سؤالي؟

حول رواية (عن الحب والموت؟)

لا، لا. عن استعارة بعض الكتب من مكتبتك الضخمة.

ماذا تحبين أن تقرئي؟

الروايات. أظنّ أنك تعرف كيف صارت الأسعار منذ أن ابتدأت الحرب. إنها فوق طاقتي. مؤكد أنّ عندك الكثير من الروايات.

نعم، عندي الكثير منها، ولكنني أخشى أنها من الصنف الذي لا تحبّين قراءته.

وأنا أقول لك سلفاً: خشيتك هذه ليست في مطرحها.

حسناً. اتفقنا.

اتفقنا على ماذا بالضبط؟

على إعارة الكتب.

ممتاز. ولكن متى و أين؟

لا أستطيع الإجابة عن ذلك الآن. لديّ بعض المشاغل. امهليني بعض الوقت.

كم يعني؟

امهليني أسبوعاً آخر.

أمهلك عشرة أيام، فأنا أملك الكثير من الوقت كما أخبرتك من قبل.

شكراً لكِ على هذه اللطافة!

اللطافة لا تستحق الشكر، فإنّ من واجب الإنسان، كلّ إنسان، أن يكون لطيفاً مع الناس. وقبل أن أستودعك الله، لديّ سؤالٌ أخير لا أريد إجابةً عنه الآن. أسمع الجواب بعد عشرة أيامٍ، إنْ كنت لا تمانع:

ما هو الحب؟ هذا هو السؤال، فقط. تصبح على خير!

تصبحين على خير!

أنا لا أعرف ما هو الحب يا سلمى. ومع ذلك أستطيع القول بإنه الانعتاقُ من مختلف القوالب. أظنّ أنّ هذا هو جوهر الحب. أو على الأقل: هكذا أنا أفهم المسألة.

هل تتحدث حول رواية (عن الحب والموت)؟

بالتأكيد لا. فكيف أسمح لنفسي أن أتحدث بشكلٍ من الأشكال، عن أمر لا أعرفه؟ وبالمناسبة، ليس من عادتي أن أستخفّ بجهد مخلوق، مع أنّ العنوان بصراحة يفتح الشهية للأخذ والرد. يبدو أن الحب والموت في الأدب لصيقان على نحوٍ من الأنحاء، تماماً مثلما الجمالُ لصيقُ الألم.

كيف ذلك؟ كيف يكون الجمالُ لصيقَ الألم؟

هناك نساءٌ يصبحن مع الألم أجملَ وأرقَّ وأكثرَ شبابا. ألم تلاحظي ذلك؟

تقصد في الأدب؟

في الأدب وفي الحياة أيضاً.

لا أعرف. لم أنتبه. ثمَّ إنني لم أختبر من الألم إلّا ما أصاب جموع الناس في هذه الحرب.

وآمل ألّا تختبريه في يومٍ من الأيام.

شكراً لك! وأنت أيضاً أرجو لك دوام العافية.

التقينا في إحدى كفتيريات قلب المدينة. بنتٌ عفيّةٌ، ناعمة، تغطّي رأسها بإيشاربٍ، من الواضح أنها متدينة، ولكن من دون تزمت، فقد صافحتني بحرارةٍ صادقة. ولم يخطر ببالي في حالٍ من الأحوال ذلك المرض المميت الذي سوف ينزل قريباً بهذه البنت الحييّة وأنا أصافحها بحرارةٍ مماثلة. جئتها أحمل خمس رواياتٍ لا يهمّني أن أفقدها لأنها كانت مكرّرةً في مكتبتي. خمس رواياتٍ مترجمة إلى العربية من سلسلة (أعمال خالدة). كانت تتصدرها في ما أتذكر جيداً رواية (قوس قزح) للكاتب البريطاني د. ه. لورنس. خمس رواياتٍ منتقاةٌ بخباثة. أعترف أنني كنت أحسب جيداً لخط الرجعة، رغم رغبتي المتأرجحة بالتغيير. فمن يدري؟ قد تفشل العلاقة الوليدة في مهدها. قد تكون بنتاً فظّة العاطفة، أو ربما كانت قليلة الجمال مثلاً، أو حتى عديمته، فصورتها الشخصية على حسابها في الفيس بوك مجرد باقةٍ من أزاهير الصباح النديّة. صورةٌ يتخفّى وراءَها كثيرٌ من البنات، وبخاصةٍ المحافظات منهن، أو قليلات الحظ من الجمال بينهن. وفي الأحوال كلّها، كنت أحتاط من المفاجأة التي قد أجدها في انتظاري. وبسبب هذه الحيطة اخترت الروايات المكرّرة في مكتبتي. و بالمصادفة البحتة كانت كلها روايات كبيرة الحجم تحتاج إلى زمنٍ للقراءة غير قصير. أي أنني كنت أشتري الوقت اللازم للتفكير على مهلٍ بجميع الاحتمالات التي قد تطرح نفسها أمامي فجأة. الاحتمال السيء الأول كاد أن يسقط من النظرة الأولى، فالبنت لا تشبه صورة ملفها الشخصي تماماً: طاقةٌ من زهور الصباح النديّة. ولكنها مع ذلك كانت على درجةٍ لا بأس بها من جمال. متوسطة القامة، ملفوفة القوام، ببشرةٍ بيضاء، وعينين سوداوين. أما الاحتمال السيء الثاني فقد سقط بعد سابقه بقليل: إنها بنتٌ فائقة اللطافة، بل وفائقة النعومة أيضا.

وفوق هذا كله: رأسها ليس فارغاً. ربما كان عيبها الوحيد هو عيبي القديم: الفقر. هل كانت البنت تستحق بؤسها؟ قطعاً لا. ما من إنسانٍ على الأرض يستحق البؤس. نظرتِ البنتُ إلى الكتب الخمسة، وبدا عليها شيءٌ من عدم الرضا. لم أفهم السبب. قلت:

ماذا؟ هل جئتك بالروايات الغلط؟

لا أبداً. لم أسمع بهذه الأعمال من قبل، ولكن ما دامت من اختيارك فهي الروايات الصح.

إذن، ما بالُكِ لا تبدين راضية؟

بصراحة؟

هنا ضحكتُ، وقلت:

فهل كنّا نكذب قبل الآن؟

لا. بالتأكيد لا. ثم إنني أكره الكذب.

إذن تكلمي بأريحيّة.

بصراحة كنت أتوقع منك شيئاً إضافياً.

شيءٌ من أيّ قبيل؟

من قبيل الهدية.

هدية مثل ماذا؟ باقة زهورٍ مثلاً؟

لا. باقة الزهور تأتي لاحقاً. ليس من المرّة الأولى.

إنني لا أفهم. فما الهدية التي كنت تنتظرين؟

كنت أنتظر منك رواية الحزن.

آ.. هذه لم تخطر ببالي. ثم إني كنت قد فهمت من دردشاتنا السابقة على الفيس بوك أنها موجودةٌ عندك.

لا، إنها ليست موجودةً عندي. كنت قد استعرتها من إحدى الصديقات. إنها غالية الثمن. لماذا هي غالية الثمن هكذا؟

لا علاقة لي بالتسعيرة. صدقيني. هذا شأن الناشر. على أية حال، سوف أحضر لكِ نسخةً منها في المرة القادمة.

هل أفهم من كلامك أنه سوف يكون هناك مرةٌ قادمة؟

بالتأكيد. ؟ وابتسمتُ وأضفت: أم أنك لن تعيدي لي كتبي؟

كيف لن أعيدها؟. بالطبع سوف أفعل. إذن، في المرة القادمة تأتيني بنسخةٍ من رواية الحزن.

أكيد.

ولكن بشرط.

شرط؟ شرط ماذا؟

تكتب لي على صفحة الكتاب الأولى إهداءً بخط يدك.

حسناً. لكِ ذلك.

وانفرجت أسارير البنت دفعةً واحدة، وقالت بحماسة:

والآن أجبني من فضلك عن سؤالي.

أي سؤال؟

كيف أيّ سؤال؟ ما هو الحب؟ وأرجو ألّا تتهرب من الجواب، وألّا تكون بخيلاً في الحديث، فأنا أعرف أنك خبرت العشق، وأنّ في حياتك قصة حبٍ كبيرة مع امرأةٍ اسمها وِداد. أعرف هذا من رواية الحزن طبعاً. تفضل. إنني أسمعك.

لا حول ولا قوة إلّا بالله.

لماذا تتذمر؟ هل تهرب من سيرة الحب؟ أم تهرب من سيرة وِداد؟

ربما كنت أهرب من السيرتين معاً.

لماذا الهروب وأنت كاتبٌ عرفَ العشق؟

الحق أقول لك: لم يخطر ببالي وأنا أكتب هذه الرواية أنّ فصلاً واحداً فيها، أيّ فصل، قد يثير الشهيّة عند القرّاء للحديث عن الحب. لذا اسمحي لي بأنِ أعترف لكِ بإنك لا تفاجئينني بطلبك هذا. ومع ذلك فإنني لست راغباً بالحديث في الأمر. إنه يتعبني.

لماذا يتعبك؟

لأنني، واختصارٍ شديد، أجهل الجواب عن هذا السؤال: ما هو الحب؟ حتى إنني أكاد لا أعرفه في الحقيقة، وأنَّ ذلك الفصلَ في تلك الرواية مجرد خيالٍ في خيال.

لا أعرف لماذا قلت لها هذا الكلام الذي لا أملك عليه دليلاً. هل وقعت في الكذب؟ على أية حال، هي كذبةٌ بيضاء كنت أشتري بها ما خشيتُ فجأةً أن أفقده في العلاقة بهذه البنت: الوحدة التي عاودني الولع بها فجأةً، وقد تراءى لي أنَّني لست بحاجةٍ إلى أيِّ تغييرٍ في روتين حياتي، وأنَّ الأسئلة تزعجني. جميع الأسئلة من جميع الناس. والأجوبة تزعجني كذلك. لا أريد أن أجيب عن شيء. لا أريد أن أوضّح شيئاً لأحد. ثمَّ هناك أمرٌ أشدُّ على النفس مضاضةً: سؤال اليومِ عن الحب والعشق والوَلَه. ولكنّ سؤال الغدِ سوف يكون عن الفاصولياء والملوخية والباذنجان. هذا مؤكد، لأنَ الأمور لا تمشي إلّا هكذا. إنها الحياة الزوجية. لا أعرف إنْ كان العيب في الزوجة أو في الزواج. ومَنْ يدري؟ قد يكون العيب في الزوج نفسه؟ أو لماذا لا يكون العيب في كلّ ما سبق؟ ولأنني لا أعرف الجواب على نحوٍ دقيق، فقد آثرتُ السلامة. وقرّرت عدم التمادي في الحديث حول هذا الموضوع أو سواه. أنا رجلٌ مكتفٍ بوحدته، وليس بي حاجةٌ لدخول هذا السيرك الذي يسمونه الحياة الزوجية، رغم إحساسي في بعض الأوقات بحاجةٍ أكيدةٍ إلى الأنثى، وإلى التغيير أيضاً، إلى الشغل، إلى

الخلاص من العطالة. لا أعرف بماذا كانت سلمى تفكر خلال صمتي الذي بدا لها أنه قد طال أكثر مما يجب، فقد كانت تنتظر مني تتمة الكلام عن الحب والقراءة والكتابة، ولكنني خرستُ فجأة. كانت تنظر إليَّ بعينيها السوداوين، وترهف السمع بجميع حواسها. غير أني صامتٌ أبله. قالت وكأنها تمدُّ لي طوق النجاة:

ليس مهمّاً ما كان يجول في بالك وأنت تكتب ذلك الفصلَ من رواية الحزن. المهم النتيجة. والنتيجة كانت إثارة الشهيّة للحديث عن الحب وسيرته. أتمنى أن أسمعك تتحدث عن بطلة الرواية. أحب أن أسمعك تتحدث في الواقع عن ذلك الهيام الذي في الكتاب. فماذا تقول؟ مَنْ هي وِداد؟ أين صارت بعد الطلاق؟ وعموماً، هل العشق حالة فلتان في العواطف؟

قلت في نفسي: ما هذا الطوفان من الأسئلة؟ ومَنْ تكون هذه البنت التي كان واضحاً أنها لم تصدقني حين قلت لها: خيالٌ في خيال؟ ربما كان لديها بعض المعلومات عن حياتي الشخصية تجعلها لا تثق بما أقول. كانت الأسئلة كثيرة، فمن أين أبدأ الجواب؟ ولكن لماذا عليَّ أن أجيب عنها أصلاً؟ هذه خصوصياتي. هذه شؤونٌ شخصية خالصة. أو: يبدو أنها لم تعد كذلك من بعد البوح بها في كتابٍ صار من الأملاك العامّة. إذن، احصدْ يا رجلُ ما زرعتَ، أو فاهرب حالاً إلى وحدتك ورماديتك. قلت:

حسناً.. لا أدري إنْ كنت تعلمين أنّ الاسم في قواعد اللغة العربية يقع في واحدٍ من ثلاثة أقسامٍ فقط: مرفوعات، ومنصوبات، ومجرورات. و من تجربتي الشخصيّة لم أعثر على الحب لا في المرفوعات ولا في المنصوبات ولا في المجرورات.

كيف هذا؟ أين يمكن العثور على الحبّ إذن؟

هنا مربط الفرس يا سلمى.

لم أفهم. أين مربط الفرس؟

مربط الفرس أنه ما من اسمٍ في اللغة العربية إلّا وله دلالةٌ واضحةٌ، ومحددة: شارع، بيت، كرسي، طاولة، كتاب، شجرة، غيمة، الخ... لكنْ هناك اسمٌ واحدٌ يوقعني في الحيرة دائماً، منذ أن ابتدأتْ علاقتي الجِدّية بلغة الضاد (عند بكور الشباب تقريباً)، ولغاية هذه اللحظة التي أجلس فيها معك ههنا. اسمٌ لا أستطيع أن أفهم معناه بدّقة. اسمٌ صغير نكتبه بحرفين اثنين فقط: حب. ماذا تعني هذه الكلمة؟ ما معنى هذا الاسم؟ لا أعرف. وهنا مربط الفرس يا آنسة. مربط الفرس أنني لا أعرف ما هو الحب حتى أعرف أين يمكن العثور عليه. كان يجب أن تسألي شخصاً سوايَ عن هذا الموضوع.

ولكنني قرأت تعريفاً جميلاً للحب في روايتك عند الحديث عن وِداد.

وماذا كان ذلك التعريف؟

كتبتَ تقول: ماذا يعني أن تحب إنْ لم يكن الحبُّ انتماءً لأحدٍ ما؟

هل كتبتُ ذلك حقاً؟

ردّتْ مبتسمة:

لا يُعقلُ أن تكون قد نسيت.

بل يُعقل يا صبيّة. فالكاتب من البشر، والبشر ينسون.

ينسى ما كتب؟ لماذا تكتب إذن؟

لماذا أكتب؟ لماذا نكتب؟ لماذا تقرئين؟ لماذا نقرأ؟ وعموماً ما الذي يدفعنا إلى القراءة والكتابة؟ لو طرحتِ هذا السؤالَ على مئة قارىءٍ وكاتب فلربما حصلتِ على مئة إجابةٍ مختلفة وإجابة.

وما هي إجابتكَ أنت؟

هل تعرفين؟ هذا سؤالٌ صعبٌ، أخشى من أنني لا أملك جواباً دقيقاً عنه. أتحدث هنا، بطبيعة الحال، عن الكتابة الروائية، وليس التلفزيونية. ما هو دافعي الحقيقي إلى الكتابة؟ ربما كنتُ أحبُّ

البوح للناس بالذي في القلب، أو ربما كنت أحب الصور المرسومة بالكلمات. أو.. صدّقيني لا أعرف الجواب بدقة.

ماذا تقصد بالبوح؟ الاعترافات؟

لا. بالتأكيد لا. لست أملك بعدُ الجرأة على الاعتراف.

إذن، ماذا تقصد بالبوح؟ أو اسمح لي أن أغيّر قليلاً بالسؤال: ما الذي تسعى إليه من وراء هذا البوح؟ أن تكسب تعاطف الناس مثلاً؟

لا أعرف. لست واثقاً. على أية حال، يجب أن تكون الكتابةِ من وحي الشعور، وليس من نتاج التخطيط الذهني البارد المُسبَق الصنع. ولأنها من وحي الشعور، فهي تحتمل جميع الاستنتاجات التي من فصيلة: التعاطف. يبدو أنني مشوشٌ قليلاً. لا تؤاخذيني. ولكن ما هي وظيفة الأدب، وما هي وظيفة الفنّ عموماً؟ أظنُّ أنَّ هذا هو السؤال المهم الذي تتحدد على الجواب عنه بقية الأسئلة. إنني لست أرى للفنِّ وظيفةً أسمى من إيقاظ الإنسان على إنسانيته، وهكذا.. ربما كان دافعي الحقيقي إلى الكتابة هو الولع باستكشاف المخبوءات في النفس البشرية، فالنفوسُ أسرار.

وهل ساعدكَ هذا الولع باستكشاف المخبوءات في نفس وِداد؟

وابتسمتُ، وقلت:

هل تعرفين؟ يخيّل إليَّ أنني أجلس في مقابلةٍ تلفزيونية.

أنا آسفة.

لا عليكِ!. ماذا كان سؤالكِ الذي آمل أنه الأخير؟

سألتكَ إن كان ذلك الولع قد ساعدك باستكشاف المخبوءات في نفس وِداد.

الجواب هو: لا. كنت كلما عرفت هذه المرأة أكثر كلّما ازددتُ بها جهلاً.

غريب. أليس غريباً؟

إلى حدٍ ما، نعم. فالمشكلة معها أنها شخصيةٌ متعددة الطبقات. إنها نفْسٌ تقاطَرُ أنفُسا، كما قال امروءُ القيس. هل تعرفين ذلك البيتَ من الشعر لامرىء القيس؟

أيّ بيتٍ هو؟

فلو أنها نفسٌ تموتُ جميعةً ولكنّها نفسٌ تَقاطَرُ أنفسا

لم أسمع بهذا البيت من قبل. علاقتي بالشِعر ليست قوية.

شيءٌ محزن. وعلى العموم، أرجو أن تعفيني من العودة إلى الحديث في الحبّ وأوجاعه.

أنا آسفة. يبدو أنني أقحمتُ نفسي في خصوصياتك. واضحٌ أنك لا تحبُّ أن تأتي على سيرة هذه المرأة التي اسمها وِداد.

المؤسف في الحكاية يا صديقتي أنّ الجروح تترك ندوباً لا تزول مع الزمن. أترين أثر هذا الجرح فوق الحاجب؟ إنني أحمله منذ سنواتٍ طويلة. أظنك تعرفين ماذا يكتبون في بطاقات التعريف الشخصية للمطلوبين إلى العدالة: علامات فارقة : لا يوجد. هكذا هي حال أغلبية البشر، أما أنا فقد كتبوا في هذه الخانة من بطاقتي: أثر جرحٍ فوق الحاجب الأيسر.

ابتستِ البنت، وقالت:

فهل أنت من المطلوبين إلى العدالة؟

ابتسمتُ بدوري، وقلت:

لا، لا. بالتأكيد لا. أقصد: لو أصبحت مطلوباً للعدالة لكتبوا ذلك الكلام.

سؤالي هذا كان من قبيل الدعابة لا أكثر. على أية حال، أنت تغريني بالعودة إلى سيرة الحب.

كيف؟

فهل هذا الجرح على علاقةٍ بتلك المرأة التي لا ترغب بأن تأتي على ذِكرِ اسمها؟

لا، ليس تماماً. مجرد خناقةِ أطفال. وقد حضرني هذا المثال ليس من أجل غوايتك بالعودة إلي الحديث عن الحب وسيرته، فإنّ في روحي أيضاً ندبةٌ فارقة تغمز لي بأن أمتنع عن هذه السيرة.

وفجأةً بدا لي في نظرة البنت إليّ شيءٌ من استغراب. قلت:

ماذا؟ هل أناقض نفسي؟

قالت على استحياء:

أظنك تفعل ذلك. على العموم أنا آسفة. أعتذر مرّةً ثانية. عن أيّ شيءٍ تحب أن نتحدث؟

لا يوجد شيءٌ محدد. ولكن من أجل أن نكون متعادلين في معرفة بعضنا فإنني أودُّ أن أسمعكِ أنتِ تتحدثين عن نفسك. ليس عن خصوصياتك بطبيعة الحال، ولكن بالعموميات. باختصار: مَنْ أنتِ؟ وإلى أين تمضين في هذه الدّنيا؟

شرعتِ البنتُ تتحدث عن نفسها. عرفتُ منها أنها سوف تتخرّج قريباً من كلّيّة الآدابِ، قسم اللغة الإنكليزية، وأنّ أفق الحياة «للأسف الشديد» ليس واسعاً أمامها، وبخاصّةٍ في زمن الحرب، وأنّ أقصى ما يمكن أن تصل إليه بعد الجامعة هو وظيفة مُدرّسة للغة الإنكليزية في إحدى مدارس الحكومة. «لا أتحدث عن الطموح، بل عن الممكن». وعرفتُ منها أيضاً أنها من أسرةٍ فقيرة خسرت منزلها في الحرب، وأنهم بسبب تلك الخسارة نزحوا إلى ضاحية (قَرَحتا) على طريق مطار دمشق الدولي البعيد عن المدينة، وأنّ إيجار المأوى الجديد يكسر ظهر أبيها الذي يشتغل عاملاً مياوِماً في البلاط والسيراميك، ولكنه يكاد أن يكون عاطلاً عن العمل في زمن الحرب، فهذا وقت الهدم وليس وقت البناء. وقالت لي كذلك: إنّ الفقرَ ليس عيباً، لأننا لا نختاره بإرادتنا. ولم أناقشها بالأمر، ولا قلت لها إنّ

الفقرَ أكبرُ عيوبِ البشر. تركتها تتحدث على سجيّتها. كانت تتكلم بهدوء، ولكن بطلاقة، بصدقٍ، وعفوية. كان يتملكها شعورٌ قويٌ بالحياة. وَ وجدتُني معجباً بأسنانها البيضاء المرصوفة بعنايةٍ في فمها الجميل. ثمّ أعجبني سوادُ عينيها. وَ وجدتني أسأل نفسي: تُرى ماذا يمكن أن يكون لونُ شعرها؟ وتمنيتُ لو كان شعرُ رأسها أسودَ أيضاً مثل لون العينين عندها. وكدتُ أن أسألها عن ذلك، ولكنني تراجعت عن السؤال في اللحظة الأخيرة، فمن المؤكد أنّ هذا الأمرَ بالنسبة إليها ينتمي إلى فصيلة الخصوصيّات. ولو لم يكن كذلك لَمَا غطّته عن أنظار الغرباء بالإيشارب. وقالت لي: إنك تدخن كثيراً، وهذا حرام، لأنك تدمر صحتك بإرادتك، علاوةً على أنك تنفق نقودك على الضّار. وقلت لها إنني أستمتع بالسيجارة، والشيء الذي نستمتع به مفيدٌ حتماً، حتى وإنْ كان ضارّاً. ولم توافقني الرأي. ولكنها لم تعرف كيف تدحض فكرتي حول المتعة والضرر إنْ تلازما. بقيتْ مصرّةً على أنّ كلّ ما هو ضارٌ بالحياة فهو حرام. وأنا أيضاً لم أسعَ إلى إقناعها بما لا تريد أن تقتنع هي به. وانتهينا من شرب القهوة. وسألتها إنْ كانت ترغب بتناول شيءٍ آخر. وأكدّت لي أنها لا تريد أيّ شيء. ونظرتْ إلى الكتب الخمسة السميكة. وخمّنتُ أنها تفكر بالزمن اللازم لقراءتها. وقلت كمن يعلّق على نظرتها: سوف يطول بكِ الوقتُ في قراءة هذه الروايات الخمس. وأكدّتْ لي أنني على خطأ «لأنني فأرةُ كتب»، وأنها تحلم بأن يكون عندها في المستقبل مكتبةٌ ضخمة. وسألتها إنْ كانت قادمةً من زمنٍ غير هذا الزمن. وابتسمتْ، وقالت: لماذا تظنُّ ذلك؟ وقلت: لأنّ أحلامَ البنات في هذا الزمن بعيدةٌ عن الكتب والمكتبة. وكنت ما أزال راغباً بمعرفة لون شعرها. وسألتني إنْ كان في مقدوريَ أن أحضر لها المزيد من الكتب في المستقبل. الروايات على وجه التحديد. وَ وعدتها خيراً. وشارفتْ جلستنا على الانتهاء. ونهضنا. وخرجنا من الكفتيريا إلى الطريق. كان ضوء الشمس وقتَ الغسق قد ارتمى باهتاً على الرصيف حيث توقفنا هنيهةً سألتْني خلالها البنتُ إنْ كنت

لا أمانع بأن أعطيها رقم هاتفي، هذا في حال أنّ الرقم ليس خاصّاً. وقلت لها: لديكِ عنّي فكرةٌ مغلوطةٌ يا آنسة سلمى، فأنا بعيدٌ تماماً عن أصحاب الأرقام الخاصّة. وابتسمتْ وقالت: «لا تؤاخذني.» وأضافت إلى قولها ذلك المثلَ الشهير: «اللي ما بيعرفك بيجهلك.» وأعطيتها رقم هاتفي الجوّال. وسجّلت الرقم على هاتفها. كان جهازاً قديماً يعود إلى ما قبل أجيال الهواتف الذكيّة. هاتفٌ زهيد الثمن. استخرجتْه من حقيبتها اليدوية بلا أي إحساسٍ بالخجل من الفقر. وسألتها: كيف تتعاملين مع الفيس بوك إذن؟ قالت: لديَّ كومبيوتر في المنزل، ولكنه للأسف جهازٌ قديمٌ، ويخذلني أحياناً. وتذكرتُ الأستاذ شوقي مَنَّ الله عليه بالصّحة والعُمْر الطويل، وتذكرت خاطرتي القديمة: هل نستحقُّ بؤسَنا؟ وتصورت أنّ بمقدور هذه البنتِ أن تكتب الخاطرة ذاتها عن الفقر ذاته، ولكنْ بجراءَةٍ أكبرَ من جراءتي. وهكذا وجدتها قريبةً منّي على نحوٍ من الأنحاء. وتصافحنا على الرصيف. ولم أعرض عليها أن أحملها بسيارتي إلى بيتها البعيد، ليس لِما قد يسببه لها هذا الأمر من حرجٍ مع أهلها أو حتى مع أبناء حارتها، ولكن احتراماً لفقرها على الأقل. وانصرفتْ لتتعذب في المواصلات الرديئة. وانصرفتُ أبحث عن ليفاز في تلك الوصلة الصغيرة بين شارعين كبيرين في قلب دمشق هناك على الرصيف بمحاذاة السور الغربيّ لمؤسسة كهرباء المدينة. وكنت أفكّر بلون شعر البنت. ماذا عساه يكون؟ ولم أعثر على ليفاز. ولكنّ حياتي جميعةً مرقت أماميَ على ذلك الرصيف تلكَ اللحظة. جميع الناس الذين عرفتهم في الحياة مرقوا أمامي. السيئون منهم والجيّدون. الأحياء منهم والأموات. غير أنني تركتهم هائمين على وجوههم فوق الرصيف، ومضيت في سبيلي. ذهبت إلى أحد المطاعم، وتناولت وجبة الغداء. وحين خرجت من المطعم كان المساء قد هبط على المدينة، وكانت القذائف تعبر سماءَها، ولم أكن بها مباليا، فقد اعتدنا هذا الأمرً مثلما اعتدنا أن نشرب الشاي أو القهوة بعد الطعام. ركبت السيّارة، ورجعتُ إلى بيتي. كان التيّار

الكهربائي مقطوعاً. لا بأس. أستطيع قراءة بعض المواقع الإخبارية على الموبايل. فتحت الجهاز، ورحت أقلّب صفحات بعض المواقع. ولكنني شعرت سريعاً بالضجر. في الحقيقة يا سيدرا أنني كنت أفكر بلون شعر سلمى. ما الذي يمنعه من أن يكون أسود؟ لا شيء بطبيعة الحال. ورجع التيّار الكهربائي إلى العمل. وصنعتُ قهوةً في المطبخ. وخطر ببالي وأنا أحرّك القهوة بالملعقة على نار البوتوغاز أنني ربما كنت قاسياً مع البنت حين امتنعتُ عن إجابتها على بعض الأسئلة. وأنني حرمتها من الحصول على متعةٍ ما من الحديث عن سيرة الحب. وأنَّ كلامي لها حول الزمن الذي تنتمي إليه ليس إلّا فذلكةً خالصةً مني. فالبنت تنتمي إلى بنات جيلها، وإلى الأنثى في جميع الأجيال والأزمان والأمكنة. يشغفُ الحديثُ في الحبِّ قلبَها، وأنا أحرمها من هذا الشغف. رجعتُ بالقهوة إلى غرفة المكتبة في كأسٍ زجاجيةٍ كبيرة. لا أحبُّ أن أشرب القهوة في الفنجان كما تعلمين. جلست أمام الكومبيوتر. أشعلت سيجارة. وَ وجدتُني أسأل نفسي وأنا أدخل إلى الفيس بوك: أليس من الجائز أن تكون سلمى متصلة؟ وشربت نغبةً من الكأس الزجاجية الكبيرة. ورحت أدخل إلى حساب البنت متردداً. وأيقنت أنني ما زلتُ أسوأ مَنْ يصنعُ القهوة بين رجال الأرض ونسائها. وخاب أملي. لم تكن البنت متصلة. وصِلينا نصلْكِ في هذه الدّن ـ يا فإنّ المقام فيها قليلُ. وتذكرتُ وِداد. وغُصّ قلبي. وقلت في نفسي لنفسي ما كتبتْه لي سلمى يوماً: أليس الحاضرُ أولى؟ ماذا تراها تفعل الآن؟ ربما كانت قد شرعت بالقراءة. من المؤكد أنها خلعت الإيشارب عن رأسها. يا الله! ماذا يمكن أن يكون لونُ شعرها؟ إذن، يبدو أنني لست سعيداً بوحدتي. ومن دون أن أدري كيف أو لماذا، وجدتني أشرع بكتابة رسالةٍ على الكومبيوتر إلى البنت أجيب فيها عن سؤالها البسيط: أين يمكن العثور على الحبّ إذن، ما دام غير موجودٍ لا في المرفوعات ولا في المنصوبات ولا في المجرورات؟

الآنسة سلمى!

في البدء اسمحي لي أن أشكركِ على الجلسة اللطيفة. ومن ثمّ أرجو المعذرة إنْ بدرَ مني ما يسوءُكِ. تسألينني: أين يمكن العثور على الحبّ إذن ما دام غيرَ موجودٍ لا في المرفوعات ولا في المنصوبات ولا في المجرورات؟ وأنا حقاً لا أعرف أين. ولهذا فإنني لا أرغب في التورط بالجواب، الذي أومن تماماً بأنه لا يمكن أن يكون إلّا ظنيّاً، فما مِن يقينٍ هنا. ما مِن يقينٍ في الحب. أقول هذا الكلام بناءً على تجربتي الشخصية. حسناً، أعترف لكِ بأنني لم أكن صادقاً حين قلت إنَّ كتابة ذلك الفصل الذي أثار الشهية للحديث في الحب لم تكن إلّا خيالاً في خيال. وقبل أن أتابع الحديث أرجو الانتباه إلى النقطة الآتية: إثارة الشهية إلى الحديث في الحب وسيرته، وليس إثارة الشهية إلى الحب ذاته. وهذه برأيي نقيصةٌ كبيرة في ذلك الفصل، بل في مجمل الرواية، إنْ كان الأمر كذلك حقاً، وآمل أنه ليس كذلك. والآن، أرجو أنك سوف تغفرين لي هذه الكذبة البيضاء، التي ما دفعني إليها غيرُ التعب من وِدادَ وسيرتها، فهذه المرأة تتعبني في غيابها مثلما أتعبتني في حضورها. هل تصدقينني لو قلت لك إنني لا أتذكر كيف ومتى وقعتُ في حبّ هذه المرأة، برغم قناعتي بأنّ كلَّ شيءٍ قد حصل بعد الطلاق معها، غير أني أومن أحياناً بأنّ الأمر لم يكن كذلك، وبأنني قد تورطتُ في حبّها مذ كنّا أطفالاً بعد. مرّةً ثانية: هل أناقض نفسي بنفسي؟ الجواب هو: لا. قطعاً لا. إنه التظنّي. فقط التظنّي. فما من يقين في الحبّ قولاً وفعلاً. هل وقعتُ في حبها بعدما هجرتني؟ ربما كان الأمر كذلك. أقول ربما. إنّه التظنّي مرةً جديدة. فلو حصل الأمرُ ذاتُه (الهجران) مع رجلٍ آخر فلربما كان ذلك الرجل سعيداً بالخلاص مِن مثل هذه الزوجة، سيّما أنّه كان سوف يقنع نفسه بأنّ هذه المرأة لم تكن نقية السريرة تماماً، بل قد يذهب به الظّنّ إلى أبعد من ذلك، إلى أنها امرأةٌ خؤون. وهذا طبعاً نقيض ما أؤمن به أنا. كلُّ ما في الأمر، من تجربتي الحياتية الطويلة معها، أنها كانت طفلةً غريرة (جاهلة)، وقد ظلّتْ كذلك حتى من بعد أن انعقدت ثمارُها وغدتْ

امرأةً مكتملة الأنوثة. قد يكون الآخر الافتراضيُّ سعيداً بالانفصال، أمّا الذي وقع لي أنا الواقعيّ فهو العكس. إذن، ما هو الحب؟ كيف ينشأ؟ مِن أين يأتي، وإلى أين يذهب؟ أظن أنّ الجواب ليس بسيطاً، وذلك لسببٍ بسيط: يصعب حصر الحب بأية أمكنةٍ أو أزمان. عدد أشكال الحبِ على الأرض يساوي عدد البشر الموجودين على سطح البسيطة. وكلٌّ واحدٍ من هؤلاءِ البشر مستعدٌ لأن يؤكد بأنه أحبَّ كما لم يحبَّ أحدٌ أحدا (أخشى أن أكون قد كتبتُ هذا الكلام أكثر من مرّة). وفي المقابل أنا لا أملك إلّا أن أصدقّ ما يقول الجميع، وذلك لسببٍ يتيم: الأحاسيس لا تكذب. وأصير في التالي أمام مليارات الأشكال من الحب، فمنابعُ الحبِّ لا ينضبُ معينُها. المسألة ليست بيدي. أنا مرغمٌ على قبول الأمر الواقع. ما العمل في هذه الحال؟ هل أضع شروطاً وضوابطَ وقوانين من أجل توصيف الحب؟ ألا أكونِ أبله عندئذٍ؟ مَنْ يقدر على أن يضبط العواطف البشرية في أية قوالبَ مهما كان عددها كبيراً؟ وأصلاً يا آنستي من يمكنه أن يُقدِمَ على خطوةٍ كهذه إلّا الذي فقدَ عقله؟ وبما أنني لست مجنوناً فإنني أقول في نفسي: دعِ الخلق للخالق، وتعاملْ مع كل حالةٍ على حدة. من هنا اسمحي لي أن أوضح نقطةً أراها مهمّة: شخصيات رواية (الحزن) أحبّوا بطريقتهم، ضمن إمكانياتهم، وظروفهم. ربما كانوا قد أحبّوا كما لم يحبَّ أحدٌ أحدا. وربما كان حبُّهم عادياً جداً. لكنهم عاشوه، واستمتعوا حتى بلحظات الوجع التي فيه. عاشوا الحب كَ بني آدمين. هذا صحيح. ولكنهم عاشوه كأفرادٍ وليس كنماذج، ولا كَ رموز ودلالات، ولا كَ وسائل إيضاح. إنهم أناسٌ عاديون ملحوشون في هذه الدنيا. بشر مثل كل الخلق من لحم ودم وأعصاب. تعرضوا للضغوط. عرفوا الاستجابات. جرّبوا اللقاءات. جرّبوا الفراقات وتباريحها، والسعي للقاءات جديدة، والانفصال مرّةً من بعد مرّة. جرّبوا العطش لبعض، والجوع، والوحدة، والرحيل الدائم، والطيّارات، والمطارات، والالتفاتات الأخيرة، وغصّة الوداع، ومليون قصة وقصة. لكنهم عاشوا هذا كلّه كأفراد، كبشرٍ عاديين لا

يمثلون إلّا أنفسهم. ولم يكن مسموحاً لهم أصلاً أن يمثلوا أحداً سواهم. ولو تحولوا إلى نماذج لكانت بالتأكيد رواية سخيفة، ولكنت تبرأتْ منها. لماذا؟ الجواب بسيط: ليس وظيفة الفن إعطاء دروس للبشر في أي مجال من مجالات الحياة. وعندما يتحول الفن لدروسٍ ومواعظَ يكون ببساطة قد أعلن عن موت سريري أصابه. أنا لا أستطيع أن أقول لأيّ إنسان: اهتدِ في حبك بهذه الشخصيات. لماذا؟ لأنّ هذه الشخصياتِ حالاتٌ فردية خالصة ضمن ظروف مجتمعية محددة. وحتى لو كانت نماذج للحب في مجتمعات عربية فمن المحال أن تنجح في اليابان مثلاً أو في البرازيل. هل تفهمينني يا بنت؟ البشر في العالم كلّه يمتلكون المواصفات الفيزيولوجية نفسها. قلبُك مثلاً يشبه قلب أية فتاة يابانية من الناحية التشريحية الخالصة. لكن كيف الحال في الحب تكون؟ هل يتشابه القلبان؟ لو كان الجواب نعم، فهذا يكون ضرباً من البلاهة طبعاً. هنا يحضر الاختلاف. ليس بين الياباني والسوري فقط. بل حتى بين الياباني والياباني. من أين يأتي هذا الاختلاف؟ من تباين الأرواح. الحب مسألة روحانية في المقام الأول. وليس ثمة روحٌ على وجه البسيطة تشبه روحاً ثانية. وحتى لو كان هناك تشابه، فمن المؤكد أنّ هذا التشابه لن يصل إلى درجة المماثلة. إذن، الفرق دائماً موجود. تماماً مثل بصمات العيون. وفي التالي، أجدني في الحب أمام عددٍ غير متناهٍ من الحالات المتباينة حتماً. فأية قوانين يمكنها أن تضبط هذا التباين أو هذه الفوضى، برغم انضباطها؟! هكذا هو الحب. له مظهرٌ عاطفيٌ ناعم، ولغةٌ ثريّةٌ بالصور الشاعريّة، بعيدةٌ عن التكلّف. ولكن ماذا يحمل في باطنه غير ضوضاء النفس؟ إنه الحدس الغنائيّ، والروح المطلقة، والوجود الذي يكاد أن يكون سماوياً وغير آدمي. فما بالك بالعشق الذي هو مرحلةٌ متقدمة من الحب؟. هل تعرفين أن الحب في اللغة العربية مراحلُ كثيرة؟ بعض علماء اللغة يقولون إنها أربعَ عشَرةَ مرحلة. عجيبةٌ هيَ اللغةُ العربية. وبعضٌ آخرُ من العلماء يقول إنَّ العددَ أكبرُ من ذلك. ولكلِّ مرحلةٍ اسمٌ يميزها عن البقية.

وبعضهم يسميها مقامات: لسان الدين بن الخطيب مثلاً يقول: الإلفةُ أوّل مقامٍ من مقامات الحب، وهي الممازَجَة، ويستدعيها الأُنس. إذن، هيٍ مقاماتٌ أو مراحلُ، أو حتى درجات متفاوتة الارتفاع. شيءٌ مثلُ درجات السلّم الخشبيّ أو حتى المعدنيّ المتوافر في أغلبية منازل البشر حول العالم، ولكنَّ الفارق بين سلّم الحب وبين السلّم العاديّ أنكِ في الحب لا تعرفين على أية درجةٍ بالضبط تقفين، ولهذا حاذري أن تزلَّ قدمُك فجأةً، وتسقطي، فربما كنتِ تقفين على الدرجة الأعلى منه، التي أظنهم يسمّونها في لغتنا العربية: ال وِداد (لستُ متأكداً من هذه النقطة). فهنا يكون السقوط مريعاً. هذا بالضبط ما حدث مع شخصيات رواية الحزن: كانوا يجهلون المرحلة التي يعيشون فيها، ويجهلون في التالي ارتفاع الدرجة التي يقفون عليها. ولهذا جاء سقوطُهم داوياً وشديدَ الإيلام، وبخاصةٍ بالنسبة إلى وِدادَ نفسِها. وربما كان السبب في ذلك يخلو من التعقيد: أظنُّ أنّ الهدفَ عند هذه المرأة بالعلاقة معي لم يكن ثابتاً، أو ربما كان محكوماً بالبلادة والبلاهة والأوهام المتباينة، بل حتى المتعاركة. إنها المفارقات بطبيعة الحال: المحبّةُ ونقيضها. ونقيض المحبّة عندها ليس الكراهية، بل العقلُ المجترُّ، والرغبة الجامحة بالذهاب إلى النائيات في جوف الحكاية. حكاية الحب الذي كانت تحلم به، والذي ربما كانت لا تعثر عليه عندي. إنه بالنسبة إليها أمرٌ موجِعٌ بطبيعة الحال. بل ربما كان أكثر من موجِع. ربما كان يدفع بها دفعاً إلى السقوط في حزنٍ لا اسم له، فيطوّح بعاطفتها الأنثوية التي هي عاطفة الطبيعة، ويعصر روحها، ويغمز لها بالهروب منّي سعياً إلى أملٍ في أمرٍ غير ممكن. لا أدري ماذا يمكن أن أسمّي هذه الحالة. الأمرُ بالنسبة إليَّ كان قاسياً. أعترف بذلك من دون تردد. كنت أتعذب بسبب هذه المرأة وأتمزق، فقد صارت وِدادُ بالنسبة إليَّ منبعَ الألم، ومستودع الأحزان، وصليب العذاب. لقد أنارت هذه المرأة حياتي وأظلمتها في آنٍ معاً. لم تكن وِدادُ في يوم من الأيام شخصيةً كاملة، وحسناً كانت بذلك تفعل، فالشخصية الكاملةُ ناقصةٌ

بالضرورة، لأنها شخصيةٌ غير قابلةٍ للتطوّر. ها أنا ذا آتي على سيرة تلك المرأة التي أظنها صارت من الماضي. لن أنافح عن سلامة هذا الظنّ الذي ربما كان رخواً، فنحن في الحقيقة لا نستطيع الفرار من ماضينا، ولا من تلك المخاوف التي تكاد أن تكون بلا اسم. ربما كانت النوازع البدائية التي تُفرحنا وتحزننا في آنٍ معاً، وغالباً ما تهزمنا في النهاية. إنني أحاول في هذه الرسالة أن أكون أمامك مثلَ كتابٍ مفتوح، ولهذا فإنني أكتب لك بكل صراحةٍ عن وِداد وعمّا تعنيه لي. والآن صارحيني يا سلمى: ألم تكوني تسألين عن مصير هذه المرأة في الواقع، مِنْ أجل غايةٍ في نفسك أنتِ؟ هل هذا ما كنت تفتشين عن معرفته؟ أظن أن الأمر كذلك. وإن كان ظنّي في مطرحه، فإنني أقول لكِ بمنتهى التعاطف معك: لكلٍ منّا السُلّم الذي يخصّه، فدعيكِ إذن من وِداد، وتأكدي من موضع قدميكِ أنتِ على درجات سُلّم الحبّ العالي.

وتوقفتُ عن الكتابة لحظةً، و تابعت مستدركاً:

هذا إنْ كنتِ واقعةً في الحبّ طبعاً. فهل هذا الاستدراك في مطرحه؟

وتوقفتُ عن الكتابة من جديد وقد شعرتُ بأنّ ثمة شيئاً ما يغيب عن الموضوع. أعدت قراءة الرسالة. اكتشفت أنّ ما يغيب عنها هو بالضبط ما يفيض فيها من ثرثرة فارغة، حتى إني شعرت بسخافة هذه المحاضرة السخيفة عن الحب. أعدتُ قراءة الرسالة من جديد لأتأكد صحة شعوري، فعثرتُ في جنباتها على عديد المثالب، مثل سرعة الاعتراف بالكذبة البيضاء. الاعتراف الذي خشيتُ من أن يجعلني مراوغاً في نظر البنت. ومن تلك المثالب كذلك أنّ الرسالة ليست إلّا محاضرةً فعلاً. محاضرة ساذجة لا تناسب حتى طلاب المدارس الإعدادية. ومن تلكَ المثالب أيضاً وأيضا أنني كنتُ أبدو كمن يستغلُّ البنتَ بأفضلية المعرفة ببعض أشياء الحياة السطحية. وقبل هذا كلّه: إنني أحدّثها عن كتابٍ مفتوحٍ بينما هو في الحقيقة ليس إلّا مقدمةٌ ساذجة لحوارٍ من طرفٍ واحدٍ. خشيتُ أن أبدو، كما

يقولون، مثلَ تاجرٍ شاطرٍ يبيع بضاعةً رديئة. بمعنى آخر: أن أبدو مثلَ مُعلّم يخاطب تلميذته. ليس هكذا تكون العلاقات بين البشر. على الأقل، ما هكذا تكون البدايات. وَ وجدتني أضغط على زرٍّ: إلغاء. واختفت الرسالة. ودهمني إحساسٌ غامرٌ بالراحة لأنني امتنعتُ من ارتكاب هذه الحماقة، التي استعضتُ عنها برسالةٍ من سؤالٍ يتيم: هل تستمتعين بالقراءة؟ وضغطتُ على زرّ: إرسال. وشعرت فجأةً بقلبي وهو يخفق مضطرباً، فقد كانت هذه المرّة الأولى التي أكون أنا المبادرَ فيها إلى الدردشة. وصار قلبي يخفق بقوّةٍ أكبر وباضطرابٍ أشدَّ من ذي قبل وأنا أتأمل الكلمات المرسَلة، فخرجتُ من الفيس بوك من فوري وأطفأتُ جهاز الكومبيوتر، وأبقيته مُطفأً لأكثرَ من أربعٍ وعشرين ساعة. هل كنت أريد أن أبدو لا مبالياً بالردّ عن سؤالي، أوَ حتى لا مبالياً بأخبار البنت؟ أظن أنّ الجواب هو نعم، رغم تشوّقي لمعرفة تلك الأخبار، التي عثرتُ على بعضها في اليوم التالي:

أستاذي العزيز!

أريد أن أشكرك على الكتب التي بدأت أستمتع بقراءتها. وقبل الكتب، أحبُّ أن أشكركَ على الوقت الثمين الذي منحتني إيّاه البارحة. سوف يكون هذا اليوم (الأمس) علامةً مميزةً في حياتي الفقيرة بمثل هذه العلامات.

أشكركَ من كلِّ قلبي، وأنتظر لقاءَنا التالي بفارغ الصبر.

انتبه إلى صحتك. أرجوك أن تفعل.

وكان لقاؤنا التالي بعد أسبوعين تقريباً. التقينا في الكفتيريا ذاتها، وجلسنا إلى الطاولة ذاتها. جئتها أحمل خمس رواياتٍ جديدة. صافحتني بحرارة. وصافحتها بحرارةٍ أيضا. كان وجهها متورداً، فقد كان القلب في صدرها يعمل بهمّةٍ عالية. ولم يكن يخطر ببالي في لحظةٍ من اللحظات ما ينتظر هذا القلبَ من نَصَبٍ بعد حينٍ ليس ببعيد. قلت لها ممازحاً:

جئتك من دون باقة أزهار.

ابتسمتْ، وقالت:

المهم أنك قد جئت.

أربكني كلامها قليلا. الفرح بالجواب هو الذي أربكني. شربنا القهوة كما في المرّة السابقة. وتحدثنا في أشياء الحياة المختلفة. قالت لي: إنني أظلُّ دائماً في خوفٍ من أنّ ما تمنحنا إيّاه الحياة لا يكون إلّا سرابا.. تحدثنا عن الحرب وانقطاع الكهرباء والكتب والفيس بوك. قلت لها: إنّ عصر الفيس بوك يقبع تحت سيطرة لاهوتٍ افتراضي مخيف، ولهذا فإنه سوف يصنع أجيالاً من البشر لا تتمتع بأية مزيّةٍ غير الكسل وسطحية المعرفة. لم تعارضني الرأي، ولكنها قالت: مع هذا يبقى للفيس بوك بعض الإيجابيات، فلولاه لما كنّا نجلس الآن معاً في هذه الكفتيريا. قلت: هل أنتِ سعيدةٌ بهذه الجلسة؟ قالت: ألا أبدو لكَ سعيدة؟ تريد الصراحة؟ إنني منذ الآن أفكّر بموعدنا التالي.

في موعدنا التالي جئتها ببعض الكتب وبوردةٍ واحدة. كانت وردةً حمراء تشبه تلك الأزاهير النديّة التي هي صورة ملفّها الشخصيّ. فرحتِ البنتُ بالوردة أكثر من فرحها بالكتب. وبدا لي أنها في عطشٍ إلى الحبّ والاهتمام. إنه ذلك الشعور القويّ بالحياة، رغم الشكوك التي تتسلل إلى أرواحنا، وتهمس لنا بأن لا شيءٍ غيرُ السراب في الانتظار. قالت لي عن الوردة: هذه أثمن هديةٍ تلقيتها في حياتي. وصمتتْ لحظةً، وأضافت: على أية حال، حياتي لم تكن غنية بالهدايا. كنت أحدّق فيها النظر، وكنت لا أراها إلّا هاربةً من قصص المسرح الروسي في القرن التاسع عشر ببعدها الواحد الحزين، البعد الملآنَ بذلك الشوق التشيخوفيّ للحياة. ذلك الشوق المضني كما هي الحال في (الشقيقات الثلاث) أو في (بستان الكرز).. وقالت لي أيضاً: سوف أحتفظ بهذه الوردة إلى الأبد.

ابتسمتُ، وقلت مشفقاً عليها ومتعاطفاً معها تعاطفاً لا ضفافَ له:

ولكنَّ الورودَ لا تعيش إلى الأبد.

قالت:

سنرى.

ولاح على محيّاها طيفٌ من فرح، وأظنها شعرتْ بأنني رأيت ذلك الطيف جلياً، فارتبكتْ، ودارت ارتباكها بالهروب من الموضوع كلّه، فقالت:

ما هو رأيك أنتَ برواية الحزن؟

لم أكن أتوقع منها هذا السؤال. قلت:

رأيي أنا؟

أجل.

صدّقيني لا أعرف ما أقول. كنت أظنُّ وأنا أكتبها أنَّ المحتوى فيها يأتي من الإلهام، برغم أنها روايةٌ ذاتية. والإلهامُ يخلق في النفس شَغَفَاً لا إشباعَ له ولا ارتواء، ولا نهاية يصير إليها. وهذا بالضبط هو الينبوع الذي يتدفق منه عدم رضانا عن كلِّ تجربةٍ وكلِّ إنجاز.

هل أفهم منك أنك لست راضياً عنها؟

لا، ليس تماماً، فإنني أراها أحياناً روايةً طيّبة، ولكنني في أحيانٍ أخرى أراها تفتقر إلى شيءٍ ما.

شيءٌ ما مثل ماذا؟

ربما كان ينقصها الزمن المتماسك للفعل الروائي.

الزمن المتماسك للفعل الروائي!! لم أسمع بهذا المصطلح من قبل. هل هو من اختراعك؟

لا، ليس من اختراعي. كلامٌ يستخدمه النقّاد أحياناً.

هل تعرف؟ لم أقرأ في حياتي كتاباً نقدياً واحداً، أو حتى مجرد دراسةٍ نقدية. إنْ كان لديك بعضٌ من هذه الكتب، فأرجو أن تحضر لي منها واحداً في موعدنا القادم.

وموعدنا القادم كان بعد قرابة أسبوعين أيضا. وفي هذا الموعد انفتحت سيرة وِدادَ أخيراً. اعتذرتُ للبنت أوّلاً عن كذبتي البيضاء، وحدثتها عن القرحة التي في روحي. قرحةٌ خلّفتها ليَ المرأةُ الغائبة عني منذُ زمنٍ صار يبدو لي سحيقاً. سألتني:

ولكن ماذا حلَّ بها في الواقع؟ هل ماتت حقاً كما جاء في الرواية؟

لا. إنها ما زالت على قيد الحياة، وأظنّها تتمتع بصحة جيدة، ولكنها تشكو من ذلك القاتل الصامت الذي يسمّونه الحنين.

تحنُّ إلى مَنْ؟ إليك؟

ربما كانت تحنُّ إليّ، وربما كانت تحنُّ أكثر إلى تلك الطرقات التي مشيناها معاً.

هل هي في ألمانيا؟

لا، إنها تعيش في باريس. تقيم في شقّة صديقٍ لنا مشترك. صديق قديم جداً.

هذا يعني أنها تزوجت.

لا، لم تتزوج.

كيف ذلك؟! تساكنه؟ أقصد هل تساكن ذلك الصديق المشترك؟

أظنها كانت تساكنه.

كانت؟ بصراحة إنني لا أفهم شيئاً. هل اختلفا مثلاً، فترك البيت وهجرها؟

ولا هذه أيضاً. ببساطة، ذلك الصديق الذي اسمه سامر ترك فرنسا فجأةً، وعاد إلى سوريا بعد أن ابتدأت الحرب هنا بثلاث سنواتٍ تقريباً.

عاد بسبب الحرب؟

نعم.

ثم ماذا؟ إنك تشوقني. ماذا حدث له بعد عودته إلى سوريا؟

آخر الأخبار تقول إنه معتقلٌ عند النظام.

لماذا اعتقلوه؟ هل ينتمي إلى الجماعات الجهادية؟

لا أبداً، بل يمكنك أن تقولي عكس ذلك. إنه أقرب إلى الشيوعيين.

إذن، لماذا اعتقلوه؟ أم تراه حمل السلاح؟

سلاحه كان كومبيوتره الشخصي.

ولكن...

ماذا؟ بماذا تفكرين؟ لماذا سكتِّ؟

لأنني أخجل من التلفظ بالذي يدور في خاطري.

تخجلين؟! هو شيءٌ محرجٌ إذن.

نعم، إنه مُحرج، حتى إنني أخاف من أن أبدو شرّيرة.

وهنا ابتسمتُ لها مشجعاً، وقلت:

مَنْ كان له هاتان العينان الجميلتان لا يمكنه أن يكون شرّيراً.

وبدا على البنت شيءٌ من خجل، وقالت:

شكراً!

وصمتتْ، ثم لم ترفع بصرها عن فنجان القهوة أمامها على سطح الطاولة بين أصابعها. وأنا بدوري لم أرفع بصري عن وجهها. قلتُ محفّزاً إيّاها على الكلام:

ماذا كنتِ تريدين أن تقولي؟ إنني أسمعك.

إنه ليس بالأمر المهم.

ولكن حتى لو كان غير مهم، لا تتحرّجي من أن تقولي أمامي أي شيء يخطر ببالك.

بصراحة؟

ها ها ها... اتفقنا على عدم الكذب. أليس كذلك؟ طبعاً بصراحة.

أخاف أن تغضب مني.

لن أغضب. صدقيني.

حسناً..

ماذا؟

هل أنت سعيدٌ باعتقال صديقك القديم بسبب علاقته بوِداد؟

هذا بالضبط ما كنت أتوقع منكِ سماعه.. لا يا سلمى. إنني لست سعيداً. بل إنني حزينٌ جداً بسبب ما أصاب هذا الصديق.

وهذا بالضبط ما كنت أتمنى سماعه. ولكن..

ماذا أيضاً؟

هل تفعل شيئاً لإنقاذ صديقك القديم؟ أنت كاتبٌ مشهور، في التلفزيون على الأقل، وأظنُّ أنّ لكَ معارف مهمّين في البلد.

أنت على حقٍ يا سلمى. إنّ لي الكثير من المعارف المهمّين في البلد. ولكن هل تعرفين ماذا قال لي هؤلاءِ المعارفُ المهمّون حين طلبت منهم أن يتدخلوا في قضية هذا الصديق القديم؟ قالوا لي بالحرف الواحد: ابقَ بعيداً عن سيرة هذا الجاسوس لئلا يطالك الأمرُ أنت أيضاً. هل تعرفين ماذا يعني ذلك؟ إنه يعني شيئاً واحداً فقط: هؤلاءِ المعارفُ ليسوا مهمّين بالمرّة. فالمهمّون الحقيقيون لا يعطونك مثل هذا الجواب. هل عرفتِ الآن حقيقة مستوى علاقاتي بالناس المهمّين؟

أنا آسفة. كان لديّ تصورٌ مختلف عن الموضوع. أرجو أن تقبل أسفي. ولكن هل الأمر خطيرٌ إلى هذه الدرجة؟

هذا يتوقف على زاوية الرؤية.

لكن، وبغضّ النظر عن زاوية الرؤية، فليحيلوا المتهم إلى القضاء.

وهذا بالضبط ما قلته لأولئك الناس المهمّين. فهل تعرفين بماذا ردّوا عليّ؟ قالوا: القضاء ليس للخونة والجواسيس.. لا يا آنسة سلمى، إنني لست سعيداً باعتقال صديقي الذي جاءتْ سيرتُه عَرَضاً في سياق الحديث. لذا اسمحي لي أن أعود إلى صلب الموضوع. ها قد عرضت عليكِ حكايتي مع وِداد، وإن باقتضاب، فهل ما زلتِ ترغبين بأن تلعبي دورها في حياتي؟

ماذا تقول؟ وهل تظنني كنت أسعى إلى هذا الأمر من تواصلي معك؟

إذن، إلى ماذا كنتِ تسعين بالضبط عندما كنت تتحدثين عن القَبول والرضا؟

وهنا ارتبكت البنت قليلاً، و احمرّت وجنتاها من الخجل. لقد كان القلب في صدرها يعمل بهمّةٍ بعد. وليته ظلّ كذلك إلى اليوم، أو حتى إلى الأبد! فهي امرأةٌ طيبة حقاً يا سيدرا. طيبةٌ، رقيقةٌ، وحنونةٌ. امرأةٌ جيّاشة العاطفة، قليلة العناد في شؤون الحياة اليومية، وعديمة النكد. نقول في الدرامة: الشخصيةُ الأكثرُ مدعاةً للضجر والأقلّ مدعاةً للتعاطف هي الشخصيةُ ذاتُ البعدِ الواحد. وسلمى، في الحقيقة، شخصيةٌ ذاتُ بعدٍ واحد. إنها بخلاف وِدادَ تماماً. على النقيض منها. ولكنها مع ذلك لا تبعث على الضجر. هل تصدقين أنها لم تترك لي فرصةً في يوم من الأيام لأن أغضب منها أو أغضب عليها؟ هل هي ملاك؟ بالتأكيد لا. إنها بشرٌ مثلنا. مثلنا تماماً. لها عينان تبكيان وقلبٌ يمرض بالأدواء اللعينة. ولكن كما تقولون في مصر: «الحلو ما بيكملش.»

بعد اللقاء الرابع الذي كان طويلاً بعض الشيء. ولمّا خرجنا إلى الرصيف، أعطتني البنت يدها للمصافحة. قلت:

سوف أحملك إلى المنزل بسيّارتي.

قالت: لا أريدك أن تتعذب معي يا أستاذ. قلت: لن يكون هناك عذاب، ثمّ إنني بكل صراحة أريد أن أتعرف إلى بيتك، لأنني أريد أن أقابل أباكِ قريباً لشأنٍ يخصّك، أو هو في الحقيقة شأنٌ يخصّنا نحن الاثنين. هل تفهمين ما أرمي إليه يا سلمى؟ أريد أن أطلبك من أبيك، فهل أنتِ موافقة؟ واحمرّت وجنتاها تماماً. ليت القلب في صدرها ظلَّ يشتغل بهمةٍ إلى الأبد، أو إلى الأبد ويوم!

إلى أين نمضي الآن يا كاتيا والليل قد انتصف؟

وبماذا يهمنا انتصاف الليل؟ تعال نغنّي.

يا صديقي، خذني معكَ إلى الأرض القصيّة، فأكون لك هناك حبيبة.

10

بعد شهر..

11

هبط الظلام على المدينة التي يرجّها دويُّ المدافع والصواريخ. رجع أمجد و سلمى إلى البيت من عيادة طبيب الجراحة القلبية. وضْعُ المرأة الصحيّ يمضي إلى الأسوأ. هكذا همس لي الطبيب يقول. توقفتِ السيارة عند مدخل البناء، وترجلا منها. وكانت حبّات صغيرةٌ من المطر قد بدأت تهطل من السماء. وأولُ الغيث قطرة. دلفَ الزوجان إلى شقتهما حيث التدخين ممنوع إلّا في غرفة العمل. وبهذا تكون مغامرة الخروج من المنزل قد انتهت بالنسبة إلى سلمى.

ولكنها استنفدت البقية الباقية من طاقة المرأة. فها هي تبدو شديدة التعب. بدّلت ثيابها بمساعدة أمجد، ودخلت في الفراش، وتناولت وهي مستلقية لقمةً خفيفة، ثم خلدت إلى السكينة تحت أنظار زوجها. غطّاها باللحاف جيداً. أطفأ النور في الغرفة وخرج إلى الصالون، وفكّر بمشاهدة فيلمٍ ما. أشعل التلفاز، وجلس قبالته. كان الوقت أمامه طويلاً إلى أن يحين موعد جرعة الدواء عند تمام منتصف الليل. لكنَّ محاسنَ الوقت مثلُ مساوئه: إنه ينقضي مهما طال أمدُه. شاهد بعضاً من فيلم سينمائي بواسطة جهاز دي في دي، وشاهد جزءاً من تمثيلية تبثّها قناةٌ محليّة. وشعر بالملل. أطفأ الجهاز، وتمطّى بكسل، ثم انصرف إلى غرفة العمل، وراح يبحث في مكتبته الكبيرة عن كتابٍ تستهويه قراءته. ثمة روايةٌ جديدةٌ من تأليف أحد الكتّاب الشباب أُهداها له مؤخراً. أخذ الكتاب وجلس إلى الطاولة، وراح يقرأ. واستغرق في القراءة. ولمّا نظر إلى الساعة أخيراً كانت عقاربها تشير لِ: سبع دقائق إلى منتصف الليل. نهض، وغادر غرفة المكتبة. ذهب إلى المطبخ، وأخذ قنينةً مختومة من مياه «بُقّين» المعدنية. تناولها من أحد الصناديق الثلاثة التي تقف فوق بعضها في ركن المطبخ الأيمن. فتح غطاء القنينة المختومة، وأخذ كأساً نظيفةً من خزانة الزجاجيات، ورجع إلى الصالون، فغرفة النوم. فتح الباب بهدوء، وأشعل النور. كانت سلمى في سبات. وكان اللحاف قد انزاح عن بعض جسدها. اقترب من السرير. نظر إلى المرأة مليّاً قبل أن يوقظها. رآها للحظةٍ مثلَ «قطعة لحم تحت غطاء». وشعر بالغيظ من نفسه. أين قرأ هذه العبارة؟ في أيّ كتاب؟ حاول أن يتذكر. ولم يفلح. آلمته الصورة، حتى إنه أحس بقشعريرةٍ موجِعة في جميع بدنه. قطعة لحم تحت غطاء. صورةٌ فظيعةٌ تركتْ جرحاً غائراً في روحه، فاجتاحهُ طوفانٌ من الرهبة، وتركه كسيفَ البال، حسيرَ الفؤاد، أسيراً في قبضة الغمّ والأسى. وظلّ يتأمل امرأته. فأين المَلاحةُ، والنضارة، ونشوة الروح، وفورة الحواس؟ لا شيءَ الآن سوى الشجنِ، وقهقهةِ الموت، والخبال، وزفرات الدموع،

والأنواء الثقيلة. ها هي امرأتكَ تموت يا ليفاز. ولكن من يدري؟ ربما كان الموت خيراً لها من هذه الأدواء. فها قد مرّ على مرضها المفاجىء قرابة خمسة شهورٍ بدتْ لي ولها مثلَ ردحٍ من الدهر. وصحّة المرأة تزداد سوءاً من يومٍ إلى يوم. وليس في مقدوري أن أساعدها فتيلا.. لعلّه بات يشفقُ عليها حقاً! وهذا أسوأ ما في المسألة. على أية حال، إنها امرأة تستأهل كل خير. هذا ما راح يفكر به وهو يحاول أن يطرد من رأسه صورة اللحم الذي تحت غطاء مستعيناً باستعادة شريط لقائهما الأول: حرارة المصافحة الأولى، التماعة العينين، ابتسامة الشفتين المكتنزتين، الأسنان البيضاء كاللؤلؤ المنضود، رواية قوس قزح، جهاز الموبايل العتيق، والفقر ليس عيباً. وأراحه هذا الأمر، حتى إنه ابتسم راضياً عن نفسه. ومدَّ يده برفقٍ إلى كتف المرأة التي تستأهل الخير ليوقظها، فلم تستيقظ من فورها. جلس على حرف السرير بجوارها، وراح يمسّد شعرها من بعد رقبتها، ففتحت عينيها أخيراً. ابتسمت له. نظرت إلى ساعة المنبّه بجوارها على سطح الكومدينو. العقارب تشير إلى تمام منتصف الليل. إذن، هو موعد الدواء. كان المطر يضرب نافذة الغرفة بقوة، فصمتت المدافع والصواريخ. لكن فجأةً ومضَ البرقُ، واجتاح الغرفةَ بأمواجه الزرقاء الخاطفة، ثمّ همهمَ الرعدُ، فابتسم الرجل، وابتسمت المرأة، ولكن من الأسى.. هي ذكرياتٌ ما تزال قريبة. المرأة تخاف من أصوات المدافع، بل وتخاف قصفَ الرعد أكثر. كانت تخبّىء جسدها في جسد الرجل. كانت تراه جسداً كبيراً، رغم أنه ليس كذلك في حقيقة الأمر، فتلجأ إليه، وتغيب فيه. تختفي هناك. تغطّي نفسها بنفسه.. يا الله! ماذا أصبح هذا الجسد؟ ماذا أصبحت هذه الروح؟ فها هي المرأة لا تفزع من الرعد ولو قليلا. فماذا حلَّ بها؟ أتراها يئست من رحمة الله أخيراً، وهي الإنسان المؤمن بالقضاء والقدر خيره وشرّه؟ هذا ما كان يفكر به الرجل وهو يقدّم الدواء لامرأته. يبدو أنها باتت تعتقد بأنّ الموت ينتظرها وراء النافذة، أو في الطريق خلف باب الدار،

فبكتْ بصوتٍ مضعضعٍ بكاءً خافتاً تحت ناظري الرجل الذي لم يعد لديه ما يصنعه أمام انفعالها سوى ممارسة الإشفاق البغيض.. ولكن مهلاً! فها هو جسد المرأة يرتمي على جسده يطلب الأمان بعدما تتالت جملةٌ من انفجارات الرعد القاصف بالهدير. إذن، فالمرأة ما تزال تأمل. ضمّها إليه بقوّة كما لم يفعل من قبلُ أبداً. إنه يريد أن يحميها، ولكن ليس من هدير الرعد، بل من الموت الرابض وراءَ النافذة أو خلف باب الدار متربصاً بهذه المرأة الحبيبة. وظلّ يضمّها إليه إلى أن أغفتْ من جديد بعدما صمت الرعد تماماً.. ساعدها على الاستلقاء في الفراش، وغطّاها باللحاف جيداً، وأطفأ النور في الغرفة، وذهب إلى المكتبة. كان جهاز الموبايل على سطح الطاولة يومض بإشارة رسالة. كانت الرسالة مختصرة:

إذا كنت سهران أرجو أن تكلّمني. أنا بانتظارك.

كانت رجاء هي المرسِل.

ولكن من تكون رجاء هذه؟ إن كنتَ نسيتَها يا ليفاز فأنا لا ألومك، فقد كانت البنت صغيرةً بعدُ يومَ ترك أهلُها الحارة التي كانت تعجّ بالبنات الصغيرات. على أية حال، إنك تتذكر أباها حتماً، وتتذكر أمها كذلك: جارتنا القديمة التي صار اسمها الست إلهام، بينما صار اسم زوجها جلال بيك. لقد كانت الست إلهام طيّبةً مع أمك يا ليفاز. فهي لم تتخلَّ عنها طوالَ أعوام غربتك الستة عن البلد، فأنت لم ترجع إلى أمّكَ في أية إجازةٍ، صيفيّةً تلك الإجازة كانت أو شتويّة. لماذا لم تفعل يا ليفاز، رغم اشتياقكَ لأمك؟ الاشتياق الذي كان يبكيكَ، يذبحك، ليس إلى أمّكَ حسب، ولكنْ إلى شمسٍ وعلاءَ وسامرٍ وبقية الشلّة، بل حتى إلى أزقّة عشوائيتكَ الأليفة. لماذا لم تفعل يا ليفاز؟ سوف أجيبكَ عن هذا السؤال بكلِّ صدق: لم تكن تملك ثمن تذكرة الطائرة في أيّ وقتٍ من أوقات تلك الأعوام الستة.. عندما علمتُ مِن وِدادَ بنبأ وفاة جلال بيك عاتبتُ أمي لأنها لم تخبرني بالأمر. قالت لي:

خشيت أن تعصّب عليّ من سيرة هؤلاء الناس. فأنا أعرف أنك لا تحبهم، مع أنهم، واللهُ على ما أقول شهيد، لم يقصّروا معي في شيء طوال ما أنت غائب عن البلد.

لهْ يا إمي! لماذا تتحدثين عني هكذا؟ هل تظنينني وحشاً؟ ثمّ يا أمي لا شماتةَ في الموت. وأنا فعلاً لست وحشاً، حتى إنني مستعد أن أذهب معك إلى بيت الست إلهام لأعزّيها بالمصاب الذي حلَّ بها.

من قلبك هذا الكلام؟

بل من قلب قلبي.

وفي مساء اليوم التالي ذهبت مع أمي إلى منزل الست إلهام، وقمت بواجب العزاء. كانت رجاء لمّا تبلغ الرابعة والعشرين من عمرها بعد. ورغم صغر سنّها فقد كانت مليونيرة كبيرة. ولأنها كذلك فقد كانت تنظر إلى الناس من علٍ. جميع الناس، بمن فيهم أنا طبعاً. هكذا كنت أظن. بنتٌ متوسطة الجمال، متوسطة الطول، مربوعة القامة قليلاً، وحيدة أهلها، أي مدللة جداً. تضع على عينيها حتى وهي في البيت، من دون أن أعرف لماذا، نظارةً شمسية لا بدّ وأنها غاليةُ الثمن كثيراً. خمّنت يومئذٍ أنها ربما كانت تعاني من التهاب في الجفون، أو من يدري؟ ربما كانت تخفي حزنها على أبيها المتوفى بنظارةٍ شمسيّةٍ سوداء. (ولكنني عرفت لاحقاً أن ظنوني كلها لم تكن صائبة، فهي ما تزال إلى اليوم ترتدي النظارة الشمسية في الأماكن المغلقة. ولكن ليس دائماً، بل في مرّاتٍ كثيرة. ولم يكن عندي تفسيرٌ للأمر سوى أنه البلاهة التي قد تستبدّ بأحدنا طوال عمره. نصيب.) في ذلك المساء البعيد استقبلتني الست إلهام باشّة، وحمدتِ الله على سلامتي، وعلى أنني صرت رجلاً، ومتعلماً يحمل شهادة الماجستير. أما رجاء الثرية فكانت لا تراني ولا يثير في نفسها شيئاً وقعُ كلمة ماجستير. يبدو أنها لم تكن ترضى بأقل من دكتوراة، رغم أنها بالكاد تعرف تكتب اسمها، فقد رسبتْ في الصف الثالث الإعدادي ثلاثَ سنواتٍ متتاليات، فقررت مع والديها أن

لا حاجة بها إلى العِلم طالما أنها تملك ما هو أهم منه. ليس المال حسب، بل اللقب أيضاً: رجاء بيك.

انتهت سيرة رجاء من حياتي بانتهاء زيارة الواجب تلك. ولا أتذكر أنّ صورة البنت قد مرقتْ بخاطري في يومٍ من الأيام، فلا أمري يعنيها ولا أمرها يعنيني. وظلَّ أمرها لا يعنيِني، ولكن فجأةً صار أمري يعنيها. كان قد انقضى عامان على الزيارة اليتيمة لمنزلها. وكان التلفزيون يبث مسلسلاً يتصدر اسمي عناوينَه. عجيبةٌ هي الشهرة حتى وإنْ كانت صغيرة. قالت لي أمي ذات يومٍ في فترة عرض المسلسل التي امتدّت شهراً كاملاً:

الست إلهام تسلّم عليك وتقول لك الله يعطيك العافية على هذا الشغل الحلو، ورجاء خانم أيضاً تهديك سلامها.

قصدك رجاء بيك.

قلت ممازحاً. زجرتني أمي:

عيب هذا الكلام يا أمجد!

أمرك ست الحبايب. رجاء خانم. الله يخلّيها لأمها.

ومن جديد خرجت رجاء من حياتي، ثمّ لم ترجع إليها إلّا بعد سنتين أخريين تقريباً. رجعت بنفس الصيغة السابقة، مع تعديلٍ طفيف:

سلامي إلى الأستاذ أمجد وأرجوكِ أن تشكريه على هذا الشغل الحلو.

صار اسمي الأستاذ. ترقيةٌ لا بأس بها، مع أنكَ لمّا تزل من عمرك في الثامنة والعشرين بعدُ يا ليفاز. كنتُ قد بدأت أستعدّ مع أمّك للرحيل عن عشوائيتي الأليفة من بعد أن اشتريت هذا المنزل الذي تعرفين يا صديقتي. في الحقيقة أنني اشتريته بالتقسيط. ولكنه تقسيطٌ مريح. وكنت قد بدأت التفكير بالزواج من وِداد التي بدتْ مترددةً بعض الشيء تجاه هذا الأمر، رغم أنها كانت تبادلني حباً

بحب. أو بالأصح، كنت أحبها أقلَّ وتحبني أكثر، أو بالعكس. ولم أكن أفهم لترددها سبباً، كما لم يخطر سامرٌ ببالي إلّا لحظةً واحدة كسببٍ لهذا التردد، فقد كان واضحاً لي أنهما لا يلتقيان، ولا حتى بالمصادفة. أبقى الآن مع رجاء. في تلك الفترة كان قد حدث تطورٌ مفاجىءٌ في البلد قلَبَ حياة الناس رأساً على عقب: الموبايل. في بداية هذا التطور المفاجىء كانت الأسعار غالية، أو غالية جداً بالنسبة إلى أغلبية العباد. أما بالنسبة إليّ، وبما أنني «أستاذ»، فمن غير اللائق بحقي ألّا أشتري خطّاً وجهازاً، رغم أنني مدينٌ بأقساط البيت العديدة. وهذا ما كان. بدّلت الجهاز لاحقاً عديد المرّات. أمّا الخط (الرقم) فبقي ثابتاً إلى اليوم. هو الرقم الموجود على جهازكِ يا سيدرا، والذي يظنّ بعض الناس أنه رقمٌ خاصٌ حتماً، بينما هو في الحقيقة رقمٌ يشبهني كثيراً في علانيته وعشوائيته. هل ابتعدت عن رجاء في حديثي عن الموبايل؟ كلا. فظهور البنت من جديدٍ في حياتي كان شديد الصلة بهذا الاختراع العجيب الذي اسمه موبايل. الرقم. طلبتْه البنتُ من أمي، واستدركتْ تقول لها: إنْ كان الأستاذ لا يمانع. ولم أمانع طبعاً. أرسلتُ لها الرقم. وفي اليوم ذاته الذي أرسلتُ فيه الرقم إليها، اتصلتْ بي. كان حديثاً أبلهَ أو حتى غبيّاً، وذلك لسببٍ بسيط: لم يكن لديّ ما أقول لها. فهمت منها أنها تعاني الوحدة، رغم أنها لم تقل ذلك صراحةً. سألتني عن سامر. بدا السؤال عَرَضياً، فأجبتها عنه باختصار. وقالت لي إنها تعاني بعض المشكلات مع أمها التي بدأت تغار منها «لأنني صبيّة» بينما الأمّ تكبر أكثر وأكثر، تتقدم بها السنُّ يوماً بعد يوم باتجاه الشيخوخة البغيضة وأمراضها المختلفة، وبخاصةٍ وجع المفاصل. وسألتني بعض النصائح في العلاقة بأمها. باختصار: كانت تستجرّني إلى الدخول في حياتها الشخصية. ولكنها لم تنجح طبعاً، فالدخول إلى خصوصيات الناس آخر ما أفكر به، وآخرُ ما أريد من هذه الحياة. وهكذا كانت نصائحي إليها عامّة جداً وعشوائيةً جداً، مع تمنياتي لها بالتوفيق في المقبلِ من الأيام. تكررتْ هذه المكالمات الغبيّة ثلاثَ مرّاتٍ أو أربعا. وكلُّ واحدةٍ منها كانت نسخةً طِبقَ الأصل عن

سابقاتها. ثم انقطعت المكالمات تماماً بعد أن تزوجنا أنا وَ وِداد. وبدا لي أنّ البنت عندئذٍ فقدتْ مِنّي الأمل. وهكذا انقطعتْ أخبارها عني. ولا أعرف إنْ كانت أخباري قد انقطعت عنها أيضاً. وصرنا لا نلتقي أو نتواصل بالهاتف إلّا في مناسبات العزاء التي لا مفر فيها من هذا الأمر الذي كان أوّله يوم أن وقعت الفجيعة المزدوجة. مات العم أبو علاء بائع عرانيس الذرة المسلوقة. كان قد تناول عشاءً خفيفاً أعدّته له ابنته شمس، و ذهب بعد صلاة العِشاء إلى فراشه وأغفا. ثم لم يستيقظ إلى الآن. مات بالسكتة القلبية. هكذا كان تقرير الطبيب الشرعي. وأنا لا أوافق الطبيب الشرعيّ في النتيجة التي وصل إليها، لأنّ الرجل، في حقيقة الأمر، قد مات بسكتة حزنٍ صاعقٍ على ولده الوحيد علاء، الذي كان في الطفولة والمراهقة أحد الأشخاص القريبين إليَّ من خارج الشلّة، فقد توفي الشاب بحادث سيرٍ فظيعٍ على طريق حمص حيث كان يشتغل في مصفاة النفط التي تسمم أجواء المدينة اللطيفة ليلاً ونهارا، وتسرق من ساكنيها العافية يوماً من بعد يوم. مات العم أبو علاء بعد أسبوعٍ واحدٍ بالتمام والكمال من موت ابنه الوحيد. كانت أياماً عصيبةً علَى وِداد، وعلى شمس بطبيعة الحال. أو ربما كانت عصيبةً أكثر على شمس التي غدتْ وحيدةً تماماً. اقترحتُ عليها أن تأتي إلينا وتقيم معنا. ولكنها رفضت الفكرة بشكلٍ قطعي. «لن أترك بيت أبي مهما جرى.» هكذا ردّت على مقترحي السابق. وبقيتْ في بيت أبيها. لم تتزوج، ولستُ أعرف السبب في ذلك، رغم أنني كنتُ أزورها في عشوائيتنا وأطمئن عليها، حتى بعد الطلاق مع وِداد. وبقيتُ أزورها بين حينٍ وحين إلى أن قامت الحرب وصارت عشوائيتنا واحدةً من بُؤَر الموت العبثي. هنا انقطعتْ أخبار شمس عني. انقطعت تماماً. فالحيّ محاصرٌ من الجيش، وهاتف المرأة الجوّالُ خارجَ الخدمة دائماً و أبداً. فماذا حلَّ بها؟ ماذا جرى لها؟ حتى وِدادُ لا تعرف عنها شيئاً. هل يعقل أن تكون قد ماتت تحت القصف والردم؟ سألتُ عنها عديد الأشخاص من أبناء عشوائيتنا، الذين نجوا من الموت. أحدهم أكّد لي أنها ما زالت على قيد الحياة، وأنها تقيم في أحد مخيمات اللجوء

في لبنان، وأنها قد غدتْ تبدو عجوزاً بائسة. ولكن في أيّ مخيم هي بالضبط؟ لم يكن لدى ذلك الشخص جوابٌ يشفي الغليل. فكيف أصل إليها إذن بين أكثر من مليون لاجئٍ سوريّ في أنحاء لبنان المختلفة؟ كنت أتمنى لو أنها لجأت إليّ في منزلي في الحيّ حيث أقيم، الحي الذي كان نصيبه من الحرب بسيطاً إلى حدٍ ما: قذائف الهاون العشوائية في أحيانٍ متباعدة. لماذا لم تلجئي إليَّ حقاً يا شمس؟ كنت أعاتبها في سرّي من وقتٍ لوقت، فأنتِ صديقتي العتيقة، ومرجعيتي التي لا يدنو منها ريب. أنت أمي يا شمس، فلماذا لم تلجئي إلى ابنك الوحيد في مصابك الجلل؟ هل كان ذلك بسبب الطلاق بيني وبين وِداد؟ فلتذهب وِدادُ إلى الجحيم، ولأذهب أنا إلى جهنم في مقابل ألّا تكوني بائسةً في يوم من الأيام.. إنه النصيب يا سيدرا. إنه النصيب يا ليفاز. نصيبُكَ أن تَمُوت أمُّكَ مرّتين. نصيبُكَ أن تعيشَ حياتكَ يتيمَ الأمِّ مرّتين. لقد قلتها لكَ من قبل أكثر من مرّة: دائماً ما سوف تجد نفسك عالقاً بين أمرين هما على الأغلب متشابهان. دائماً ما سوف تجد نفسكَ عالقاً بين موتين أو امرأتين. فلن أسألك ما الذي تريده رجاءٌ منك، بل سوف أسألك: ما الذي قد تريده أنت من رجاء؟

نعم أنا ساهر. مساء الخير يا رجاء!

مساء النور!

أريد أن أطلب منك شيئاً.

تفضلي.

غداً عيد ميلادي الأربعون. تصور يا أمجد صار عمري أربعين سنة.

قالت بصوتٍ دامع. أحسّ أمجد بألمها، فقال مُلطّفاً الجو:

العمر كلّه إن شاء الله.

لا لا، إنني لا أتصل بك من أجل أن تواسيني. إنني أتصل من

أجل أن أدعوك غداً إلى حفلة صغيرة بهذه المناسبة، وأرجوك أن لا ترفض طلبي البسيط هذا.

حاضر. أمرك. لن أرفض طلبك يا رجاء.

وعد؟

وعد. أين؟ وفي أية ساعة؟

12

نور الصباح يغمر الكون. كانت غيوم الليل الثقيلة قد تبعثرت في السماء الرحيبة. وأمجد يحضّر الطعام في المطبخ. يضعه على صينية. يحملها. يذهب إلى غرفة النوم. سلمى مستيقظة. تستلقي في الفراش وقد وضعت وسادتين خلف ظهرها على جري عادتها في زمن المرض. كانت تقرأ القرآن بصوت مسموع في مصحفٍ متوسط الحجم. يأتيها أمجد بطعام الفطور. يضع الصينية أمامها على الفراش. ويجلس قبالتها متربعاً.. كان ما يزال بالبيجامة. «قال فما خطبُكَ يا سامريّ، قال بصُرْتُ بما لم يَبْصُروا به» أنهت المرأة القراءة: صدق الله العظيم. قبلت المصحف ثلاثاً، ودسّته تحت وسائدها. راح الرجل يصبُّ لزوجته حليباً أو شاياً. لا يهم. المهم أنه يخدمها. يصنع لها سندويشة صغيرة بالجبن أو اللبنة. إنه اليومَ خجلٌ منها. قليل النظر في عينيها مباشرة. ثمة ما يؤرّقه في العلاقة مع هذه المرأة المريضة. ثمة ذنب يبدو على وشْكِ أن يرتكبه: مواعدة امرأة غريبةٍ. ذنبٌ سوف يجلب للمرأة المريضة ألماً إضافيا. ولكنها، بالمقابل لن تسعى إلى الانتقام من الرجل إن هو ارتكب هذا الذنب، حتى صمتها الكثير (بعدما ينكشف الأمر) لن يندرج تحت هذا العنوان: الانتقام. فقد كانت المرأة تؤمن تماما بأن الانتقام هو أسوأ أنواع العدالة. على أية حال، ما سوف يحصل و يجعل الرجل خجلاً من امرأته لن يطول بكَ الوقت حتى تتعرَّفَه يا ليفاز. ولأن

المرأة لن تسعى لعقاب زوجها، فلسوف تظلُّ تتقبل خدماته الصباحية هذه دون تذمر. تأخذ منه الحليب أو السندويش، وتأكل، ولكن من دون شهية. ومع الطعام يقدم لها أمجد الدواء: حبة، اثنتين، أربعاً. وتتناولها المرأة من دون حماسة. فعلٌ بات ميكانيكيا خالصاً. يحاول الرجل أن يقدّم لها طعاماً آخر، ولكنها تعتذر بحركة من يدها. وأمجد لا يلحّ بالأمر. ينهض من قعدته، ويحمل الصينية ويغادر الغرفة إلى المطبخ. ونبقى مع المرأة التي تأخذ أنفاسها بمشقّة، وعيناها تحدّقان في الفراغ شبه ذاهلتين كمن يسأل: ثم ماذا؟.. ويُقرع جرس المنزل.. ويذهب أمجد إلى الباب ويفتحه عن امرأة في منتصف الخمسينات من عمرها. إنها أم غالب (والدة سلمى) التي تأتي إلى هنا كل يوم، وتعمل على راحة ابنتها طوال النهار، ما يخفّف عن أمجد أعباء رفقة المرأة الصغيرة المريضة، ويتيح له بعض الحرية في الخروج من المنزل لبعض الوقت، وأحياناً حتى المساء، أو ما بعد المساء بقليل. ولكن ليس أكثر من ذلك. قال لها من فوره معاتباً:

ما بدك تبطلي عادة قرع الجرس؟ ما هو البيت بيتك يا أم غالب، والمفتاح معك.

أم غالب:

والله أنا هكذا أكون مرتاحة أكثر. صباح الخير أمجد!

وتدخل المرأة البيت، ويغلق أمجد الباب.

13

أمجد في سيارته.. سيارة صغيرة نسبياً، سوداء اللون، كورية المنشأ.. الشمس تظهر وتغيب.. ثمة غيوم رماديةٌ صغيرة ما زالت تتبعثر في أرجاء السماء الرحيبة. والسيارة متوقفة في زحمة السير

الفظيعة عند إشارة للمرور حمراء. زمامير أبواق السيارات الحادّة تملأ الفضاء كلَّه. وأمجد يجلس ساكناً مثلَ صنم خلفَ المقود ينتظر وينتظر. بصره لا يحيد شمالاً أو يمينا. ينظر إلَى أمام فقط. ويفكر في ما هو مقدمٌ عليه. وينتظر. فقط ينتظر. لا يلفت انتباهه شيءٌ ما أو أحدٌ ما. ولا حتى ذلك السرب من الفتيات اليانعات الذي يعبر الطريق من أمامه مباشرةً. كان يقول في نفسه طوال مرض سلمى: المشكلةُ في هذه الحياة تكمن في أنّ هذه الأسرابَ من اليناعة دائمةُ التجدد بينما أنت تمضي قُدماً إلى الكهولة بوقارٍ و ثبات. هنا تأخذك الحسرة. لم تعد تصلح لمغامرات الشباب. كبرتَ على المغامرة. كبرتَ على الشغف. كبرتَ على الخوف من أن تكون مرفوضاً من الجنس الآخر. وكبرتَ، بطبيعة الحال، على العادة السرّية والتبوّل على الجدران. هنا يأخذك الحنين إلى الماضي البعيد. يتركك واقفاً على رصيف العمر حائراً من أمرك. يتملكك السؤال الصعب: ماذا بعد؟ لعلَّ جميع أفكارك وتصوراتك عن الحياة تأخذك في نهاية المطاف إلى السؤال المُضني ذاته: ماذا بعد؟! هنا. هنا تماماً يأخذك الحنين إلى ليفاز. إلى ليفازَ دونَ سِواه، فتروح تفتش عنه بلا يأس. بشراسةٍ وعنادٍ عجيبين تفعل ذلك. ولكن أيضاً بألم وحَيْرة. وتكتشف في النهاية أنّ الأمر كلَّه حَيْرةٌ في حَيْرة. الحياة كلهًا حَيْرة في حَيْرة. عندما كنتُ مراهقاً أبول على جدار خزّان الكهرباء، كان أفراد الشلّة يحلفون من أجل أن تصدّقهم بقيةُ الأولاد كالآتي:

وحياة أختي..

وشرف أختي..

بعرض أختي..

ليفاز كان يشعر بالقهر، ليس لأي سبب سوى أنه لا أخت عنده يحلف بشرفها وعرضها وحياتها..

كنت لو تحلف بالله فإنّ الأولاد لا يصدقونك..

يقولون لك:
كذاااااب..
العمى على هالقصة!
ماذا أفعل؟
مرّةً تخانقت أنا وأمي..
كنت أريد البطاطا (البطاطس) المقليّة على الغداء.
ولكنها أصرّت على الباذنجان المقلي.
ربما كان الباذنجان في ذلك اليوم أرخص ثمناً من البطاطا.
المهم أننا تخانقنا.
خلعتْ أمي الشحّاطة (الشبشب) من قدمها وضربتني بها..
هربتُ منها..
وقفت بباب الدار
وصرت أردح:
بدال ما تضربيني كنتِ تشاطرتي وجبتيلي أخت..
أمي صارت تضحك..
قالت لي:
تعال تعال! تعال ما رح أضربك..
ضحكتها طمأنتني..
اقتربت منها..
ضمّتني إليها..
وسكتتْ..
لكن كما لو أني سمعت صوت دموعها تجري..

نظرتُ إلى وجهها..

لم تكن تبكي..

غير أنها بدتْ لي شديدة الحزن..

قلت لها:

لماذا تريدين أن تبكي؟

مكتبة
t.me/t_pdf

قالت:

لا، إنني لا أريد أن أبكي، ولكنني تذكرت أختك..

أختي أنا؟! عن أيّ شيءٍ تتحدثين؟

عن أختك الله يرحمها.

أنا كان عندي أخت؟

أي والله كان عندك أخت، وماتت صغيرة. السنة التي جئت بها أنت إلى الحياة. كان عمرها ثلاث سنين فقط.

ولماذا ماتت؟

ضربها موتور (موتوسيكل) وهي تلعب أمام البيت بالحارة.

موتور مَن؟

لم نعرف. السائق هرب. والذين رأوه قالوا إنه ولد. من جيلك الآن. ربما كان سارق موتور أبوه.

وأختي ماذا كان اسمها؟

رجاء.

حزنت كثيراً من الذي سمعته.

ما هذا الحظ الزفت!

يا ليت أمي ما حكت لي هذه الخبرية !

من يومها صرت أحب اسم رجاء.

ومرقت سنون المراهقة.

وصرت شاباً.

وعرفت بعض النساء في حياتي.

وتعلّقت بفلانة وفلانة.

لكن أكثر امرأة كنت أهرب منها وأستغلظها هي المرأةُ اللي لم يخطر ببالي في يوم من الأيام أن أتواعد معها.

رجاء.

رجاء بيك.

ما الذي يحدث معك اليومَ يا رجل؟

سنرى.

ليتها كانت وِداد!

وِدادُ التي هي قصة حبّي

قصة حياتي

فأنا، من بعد وِداد، لم أعد أحب اسم رجاء

بل إنني لم أعد أحبُ أيَّ اسم نسائيٍ آخر

وِداد التي كتبت عنها قصةً بعد الطلاق

كنت واقعاً في أسرها حتى الحزن

كتبت بعد الفراق بشهرين قصةً عن حبّنا الزائل وأنا أرزح تحت تباريح الهجران.

وَ وِداد كانت بطلة القصة التي لم ترَ النور، والتي أعطيتها فيما بعد اسم:

قصةٌ من أجل قارىءٍ واحد..

كنت قد أعطيت المخطوط للمرأة بعد الانتهاء من الكتابة. حدث هذا قبل سفرها إلى دبيّ بأسبوعين تقريباً. التقينا في إحدى الكفتيريات. قلت لها: هذه القصة عنكِ وعني. عن زواجنا الذي دام ثلاثة أعوامٍ وأكثر. أعطيك النّصَّ الذي لا أملك نسخةً ثانيةً منه، فهو بخط اليد كما ترين. اقرئيه على مهل، فأنا لن أنشر هذه القصة، من دون موافقتك على الأمر، مع أن اسمك فيها مستعار. إن كنتِ موافقة على النشر أعيدي لي المخطوط، وإن كنتِ غير موافقة فباستطاعتك أن تحرقيه، أو تنسيه في سيارة أجرة، ويكون قد وصلني الجواب. أخذت وِدادُ المخطوط، وغابت عني ثلاثة أيام، ثم رجعت إليَّ وقالت: أعيد لك بضاعتك كما أخذتها، دون أيّ نقصان. خمسون صفحةً كاملة. باستطاعتك أن تنشرها متى تشاء و حيث تشاء. هذا أمرٌ يخصك أنت وحدَك. ولكنني أحب أن تعلم بأنني لستُ راضيةً عن هذه الصفحات الخمسين، فإنّ فيها عقدةً ذكوريةً بغيضة، فلا أنتَ أنتَ ولا أنا أنا. قلت: مع أنني لا أوافقك الرأي غير أني سوف أمتنع عن النشر. وأكثر من ذلك: سوف أحرقها. سوف أحرقها أمامك. الآن. أو سوف أمزقها وأرمي المِزَقَ في زبالة هذه الكفتيريا. وكدتُ أن أمزقها لولا أن لهفتِ المرأةُ على المخطوط واستلّته من بين يديّ وهي تقول: أرجوك ألّا تمزقها. لا تمزقها أمامي على الأقل، ثم دعني أقرأها مرةً ثانية، فمن يدري؟ قد أغيّر رأيي بها. وأذعنتُ برغبتها، فأخذتِ المخطوط مني، ثمَّ لم تُعده إلي.. يبدو أنَّ في حياة كلٍّ منّا ثمة قطعةً ضائعة. يبدو أنَّ الحياةَ لا تسير إلّا على هذا النحو، فقد أضاعت وِدادُ ذلك المخطوط، أو تلك القصّة، التي سمّيتها بعد ذلك: قصة من أجل قارئٍ واحد. ولكنني أعدت كتابتها بعد سنواتٍ كثيرة، وجعلتها فصلاً في رواية الحزن، من دون أن يكون فيها أسماءٌ مستعارة هذه المرة، رغم أننا افترقنا أنا وَ وِداد. افترقنا إلى الأبد. ومن أجل توخي الأمانة: افترقنا إلى الأبد إلّا يومين، فقد ارتحلتِ المرأة إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، وما عدتُ رأيتها إلى الآن. إلى الآن إلّا يومين. ولكنْ ها هي تحاول أن

تعيد وصل ما انقطع. ها هي تطلب موعداً في بيروت. وها أنا ذا لا أردُّ على طلبها، لا بالسلب ولا بالإيجاب. أكثر من شهرٍ انقضى على عرضها بلقاءٍ بيننا تراه هي ضرورياً، بينما أخشى أنا أنه لن يكون إلّا نسخةً مشوهةً عن زمنٍ جميلٍ مفقود. والمرأة لا تيأس من صمتي الذي ربما كانت تراه مريباً. ومَنْ يدري؟ قد تغامر بالمجيء إلى دمشق، برغم خوفها المزمن. أعرف خوفها، ولكنني أعرف جنونَها أيضاً، فهي ليست شخصيةً ذاتَ بعدٍ واحدٍ مثل سلمى، بل إنها نفْسٌ تَقَاطُرُ أنفسا، كما قال امرؤ القيس ذاتَ مرّة. أظنني قلت هذا الكلام أكثر من مرّة من قبل. اعذريني على ذلك يا سيدرا. ألم أقل لكِ إنني لم أعد صاحب الذاكرة الحديديّة كما كنتِ تصفينني. ما الذي يحدث معك يا رجل؟ هل تفزع على سلمى من صدمة الخيانة لو تمّت؟ لو التقيتَ بوِداد؟ تستطيع أن تتعلل بالفزع على سلمى هرباً من اللقاء مع قصة حبكَ الغابرة. فمثلُ هذه الحجّة الرمادية تشبهك. تشبهك تماماً. ولكن هل تريد رأيي يا ليفاز؟ أن تخون سلمى مع إحدى العاهرات أرحمُ بألف مرّة من أن تخونها مع وِداد، فهذه الفِعلةُ في الحساب الأخير لن تكون أكثر من نزوةٍ عابرة، ولن ترقى بحالٍ إلى مرتبة الخيانة. أعرف أنك لن تأخذ بهذا الرأي أو بهذه النصيحة. لن تفعل ذلك لمليونِ سبب. أعرف أنّك لن تنزلق إلى هذا المنحدر من الحِطّة. أفكارك كلّها عن المرأة حبيسة الماضي البهيج. حبيسة وِدادَ التي تخاف من أن تردّ ولو بالرفض على طلبها الصريح. إذن، أنت في ورطة يا صديقي. وَ ورطتك كبيرة. عندكَ امرأةٌ مريضةٌ بالقلب، وعندك امرأةٌ مريضةٌ بالحنين تنتظر منك موافقةً غبيّةً، ولو على الفيس بوك. إذن، فما حاجتكَ أنتَ إلى هذه المواعدة السمجة مع رجاء؟ أم أنك تحب أن تعيش حياتك في الحزن والندم؟ ما حاجتك إلى مواعدة امرأة لم ترَ عينيها إلّا مرّتين أو ثلاثا؟ إنْ كانت المرأة قد بلغت الأربعين، وهي في الحقيقة أكبرُ من ذلك، فهذه مشكلتها هي، فها أنت ذا على وشْكِ أن تبلغ الثالثة والأربعين، وهذه أيضاً مشكلتك أنت. أنت وحدَك. الزمن يمضي إلى الأمام فقط. وهذا أمرٌ لا

علاجَ له. إذن، هي مشكلتك العويصة. لذا تعال نرجع إلى وِدادَ قليلاً. تعال نرجع إلى نفس الأسئلة. ما حاجتك إلى رجاء وَ وِدادُ منذ أكثر من شهر وهي تعرض عليك اللقاء في بيروت كلَّ يومٍ تقريباً؟ وكلَّ يوم، منذ أكثر من شهر، وأنت تؤجّل الرّد على عرضِها إلى الغد. فمأذا أصابك؟ وما الذي تتوجسه من اللقاء بوِدادَ في حقيقة الأمر؟ هل تجزع من أن تكتشف اختلاف مذاق الملامسة الأولى؟ طعم القبلة الأولى؟ هل ستفاجئك هذه الأشياء مثلاً؟ ولكن ماذا لو؟ وَ لو تفتح باب الشيطان كما تقولون في الدرامة. إذن، افتح الباب، واترك إبليس اللعين يعمل، ولو قليلا. فمن يدريِ؟ قد يأتي الملاكُ الشرّيرُ بعملٍ صالحٍ، في آخر زمانه، يغفر له شيئاً من ذنوبه العظيمة، وتكسب أنت بذلك حَسَنَةً قد تعينكَ يومَ يقومُ الحساب. ثم كيف لك أن تحكم عن بُعدٍ وعن غيبٍ على تشوّهات الزمن المفقود حين استعادته وأنت المؤمن بالتغيير قانوناً أعلى يحكم حركة الكائنات الحيّة جميعها؟ نعم، سوف يكون طعم القبلة الجديدة مختلفاً. هذا شيءٌ مؤكد. ولكن، ما أدراكَ أنه لن يكون أطيب؟ فلكلِّ آنٍ أوانُه، ولكلِّ قبلةٍ مذاقُها الذي يميّزها عن سواها، فكلُّ قبلةٍ جديدةٍ في حياتك هي القبلةُ الأولى يا صديقي. أظنّكَ توافقني الرأيِ. إذن، أين حقيقة مشكلتك مع وِداد؟ إنني لا أفهمك يا ليفاز. أتراكَ لا تغفر لها أنها قد هجرتك وتركتك تتعذب في ليالي السهاد الطويلة؟ أتراكَ تسعى إلى تعذيبها مثلما عذبتك، إلى الانتقام منها؟ إلى الألم؟ ما حاجتكَ إلى جحيم يخصّك؟ قالها لكَ سامرٌ بوضوحٍ ذاتَ مساء: يكفينا هذا الجحيم الجمعيُّ يا صديقي. أم تراكَ نسيتَ أيامك فجأةً مع هذه المرأة ونسيتَ لياليها؟ أم تراك نسيتَ علاقتها الوثيقة بأمكَ أيضا؟ أم تراك نسيت (ظلّ القمر)؟ القصة التي هربتَ فيها من واقعيتك الأثيرة وأنت تكتب عن سنوات التردد عند وِدادَ في الزواج إليك؟ القصة التي جعلتَ من القمر شاهداً على أحداثها. ماذا كنتَ تريد من القمر؟ لمسةً من الحزن أم طيفاً من الرومانس؟ أعرف أنك لستَ تعرف الجواب عن هذا السؤال البسيط. إذن، فلنبقَ في السؤال الأول: هل نسيت؟

لا، لم أنسَ. ولن أنسى.

إذن، ماذا دهاك؟ ولماذا رجاء؟ أم تراها هي مَنْ سوف يفتح باب الشيطان؟

سنرى.

سنرى.

سنرى.

14

الزواج والطلاق والألم..

كنّا في البيت ثلاثة. رجلٌ وامرأتان: عجوزٌ وصبيّة. امرأتان تتقاسمان رجلاً واحداً. لكلٍ منهما فيه حصّتُها. للعجوز الأمومة، وللشابّة كلُّ شيءٍ آخر. كنتُ حديث الزواج بوِداد. وِدادُ التي أجرت في ما بعدُ مدامعي من نار الشوق إليها.

فهل سمعتَ يا ليفاز بماءٍ يجري من النارِ؟

كنّا سعداءَ نحن الثلاثة. أو فلأكن أكثر دقةً في التعبير: لم نكن سعداء تماماً، غير أننا لم نكن تعساء بالمرّة. كانت حياتنا هنيّة إلى حدٍ لا بأس به، بعيداً عن العشوائيات، التي سوف تظلّ تعيش معي ما دمتُ أتنفس الهواء. لست أخجل من فقريَ القديم حتى لو صرت ثريّاً، رغم قناعتي التي لم ولن تتبدّل في وقتٍ من الأوقات، فأنا ما زلتُ أرى الفقرَ أكبرَ العيوب على الأرض، و ما زلت أومن بأننا لا نستحقُ بؤسنا. ما مِن إنسانٍ عليٍ وجه البسيطة يستحقّ بؤسه. يقولون: الفقرُ لصيقُ الجهل، تماماً كما الخوف لصيقُ الشر، ولا

يتحرك أحدهما من دون أن يتحرك صاحبُه معه. لا أعرف إلى أيّ مدىً يمكن اعتبار هذا الكلام صحيحا. ولكن حتى لو كان صحيحاً بنسبة مئة من مئة فإن التورط في الإيمان به يزعزع فينا إيماناً من نوعٍ آخر: القناعة كنزٌ لا يفنى. والقناعة، على وجه العموم، تنأى بصاحبها عن أنواع الجهل والشرور المختلفة. ولكنْ عن أية قناعةٍ بالضبط نتحدث؟ عن قناعتنا بالفقر مثلاً؟ هنا يصير هذا الإيمان كذلك ضرباً من الشعوذات. شعوذات الأغنياء بطبيعة الأمر. وكيفما حسبناها سوف نجد أنفسنا أمام مفارقةٍ من نوعٍ ما. إنني جاهزٌ لأن أقول في الفقر ما لم يقله مالكٌ في الخمر وما قاله، بل وأكثر. على أية حال، هذا الموضوع أوسع من أن أخوض فيه هنا، الآن، حيث الدّيكُ يصيح في الجِوار، برغم أنّ الفجر ما زال بعيداً. لماذا يكذب هذا الدّيكُ علينا كلَّ ليلة؟ هكذا كانت وِدادُ تسألني أحياناً. ولم أكن أملك جواباً عن سؤالها. كنت أبتسم وأقول لها: ربما كان لا يكذب يا عزيزتي، فالفجر لا يستئذن الديك ولا ينتظر صياحه من أجل أن يجيئنا. ربّما كان هذا الدّيك يصيح من أجل أن ينبّهنا إلى خطبٍ جللٍ ينتظرنا في مقبل الأيام. فتسألني: خطبٌ من أيّ نوع؟ وأردُّ عليها: ومِن أين لي أن أعرف ذلك يا عزيزتي؟ فتسألني: ولكن من أين جاء هذا الدّيكُ إلى قلب المدينة تقريباً، وأين يقيم؟ ومرّةً ثانية: ليس عندي جواب. أنا نفسي كنت أطرح الأسئلة ذاتها في بدايات ظهور الدّيك في حيّنا: مَنْ صاحبُه؟ أين يقيم؟ وكيف ظهر بيننا فجأة؟ في البداية كان يزعجني صياحه، ولكنني، مع الوقت، اعتدت الأمر شيئاً فشيئا، حتى غدا هذا الصياح جزءاً أليفاً من ليلتي كلَّ ليلة. في البداية رحت أسأل الجيران عن سرّ هذا الدّيك، فتبيّنتُ أنهم مثلي متضايقون من وجوده بيننا، ولكنّ الجميع يجهل مكانه. والغريب في الأمر أنّ أحداً منهم لم يره بأمّ العين في وقتٍ من الأوقات. والغريبُ أيضاً أننا لم نسمع صياحه، ولو مرّةً واحدة، في النهار. هذا الدّيكُ لا يصيح إلّا في الليل والناسُ نيام، فيزعجهم بصياحه. كان صوته عالياً جداً، وحادّاً جدا. ومع مرور الوقت اعتاد

الناس مثلما اعتدت أنا من قبلُ على وجود هذا الديك بيننا باعتباره شكلاً من أقدارنا المقدورة، واستسلمنا للأمر الواقع. جميعنا استسلم إلّا وِداد. كان يوقظها الصياح من نومها، فتنهض من الفراش وتأتي إليّ في غرفة العمل حيث أكون ساهراً أكتب. وكانت تقول لي: هذا الدّيكُ ابنُ كلب. وتخرج إلى الشرفة من غرفتي، وتقف هناك في العتمة خمس دقائقَ تقريباً، وتحاول معرفة مصدر الصوت، ولكن دون جدوى، تعود بعدها إلى الغرفة خائبة. تقف خلف الكرسيّ حيث أجلس أمامَ الطاولة، وتحيط رقبتي بذراعيها الناعمتين، وتسألني: ألم تتعب؟ وأجيبها: بلى، قليلاً. فتقول لي: إذن، كفاك سهراً. وحين كنت لا أستجيب لأمرها كان الحلّ عندها حاضرا. كانت تترك رقبتي وشأنها، وتلفّ من حول الطاولة حتى تصير في مواجهتي، وترتقي بجسدها في حركةٍ التفافية رشيقة، ولكنها خالصة الطفولة بحيث تصير جالسةً فوقَ الورق الذي أكتب عليه. كانت طفلةً غريرة، رغم جسدها الناضج بالأنوثة الجامحة، طفلة شقيّة، مخادعة، رائقة، حييّة، وجميلة. وكانت تعطيني ظهرها طبعاً، وإمعاناً منها في اضطهادي، كانت تأخذ كتاباً ما من على سطح الطاولة، وتروح تتظاهر بالقراءة. غالباً ما كان هذا الكتاب ديوان المتنبي، فهو دائم التواجد بجانبي حيثما تواجدتُ. وكانت أحياناً تقرأ بصوتٍ مسموع:

وصِلينا نصلْكِ في هذه الدُن ـ يا فإنّ المُقامَ فيها قليلُ

ثمّ تستدير بوجهها نحوي نصف استدارة، وتقول لي بالعربية الفصيحة: لماذا لا تأخذ بنصيحة جَدِّك البعيد يا فتى؟ وكنت أبتسم، وأقول: أية نصيحة هي التي لا آخذ بها؟ فتردّ عليّ: ألا تسمعه يقول لك إنّ المُقامَ قليلُ؟

ولكنني لم أنتهِ من الشغل يا وِداد.

فماذا أفعل أنا؟ لقد اشتقت إليك.

وتنزل عن الطاولة بقفزةٍ واحدة، وتمدُّ يدها إليّ تطلب يدي،

وأطيعها، أُسلّمها قيادَ نفسي، ونذهب إلى غرفتنا والكفُّ بالكف. نذهب إلى الفراش.

وأنا اشتقت إليكِ يا وِدادُ أيضاً.

وكانت بعد الفراش تقول لي:

هل تعرف؟ يجب أن نكون لهذا الدّيكِ من الشاكرين.

ثمّ تنهض من الفراش، وتذهب عاريةً من أجل الاستحمام. قلت مرّةً ألومها على هذا التعرّي:

قد تستيقظ أمّي من النوم فجأة، ومن غير اللائق أن تراكِ عارية.

لا تقلق بهذا الخصوص. ماما لا تسمع صياح الدّيك إلّا وقت صلاة الفجر، والفجرُ ما زال بعيداً.

ضحكتُ يومها وسألت:

هل أنتما متفقتان على هذا الأمر أيضاً؟

ضحكتْ، و قالت:

لا تقلق، كلُّ شيءٍ تحت السيطرة.

كانت وِدادُ تخاطب أمّي بكلمة ماما. وكانت تقول هذه الكلمة بصدق. وعموماً كانت المرأتان تعيشان في بيتٍ واحدٍ بوئام. لم يكن بينهما يوماً ذلك العداء الخفيّ بين الكِنّة والحماة. كلُّ واحدةٍ منهما تعرف ماذا تريد من رجل البيت الوحيد. وكلُّ واحدةٍ منهما راضيةٌ بحصّتها تمامَ الرضا. وبسبب هذا الرّضا المتكامل الأركان لم تختلفا مرّةً على شيءٍ ما من أشياء الحياة اليوميّة على تنوعها. وأكثر من هذا: كانتا دائماً تتفقان ضدي: التدخين في المنزل ممنوع. وكنت أحتجّ على مثل هذا القرار، فتقول لي وِدادُ من فورها:

حسناً، فلنحتكم للتصويت.

وعلى رأي الشاعر: ضعيفان يغلبان قويا.

وهكذا كنت أخسر التصويت في كلّ مرّة. نعم، لقد كانتا تتآمران عليّ. وفي الحقيقة أنني كنت أسعدُ بالخسارة، فهذا يعني أنّ المرأتين متفقتان. وأنا لم أكن أطلب أكثر من ذلك، فقد كان يخيفني قبل الزواج أن أقع بالمشكلات النسوية المعهودة بين الأم والزوجة، حتى إنني صارحت وِدادَ بالأمر. قلت لها:

لا أحتمل أن أرى أمّي مستاءةً من شيء. ولن أرميها في مأوى عجزة بطبيعة الحال. هل تفهمين ما أرمي إليه يا وِداد؟

فقالت لي:

لا تقلق. خالتي أم أمجد ليست خالتي، بل أمّي. أمّي الثالثة. الأولى المرأة التي أنجبتني، والثانية أختي شمس، والثالثة أمك. قد أحتاج إلى بعض الوقت لكي أتكيّف مع هذا الوضع الجديد، و من المؤكد أنني سوف أتكيّف معه. ولكن لي عندك طلبٌ يتيم. قد يصيبني الخجل من ماما في بداية الزواج ما دمنا سنقيم في بيتٍ واحد. أظن أنّ البداية سوف تكون صعبةً بعض الشيء. فقط البداية. لذلك دعنا نقضي أيامنا الأولى في فندق. بضعة أيامٍ لا غير. أسبوع على الأكثر.

قلت لها:

لكِ ما تريدين.

قضينا الأسبوع الأول من عمر زواجنا في فندق الشام في قلب دمشق. وفي الحقيقة أنه لم يكن أسبوعاً بهيجاً. ولا شأن لذلك بالفندق، ولا بأمّي. كلُّ الذي حصل أنّ وِدادَ كانت متعبَةً منذ اليوم الأوّل. أو بالأصح منذ الليلة الأولى. مذ دخلنا غرفتنا في الفندق بعد حفل الزفاف الذي كان بسيطا. مذ وجدتِ المرأةُ نفسها في غرفةٍ مغلقةٍ مع رجلٍ ما زال غريباً عن شؤونها الشخصية التي على علاقةٍ بالجسد. شؤونها الحميمة. كانت متعبةً مذ رأت سريراً عريضاً يحتلُّ

الحيّز الأكبر من مساحة الغرفة. كانت المرأة تعاني من وجعٍ فظيعٍ في المعدة أو في القولون. مؤكد أن منشأ الوجع عصبيٌ. كانتْ تتلوى من الألم. ولم أعرف ماذا أفعل من أجل مساعدتها. اقترحت عليها أن آخذها إلى المستشفى. ولكنها رفضت المقترح بشدّة. لا تريد أن تبدأ حياتها الزوجية بالمستشفى، فهذا فأل شؤم حتماً. إذن، ماذا أفعل؟ طلبتُ من خدمة الغرف مشروباً ساخناً منً منقوع البابونج. ولكنَّ هذا المشروبَ الساخن لم يحلَّ المشكلة، فخرجتُ من الفندق عند الثالثة فجراً أبحث عن صيدليةٍ مناوبة في مناحي المدينة. اهتديت إلى واحدةٍ في حيّ القصّاع. كان فيها صيدلانيٌّ كهل. حكيتُ له الأعراض التي تعاني منها زوجتي. سألني إنْ كانت الأوجاع ليست نسائيّة. جزمتُ له بأنها ليست كذلك. وضحكتُ وأضفت:

إنها ما تزال عذراء.

نظر الرجل إليّ غير فاهمٍ شيئاً. قال:

كيف عذراء وأنت تقول زوجتك.

نعم زوجتي. ولكنها الليلة الأولى.

آ.. الآن فهمت. لا تقلق، فهذا أمرٌ شائعٌ في بلادنا. سوف أعطيك الدواء المناسب.

وناولني علبةً دواءٍ من أحد الرفوف، وقال:

حبّة واحدة عند اللزوم، أي عند الألم.

شكراً لك! ألف شكر! كم ثمن هذا الدواء؟

ابتسم، وقال:

هذا الدواء بلا ثمن. أرجو أن تقبله هديّةً مني إليك بمناسبة الزواج.

وأصرّ على ألا يأخذ الثمن.

شكرته، وانصرفت. ولكنني بقيت أتذكره من حينٍ إلى حينِ. وأكثر من ذلك: زرته في الصيدلية لاحقاً مرّتين.

ملاحظة من خارج القصّة: في السنة الثالثة من الحرب مات الصيدلاني الكهل بشظايا قذيفة هاون سقطت على الرصيف أمام صيدليته التي كان يقف ببابها لحظتئذٍ. ولكنني لم أشارك في جنازته. لم أعلم بالأمر إلّا متأخراً.

رجعت إلى الفندق أحمل الدواءَ الهديّة. كانت وِداد ما تزال تتلوى من شدّة الوجع. سارعتُ أعطيها حبّة من العقار الذي كان له مفعول السحر. فما إنْ مرَّ نصف ساعة حتى اختفى الألم. ولكنّ العروس كانت قد نامت. لم ينبّهني الصيدلانيّ إلى الآثار الجانبية المحتملة للعقار، والتي أوّلها: النعاس. هذا ما عرفته بعد أن قرأت النشرة المرفقة في العلبة وأنا ساهرٌ أحرس وِداد حتى الصباح. على أيّة حال، إنني لم أكن مستاءً من نومها، بل كنتُ على العكس من ذلك، راضياً، أو حتى على شيءٍ من سرور، فقد كانت المسكينة متعبةً جداً، وقلقةٌ جداً، ومن المؤكد أنّ النوم سوف يريحها من تباريح الألم، ومن تباريح الخجل أيضاً. كان نومها عميقاً لدرجة أنها أغفت وهي في ثوب الزفاف. كان نوماً عميقاً وطويلاً. لقد استمرّ عشرَ ساعاتٍ وأكثر. استيقظتْ بعدها لتجد نفسها ما تزال في ثوب الزفاف، ولتجدني ما أزال في بدلة العرس جالساً على إحدى الكنبتين الوحيدتين في الغرفة. أبدتْ أسفاً وندماً على هذا الوضع الذي نحن فيه. حتى إنها كادت أن تطلب الغفران.

الغفران على ماذا يا وِداد؟ المهم الآن: هل أنتِ بخير؟

وجع المعدة اختفى، ولكنّ رأسي مصدوعةٌ قليلا.

لا بأس عليكِ! أظنُّ أنّ هذا الصداع من آثار الدّواء الجانبية، وسوف يزول بعدِ قليل. اخلعي هذا الثوب عن جسدك، ادخلي إلى الحمّام، وَ قِفي تحت الماء بضع دقائق، ثم أطلبُ طعاماً لنا نحن

الاثنين. ما بكِ تنظرين إليّ هكذا؟ هل تخجلين من أنْ تنزعي عنك ثيابك بحضوري؟ حسناً، سوف أترك لك الغرفة ساعةً كاملة.

وهممتُ بالانصراف، فهتفتْ بي فجأة:

لا، لا تخرج، أرجوك أن تبقى هنا، فأنت أيضاً مرهق. انظر إلى وجهك في المرآة.

قلت ممازحاً:

أما كان من الأفضل لو قضينا ليلتنا الأولى عند أمي؟

في الحقيقة بلى. كان أفضل.

وشرعتْ تخلع ثوب الزفاف عن جسدها. ولم تعد خجلةً من حضوري بجوارها.

لم أسمع في حياتي عن علاقةٍ طيبة بين الكِنّة والحماة كتلك التي كانت بين وِدادَ وبين أمّها الثالثة في تقاسم الزوج والولد، الذي هو أنا. أو هذا الكاتب الشاب الذي بدأ يصيب نجاحاً جعل اسم أمي ليس خادماً عند الست إلهام، ولا كذلك جارتنا أم أمجد، بل صار اسمها: أمّ الأستاذ أمجد.

عجيبةٌ هي الشهرة، حتى وإن كانت صغيرة.

كانت أمّي تنظر إلى وِدادَ كما لو أنها ابنتها. وكانت سعيدةً بأنّ الله قد وهبها ابنةً من حيث لا تحتسب، وبخاصةٍ أنها صارت في أواسط الخمسينات من العمر، من دون أن تعلم بأنّ هذه الابنة قد تكون المِعوَل الذي سوف يحفر قبرها في يومٍ من الأيام بعد سنواتٍ غير كثيرةٍ على السعادة التي أصابتها في بكور الشيخوخة. لقد استقرّت حياتها أخيراً، وحصلت على السلام الداخلي الذي طالما كافحت في الحياة لتناله. لقد صار لها ولدٌ وبنتٌ ومنزلٌ صالحٌ للاستهلاك الآدمي، كما أنها لم تعد مضطرةً للعمل عند أحد. كنت أنظر إليها وأقول في نفسي: آن لهذه المرأة أن تستريح، فقد كافحتْ

في الحياة طويلا. وكنت أحياناً أتذكر الشرطي (أبو الخير) حين كان يقول لي: أمكَ امرأةٌ مناضلة. لقد كبر الرجل. التقيته أكثر من مرّة بالمصادفة في حواري عشوائيتنا التي لم أنقطع عن زيارتها، حتى من قبل موت العم (أبو علاء). والتقيتُه أكثر من مرّة كذلك في عزاء الرجل بطبيعة الحال. كان يعرج من قدمه اليسرى، وقد خرج من الخدمة في سلك الشرطة بعدما صار عاجزاً نسبياً، ففي إحدى مطاردات بعض اللصوص أصيب بطلقٍ ناريٍّ في قصبة ساقه التي صار يعرج منها، فتهشم العظم فيها. يقول بعض الخبثاء في حيّنا: إنَّ الشرطي (أبو الخير) هو مَنْ أصاب نفسه مِن مسدسه بينما كان يطلق النار على اللصوص. في آخر مرةٍ التقيته فيها تلك الفترة كنت أصعد إلى سيّارتي مغادراً المكان إلى بعض أشغالي المستعجلة من بعد أن أوصلت وِدادَ إلى بيت أهلها. إلى أختها شمس. كان الرجل برفقة زوجته. وكانا متجهين إلى موقف الميكرو باص. ناديت عليه، وسألته:

إلى أين أنت ذاهبٌ يا عمي أبو الخير؟

فرح برؤيتي، والتفت إلى زوجته، وقال لها:

هذا هو الأستاذ أمجد الذي يظهر اسمه في التلفزيون.

ثمّ التفت إليّ، وقال:

تصور يا رجل أنها لا تصدق أنك ابن حارتنا. إنني أحلف لها على المصحف وهي لا تصدقني.

ثمَّ التفت إلى المرأة، وقال:

هل تصدقينني الآن؟

وشبهَ رفعتِ المرأة بصرها إليَّ، واختلستْ نصف نظرة، والتقت عيناي بعينيها. امرأةٌ في أواسط العُمْر، ترتدي معطفاً صيفياً طويلا، ومن الطبيعي أنها تغطي رأسها بإيشارب. امرأةٌ قليلة الحظ من الجمال. وبالعموم تراءى لي أنها امرأةٌ مسكينة. وقد خجلتُ من

مواجهتها، فهذه المرأة هي ذاتها المرأة التي رحنا نتفرج على ما بين فخذيها ذاتَ حينٍ بعيدٍ ونحن نمارس العادة السرية في بثٍ حيٍّ مباشر. أيّ أوغادٍ كنّا؟! وكدتُ أن أبصقَ على نفسي بالعلن. قلت للرجل:

إلى أين أنتما ذاهبان يا عمّي؟

إلى المعاشات، ثمّ إلى السوق لنشتري حذاءً لخالتك أم الخير.

قلت:

اصعدا إلى السيّارة. تفضلا.

حاول أن يعتذر. ولكني أصرّيتُ على أن أوصله إلى حيث هما ذاهبان، برغم أنني لم أكن أملك متسعاً من الوقت. لعلني بهذا الإصرار كنت أريد أن أكفّر عن ذنبي القديم. صعدا إلى السيارة. هو بجانبي، وزوجته على المقعد الخلفي. ورغم أنّ الطريق كانت طويلة فإنني لم أجرؤ على أن أرفع بصري إلى المرآة وأختلس نظرة إلى المرأة المسكينة. وَ وجدتني راغباً بشدة في أن أبصق على نفسي.

أجل. أمي امرأةٌ مناضلة. وها هي أخيراً تتقاعد من النضال وقد صار عندها ولدٌ وبنتٌ ومنزلٌ صالحٌ للاستهلاك الآدميّ وسيّارة ونقودٌ تتصدق بها على بعض الفقراء والمساكين من أبناء عشوائيتنا الأليفة. كانت أمّي تحبُّ تلك القطعةَ من العالم، وتحب في التالي أن تتردد عليها، شأنُها شأن وِداد التي بقيت قريبةً من ذلك المكان، من أجل شمسٍ على الأقل. غالباً ما كانت المرأتان تذهبان إلى العشوائية سويّةً، وبخاصةٍ بعد أن حصلت وِداد على رخصة قيادة السيارة. كانت تستقلُّ سيارتي وتأخذ أمي معها، وتذهبان إلى شمس وإلى بعض الجيران. وأحياناً كانت النسوة الثلاث يذهبن في مشوارٍ ما إلى أحد المطاعم للترويح عن أنفسهن. وأنا كنت أسعدُ بهذه الصداقة بين المرأتين: الأم والزوجة، فقد كانت تلك الصداقة تنعكس على شغليَ إيجاباً. وعلى العموم كانت الأيام تمضي بنا

بهناءة، ولم يكن ثمة شيءُ يعكّر صفونا. هذا إذا استثنينا صياح الدّيك طبعاً. الدّيك الذي اختفى من حياتنا فجأة مثل ما ظهر فجأةً فيها. و لكن من السابق للأوان بعدُ الحديثُ عن اختفاء الدّيك وصياحه. فهو لن يختفي إلّا بعد سنتين من الطلاق بيني وبين وِداد. إذن، ما زال أمامنا الوقت الكثير إلى حين الاختفاء. إلى حين المشكلات الزوجية التي لا أعرف حقيقتها إلى اليوم. تلك القطعة من الوجع الذي ترغب وِداد في أن نفتّته معا كما قالت لي في إحدى رسائلها إليّ التي بعثت بها من دبيّ في أواخر سنة 2007 . كان أمامَنا الكثير من الوقت الذي تعلّمتْ فيه وِدادُ الطبخ من أمي. الوقت الذي كنّا نلعب فيه الورق نحن الثلاثة، وأحياناً الأربعة، فقد كانت شمسٌ تزورنا من حينٍ إلى حين. وكانت تنام في غرفة أمي. وقبل النوم كان العشاء طبعاً، واحتساء الشاي، ولعب الورق حين كانت تصرخ بي وِدادُ كالأطفال:

أنت تغشّ في اللعب.

وقد كنت أغشّ فعلاً، و لكن بسذاجةٍ قلّ نظيرُها، فينكشف أمري سريعاً، وأتظاهر بالغضب من هذا الاتهام الظالم، ثمَّ أروح ألخبط الورق ببعضه لكي لا ينكشف الغشّ الذي مارسته، وأنسحب من اللعبة لأنني أريد تدخين سيجارة. وبما أنّ التدخين ممنوعٌ في البيت، فقد كنت أخرج إلى الشرفة من أجل هذا الغرض. ذات ليلةٍ شديدة البرودة لعبنا الورق ومارست الغشّ ولخبطت الورق وأخذت سجائري وولّاعتي وخرجت إلى الشرفة وأشعلت سيجارة وشرعت أدخن. وانفتح فجأةً باب الشرفة، وظهرت فيه وِدادُ. كانت بقميص النوم فقط. قلت لها:

الطقس شديد البرودة. ارجعي إلى الداخل.

وبدا أنها لا تعير تحذيري أدنى اهتمام. خرجتْ إلى الشرفة، وأغلقت الباب خلفها. قلت محتجّاً على سلوكها:

ما هذا العناد؟

قالت:

هذا ليس عناداً. هذا تضامن. أنا أعلن تضامني معك. وما دمتَ تتعرض للبرد، فإنّ الواجب يحتّم عليّ أن يصيبني ما يصيبك.

ومالت برأسها على كتفي. فأطفأتُ السيجارة، وضممتُ إليَّ المرأةَ التي تعلن تضامنها معي في الصقيع. قالت لي فجأةً ورأسها على صدري:

كم أحبُ أن أموت بين ذراعيك!

ما هذا الكلام السخيف!

لا، هذا الكلام ليس سخيفاً، فأنا أحبك حتى الموت.

وهذا أيضاً كلامٌ سخيف. هيّا بنا. الطقس باردٌ جداً. سوف تمرضين.

وبقيت أضمّها إليَّ، ورجعتُ بها إلى الشقة. لن أنسى هذا الموقف ما حييت، رغم أنّ هناك لحظاتٍ كثيرةً مشابهةٌ سواها في مسيرتنا الزوجية التي دامت ثلاثة أعوام ونصف عام تقريباً. ولكنني قادرٌ على عدم تذكرها جميعاً، أو قادرٌ حتى على نسيانها جميعاً، إلّا هذه تظل عصيّة على الإفلات من قبضة الذاكرة. هل تعرفين لماذا الأمر هو كذلك يا عزيزتي سيدرا؟ المسألة في غاية البساطة: لم يكن قد انقضى أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة على الاعتراف بالموت حباً لي عندما خرجت المرأةُ من البيت لست أو سبع دقائق قبل أن تعود إليه مبتهجةً، متوردةً، أو حتى عاشقة لذلك الشاب الجميل في دكان إكسسوارات الشعر والثياب. فعن أيِّ حبٍّ وأيّ موتٍ كانت تتحدث هذه المرأة؟ وهل كان عليَّ أن أصدّقها في الذي تقول؟ ولكنّ المشكلة أنها كانت تقول ذلك صادقة. وبالتالي تكون المشكلة هنا بالذات: تكذب حتى حين تكون صادقة، وتصدق حتى حين تكون كاذبة. فأين مكمنُ الخلل عندها؟ في الوعي أم في اللاوعي؟ في

القلب أم في العقل؟ هل يمكن أن تكون هذه المرأة غير المفهومة هي ذاتها تلك الطفلة ذات السنوات الست التي كان يصيبها الهلع من مواجهة الطريق في يومها المدرسي الأول؟ لا أفهم. إلى اليوم لا أفهم. عندما جاءت إليَّ في غرفة المكتبة وأرختْ رأسها على رأسي بعد تلك المكاشفة الغبيّة، قالت لي:

ألا تُعجَبُ أنتَ أحياناً بجمال امرأةٍ جميلة؟

قلت:

إنني لا أريد كليباً حيّاً، أو حتى ميتاً. إنني لا أريده في أي حال.

ما هذا الكلام غير المفهوم؟ إلى ماذا تلمّح؟

ألمحّ إلى أنني لا أسعى معك إلى إشعال حرب البسوس.

ماذا تعني؟ أرجوك أن توضّح كلامك.

اسمعي يا وِداد، تعالي ننسَ هذا الموضوع. تعالي نعتبره وكأنه لم يكن.

هل هذه رغبتك الحقيقية؟

أجل.

حسناً. وأنا أيضاً سوف أعتبره وكأنه لم يكن.

هذا أفضل لنا نحن الاثنين: ننسى الأمر تماماً.

ولكن هل نسيناه حقاً؟ لم تكن قراءة الكتب من هوايات وِداد في أيّ وقتٍ مضى، رغم أنها تدرس في كليّة الإعلام. ولكنّ يدها صارت تمتدّ إلى المكتبة بين حين وآخر من بعد حادثة الشاب الجميل الذي ربما كان اسمه عماد. أي عماد الحلو. قرأتْ أولاً بعض الشيء في أحد كتب الفلسفة. أتذكر أنه كان (زرادشت) لِـ نيتشه، ولكنها لم تتابع قراءته بعد الصفحة العشرين أو الثلاثين. كانت سريعة الضجر

والملالة. قرأت أيضاً بعض الروايات، ولم تكمل قراءة أغلبيتها. الكتاب الوحيد الذي قرأته من الغلاف إلى الغلاف كان رواية بلزاك الشهيرة: (الزنبقة في الوادي). وكان هذا آخر عهد وِدادَ بالكتب. عندما انتهت من قراءة هذه الرواية أصابها الغمُّ والكمد، بل أصابها الأرق أيضاً لعديد الليالي، حتى إنها صارت كثيرة التشكي من وجعٍ في الرأس، وكثيرة البكاء من الحزن الذي أصابها بسبب موت هنرييت ـ بطلة الرواية التي أحبها ذلك المراهق الذي اسمه فيليكس. وكانت لا تبكي إلّا في غرفة النوم. لا تريد أن ينفضح أمرها أمام حماتها العجوز. كنت أحاول أن أهدئها بشتى الوسائل، ولكنها لم تكن تستجيب لمحاولاتي. كانت تقول لي: «الأمر ليس بيدي. صدقني. إنني حزينة جداً.» هل كانت حزينةً من أجل هنرييت، أم كانت حزينةً من أجل نفسها؟ أظنني كنت أفهمها على نحوٍ لا بأس به: هنرييت هي وِداد، وفيليكس هو ذلك الشاب الجميل الذي يبيع إكسسوارات الشعر والثياب، وأنا هو الطاغية الذي يجرّم الحبَّ، ويعاقب المحبّين. أجل، هذا هو الدافع الحقيقيّ للدموع، فنحن، في الحقيقة، لا نبكي الموتى، ولكننا نبكي فيهم على أنفسنا. نبكي خيباتنا، انكساراتنا، هزائمنا، أرواحنا التي نعتقد بأنه أصابها العطب. الموتى ليسوا إلّا حجّتنا للبكاء. لقد كتبتْ في مفكرتها، ونادراً ما كانت تكتب، رسالةً إلى هنرييت. أعرض عليكِ الرسالة يا سيدرا، من دون أيّ تدخلٍ مني، وبخاصةٍ في لغتها العربية القريبة من لغة الفيس بوك إلى حدٍ ما: (حساسيتي فائرة هذه الأيام. وربما كانت في أوج غليانها. ولا أملك تفسيراً يوضح هذه الحالة، فقد قضيت ثلاثة أيام حزينةً أشدَّ الحزن بعد أن أتممت رواية بلزاك، الزنبقة في الوادي. بكيت موت هنرييت وحياة هنرييت بشدّة وبمنتهى الصدق. أحسست بشاعرية بلزاك في روايته. حزنه وصدقه وشاعريته المرهفة. وروحه الشفيفة. قرأت الدراسة التي تبعت الرواية وما كُتب فيها بأنّ زنبقة بلزاك لم تلقَ الاستحسان المأمول في عصرها. ولكن بعد وفاة شاعرها لاقت الرواج من شعراء عدة،

مع التعقيب بأن الشاعر وحده هو من يستشعر هذه الرواية. ربما أكون أنا شاعرة مترعة بروحها الشفيفة. وهذا ما سبب شدة تأثري بتلك الزنبقة. ما أشد ألم فراقك يا هنرييت. كم كان حزني على موتك شديد الوطئة. آلم قلبي، وقسى على روحي. أتعلمين أنني ما وجدت سبيلا إلى مواساة هذه الروح الموجوعة إلا إقناعها بأن كاتب هنرييت وخالق هنرييت قد مات أيضا، وكأنني بذلك ألجأ إلى مقارنة الفاجعة بفاجعةٍ أكبر سبيلا إلى تلطيفهما معا. أكتب إليك بمشاعري صدقها وعطفها وحنانها وحنينها. وإيماناً مني بأن روحك تسبح هائمة في مكان ما رغم أنك مخلوقة من أفكار وذكريات على ورق البديع العظيم بلزاك. أبدعك قديسة وبذلك رسمك ولونك زنبقةً في واديه الأثير. سألت نفسي: أتكونين قديسة وما تشبهت واحدة منهن بك؟ إنك قديسة فوق القداسة. إنك نسيم من روح الله. عزيزتي هنرييت: أكتب إليك حيث لا مجال للتفوق على هذا الحزن الآثم القابع على روحي إلا بثك أوجاعه. ومن غيرك أبثه هذا الحزن الذي أورثني روحا معلولة. أضحيتُ عارية الروح أمامك يا هنرييت. وأنت القديسة التي وهبت حياتها لأمومتها واكتفت بذلك عن ملذات الحياة ودناستها. هبيني شيئاً من روحك وسموها. لو كان باستطاعتي رأب آلامك ما توانيت يا عزيزتي. حبٌّ ألمّ بي فعجزت روحي عن حملانه. ماذا أفعل يا قديستي؟ روحي شُرختْ يا هنرييت ولا أعرف ترياقاً معالجا. أنت من شرخها. موتك. آلامك. قداستك. مآثرك. روحي عليلة بعد أن عرفتك والله يا هنرييت. هبيني القوة والشجاعة لمواجهة أيامي من بعدك. والله ما أقول هذا مبالغة. هي روحي التي لا تنطق عن الهوى. هذا القلب هو الذي انكسر. وهذي الروح هي التي اعتلّت.) انتهت الرسالة يا عزيزتي سيدرا. هل الأمر يستأهل التوضيح أو الشرح؟ لا أظن بذلك، فكلّ كلمةٍ تكشف عن نفسها بنفسها، برغم ضعف اللغة بالنسبة إلى طالبةٍ في كليّة الإعلام تطمح لأن تكون يوماً إعلاميةً كبيرة، بل حتى نجمة في سماء الإعلام العربي. بالمناسبة: لقد تحسّنتْ لغة وِدادَ كثيراً فيما بعد، ولا أعرف

كيف حدث ذلك، ربما استعانت بمدرّسٍ لمادة اللغة العربية حين صارت في دبيّ.. عندما قرأتُ الرسالةَ (وِداد هي مَن طلب منّي قراءتها) لم أعرف كيف أتعامل مع هذا الموقف الغريب، فتسلحتُ من جديد، ولو بيني وبين نفسي، بفكرتي السابقة: حقٌّ بحق. ما زلتُ لا أريد كليباً حيّاً أو ميتا، فتركت الموضوع كلَّه للأيام تفعل ما تشاء مع احتفاظي باستخدام حق الحق في الوقت المناسب. والغريب في الأمر أنها لم تكن أياماً طويلة. أسبوعٌ واحدٌ لا أكثر (من الحِداد على هنرييت) ورجعتْ بعده وِداد تعلن حبها لي حتى الموت. ومن جديد: كنت أصدقها، وبشدّة. ثم عاد الوئام بيننا مرّةً ثانية وقد نسيتْ وِدادُ ذلك الشاب الجميل بسرعةٍ يمكن اعتبارها قياسية، اختفى من عقلها تماماً، وكأنه لم يدخل إليه قبل شهرٍ واحدٍ فقط، وبالتالي لم يعد لدى المرأة أيٍّ من مثيرات الشجن، كما لم يعد لديها ثمّة وقتٌ للبكاء ووجع الرأس طوالَ ما تبقى من زمنٍ في عمر زواجنا.. تزوجنا في ربيع عام 2003 وافترقنا في خريف سنة 2006 .. أكثر من ثلاثة أعوامٍ قضيناها معاً كنّا خلالها ننتهب الحياة انتهابا. كانت وِداد حينَ تزوجنا في الثانية والعشرين من عمرها. ولم تكن قد تخرجتْ بعدُ من كليّة الإعلام، فقد علِقتْ ببعض المواد المقرّرة، والتي لم تكن تعرف كيف تتعامل معها في الامتحانات. امرأةٌ في الثانية والعشرين. اكتملت أنوثتها، وطغتْ. بلون بشرتها القمحيّ، بسواد شعرها، باستقامة جسدها، بطفولة روحها. كانت جميلةً بين النساء. كانت حسناءَ بل أكثر. نهد صدرها نهوداً فاتناً، وفارَ جسدُها بالرغبة المجنونة. كان اسمٌ واحدٌ يليق بها: الأنثى الجاهلية.

ما رأيكِ بقضاء أسبوعٍ في القاهرة يا عزيزتي؟

لماذا القاهرة بالذات؟

لأنها مدينةٌ جميلة، ولأنّ لي فيها بعض الأصدقاء، وبخاصةٍ منهم امرأةٌ اسمها سيدرا تفيض رقةً وحناناً.

هل ستأخذني إلى القاهرة من أجل أن تعرّفني بإحدى نسائك الغابرات؟

هل تعرفين ماذا يخطر الآن ببالي يا وِداد؟

ماذا؟

أنتِ امرأةٌ بلهاء.

ضحكتْ، وقالت:

لقد أقنعتني بهذا الرد. فأنا بلهاء فعلاً. بلهاء لأنني لم أعاقبك بما يكفي على تلك القبلة الذئبية التي تبعث في النفس على الحزن والندم.

وسافرنا إلى القاهرة، وقضينا هناك عشرة أيام انعقدتْ خلالها أواصر علاقةٍ طيّبةٍ بين وِداد وسيدرا التي كانت تأتينا إلى الفندق كلَّ يوم في المساء، ثمَّ نخرج نحن الثلاثة نتفسح في مناحي القاهرة، وبخاصةٍ منها ضفاف نهر النيل العظيم، أو بحر النيل كما يسمونه أيضاً يا ليفاز.

تلك كانت الأيام يا صديقي.

لم أشتغل في حياتي مثلما اشتغلت في أعوام الزواجِ الثلاثة بِوداد: ثلاثة مسلسلاتٍ تلفزيونية وروايةٌ كبيرة الحجم نسبياً. سدّدتُ جميع أقساط البيت، واشتريت سيّارةً، واحتفظت في أحد فروع المصرف التجاري السوري بمبلغٍ طيبٍ من المال. قلت في نفسي وقتئذٍ: هذا المبلغ أتركه للأيام السوداء. هي عبارةٌ يقولها الجميع. نقولها كلنا. وغالباً لا نكون نقصدها بحرفيتها. وهكذا لم تخطر الحرب يوماً ببالي، ولا خطرت كذلك أيامها التي كانت حالكة السواد حتى في وضح النهارات المشمسة. هل كنت قصير النظر؟ لعلني كنت كذلك فعلاً وأنا أعيش أوقاتي مع وِدادَ بهناءة. كنت أسأل نفسي: ماذا أريد من الحياة أكثر من الذي أنا فيه؟ الأم، الزوجة، البيت، الوئام، وفي النتيجة: الاستقرار. كان كلُّ شيءٍ في حياتي حلواً، وظلّ

كذلك إلى أن تخرجتْ وِدادُ أخيراً من كليّة الإعلام. عندئذٍ بدأتِ المعاناة تطرق بابي، ولكن ببطء. كان ذلك في الدورة التكميلية من شتاء 2006.. المرأة تريد أن تشتغل. هذا حقها طبعاً. تمكنتْ من الحصول على وظيفةٍ في إحدى القنوات التلفزيونية المحليّة. اشتغلتْ هناك قرابة أربعة شهور، ثم انسحبتْ. لم تعجبها الوظيفة، لم تعجبها المحطّة. لم يعجبها شيء في إعلام البلد. وكانت دائمة الشكوى.

كيف أستطيع أن أساعدك يا وِداد؟

لا أعرف كيف، ولكن من المؤكد أنك تستطيع عمل شيءٍ ما مفيد من أجل مستقبلي المهنيّ.

بماذا تفكرين بالضبط؟

أريد العمل في محطةٍ تلفزيونيةٍ كبيرة، حتى لو خارج سوريا.

كيف خارج سوريا؟! فماذا عنّي أنا؟ أمٍ إنّنا سوف نمارس حياتنا الزوجية بالمراسلة؟ ثمَّ ألن ننجب طفلاً في النهاية؟

تسافر أنت معي. وهناك في الغربة ننجب ذلك الطفل.

كيف أسافر معك وأترك وراء ظهري كلَّ ما بنيت؟ وإلى مَنْ أترك أمي هنا، وإلى مَنْ تتركين أختك الوحيدة أيضا؟! الأمور لا تسير هكذا يا عزيزتي.

فكيف تسير الأُمور إذن؟ أم إنه لا يحقُّ لي أنا أيضاً أن أبني شيئاً ما يخصّني في هذه الحياة؟ لماذا درستُ وتخرجت من الجامعة؟ هل من أجل أن أصير ربّة منزل؟ حسناً، إنني سعيدةٌ من أجلك، وفخورةٌ بك و بنجاحك. ولكن ماذا عنّي أنا؟ إنّ في رأسي عديد المشاريع الإعلامية التي يمكن أن أبني عليها نجوميةً واسعة لو استطعت العمل في واحدةٍ من محطّات التلفزة الكبيرة.

وتتخلّين عن أسرتك مقابل النجومية؟

لا أتخلى عن شيء، فأنا أدعوك إلى أن تأتي معي.

لماذا تفتحين أبواب الظلام المغلقة يا وِداد؟

إنني أفتش عن نفسي، فهل هذا حرام؟

طبعاً حرام. كلُّ ما مِن شأنه أن يهدم العامر فهو حرام.

كنّا نتناقش في الموضوع ذاته كلَّ أسبوع تقريباً. وكنّا لا نصل إلى نتيجةٍ واضحة في كلِّ مرّة. وبقينا كذلك حتى صيف 2006 الذي ربما كان الصيف الأسوأ في حياتي قبل هذه الحرب المجنونة التي نحيا اليومَ. ففي منتصف ذلك الصيف الذي صار الآن بعيداً قامت الحرب الجهنمية في جنوب لبنان. وفي منتصفه أيضاً ظهر سامرٌ في دمشق للمرة الأولى قادماً من باريس. ومن الطبيعيّ أن يزور صديقه القديم في بيته، وأن يبارك لي و لِوِداد بالزواج. في اليوم الذي زارنا سامرٌ فيه كانت المعارك في جنوب لبنان مسعورةً تماماً. وكانت بعض محطات التلفزة تعرضها في بثٍ حي ومباشر. قتلٌ بلا حدود، ودمارٌ بلا حدود. كان الرجل يتألم مما يشاهد ويسمع. حتى إنه قال لي: ألا تشعر بالقهر؟ قلت: إنني أشعر بالعجز. وفي ذلك الصيف أيضاً مات العم أبو علاء بعد أسبوعٍ على وفاة ابنه، وارتدت فيه وِدادُ السواد مع شمسٍ التي غدتْ وحيدة. وفي أواخر ذلك الصيف أيضاً وأيضاً طلبتْ وِدادُ الطلاق بشكلٍ مفاجىء. هل كان سامرٌ على علاقةٍ بطلب الطلاق الذي فاجأتني به وِداد؟ بالتأكيد لا. ولكنّ حواراً كان قد دار بين الاثنين بحضوري حول العمل خارج سوريا. سألتْ وِدادُ صديقَ طفولتي خلال وجوده في بيتنا عن محطات التلفزة الناطقة بالعربية في أوروبا، فأعطاها بعض المعلومات، وأكثر من ذلك: عرض عليها المساعدة في هذا الشأن، فإنّ له بعض المعارف العاملين في مجال الإعلام، ولكن ليس في القارة العجوز، بل في بعض دول الخليج. وتبادلا خلال تلك الجلسة أرقام هواتفهما النقّالة، واتفقا على التواصل الذي أجّلته الفجيعة المزدوجة حتى أواخر الصيف أو أوائل الخريف من العام ذاته حين طلبت وِدادُ منّي الطلاق فجأة، بل فجأةً تماماً. كانت قد تواصلت مع بعض الأشخاص

في دبيّ. وكانت قد عرضتْ عليَّ السفر معها أو الطلاق. نعم، لقد فاجأني ذلك العرض العجيب. فاجأني أنني لا أعنيها بأكثر مما تعنيها وظيفةٌ بعيدة قد تساعدها في أن تصيب نجوميّةً عريضة مثلَما كانت تحلم دائماً. وأعتقد أنّها هي أيضاً فوجئت بموافقتي على الطلاق. فوجئتْ بأنني لست متمسكاً بها إلى الحدِّ الذي كانت تتصوره، وبأنني أستطيع أن أعيش من دونها. وقد عشت. ولكن كيف؟ لقد أجرى هجرانُها مدامعي من نار الشوق إليها.

فهل يا سيدرا سمعتِ بماءٍ يجري من النار؟

في ذلك الصيف الأسوأ في حياتي تزوج أيمن قبل الحرب ببضعة أيام. وحين جاء سامرٌ يزورني في منزلي مع وِداد سألني إنْ كنتُ قد باركت لصديقنا القديم بالزواج. وكان جوابي بالنفي. سألني عن سبب هذا التقصير. أكدّت له أنني أجّلت هذا الأمر إلى أن تهدأ الحال في لبنان. لم يرَ سامرٌ رابطاً بين هذا وذاك، واقترح أن نزور أيمن سويةً، أو حتى جميعاً، أي: أنا وأنت وسعيد وخلدون، فأنا مشتاقٌ لهما أيضا. قلت له: تصرف أنت، وأنا جاهزٌ لأي موعد يتم الاتفاق عليه.

تواصل سامرٌ مع صديقيه القديمين الآخرين، واتفق معهما على لقاءٍ يجمعنا نحن الأربعة. وأبلغني بزمان الموعد ومكانه. التقينا في مقهى هافانا في مساء أحد النهارات الصيفية الطويلة. كان يوم الجمعة، وكان اللقاء حميماً. تذكرنا الماضي كالعادة، وتحدثنا في الحاضر بما فيه هذه الحرب المجنونة في جوارنا، ثم استلم سامرٌ المبادرة عند الحديث عن زواج أيمن، وعن الهدية التي من المفترض أن نقدمها له في هذه المناسبة. قال:

من الآخر يا شباب. هو سؤالٌ واحدٌ موجهٌ للجميع. صديقنا أيمن بحاجة إلينا. هل توافقونني الرأي؟

ومن الطبيعي أن جوابنا كان بالإيجاب. قلت:

ما هذا السؤال العبقري يا سامر؟

قال:

ليس هذا هو السؤال.

أين هو السؤال إذن؟

سأل خلدون. ردّ سامر:

لو تبرع كلٌّ منكم بمئة ألف ليرة، فهل هذا المبلغ يكسره؟

نظرنا إلى بعضنا وأجبنا:

بالتأكيد لا.

إذن، نجمع أربعمئة ألف ليرة، ونقدم المبلغ هديةً لصديقنا القديم.

قلت:

إنني لا أمانع، ولكنني أخشى أن يبدو الأمر شكلاً من الصَدَقة، وهذا في الحقيقة يجعلني أشعر بعدم الراحة.

وافقني سعيدٌ الرأيَ. خلدون أيضاً وافقني. لكنه أضاف:

أنا مع فكرة مساعدة صديقنا، ومن دون إبطاء، ولكنني أقترح تعديلاً على شكل المساعدة.

كيف؟

سأل سامر. ردّ خلدون بسؤال:

ماذا يشتغل أيمن؟

قلت:

بائعٌ جوّال.

قال:

إذن، نجعله بائعاً مقيماً، ونخلص من الإحراج.

كيف؟

سأل سامر. أجاب خلدون:

نجمع المبلغ المطلوب، ونشتري به دكاناً، ونقدم لأيمن عقد شراء الدكان هديةً بمناسبة الزواج.

ظهرت لدينا بعض الأسئلة إلى خلدون الذي أجاب عليها بعبارةٍ واحدة:

اتركوا هذه الأمور لي.

في اليوم التالي جمعنا المبلغ المطلوب، وتركنا بقية المسألة لخلدون العبقري في المساومة. وخلال أقل من أسبوعٍ واحد كان الرجل قد اشترى الدكان بأكثر قليلاً من أربعمئة ألف ليِرة، ورفض أن نتقاسم معه هذا القليل.

كانت الدكان التي اشتراها تقع في العشوائية التي خرجنا منها جميعاً باستثناء صديقنا العاثر الحظ، ولا تبعد عن منزل هذا الصديق بأكثر من مئة متر.

ذهبنا نحن الأربعة إلى أيمن لنبارك له بزواجه. ذهبنا بسيارتي هذه المرّة. فرح الرجل برؤيتنا. فرح كثيراً. وحين أعطاه خلدون العقد بكى. بكى كثيراً. عانقنا واحداً واحداً، من دون أن يتوقف عن البكاء. وشكرنا على هذه الهدية التي لا يستطيع إلّا أن يقبلها، ولكن بشرط.

ما هو شرطكَ يا أيمن؟

هذا المبلغ دينٌ لكم في ذمتي. ولن أتراجع عن هذا الشرط.

دخل خلدون في المساومة. قال:

نحن موافقون على شرطك. ولكن لنا شرطنا نحن أيضاً.

ما شرطكم يا خلدون؟

ألّا يبدأ السداد قبل خمس سنوات.

موافق.

قال أيمن، ورجع يبكي من الفرح.

ولكن ما جدوى الفرح، وما جدوى البكاء؟

نار الحرب التهمت الدكان، والمنزل، والعشوائية كلّها.

لقد أثبت خلدون أنه أردأ من يساوِم على وجه الأرض، بعدما أخفق إخفاقاً ذريعاً في التفاوض مع المستقبل. فيا ليتنا قدّمنا ذلك المبلغ نقداً لصديقنا العاثر!

انفضّ شملنا من جديد. رجع سامرٌ إلى فرنساه الحسناء، وسعيدٌ إلى عيادة الأمراض الباطنية، وخلدون إلى صناعة الألبسة النسائية الداخلية، ورجعت أنا إلى تعاستي مع وِدادَ التي انتهت بالطلاق.

البداية كانت سهلةً عليّ، ولكنها لم تكن سهلة على أمي التي جعلت تفتقد شريكتها باقتسام رجلٍ واحد. كانت تبكي أحياناً في الأماسي. وكانت دائماً تقول:

هذا حرام. والله هذا حرام. وِدادُ امرأةٌ لا يمكن تعويضها.

أمّا أنا فقد كنت لا أصدق كلام أمّي التي جعلتْ تذبل شيئاً فشيئاً، وكأنها هي مَنْ فقدَ خليلَ العمر. صرتُ أهرب من حزن هذه المرأة. أخرج من البيت لساعاتٍ طويلةٍ كلَّ يوم أقضيها في أيِّ مكان: صالات السينما، المقاهي، معارض الرسم، الشوارع، وبكلماتٍ ثانية: حيث تأخذني قدماي. وأحياناً كنت أذهب في الأماسي إلى دكان أيمن. لم يكن قد طرأ تغييرٌ جذريّ على حياة الرجل من بعد أن صار له دكانٌ باستطاعته أن يتصرف بها تصرف المالك بملكه. ظلَّ يبيع الألبسة المستعملة التي يسمّونها (البالة). كلُّ الذي تغيّر أنه لم يعد يدفع أمامه عربةً ثقيلة في الحواري طوال اليوم. كما صار باستطاعته أن يتناول مشروبه المفضل: الشاي الأسود الثقيل، ويدخن السجائر الغليظة، ويسمع من المسجلة صوت أم كلثوم، ويقول من بعد كل مقطع تغنيه: الله عليكِ يا ست. ثم يلتفت

إليّ ويقول: هذا هو الطرب الأصلي، وكل ما عداه كلام فارغ. صح يا أمجد؟ وكنت أهز برأسي بالموافقة أحياناً، وأسأله: هل سوف تظل تبيع الملابس المستخدمة، أم أنّ لديك أفكاراً أُخرى بشأن هذه الدّكان؟ وقال لي مرّةً: أظن بأنني سوف أصير في النهاية بائع فلافل (طعمية)، من زمان وأنا أحلم بأن أصير بائع فلافل. كنت أسهر عنده في تلك الفترة مرّةً أو مرتين كل أسبوع، ثم أتركه قبل أن ينتصف الليل مع صوت الست الأشهر عند العرب من أهرامات الجيزة: تبيعيني ليه كان ذنبي إيه؟ وأرجع إلى البيت. إلى أمي التي أهرب من حزنها، والتي بدأتْ أمراضُ الشيخوخة تقتحم حياتها بالجملة، رغم أنّ المرأة لم تكن قد تقدمت في السنّ آمادا. لم تكن قد بلغت الستين وقتئذٍ. كانت الأمراض تقتحم جسدها المنهوك من تلك الحياة المضنية التي عاشتها بسرعةِ السلحفاة. أخذتها إلى سعيدٍ في عيادته. فحصها، وكتب لها وصفةً فيها بعض الأدوية، ونصحني بأن آخذها إلى أحد الأطباء الاختصاصيين بأمراض العيون، وآخر متخصصٍ بأمراض المفاصل. صرت آخذها إلى عيادات الأطبّاء، حتى باتَ هذا الأمر مهنتي الجديدة، ثمّ صرت آتي بالأطباء إلى البيت بعد أن غدت العجوز شبه مقعدة وقد اشتدّت عليها الآلام المختلفة. وشيئاً فشيئاً فقدت المرأة شهيتها للطعام، ثمّ فقدت شهيتها للحركة، ثم فقدت شهيتها للكلام، وأخيراً فقدت شهيتها للحياة، فاستسلمت للموت، وماتت. ماتت في ذكرى طلاقنا الثانية أنا وَ وِداد. في اليوم ذاته بالضبط: هو اليوم الثامن والعشرون من شهر أيلول (سبتمبر).

دفنتُ أمّكَ، وبكيتُها، وصرتُ في البيت وحيداً يا ليفاز. وصار البيت فارغاً. حياتي كلّها بدأت تصير فارغة، فلا شيء ينقذ، حتى الكتابة صارت بلا معنى. الزوجة يمكن تعويضها، ولكن كيف تعويض الأمّ يكون؟ طرحتُ هذا السؤال على سيدرا التي حضرتْ من القاهرة لتقف بجانبي في محنتي. نزلتْ عندي في البيت، وأقامت ثمانية أيام. ردّت على سؤالي تقول:

إنني خائفةٌ عليك يا أمجد. الأمّ لا يمكن تعويضها فعلاً، بخلاف الزوجة. ولكنني أخشى عليك أن تكتشف قريباً بأنّ وِداد لا يمكن تعويضها أيضاً، فهي لم تكن عندك مجرد زوجة. أخشى من أن تكتشف قريباً أنك لم تفقد الزوجة، بل إنك قد فقدتَ الحبيبة. حاوِل أن تتصل بها. حاوِل أن تتفاهم معها. أظنها في وضعٍ يسمح لها بالعودة إليك، فهي، حسب معلوماتي، لا تحرز تقدماً في شغلها بالإعلام في دبيّ، وأكثر من ذلك فإنها تعاني بعض المشكلات هناك.

ألا يكون اتصالي في هذه الحال ابتزازاً لها؟

وماذا في ذلك ما دام الحب دافعك إليها؟

ولكنني لا أحبها إلى الدرجة التي تتصورين.

هل تعرف ما الذي أخاف منه عليك أكثر من سواه يا أمجد؟ أخاف أن تصحو على الحقيقة متأخراً وتصير نهباً للندم.

وهذا ما كان. صحوت على الحقيقة متأخراً، وصرتِ نهباً للندم. فلعلَّ وِدادَ أعطتني الفرصة أكثر من مرّة، ولكنني لم أُحسن استغلالها. لم أُحسن استغلال فرصة رسالتها حين كتبت لي تقول: أفكّر بك. ولم أحسِن استغلال الفرصة يوم اتصلتْ بي من دبيّ تسألني: أين دفنتَ أُمّي الثالثة؟. وبالعموم لم أحسن استغلال أية مناسبةٍ سِواهما، حتى تلك الفرصة النادرة حين كانت وِدادُ في متناولي.

عندما رجعتُ من المطار بعد أن أوصلتُ سيدرا إليه وجدت البيت ميتاً، لا دماءٌ فيه تجري ولا فيه عروقٌ تنبض. في ذلك المساء شعرت بشوقٍ كبيرٍ إلى هنرييت، وإلى عماد الحلو الذي لم أره يوماً. في ذلك المساء اكتشفتُ كم كنت وحيداً وبائسا. في ذلك المساء اكتشفت هشاشتي العاطفية. في ذلك المساء اكتشفت أنني مشتاقٌ إلى وِدادَ أكثر من اشتياقي إلى أمي. في ذلك المساء اكتشفت أنني محتاجٌ إلى وِدادَ التي لا يمكن تعويضها حقاً، كما كانت تقول المرأة

العجوز. في ذلك المساء اكتشفت أنّ وِدادَ هي قصة حياتي كلّها. في ذلك المساء أطفأتُ الأنوار في البيت، وجلست في الصالون، أشعلت سيجارة، وحاولت أن ألهي نفسي بالفرجة على التلفاز، ولكن لا شيءَ كان ينقذ، فقررت الاعتراف بضعفي أمام وِداد. أطفأت التلفزيون. سحقت عقب السيجارة في المنفضة الزجاجية. نهضتُ من قعدتي، وذهبت إلى الحمّام. غسلت وجهي، وجلست بعدها إلى الطاولة، وشرعت أكتب:

وِدادُ الغالية!

إنني أشتاق إليكِ، وأخاف عليك، وأخاف على نفسي أيضاً. فقد أصبحتُ عارياً من بعدك يا وِداد، ثمّ أصبحت عارياً تماماً من بعد أمّي، المرأة التي كانت، رغم أمراضها الكثيرة، قادرةً على أن تهبّ لنجدتي لو أصابني مكروهٌ ما. وأنا الآن في مكروهٍ جلل، ولكن أمي لا تستطيع أن تساعدني في شيءٍ وقد غدتْ تحت التراب. ولكنّكِ أنتِ فوق التراب، فلماذا لا تهبّين لنجدتي إذن؟! فأنا يتيمٌ من بعدك يا أمّي الثالثة. قلبي هو اليتيم يا وِداد، فهذا الحزن الذي يتملكني اليومَ لئيمٌ يا حبيبتي.

ولكنني توقفتُ عن الكتابة، وقد جعل قلبي يغصّ بالزفرات التي كادت تخنقني، فمزّقتُ الرسالة، ونهضت من خلف الطاولة، وذهبت إلى غرفة النوم. أطفأتُ جميع الأنوار في طريقي إلى هناك. ارتميت على السرير بكامل ثيابي، وحاولت أن أستريح. ورنَّ الهاتف الجوال في جيب سترتي. لم يكن بي رغبة في الحديث مع أحد. تركت الجهاز يرنّ حتى تعب من الرنين وصمت، فحاولت أن أستعيد استرخاءتي من جديد. لكنني، وما إنْ شرعت بذلك، حتى عاد الجهاز إلى الرنين. مَنْ هذا الذي يصرّ على أن يحرمني السكينة؟ تناولت الجهاز من جيب السترة، ونظرت إلى الشاشة لأعرف هوية المتصل. رقمٌ سوريّ. رقمٌ غريبٌ غيرُ محفوظٍ عندي باسمِ أحدٍ ما. ولكنه الرقم ذاته الذي اتصل قبل لحظةٍ قصيرة. قلت في نفسي: لعلَّ شخصاً ما

يحتاجني في أمرٍ هام، أو: مَنْ يدري؟ ربما كان أحدٌ ما يحمل لي خبراً سعيداً يخفف عني هذا الشقاء. فتحت الخط أخيراً. جاءني صوتٌ نسائيٌ لم أكن أتوقع سماعه في حالٍ من الأحوال:

أين أنت؟

أنا في دمشق.

أعرف أنك في دمشق. سؤالي: أين أنت الآن؟ أقصد في هذه اللحظة.

إنني في البيت.

إذن، افتح ليَ البابَ من فضلك.

سقط قلبي إلى المعدة وراح يذوب في أحماض عصاراتها، وبقفزةٍ واحدةٍ صرت بباب المنزل من شدّة لهفتي على صاحبة الصوت، حتى إني نسيت أن أشعل أية أضواء في الطريق إليه.

فتحت الباب.

كانت هي.

تقف أمامي وكلُّ ما في وجهها مَحوطٌ بالظلال.

إنها وِداد.

كانت تعلّق على كتفها حقيبةً يدويةً صغيرةً بعض الشيء.

وقفتُ أمامها مثل طفلٍ صغيرٍ أمامَ أمّه يقرُّ بذنوبه جميعاً، حتى تلك التي لم يقترفها. نظرتْ إليّ بعينين ما تزالان صافيتين بعد.

تقدمتُ منها نصف خطوة بكسلِ تصويرٍ سينمائي بطيء. ألقيتُ برأسي على كتفها. احتضنتني كما لم تفعل من قبلُ أبدًا، تماماً مثلما احتضنتني أمي بعد الحمّى التي نزلت بي في ليلة قرص الكبّة المسموم، كما لو أنها كانت تخشى أن تفقدني إلى الأبد. فهل كانت المرأة الصغيرة تخشى أن تفقدني إلى الأبد هي أيضاً؟ همستُ أقول لها:

إنني أموت من دونك يا وِداد.

لفحتْ رقبتي حرارةُ أنفاسها الزكيّة، فانتابني الحنين إلى كلّ ما في هذه المرأة الحبيبة من أشواق. وهنا.. هنا تماماً..

بكيتُ كما يبكي الوليدُ ولم أكنْ جليداً وأبديتُ الذي لم أكن أُبدي

وسمعت قلبها يهمس، من خلال دموعها، كمن يؤنب نفسه، أو يندب حظه العاثر:

ولي على قامتي! ولي على قامتي! ولي على قامتي!

نعم، لقد كانت روحها هي التي تندب، وليس لسانها. ولكنني كنت أسمع بوضوحٍ وجبات قلبها الباكية. ومن جديدٍ تذكرت أمي.. الأفعال ذاتها.. في ليلة الحمّى.. بل حتى الكلمات ذاتها.. كلمات امرأةٍ مكسورةٍ تشكو الضّوى.. تشكو الخوف من الفقدِ الذي لا رجعة منه.. فهل جاءت تودعني إلى الأبد؟ سألت قلبي. أوجعني السؤال، حتى إنني شعرت برأسي تتشقق..

رأسي تؤلمني يا وِداد.

سلامة راسك يا أمجد! راسي أنا ولا راسك. تعال حبيبي تعال.

أخذت بيدي. دخلنا إلى المنزل، من دون أن تتخلى عن معانقتي، ونحن نكاد أن نتلاصق في وحدةٍ واحدة. في جسدٍ واحد. أغلقتِ الباب خلفنا بهدوء. أشعلتِ النور في المكان. إنها ما تزال تتذكر موضع الزر الكهربائيّ حتى في العتمة. أخذتني إلى أحد الديوانين في ركن الصالون. أجلستني هناك، وجلستْ بجواري. وجعلتْ تتأملني، وقد حطّت يدُها عل رأسي تمسّده كمن يبعث فيه الطمأنينة ويشحذ فيه الهمّة على الصبر والسلوى. وهدأتُ قليلاً، فابتسمتْ، وقالت:

هل ما تزال تشكو الأرق؟

نعم.

وهل ما تزال تشرب الكثير من القهوة؟

نعم.

ومَنْ يصنعها لك؟

لا أحد. أصنعها بنفسي. ولكنها، كالعادة، غالباً ما تكون قهوةً رديئة.

حسناً.. سوف أصنع لك هذه الليلةَ قهوةً لذيذة الطعم. ولكنني قبل ذلك أرجو أن تتركني وشأني لخمس دقائق. خمس دقائق فقط أريد أن أكون فيها وحيدة. وحيدةً تماماً. آمل أنك لن تفسد عليّ وحدتي.

ثم نهضتْ، وانصرفتْ عني. ذهبت إلى غرفة شريكتها في اقتسام رجلٍ واحد. شريكتها التي لم يعد لها وجودٌ فوق الأرض. فتحت باب الغرفة. أشعلت النور عن غيب. أغلقت الباب.

وساد الصمت على الخليقة. وسكن كل شيء. حتى أنفاسي شعرتُ بها قد ماتتْ، ثم لم ترجع إلى الحياة إلّا بعد نحوٍ من خمس دقائق عندما انفتح باب غرفة العجوز المتوفاة، وظهرت وِداد. اقتربت مني. كانت عيناها ممرورتين. وقفتْ قبالتي، وجاهدت في أن تبدو طبيعية. رسمت ابتسامةً على وجهها. قالت:

فقدتُ حقيبتي. نسيتها في صندوق سيارة الأجرة. كنت ملهوفةً على الصعود إلى المنزل، فنسيت الحقيبة.

عن أية حقيبة تتحدثين؟

حقيبة السفر. على أية حال، هي حقيبةٌ صغيرةٌ تافهة.

كيف حقيبة السفر؟ فمن أين أنتِ إذن قادمة؟

ما هذا السؤال؟ من دبيّ طبعاً.

أعرف أنك تقيمين في دبي. أقصد من أين أنتِ الآن قادمةٌ؟

من المطار.

كيف من المطار؟ ألم تذهبي إلى المنزل؟

لا. لم أذهب. ولن أذهب.

كيف لن تذهبي؟ ألا تشتاقين إلى شمس؟

بلى، كثيراً. ولكن لا وقتَ عندي من أجل شمس. كلّ ما أملك هو يومان اثنان. أو حتى أقلّ من ذلك. وهذان اليومان لكَ أنت وحدَك. لن أخرج من هنا إلّا إلى المطار.

هل جئتِ تودعينني إلى الأبد؟

لا داعي لمثل هذه الأسئلة. هما يومان اثنان فقط. إذن، تعال نقضيهما في وئام. أرجو أنك سوف تقرأ لي في ديوان جدّك المتنبي البعيد. آمل في أن نستحمّ معاً. ولكن قل لي أولاً: هل ما زال الدّيك يصيح في قلب الليل؟

لماذا تهربين من الجواب عن سؤالي يا وِداد؟

لأنني لا أملك إلّا يومين اثنين. سوف أعود إلى دبيّ عصرَ بعد غدٍ، وآمل أنك ستحملني إلى المطار بسيارتك. أما الآن فأرجوك أن تطفىء الموبايل، وأنا أيضاً سوف أغلق موبايلي، رغم أنني اشتريت الرقم توّاً، اشتريته في المطار، ولا أحدَ في الكون يعرفه. ومع ذلك، يجب ألّا يكون موجوداً في العالم خلال هذين اليومين إلّا أنا وأنت. لكن وقبل أن أنسى، أرجو أن تحمل لاحقاً هذه الأمانةَ إلى صاحبتها.

وفتحتْ حقيبتها اليدوية، وأخرجت منها مغلّفاً صغيراً، ومدّتْ به إليّ. قلت:

ما هذا؟

ألف دولار أمريكي. أعطِها لشمس. قل لها: من صغيرتك وِداد. والآن أخبرني: هل ما زال الديك يصيح في قلب الظلمة؟

لا.

هل ذبحوه؟

لست أدري. مذ ماتت أمكِ الثالثة توقف الدّيك عن الصياح. يبدو أنه كان يحيا من أجل العجوز فقط. من أجل أن يوقظها من النوم عند صلاة الفجر.

إنك تدفعني إلى البكاء من جديد. هل هذا ما تسعى إليه؟

لا. بالتأكيد لا.

إذن، ضمّني إليك. عانقني. إنني بحاجةٍ إلى عناقٍ طويل.

ومالت برأسها على صدري، وعانقتها.

وفجأةً صاح الدّيك في الجوار، فانسحبتْ وِدادُ من حضني بهدوء، ونظرت في عينيّ مباشرةً. كانت بتلك النظرة كمن يقول: لماذا كذبتَ عليّ؟

ردّيتُ على نظرتها بلساني:

لم أكن أكذب عليك يا وِداد. حسناً.. إنني لا أعرف سرَّ هذا الدّيك.

نعم. كلانا لا يعرف السر. لا بأس.. هيّا بنا.

إلى أين؟

إلى الحمّام. لقد اشتقت إلى الوقوف تحت الماء في حمّام منزلي معك.

أليس الأَولى أن نتحدث؟ أظنُّ أنَّ لدينا الكثير من الكلام.

لا. أنا لم أحضر إلى هنا من أجل الكلام. هيا بنا.

ولكنّ هذه رغبتك التي كتبتِ لي عنها في أكثر من رسالة: أنْ نفتت قطعة الوجع معاً.

كانت رغبتي. غير أني الآن لم أعد أرغب بتفتيت أي شيء. هيا بنا، ولا تتكاسل.

لا يا وِداد. الأمور لا تمشي هكذا.

حسناً.. ماذا تريد؟

أريد أن نتكلم. أن نتحدث. أن نتناقش.

ولكنني لا أرغبِ بالكلام.

إذن، اسمعيني على الأقل.

تفضل. إنني أسمعك.

وما إنْ شرعتُ بالكلام حتى وضعتْ كفَّها على فمي، وقالت:

كفى. أرجوك.

ثم نهضت. أخذت بيدي. ولم تُعطني فرصةً للحديث في موضوع عودتها إليّ وعودتي إليها طوالَ يومين عشنا فيهما على المعلّبات والأجبان والألبان قبل أن تسافر المرأة من جديد، وتختفي من جديد. ولكن إلى الأبد هذه المرّة.

كانت الليلة الأولى متعبة لنا نحن الاثنين، تخللها القليل من الجنس، والكثير من الأرق والدموع.

ولكن لماذا تبكين؟

سألتُها. قالت:

لا أعرف.

تركتني عند الفجر تقريباً في غرفة النوم أكابد الأسى، وخرجتْ. ذهبت إلى الصالون. متعبةً كانت، وحيدةً، متهدّلة، بل حتى ذابلة. كانت عقارب ساعة الحائط تشير إلى تمام الرابعة صباحاً. وكان سكونٌ مطبقٌ يعمُّ الكون من حول المرأة الصغيرة المُشتتة، فيزيد من ثقل ما تعاني من وحدةٍ موحِشة، برغم وجودي معها تحت سقفٍ واحدٍ في بيتٍ واحد. أشعلتِ التلفزيون. قلّبت الكثير من

المحطات. مؤكد أنها كانت في ملالة. تركت الصالون بعد لحظةٍ قصيرة والتلفزيون شغّال. يبدو أنه كان فيلماً بالأسود والأبيض: أفلام الزمن الجميل. ذهبتْ إلى المطبخ، وشرعت تصنع القهوة. ثم ذهبت إلى المكتبة، وأشعلت النور في الغرفة. ربما ألقت نظرةً على طاولة الكتابة. عن أيّة ذكرى كانت تبحث؟ ولكنها سرعان ما غادرت المكان، فالقلق الذي يحكمها لا يسمح لها بالتركيز على شيء، أو الاستمتاع بذلك الشيء. لقد نسيت القهوة على النار في زحمة عواطفها المضطربة. ذهبتْ إلى الصالون من جديد، وجلستْ على إحدى الأرائك تتأمل الماضي الذي لن يعود، وتحركت ستارة نافذة الصالون الكبيرة بفعل تسرب نسمةٍ من هواء خريفي بارد. كنّا في أواسط تشرين الأوّل (أكتوبر). نهضت المرأة المتعبة من قعدتها وقد استشعرت بالبرودة تسري في جنبات المكان. أغلقت النافذة، واستدارت منصرفةً عنها. ولكنها توقفت فجأة، ورجعت إلى النافذة ذاتها. إلى الباب الملاصق للنافذة. الباب الذي يفضي إلى إحدى شرفات المنزل الصغيرة المطلّة على المدينة الكبيرة المتلألئة بأضواء المصابيح الكهربائية. خرجت المرأة في البرد إلى الشرفة. وقفت هناك، وألقت على الأضواء الساهرة نظرةً متأملة. وارتجف بدنها من حزنٍ أو من برد. أو من الاثنين معاً. يصعب التخمين بأسباب الرجفة في البدن على نحوٍ دقيق. وماءت قطّةٌ على أحد الأسطح في الجوار. وأمجد في غرفته يتابع حركاتها بسمعه من دون بصره، وقد تصادق مع السهاد وهو يلوك أفكاره المضنية حول الحب والفراق، وقد جفاه النوم تماماً، فقد كان يعيش عذاباً يقطّع روحه البائسة، رغم تشاغله عن ذلك العذاب بالبحث عن البراءة الضائعة مع وِداد التي تذكرت أخيراً القهوة على نار البوتوغاز، فذهبت إلى المطبخ من جديد، واستكملت صنع القهوة، وأطفأت النار. كانت تشعر بشيءٍ من جوع. فتحت البرّاد (الثلّاجة) بيدٍ مترددة. إنها جائعةٌ فعلاً. ولكنّ شهيتها إلى الطعام كانت معدومة. أو من يدري؟

ربما كان في عزوفها عن الطعام نوعٌ من العقاب الذاتيّ على ما تنوي اقترافه من خطأٍ قد يرقى إلى مرتبة الخطيئة. امتدت يدها إلى كيسٍ من الخبز صغير، وصحنٍ من الجبن الأبيض. ومن المؤكد أن تكون قد تراجعت عن هذه الفكرة السخيفة، فأعادت الخبز والجبن إلى مطرحه، وأغلقت البرّاد من دون اكتراث. وجلست على كرسيٍّ قريبٍ في المطبخ حين لم تعد تقوى على مواجهة الخوف الذي سكنها من «احتمالات» خسارة أشيائها التي باتت قيد ضياعٍ وشيك. واجتاحها حبٌ غامرٌ إلى كل تلك الأشياء من حولها، حتى الصحون منها، والملاعق وحنفية المجلى. راحت تتأمل هذه التفاصيل الصغيرة ـ وما أكثرها ـ بحبٍّ من يكتشف وجودها في الحياة لأول مرّة. ولعلَّ دمعاً شفيفاً قد التمع في مآقيها. غير أنها لم تجهش بالبكاء. كفكفتِ البلل في عينيها بظاهر كفها، أو حتى بكمٍّ سترة بيجامتها القطنيّة. إنها البيجامة ذاتها التي ارتدتها بعدَ الحمّام في الفندق عند بداية زواجنا. البداية التي لم تكن بهيجة بسبب آلام المعدة أو آلام القولون التي نزلت بالمرأة تلك الليلة. لقد فوجئت وِداد بأنها لم تكن في أية حاجةٍ للحقيبة التي نسيتها في سيّارة الأجرة بسبب لهفتها على الصعود إلى البيت. لقد فوجئت بأنّ الملابس التي تركتْها في المنزل قبل أن تخرج منه يومَ الطلاق ما زالت معلّقةً في خزانة الثياب، وأنني تركتُها على حالها طوالَ ذلك الوقت. وليس الثياب فقط، بل جميع متعلقات المرأة ما زالت على حالها، وفي مواضعها، حتى أدوات زينتها التي من المؤكد أنها باتت عتيقة، وحتى إكسسوارات الشعر، بما فيها تلك التي اشترتها من دكان الشاب الجميل ذاتَ مساءين باردين. لقد فوجئت بكل هذه الأشياء في انتظارها، أو فوجئتْ بحجم الوفاء الذي كنت أحمله لها. إنه وفاء الذئاب. وربما تذكرت حديثي إليها عن الذئاب في تلك الكفتيريا البعيدة من بعد القبلة العنيفة، يوم كان عبد الحليم حافظ يغنّي: رميت الورد طفيت الشمع يا حبيبي. ترى إلى مَنْ كان الراحل يغنّي في ذلك

المساء الخريفي؟ هل كان يغنّي لنا نحن الاثنين، أم لِـ وِدادَ وحدَها؟ أم تراه كان يغنّي لي أنا من أجل أن أتجرأ وأكسر واحداً من المبادىء التي حكمتْ حياتي، من أجل أن أتجرأ على المبادرة في العلاقة بالجنس اللطيف، وأغتصب شفتيَّ البنت بتلك القبلة الموجِعة، القبلة التي تبعث في النفس على الحزن والندم. لقد فوجئتِ المرأة بأشيائها الحبيبة كما تركتها يوم الرحيل. ولعلّ هذه المفاجأة قد دفعتها إلى ذرف مزيدٍ من الدموع تلك الليلة. ولم تشرب ولو رشفةً واحدةً من قهوتها السخينة، بل تركت المطبخ مدفوعةً برغبةٍ أكيدة بالهروب من المواجهة مع أشيائها الصغيرة الثمينة. ولكنها هربت إلى المكان الخطأ. إلى غرفة العجوز الراحلة عن الدنيا. جميعٍ الأمكنة في هذا المنزل خطأ، فالذكريات الموجِعة حاضرةٌ في كلِّ المطارح. فها هو أمجد يطلُّ عليها في غرفة العجوز. صورةٌ كبيرةٌ تجمعه بها، كانت العجوز قد رفضت إزالتها من على أحد جدران غرفتها. صورةٌ تم التقاطها في حفل زفافهما قبل سنواتٍ عدّة. عجزت المرأة الصغيرة عن مواجهة أمجد في الصورة. كان ينظر في وجهها مباشرةً. وكان في عينيه انكسارٌ فوق طاقة المرأة على الاحتمال. وهنا، هنا فقط، أجهشت المرأة بالبكاء، فهربت من نظرة الرجل اللائمة. ومن جهاز التلفاز في الصالون، جاءها صوت ليلى مراد: يا حبيب الروح فين أيامك؟ إلى أين تهرب بعدُ في هذا المنزل المحاصَر بالذكريات الموجِعة؟ ربما كان المكان الأمثل للجوئها من قسوة الآلام التي تعصف بروحها المبعثرة هو غرفة المكتبة، وديوان المتنبي. رجعت إلى الغرفة. أشعلت النور من جديد. ألقت على الكتب نظرةً غائمةً من أثر الدموع في المقلتين. ثمّ انصرفت إلى طاولة الكتابة، وجلستْ في مكان أمجد. أمسكت بديوان المتنبي، ولكنها لم تجرؤ على أن تفتح الكتاب. وخطر لها فجأةً أن تكتب شيئاً ما. خطر لها أن تكتب رسالةً إلى أمجد. هي على الأرجح رسالة وداعٍ لا رجعة عنه. أمسكت القلم بيدٍ مرتجفة، واستلّت ورقةً بيضاءَ كبيرة من

ماعون الورق، وشرعت من فورها تكتب: حبيبي أمجد.. ولكنها توقفت عن الكتابة وقد ظهر الرجل بباب المكتبة قادماً من غرفة النوم حيث كان يستلقي بجسده على السرير، بينما كان ذهنه منصرفاً بكليّته إلى المرأة في تجوالها الوداعيّ لتفاصيل البيت الأليفة. ألقى على المرأة المحطّمة نظرةً ملتاعة، ثمّ اقترب منها على مهلٍ. وقف مجانباً لها يتأملها. وحانت منه التفاتةٌ إلى الورقة البيضاء الكبيرة، وقرأ تينك الكلمتين اليتيمتين: حبيبي أمجد.. سألها:

مكتبة
t.me/t_pdf

ماذا تفعلين؟

لا شيء.

ردّت بصوتٍ واهنٍ، من دون أن تلتفت إليه.

هل جئتِ تودعينني إلى الأبد؟

لم يلق ردّاً على سؤاله غير الصمت. جثا على ركبتيه بجوارها، وأرخى رأسه على فخذها، وحاول أن يستريح. اضطربت أنفاسها. جاهدت في أن تستريح هي أيضاً. فأرخت رأسها على رأسه. ومن جهاز التلفاز في الصالون كانت ليلى مراد تلحُّ بالسؤال: يا حبيب الروح فين أيامك؟

لم أرجع إلى البيت بعد أن ودّعتُ وِدادَ في المطار. بل ذهبتُ إلى عشوائيتنا الأليفة. إلى شمس. أعطيتها الأمانة التي «جاءتني بها زميلةٌ لِـ وِدادَ في العمل». نظرتْ شمسٌ إليّ كمن لا يصدقني. قلت:

ماذا؟

قالت:

هل ما تزال تثق بي يا أمجد مثلما كنتَ تفعل وأنت طفلٌ بعد؟

بالتأكيد يا شمس. ولكن ما الداعي إلى هذا السؤال؟

لأنني أريد أن أعطيك نصيحةً من ذهب.

تفضلي.

وِداد أختي، أليس كذلك؟

بلى. بالتأكيد. ما هذا السؤال الغريب؟

لا، إنه ليس سؤالاً غريباً. وِدادُ أختي، أختي الوحيدة. وأنا أحبها كثيراً. أحبها أكثر مما أحبُّ نفسي. ومع هذا، أرجوك يا أمجد، أرجوك أن تنساها، فأنا أحبك أنت أيضاً. ولأنني أحبك أتمنى لو تنساها وتلتفت لحياتك، وأن تفكر بامرأةٍ سواها، أن تتزوج، وألّا تبقى وحيداً بعد رحيل خالتي أم أمجد رحمة الله عليها.

قلت:

لا أعدك بأن أنساها يا شمس. لا أعدكِ بأن أنسى وِداد، ولكنني أعدك بأن أحاول ذلك.

قالت:

أيّ مسكينٍ أنت يا أمجد! أيّ مسكينٍ أنت يا صغيري!

لماذا أنا مسكين يا شمس؟

لأنني لا أريد لك أن تعيش على الأوهام.

ولماذا تظنينني أعيش على الأوهام؟

حسناً.. أجدني مضطرةً لأن أصدمك علّك تصحو أخيراً، فهل أنت جاهزٌ للصدمة؟

أظنني جاهزاً. تكلمي.

وِداد يا أمجد.. وِداد سوف تتزوج بعد أسبوعٍ واحدٍ من اليوم. سوف تتزوج إلى رجل أعمالٍ عربي ثريٍّ جداً، وعدها بأن يضمن

لها مكاناً مرموقاً في محطة تلفزيونٍ فضائية.. انسَها يا أمجد. أرجوك أن تنساها.

إذن، لقد جاءت تودعني إلى الأبد.

إذن، لقد صدقتْ ظنوني. خرجتُ من عند شمسٍ بعد المساء بقليل. كان التيّار الكهربائي مقطوعاً. ذهبت إلى أيمن في دكانه. كان منشغلاً مع أحد الزبائن. وقفتُ بباب الدكان أنتظر اللا شيء. رحت أجول ببصري على هذه الحارة التي نسيها الزمن. الزعيق فيها صار أكبر. الأطفال صاروا أكثر. أزيز موتورات الماء يملأ الدنيا من حولي بالضجيج، وكذلك هدير مولّدات الكهرباء. وبدا لي أنّ هذا الكونَ سوف ينفجر بعد قليل، وسوف تنفجر معه الشرايين في رأسي. ومرقتْ أمام المحل في الطريق وسْطَ الفوضى امرأةٌ ثلاثينية متهدّلة القسمات. كانت ترتدي معطفاً طويلاً، وتغطّي رأسها بحجاب. كانت تحمل طفلاً رضيعاً على صدرها، وكانت تتعربش بطرف معطفها بنتٌ في نحو الرابعة من العُمْر، ويتقافز من حولها ولدٌ في السادسة أو نحو ذلك. وخرج أيمن من الدكان بعد أن انصرف الزبون. جاء إليّ، وَ وقف بجواري، وانتبه إلى المرأة التي كنت ألاحقها بنظرتي الطويلة. قال:

هل عرفتها؟

قلت:

هذا الوجه ليس غريباً عني. ولكنني لا أتذكر بالضبط مَنْ تكون هذه المرأة.

قال:

إنها عزّة. عزّة أخت عزيز.

قلت:

بل إنها لعبة الزمن القبيحة.

هل تشرب الشاي؟

نعم، لا بأس بالشاي يا صديقي.

جاءني بكرسيٍّ صغير. جلست، ورحت أصفن بالملكوت. فأين ولّى الصِّبا؟ أين وِدادُ وأيامُها؟ وأين مكاتيب الغرام التي كانت ترميها عزَة لخلدون على رصيف المكتب؟ مكتبنا.

وكانت أم كلثومٍ تغني من مسجلة أيمن في الدكان:

لقيتُ أموراً فيكِ لم ألقَ مثلَها وأعظمُ منها فيكِ ما أتوقعُ

فلا تسأليني في هواكِ زيادةً فأيسرُه يُدمي وأدناهُ يُدمِعُ

15

إلى أين اليوم؟

ما زال وقت رجاءَ بعيداً بعض الشيء.

إذن، إلى ليفاز. إلى تلك الوصلة الصغيرة بين شارعين رئيسين في قلب المدينة: شارع الفردوس و شارع المتنبي. ركنتُ السيارة في مرآب فندق الشام كالعادة، وذهبت إلى شارِع الفردوس من ناحية مدرسة (جودت الهاشمي) التي يعرفها سكّان دمشق باسم (التجهيز). فوجئتُ عند مطلع الشارع تقريباً بزحمة ناس و عساكر وأسلحة ورجال أمن بلباس مدني مسلحين بالبنادق الأتوماتيكية وبقع دماء كبيرة على الرصيف أمام صالة السينما التي تحمل اسم الشارع نفسه (الفردوس). واضح أنه كان هنا ثمّة إطلاق نار قبل قليل، فالدماء على الرصيف ما زالت طازجة. ربما كانت الأسباب جنائية. ربما كانت على علاقة بعملية سطوٍ على أحد محال صرافة العملة الصعبة. أظن الأمر كذلك لأن المحلّ إيّاه كان بؤرة الزحمة الحاصلة. سألت أحد الجنود المنتشرين في المكان: ما الحكاية؟ قال، من دون أن ينظر إليّ: ما في شي. قلت: كيف ما في شي؟ هذا

الدم ماذا يكون؟ التفتْ ناحيتي وقال بصيغة قرارٍ غير قابلٍ للطعن: قلت لك ما في شي إذن ما في شي. أنا فهمت جوابه كالآتي: انقلع من هنا. نفّذت الأمر ومشيت. انقلعت. ولكني بقيت في شارع الفردوس. أريد أن أعرف ماذا جرى. إنه فضول المهنة طبعاً. شيءٌ على علاقةٍ بِ يوميات كاتب في مدينة تحت اللهب. كانت الناس منتشرة على الرصيفين. وقفت عند جماعة منهم أمام باب صالة سينما (دنيا)، وسألت: ماذا في الأمر يا شباب؟ الكل تظاهر بأنه لم يسمع السؤال، حتى إنّ الأغلبية أشاحت النظر عني. شابٌ واحدٌ تجرأ و أجاب عن سؤالي. لكنه أجاب بصوت خفيض أشك في أن يكون هو نفسه قد سمع منه حرفاً واحداً، فكيف أنا إذن؟! لكن من حركة الشفاه فهمت أنه كان يقول لي: ما في شي.

16

سلمى في الصالون، تتمدد على إحدى الأريكتين المتعامدتين في ركن الصالون الأيمن، والنار تتراقص بجوارها في وجاق مدفأة المازوت الكبيرة.. كانت تتفرج على التلفزيون، ولكن بملل. جعلتْ تقلّب المحطات بالريموت كونترول. محطات كثيرة. سياسة، حرب، غناء، رقص، مسلسلات تركية، أفلام هوليوودية. وتظل المرأة تقلّب المحطات بملل. وتأتي أمها من المطبخ.

أم غالب: ماذا قررتِ؟

سلمى: شاكرية.. أمجد يحبها كما تعلمين. ومن زمان لم نتناول هذه الأكلة.

أم غالب:

حاضر، من عيوني.

وتنصرف المرأة إلى المطبخ. وتعود سلمى إلى تقليب المحطات. إنها تقطّع الوقت لا أكثر. يبدو أنها لم تعد تملك في الحياة ما تفعله غير تقطيع الوقت. لقد بات هذا الأمر مهنتها الجديدة. ولكن هاهي تملّ من هذه الوظيفة الوحيدة المتبقية لها في الحياة، فتطفىء الجهاز عن بعد، وتروح تحدّق بالسقف. وجهٌ متعب. عينان مجهدتان. كانت كمن يسأل: أين الصِّبا الغضّ؟ وكانت كمن يجيب: ولّى وانقضى، رغم أن العمر مازال في أوّله.

17

جبل قاسيون راسخٌ في مطرحه. ما مِن قوةٍ على الأرض تستطيع أن تزحزحه من مكانه قيدَ أنملة. حتى القنبلة النووية لا تقدر على هذا الأمر. ورغم ذلك فقد كنتُ أراه يتحرك من مستقّره أمام عينيّ وأنا ثابتٌ في محلّي. المدينة كلُّها كانت تتحرك من حولي، ولكن ببلادةٍ عجيبة: المحافظة، البرلمان، العابد، الصالحية، عرنوس، الجسر الأبيض، العفيف، الروضة، المهاجرين، المالكي، وبقية الأحياء القريبة والبعيدة. أين عشوائيتنا الأليفة؟ ما من مكانٍ يمرق من أمامي إلّا ولي فيه قطعةٌ من الذكريات، بهيجةً كانت تلك القطعة أو حزينة. كنّا نجلس في المطعم الدوّار في أعلى طوابق فندق الشام في قلب دمشق. كنا نجلس إلى طاولةٍ كبيرة، رغم أننا لسنا إلّا شخصين اثنين فقط، فأنا الضيفُ الوحيد في حفلة الذكرى الأربعين على ميلاد رجاء التي كانت تغطّي عينيها بنظّارةٍ شمسيّة. أتذكر جيدا أنّه كان لها عينان جميلتان. عينان خضراوان واسعتان في وجهٍ بلونِ القمح. ربما كانت عيناها أجمل ما في وجهها، أو ربما كانت الشيء الجميل الوحيد فيها. فلماذا نحجب الجميل فينا عن أنظار الآخرين؟ إنني لا أفهم هذه المرأة. لقد رأيت تينك العينين من قبلُ

مرّتين أو ثلاثا. وفي كل مرّة كنت أقول في نفسي: سبحان الله! لقد مرقتْ سنوات عديدة على لقائنا آخر مرّة. ربما كانت سبع سنوات كاملة. أي من عمر هذه الحرب. من عمر هذه الفجوة في روحي. الفجوة التي تأبى الامتلاء. كان ذلك اللقاء في منزلها الباذخ يومَ أن فارقتْ أمُّها الحياة. سألتني وقتئذٍ عن صديقي سامر. بدا السؤال عَرَضيا مثل العادة. كنت أعرف طبعاً أنها تحب سامراً مُذ كنّا بعدُ في طور المراهقة. قلت لها: سامرٌ في باريس، وأموره، على وجه العموم، جيدة. ثم لزمنا الصمت. سبع سنوات انقضت من دون أن أراها أو أسمع صوتها على الموبايل، فلا أمري يعنيها، ولا أمرها يعنيني. سبع سنوات قامت خلالها الحرب، وشارفتْ على الانتهاء. ثم تتصل بيَ البنتُ فجأة وتدعوني إلى حفلةٍ صغيرة بمناسبة عيد ميلادها الأربعين، وترجوني ألا أرفض الدعوة، وتأخذ مني وعداً بأنني سوف ألبّيها. وها هي الآن تجلس قبالتي حزينةً في المطعم وقتَ الغَسَق، وتغطّي عينيها الجميلتين بنظّارة شمسية سوداء. بدت لي حزينةً، ومكسورةً أيضا. ما الذي تحاول أن تخفيه عني بهذه النظّارة؟ أيُّ حزن باذخٍ هذا الذي تحاول أن تحتفظ به سرّاً في روحها بعيداً عن أعين الغرباء؟ لم يكن هناك أيُّ ملمحٍ يشير إلى وجود حفلةٍ من نوعٍ ما. حتى الطعام كان عادياً. ولا يُمكن إحالة ذلك إلى نوعٍ من البُخل لدى البنت التي اشتُهرتْ بالتبذير وسوء التدبير، حتى إنها كادت أن تبدد الثروة التي خلّفها جلال بيك وراءه. ما الحكاية إذن؟ لست أدري بعد. ولكن خُيّل إليّ أن البنت مرتبكة. سألتني عن حال زوجتي. قلت لها:

الأعمار بيد الله.

قالت:

سمعت عنها أنها امرأةٌ لطيفة. أحب أن أتعرف عليها. هل هناك إحراجٌ لو زرتكم في البيت؟

لا، لا يوجد إحراج. أهلاً وسهلاً بك في كلِّ حين.

إذن، سوف أزوركم عمّا قريب.

قلت لها وأنا أحدّق النظر في وجهها:

هل يمكن أن أطلب منك شيئاً؟

تفضل.

النظّارة.

ما بها؟

يقولون: العين مِغرفةُ الكلام.

أومأتْ برأسها أن لا. كانت إيماءةً بسيطة، ولكنها جازمة أكثر من حرف (لم) في اللغة العربية. وكدت أسألها: لماذا أنا هنا؟ ولم أسألِ، ولكنني توقفتُ عن النظر في وجهها وقد ارتفع بيني وبينها حائطٌ من الصمت، فأشحتُ بوجهي عنها، ورحت أتفرج عبر جدار المطعم الزجاجيّ على مناحي المدينة. كنت كمن يحتجّ على رفض البنت لطلبي الذي ظننته بسيطا. وتذكرتُ المرّة الأخيرة التي دخلت فيها هذا المطعم. كانت أواخرَ سنة 2013 وفي مثل هذا التوقيت تقريباً: عند الغسق من يومٍ شتائي بارد. وربّما جلستُ إلى هذه الطاولة بالذات. جئت إلى هنا مع سامر. كنت أشاهد يومئذٍ حرائق الحرب ودخانها بالعين المجردة في عديد أحياء شرق المدينة وغربها وجنوبها. وحدَه الشمال كان هادئاً ومنطفئا. أما الآن فجميع الأحياء هادئة، حتى بدا لي أنّ الحرب السورية قد انتهت، في العاصمة ومحيطها على الأقل. وإنْ كانت الحرب قد انتهت فعلاً، فهنالك إذن مَنْ ربحها وهنالك مَن خسرها، رغم قناعتي بأننا جميعا قد خرجنا من هذه الحرب خاسرين. كلٌّ منّا خسر أحداً ما. كلٌّ منّا خسر شيئاً ما. وأخشى ما أخشاه أن نكون جميعاً قد خسرنا إنسانيتنا. إذن، ليس ثمة رابح في هذه الحرب. ولو كان هناك رابحٌ، فماذا ربح ما دام قد خسر إنسانيته؟

بماذا تفكر؟

جاءني سؤال رجاء، فالتفتُّ إليها، وابتسمتُ بمرارةٍ، وقلت:

إنني أفكر بهذا العمر، بتلك الأيام التي مشيُها كان ركضا. لا أعرف لماذا أشعر بنفسي في هذه اللحظة وكأنني مثلُ مَنْ يجلس على شرفةٍ في بناية عالية وهو يتفرج بشكل حيادي على حياته التي تمرق أمامه في الشارع. تماماً مثل الذي يتفرج على فيلم سينمائي لا يلامسه شخصياً.

معك حق. هذه أنا أمامك. لقد وجدت نفسي فجأة قد صرت بالأربعين.

لست أدري لماذا نحبُ دائماً نحن البشر، وبخاصةٍ النساء منّا، أن نكذب حين يتعلق الأمر بحقيقة أعمارنا. الشباب هو لذّة الحياة. بل إنّ الحياة كلّها ليست إلّا نشوةَ الشباب. هذا صحيح. ولكن هل هو مبررٌ كافٍ للكذب؟ على أية حال، يقولون: المرأة التي تصارحك بحقيقة عمرها تبعث على الخوف. إذن، إنني في مأمنٍ من رجاء، فأنا أعرف أن هذه المرأة التي تقابلني الآن قد تجاوزت الأربعين بثلاث سنوات، فهي من جيلي تقريباً. لا يفصل بيننا في تاريخ الميلاد إلّا بضعة أسابيع فقط. وهي تعرف أنني أعرف حقيقة عمرها، ولكنها، مع ذلك، لا تتوانى عن تزييف الحقيقة أمامي. لا تتوانى عن الكذب. هناك نساءٌ يعلقنَ عند حاجز التاسعة والعشرين من العمر زماناً طويلا. كلمة الثلاثين مخيفة. وهناك نساءٌ يعلقن عند حاجز التاسعة والثلاثين لعشرة أعوام وأكثر. كلمة الأربعين رهيبة. ورجاء تنطق الكلمة من دون رهبة. ولم أفهم في البداية لماذا، فكانت بالنسبة إليّ بطلةً من هذا العصر، برغم السنوات الثلاث المفقودة. قلت:

وهذا الشيء يزعجك طبعاً.

الحقيقة إنه لا يزعجني فقط. ولكنه يؤلمني أيضاً. لكن للأسف هناك أمورٌ ثانية تؤلمني أكثر من حكاية عدّاد الزمن.

سلامتك من الألم يا آنسة رجاء!

الله يسلمك! ماذا تشرب؟

عصير البرتقال.

كيف أطلب لكَ عصيراً في عيد ميلادي؟!

لا أقدر أن أشرب الكحول. السيارة معي. إنها تحت في المرآب.

لا تشغل بالك من هذه الناحية. ألف سيارة في خدمتك. ما رأيك بالنبيذ الفرنسي؟ لا ترفض طلبي. أرجوك.

حاضر يا آنسة رجاء. لن أرفض طلبك. ولكنني لا أريد النبيذ الفرنسي. سوف أتناول كأساً من العرق.

جيد. هكذا أريدك أن تكون معي. مطيع وحبّوب.

هل تسمحين لي بسؤالٍ قد يكون محرجاً قليلا؟

تفضل.

لماذا لا يوجد في الحفلة إلّا أنا وأنتِ فقط؟

هذه ليست حفلة. هذا موعد. بالمناسبة، ما أخبار وِداد؟

ما الذي أتى بسيرة وِدادَ إلى حديثنا؟

المواعيد اللي كانت بينكما.

آ.. على كلٍ وِداد بخير. إنها تعيش في فرنسا.

وِداد في فرنسا؟!

ألا تعرفين ذلك؟

بلى أعرفه. لكن كما لو أنني رأيتها في الطريق قبل يومين.

في الطريق أين؟

هنا في دمشق. نواحي شارع الصالحية.

ربما تهيأ لكِ هذا. وِداد في باريس.

وماذا لو كانت في دمشق؟ ماذا لو اتصلت بك فجأة؟ ماذا سيكون شعورك عندئذٍ؟

لا أعرف. سنرى. على أية حال، إنها ليست في دمشق.

يبدو أنك على حق. واضح أنها ليست في دمشق. يبدو أن الأمر قد تهيأ لي. المهم الآن، دعنا نأكل ونشرب وندردش، وإنْ كنتَ تجيد الغناء يكون هذا أحسن شي يمكن أن نعمله الليلة.

لو شرعتُ بالغناء لهرب جميع الزبائن الحاضرين ولبقينا وحيدين هنا أنا وأنت في هذا المطْعم الكبير. فهل هذا ما تريدينه؟

وشبه ضحكنا، وشبه أكلنا، وشبه شربنا، ولكننا تحدثنا في مواضيع شتّى، ما كان يمكننا أن نتحدث ببعضها، لولا خفّةُ الرأس التي أصابتنا بسبب الكحول، برغم قِلّتها. اعترفتْ لي مثلاً، ولستُ أدري لماذا، بأنها ليست عذراء. ودمعتْ عيناها، وسالت الدموع على الوجنتين من تحت النظارة. وقالت إنها تعيسة، وإنّ الثروة التي تركها لها جلال بيك لم تجعلها سعيدةً في يومٍ من الأيام. وإنها تفكر بالإقامة بقيةَ حياتها في إسبانيا. في الأندلس. وقالت أيضاً:

إنهم يسرقونني.

من هم الذين يسرقونك؟

الجميع يسرقني. حتى مدراء الشركة التي خلّفها لي أبي. ولكنني لا أبالي بهم وبسرقاتهم. يبدو أنّ الحياة لا تسير إلّا على هذا النحو: بعضُنا يسرق بعضَنا. وعلى ذِكر السرقة، هل تصدق أنت تلك الإشاعة حول حقيقة الثروة التي أصابها أبي؟

وتظاهرتُ بالجهل، وسألت:

أية إشاعة؟

الحديث عن شخصٍ سرق من الحكومة ثلاثة ملايين ليرة وخبأها في منزلنا بالعشوائيّة.

ولم أقل لها: من المؤكد أن هذا الكلام ليس مجرد شائعة، ومن المؤكد أنه حقيقة مثل الشمس والقمر، فالسماء لا تمطر على الفقراء ذهباً. ولكنني لم أكن في وارد المناكفة، احتراماً لحزن البنت على الأقل. قلت:

إنها مجرد إشاعة، فلماذا ينبغي عليَّ أن أصدّقها؟

ولكن ماذا لو قلت لك إنني أخاف من كونها ليست مجرد إشاعة؟

تقصدين أنَّ الحادثة حقيقية؟

أخاف من أن تكون كذلك.

ولماذا تكونين خائفة من هذا الأمر؟ فأنت لا تذكرين شيئاً. لقد كنتِ صغيرةً جداً في ذلك الوقت.

صحيح. ولكنَّ أمي لم تكن صغيرة.

ما بها أمك رحمها الله؟

لقد طرحتُ عليها هذا السؤال. كان ذلك قبل موتها بيومين اثنين فقط.

وبماذا ردّتْ عليك؟

قالت لي: اتركينا من هذه السيرة القديمة المهترئة، ولا تعودي إليها بعد الآن مع أيّ شخص. أترى؟ إنها لم تنفِ وقوع الواقعة.

ولكنها لم تؤكد وقوعها أيضاً بهذا الجواب.

نعم، صحيح. غير أنّ عدم النفي أقرب إلى ثبوت الحادثة.

يبقى هذا مجرد تخمين.

وصمتتْ لحظةً قصيرة قبل أن تقول:

هل تعرف؟ صار يخيّل إليّ أننا لسنا إلّا مجموعةً من اللصوص تحت خيمةٍ واحدة. أو حتى مجموعة مهرّجين في سيركٍ مبتذَل. هذه باتت حقيقتنا الأخيرة. النهائية.

لقد كانت البنت تفاجئني بقدرتها على كشف المستور، والبوح بالمحرّمات. قلت:

وهل تؤلمك هذه الحقيقة؟

ليس كثيراً. يبدو لي أنّ حياتنا لا يمكن لها أن تسير إلّا على هذا النحو: بعضُنا يسرق بعضَنا. ولكنَّ المؤسف في الأمر أننا لا نسرق على قدْرِ حاجتنا، بل على قدْر طاقتنا. وهنا يكمن الظلم في المسألة، فلو كنّا نسرق على قدْرِ حاجتنا فقط، لأصبحتِ الحياة ألطفَ على الجميع. أمّا أن نسرق على قدْر طاقتنا، فإنه ليس لطاقة الإنسان على الشر حدود. هذه الحرب مثلاً. ألم تسرق أعمارنا؟ أو حتى وِداد. إنها لم تكتفِ بك أنت وحدَك، بل تمادتْ وأخذت سامراً أيضاً. أرجو ألّا تغضب منّي على هذه الصراحة.

إنني لست غاضباً، ولكنْ كيف يمكن لكِ أن تكوني واثقةً مما تقولين بشأن سامرٍ وَ وِداد؟

كيف كيف؟ ألم تكن تساكنه؟

وصمتتْ لحظة طالت بعضَ الوقت قبل أن تبوح لي بشيءٍ من سرِّ الألم الذي يعتصرها:

عندما كنت مراهقة وقعت في حبِّ سامر. هل تعرف هذا؟

نعم، أعرفه. الشلّة كلُّها كانت تعرف ذلك.

كنتُ أختلق الأعذار اختلاقاً أمام أبي وأمي من أجل أن أذهب إلى العشوائية. من أجل أن أشاهد الفتى الذي أعشق، ولو من بعيد. عندما قرّر السفر إلى فرنسا للدراسة، رحت أرجوه ألّا يترك البلد ويتركني. ولكنه كان يراني طفلةً ساذجة، رغم أني كنت من العمر في

السادسة والعشرين (ما زالت المرأة تخصم ثلاث سنواتٍ من عمرها. ما زلتُ في أمان). عرضتُ عليه الزواج، ولكنّه رفض العرض. لم يكن أمري يهمّه كثيرا. و سافر. ومنذ ذلك الوقت لم يدخل قلبي فتىً سواه، ولم أنظر من بعده إلى رجلٍ آخر، فعشتُ حياتي ناقصةً من الحب، طافحةً بالحزن الذي تفضحني به عيناي. هل عرفتَ الآنَ سرَّ النظّارة التي غالباً ما لا أخلعها عن عينيّ؟ هل تعلم أني سافرت إلى باريس خمس مرّاتٍ من أجله؟ نعم، خمس مرّات. كان هذا قبل الحرب طبعاً. وفي المرّات الخمس كنت أحاول أن أقنعه بالعودة إلى البلد. عرضت عليه أن يكون مديراً لجميع أعمالي وبالراتب الذي يحدده هو. ولكنَّ محاولاتي كلَّها ذهبت مع الريح. الأمر الذي عجزتُ أنا عن إقناعه به استطاعت الحرب أن تفعله بكل بساطة. تقولون أنتم معشر الرجال بعد كلِّ مصيبة: فتّش عن المرأة. وأنا أقول إنّ هذا ليس صحيحاً. يبدو أنّ عشقَ الحرب عند كلٍ منكم أقوى من عشق أي واحدٍ بينكم لجميع نساء الأرض. أنت تعرف طبعاً أنه رجع إلى البلد في عزِّ الحرب التي طحنتنا جميعاً. لقد أخبرني أنه التقاك هنا في دمشق مرّتين. في المرّة الثانية كان لقاؤكما في هذا المطعم الذي تعمدّتُ أن أدعوكَ إليه دون سواه، فمن المؤكد أنه يذكّرك بصديق طفولتك. ربما كنا الآن نجلس إلى الطاولة ذاتها. أنا أيضاً التقيته هنا عديد المرّات. حدثني عنك قليلاً، وحدّثني كذلك عن وِداد. و كنت أرجوه في كلِّ مرّة أن يترك البلد ويعود إلى باريس. أن يعود فوراً، فقد كنت أرى بوضوح ما ينتظره هنا. ولكنه لم يكن ينصت إليّ، فأروح أبكي من تحت النظّارة التي لا أستطيع أن أنزعها عن عينيّ، وبخاصةٍ في مثل هذا اليوم وهذه الساعة التي أجلس فيها معك أشرب النبيذ وأبكي.

ولكنني لا أفهم: لماذا البكاء؟

سوف أقول لك لماذا البكاء. ولكنْ قل لي أنت أولاً: ما هو الموت؟

ما حكايتك اليومَ يا آنسة رجاء؟ هل نحن في حفلة عيد ميلاد أم في جنازة؟

سوف أجيبك عن هذا السؤال أيضاً. ولكن، أنت رجلٌ مثقف، ومن المؤكد أنك قرأت الكثير من الكتب، كما أنك خبرتَ الحياة دون ريب. إذن، قل لي: ما هو الموت؟

ما هو الموت؟ صدقيني لا أعرف. لكنه، من كل بد، شكلٌ من الرحيل. غير أنه رحيلٌ في اتجاهٍ واحد. أي: بلا رجعة. تترك وراءَك كلَّ شيءٍ، ثمّ تختفي، وإلى الأبد. أو، إنه.. ربما كان شكلاً من السرقة، من اللصوصية، الموت لص محترف. إنه يسرق منّا أحداً ما، ثم لا يعيده إلينا في حالٍ من الأحوال. ما من إنسانٍ إلّا وغايتُه الخلود، ولكنّ الحقيقة هي أنّ الموتَ غايةُ الحياة. وهكذا فلا خلودَ إلّا في الموت. في الرحيل، وليس في البقاء. إذن، هل الموت ضرورةٌ للإنسان؟ يبدو لي أنّ الأمر كذلك. صدقيني، لا أعرف ماذا أقول بالضبط. ربما كان الموتَ يا رجاء السَّفَرَ إلى الخلود، ولكنه السفر الذي لا عودةَ منه. أو هو النوم الذي لا استيقاظَ منه. تصبحون على خير! ليلةً سعيدةً أيها الناس! نتوادع، وننصرف. ولكنّ الصباحَ لن يطلع علينا، فنظلّ غارقين في النوم إلى الأبد. هكذا، وبما أنَّ أحداً من الأموات لم يرجع من النوم إلينا ويخبرنا عن الأحلام التي رآها في ذلك الحقل المجهول، فإنَّ أحداً من الأحياء لن يستطيع تعريف هذه الكلمة على نحوٍ صائب. كلُّ ما قد نقوله بهذا الصدد لن يعدو كونَه تخميناتٍ أو ظنونا. والآن أخبريني: ما حكايتكِ اليومَ مع الموت والدموع؟

تريد الحق؟

طبعاً أريد الحق.

أخاف عليك من البكاء أنت أيضا.

لا أفهم. كيف تخافين عليّ من البكاء؟ ولماذا البكاءُ من الأصل؟

لماذا البكاء؟

نعم.

إذن، تعالَ نبكي سويةً يا أمجد، فالمناسبة تستحق البكاء منكَ ومنّي.

عن أية مناسبةٍ تتحدثين؟

أتحدث عن الفقد المشتركٌ الذي بيننا يا صديقي. هذه هي المناسبة الحقيقية التي نجتمع اليومَ أنا وأنت من أجلها.

عن أيّ فقدٍ تتحدثين يا رجاء؟ أرجوكِ أن تتكلمي بوضوح. قلبي بدأ يسقط إلى المعدة، فعن أيّ فقدٍ تتحدثين؟

بالأمس. بالأمس فقط. في مثل هذه الساعة. في المعتقل. فارق سامرٌ الحياة.

أنت تمزحين معي بالطبع. أليس كذلك؟

يا ليتني كنت أمزح! مع أنّ هذا الموضوع لا يحتمل المزاح.

وكيف لكِ أن تكوني واثقةً من صحّة نبأٍ صاعقٍ كهذا النبأ؟

بالمال يا أمجد. بالمال تستطيع أن تكون واثقاً من بعض الأشياء، حتى لو كانت موجِعة. تستطيع بالمال أن تشتري وجعك. هذه الورقة الصغيرة مثلاً، هل تعرف كم ثمنها؟

ومرّرتْ إليَّ على سطح الطاولة ورقة صغيرةً مدعوكة استخرجتْها من حقيبتها اليدوية بيدٍ مرتعشة، وفردتها. كانت صغيرةً جداً، وكانت شبه فارغةٍ إلّا من هذه الكلمات المكتوبة بخطٍ صغيرٍ جداً:

ما أزال بخير. أسناني تؤلمني. الوجع لا يُطاق.

لا تسمحي لهم بابتزازك بعد الآن.

سوف يفرجون عني عاجلاً أو آجلاً، فأنا لم أوقّع إلّا على ثلاث ورقاتٍ بيضاء.

قلتُ ناسياً أو متناسياً حكاية الثمن:

ما عمر هذه الرسالة؟

قالت:

ثلاثة أسابيع تقريباً.

وجع الأسنان فظيعٌ طبعاً، ولكنه لا يقتل.

قالت:

طبعاً لا يقتل.

قلت:

إذن، كيف مات؟ هل مات تحت التعذيب مثلاً؟

أومأت بعينيها أن لا، وتمتمت:

أعدموه شنقاً حتى الموت.

بماذا تهرفين يا رجاء؟

ردّت عليَّ كمن يهذي:

أعدموه شنقاً حتى الموت، أعدموه شنقاً حتى الموت. أعدموه شنقاً حتى الموت.

كيف ذلك؟ أقصد لماذا؟ بأي ذنب؟ بأية تهمة؟

القتل.

القتل؟

نعم، القتل.

لا أصدق هذا الكلام. لا أستطيع أن أصدقه. لا يمكن لسامرٍ أن يكون قاتلاً.

بلى، صدّق. لقد قتل أحد المعتقلين. في السجن. لقد اعترف بذلك.

ولماذا لا يكون الاعتراف مُختلَقاً، أو تحت الضغط، أو حتى تحت التعذيب؟

لا، ليس مختلقاً. للأسف الشديد.

وما أدراكِ؟

إنني أعرف.

وبدت لي واثقةً مما تقول. وران علينا صمتٌ ثقيل.

رجعتُ إلى الورقة الصغيرة بين يديَّ أقرأها علّني أكتشف فيها شيئاً ينقذني من الثقة التي تتحدث بها رجاء، والتي كانت تمزّق عقلي، فأنا لا أستطيع أن أتصور سامراً يقتل نملة. لم أعثر في الورقة الصغيرة على أيّ مخرجٍ للنجاة من البلبلة التي عصفتْ برأسي. قلت:

وماذا عن الجثمان؟

ليس هناك جثمان.

كيف ليس هناك جثمان؟ هل تبخرتِ الجثة؟

ليس هناك جثّةٌ، وهكذا فلن يكون ثمّة قبرٌ فنزوره.

فأين الطب الشرعي؟

لا يوجد شيء.

إذن، مَن الذي أصدر شهادة الوفاة من بعد الإعدام؟

لا يوجد شهادة وفاة.

لا أفهم. كيف لا يوجد شهادة وفاة؟

لا يوجد، لا يوجد، لا يوجد.

كان صوتها يرتجف. قلت وأنا أجاهد في أن أبدو هادئاً، ولو قليلا:

وهل هذه الرسالة كانت كلماته الأخيرة؟

لا. كلماته الأخيرة كانت قبل عشرة أيامٍ تقريباً.

وغصّت المرأة بالدموع من جديدٍ، وتمتمت بصوتٍ ما زال مختنقاً:

ويا ليته لم يقلها!

لماذا؟

لأنها مُفزعة.

كيف مُفزعة؟ إلى أيّ حد؟ وعموماً لماذا هي مفزعة؟

هل تريد أن تعرف ذلك حقّاً؟

ما هذا السؤال الغريب؟

حاضر، حاضر.

قالت بصوتٍ أنهكه القهر والبكاء، وأضافت:

كنت أعرف بأنك سوف ترغب بقراءتها، وقد أحضرتها لك خصيصاً من أجل هذه الحفلة المشؤومة.

وفتحت حقيبتها اليدوية من جديد، وأخرجت هذه المرّة ورقةً أكبر حجماً من سابقتها، رغم أن الخط ظلّ صغيراً. تبادلنا الورقتين. ولهفتُ على قراءة آخر كلمات صديق عمري في حياته التي لم تكن منصفةً له، عند خواتيمها على الأقل:

لا أعرف كم من الوقت مضى على وجودي هنا. زنزانة باردة. إنني جائع. لا أعرف في أيّ يومٍ أنا. هل نحن في النهار، أم إننا في الليل؟ ربما مرقت خمسة أيام لمٍ أذق خلالها ولو كسرة خبز أو قطرة ماء. زنزانة صغيرة مكتظةٌ بالبشر. ببقايا البشر. بحُطام البشر.

بحُطام الكرامة. أظن أن بيننا ثلاث جثث. وكما لو أنني ألمح طفلاً في الزاوية المقابلة. يبدو أنه في العاشرة من عمره. لا أستطيع أن أتبين ملامحه على نحوٍ جيد. إنه يتكوّم في مساحة صغيرةٍ جداً. يتكوّر على نفسه في وضعية الجنين. ربما كان جثةً هو الآخر. بجواري يجلس رجلٌ كبيرٌ في السن. يبدو في الثمانين من عمره. ولكنه، في الحقيقة، ما زال دون الستين. يبدو أنّ إقامته الطويلة هنا جعلته يبدو شيخاً طاعناً. جسمه منتفخ، ولست أدري لماذا. إنه ممتلئٌ بالقروح الصغيرة والكبيرة. جلده ينزّ بالصديد. ربما كان يعاني احتباساً في السوائل. أو ربما كان يعاني من التهاباتٍ حادّةٍ في الجلد أو تحته في الأنسجة الرخوة، التهابات عميقة دون شك. نعرني فجأةً في خاصرتي. لم أعرف ماذا يريد مني. لم أكترث له. عاد ونعرني مرّةً ثانية. قلت له: ماذا تريد؟ ليس لديَّ شيءٌ أعطيكَ إيّاه، فماذا تريد؟ لم يردّ عليّ بلسانه. ولكنه أومأ بعينيه إلى يدي. لم أفهم. أمسك بيدي التي تجاوره. وبوهنٍ شديدٍ رفع كفّي إلى رقبته. رجعتُ أسأله: ماذا تريد؟ لم يردّ عليّ بلسانه هذه المرّة أيضاً. كانت عيناه تستجديانني أن أخلّصه من هذا الجحيم. كان يطلب مني أن أخنقه. ارتعبتُ من الطلب. سحبت يدي الواهية من على رقبته. ورحت أبكي. كلانا راح يبكي. هذا كله كان بالأمس فيما أظن. أو ربما كان في أمس الأول، فقد أضعتُ الإحساس بالزمن. أضعته تماماً يا رجاء. اليومَ رجع المسكين يمسك بكفّي، حتى إنّه قبّل ظاهرها ونصفُ بصره مصوَّبٌ إلى وجهي. رجعت عيناه تستجديانني. رأيتُ ذلك فيهما بوضوح النار في الليل البهيم. اليومَ رجعت أبكي. فقد حققت للشيخ رغبته أخيراً. أخرجتُه من هذا الجحيم إلى نعيم الأبدية. أرحته من هذا العذاب. اليومَ أصبحتُ قاتلاً. ها هي الجثة تنام على حضني من دون أن تثير اهتمام أحد. إنها تنام بعمق. وها أنا ذا أذرف الدموع على الشيخ المسكين وعلى نفسي، بل علينا جميعاً.

لو قُدِّر لي وخرجت سالِماً من هنا فهل تستطيعين العيش مع قاتلٍ يا حبيبتي؟

سامحني يا الله!

انتهت الرسالة.

انتهت آخر كلمات الحياة.

فماذا أقول؟

لم يبقَ إلّا الصمت.

وطال صمتي قليلاً. كنت أفكّر: عن أيّ شيءٍ تطلب السماح من الله يا سامر؟! قلتُ أخيراً وصوتي يخنق حنجرتي أنا الآخر:

لماذا اعتقلوه؟ وماذا كانت تهمته أصلاً؟

لا أعرف. اعتقلوه من مكتب الإغاثة حيث كان يعمل.

هل اعتقلوا أحداً سواه من زملائه؟

لا. هو فقط.

ماذا كانوا يريدون؟

كانوا يريدون كومبيوتره الشخصي المحمول والموبايل. وربما كان معه كاميرا صغيرة أيضاً.

وماذا يوجد في هذه الأجهزة؟

ليس لديّ أدنى فكرة عن محتوياتها. ربما كان الأمر كلُّه مجرد وشايةٍ به من بعض زملائه، أو من أحدهم على الأقل.

كيف وشاية؟

تقرير ما كيديّ، فقد كان لديه بعض المشكلات مع بعض الناس العاملين في الإغاثة.

مشكلات من أيّ نوع؟

لقد حدّثني عن هذا الموضوع بإيجازٍ ذاتَ مرّة. أتذكر أنه قال لي: إنني، للأسف الشديد، أجدني مضطراً للتعامل مع أشخاصٍ

يتكسّبون من هذه المأساة المرعبة التي نزلت على هذا الشعب المسكين.

لم أفهم. تقصدين أنهم يسرقون المساعدات الإنسانية؟

أظن أن هذا ما كان يريد أن يقوله.

وما حكاية الأوراق البيضاء الثلاث التي وقّع عليها؟

أصناف الأوراق عند أجهزة الأمن أربعة: ورقةٌ واحدة، ورقتان، ثلاثٌ، وأربع. الورقة الواحدة تعني أنّ التهمة بسيطة، والورقتان تعني أنّ التهمة متوسطة، الأوراق الثلاث تعني أنّ التهمة كبيرة، ولكن صاحبها ليس محكوماً بالإعدام. المحكومون بالإعدام يوقّعون حتماً على أربع أوراقٍ بيضاء.

بيضاء تماماً؟

أجل. بيضاء تماماً، ورجال الأمن يكتبون فيها لاحقاً اعترافات المتهم بما يتناسب مع المصير الذي سوف تؤول إليه حياته من بعد التحقيق معه، أو حتى من قبل ذلك.

ورجعتِ البنت تشرق بدموعها، وهي شبه تهذي معتذرة: يوم مولدي يكون بعد أربعة شهورٍ تقريباً. لقد كذبت عليك. أرجوك أن تسامحني. لم أعرف كيف أجعلك توافق على الحضور، بينما أنا بأمسّ الحاجة إليك، فماذا أفعل؟ لم يكن أمامي غير هذه الحيلة. أرجوك أن تسامحني.

لا بأس عليك يا رجاء!

قالت وهي تمسح وجنتيها من البلل بمحرمةٍ ورقية ناعمة:

بالمناسبة، أنا لا أعرف لماذا أنت تكرهني. بماذا أسأت إليكَ يوماً؟

ما هذا الكلام السخيف الذي تتفوهين به؟ لماذا أكرهك أصلاً يا رجاء؟ كلُّ ما في الأمر أنَّ طرقنا في الحياة كانت متباعدة.

وهذا ما قاله لي سامرٌ أيضاً. لقد كان يحبك ويثق بك. حتى إنه قال لي أكثر من مرّة: تستطيعين الاعتماد على أمجدَ في الشدائد أكثر من اعتمادك على المال. ولهذا اتصلت بك أنت وحدَك بهذه المناسبة الأليمة، لأنكَ وحدَك القادر على مواساتي.

وسألتُ قلبي:

مَنْ يواسي مَنْ؟

وظلّت البنت تَشْرقُ بدموعها. وكدتُ أن أجاريها في ما تفعل، فظهرتْ على عينيّ غشاوةٌ من دمعٍ شفيف. ولكنني زجرتُها، فتجمّدتْ ساكنةً في مطرحها. ما هذا المساءُ يا ربي؟! ما حفلة الدموع المسمومة هذه؟ إنها مثل بقايا الأطعمة التي كانت تحملها أمي إلى البيت من منزل الست إلهام وجلال بيك، ورجاء بيك أيضا. وشعرت، وأنا أنظر إلى البنت، بسخافة ذلك اللقب الذي أضفته إلى اسمها. وشعرت بسخافتي أنا نفسي. وتذكرت تاتيانا ودورتها الشهرية وتعليقاتي الصبيانية على أوجاعها، والحزن الذي حلّ بي في ذلك المساء البعيد حين رأيتها تتلوى من الألم مثلما تتلوى رجاء الآن وهي تجلس قبالتي، من دون أن أكون قادراً على عمل شيءٍ غير المواساة بكلماتٍ فارغةٍ من المعنى، وغير الإحساس بالحزن على تلك السخرية القديمة التي تظل تعيش معنا إلى حين ساعة الحقيقة، ساعة دفع الثمن. وها أنا ذا أدفع الثمن في هذه اللحظة. أوبّخ نفسي، وأسأل عن ولعنا بسوء الفهم، الذي غالباً ما يكون متعمّداً. فبماذا أساءت إليّ رجاءُ في أي وقت؟ سألت نفسي. لم أعثر على شيء. لم أعثر على أي شيء. إذن، لماذا كانت هذه القسوة مني تجاهها؟ لقد رأيت الجواب ماثلاً أمامي بوضوح: من أجل أن نعرف الندم. ولكن ما حاجتنا إلى الندم أصلاً؟ هل من أجل أن تكون خطايانا مغفورة؟ أظنّ أنّ الأمر كذلك. إذن، لماذا نرتكب الخطايا؟!

يا ربَّ هذه الأرض!

«إنْ كنتَ لا تريد إصلاحَها اجعلها خرابا.

أية حفلةٍ مسمومةٍ هذه؟!

أيُّ حزنٍ آثمٍ هذا الذي يفتك بروح البنت التي ما تزال في الأربعين، رغم السنوات الثلاث الضائعات؟!

ما هو العُمْرُ إذن؟ إنه قطعة الزمن الصغيرة التي يسمّونها الحياة كذلك. ولكنّ الحياة هي العيشةُ طبعاً. فماذا لو أننا لم نكن نعيش حياتنا؟. ما الفرق عندئذٍ بيننا و بين التراب؟! يا ليتني كنت ترابا!

لم أكن قد شربت أكثر من كأسين صغيرين ونصف كأسٍ من العرق، ولكنّ الخفّة التي في الرأس عندي كانت قد انتهت من دون ما بهجة بعد هذه الأخبار الرديّة. لقد أخذتني الكحولُ هذا اليومَ إلى وحدتي بخلاف ما كان مرجوّاً منها. أخذتني إلى الشِعر. إلى جدّي المتنبي البعيد الذي أعشقه:

وإنّ رحيلاً واحداً حالَ بيننا وفي الموتِ من بعدِ الرحيلِ رحيلُ

قاطعتْ رجاءٌ صمتي وَ وحدتي. قالت:

ماذا سنفعل؟

قلت:

سوف نتوقف عن الشرب. ثم سوف آخذك إلى البيت لترتاحي. وغداً ننظر ماذا يمكن أن نفعل، هذا إذا كان ثمّة شيءٌ نفعله أصلاً.

أخشى من أن تكون على حق. يبدو أنّ ساعة الرحيل قد أزِفتْ.

تقصدين إلى إسبانيا؟

نعم، إلى إسبانيا، مع الطفل الذي ما يزال صغيراً جداً.

أي طفل؟

ابن سامر.

كيف ابن سامر؟ لا أفهم. سامر لم ينجب أطفالاً.

بلى، أنجب. إنه ابنيَ الوحيد.

لحظة، لحظة، ما دمتِ أرملة سامر فأنت تملكين الحق بالسؤال عن مصيره لدى الجهات المعنيّة.

أنا لم أقل إنني كنت زوجته.

لا أفهم. هل تقصدين......؟

نعم بالضبط. كما يدور في بالك هذه اللحظة. لقد عشنا سويةً بعض الوقت قبل اعتقاله. كانت للأسف فترةً قصيرة، ولكنها كانت أجمل أيام العُمْر. بل إنها كانت الأيام الجميلة الوحيدة طوالَ حياتي.

وَ رنَّ موبايل أمجد. فتح الخط بلا همّة، جاءه صوتٌ نسائي:

الأستاذ أمجد؟

نعم أنا أمجد.

هل تريد بضاعتك؟

بضاعة؟ بضاعة ماذا؟

الرسائل والصور.

آ.. هذا أنتِ إذن.

لا ليس أنا. إنني مجرد وسيط. هل تريد البضاعة أم لا؟

أريدها. طبعاً أريدها.

ممتاز. فهل أنت جاهزٌ لأن تدفع؟

أدفع ماذا؟

تقصد كم تدفع.

حسناً، كم أدفع؟

بعد قليل يتصل بك شخص ويتفاهم معك على السعر. المهم أنك موافقٌ على الدفع. بالتوفيق!

وأغلقت المرأة الخط، ووجد أمجد نفسه يتمتم:

ما هذه الليلة يا ربي؟!

سألته رجاء:

ماذا في الأمر؟

لا شيءَ مهم. فلنبق في مأساتنا.

هل تحب أن ترى الولد؟

ما هذا السؤال الغريب؟ طبعاً أحب أن أرى الولد.

إذن، سوف أطلب سيارة.

لا داعي لذلك. نذهب بسيارتي. لقد صحوتُ تماماً. الحساب من فضلك أيها النادل.

18

رجع إلى بيته من رحلة الحزن مع رجاء. كان يتملكه إحساس غريب من رؤية الطفل الصغير. قريباً سوف يكون له من العمر سنتان. لم يلمسه. لم يلعب معه، فقد كان الطفل ينام في سريره الصغير مثله تحت إشراف جليسة أطفالٍ شابّة، وكان نومه عميقاً، وكأنّ أباه لم يمت بالأمس فقط. إنه يشبه سامراً مثلَما تشبه قطرةُ الماءِ قطرةَ الماءِ. وقف فوق رأسه يتأمله قرابةَ خمس دقائق بدت له ردحاً من الدهر، فقد كان كمن يقف على رصيف العُمْر حقاً، وقد مرقت أمامه أشرطة ذكرياته مع سامرٍ وسعيدٍ وأيمنَ وخلدون، وأمّه وعلاء والعم أبو علاء وشمس وَ وِداد وعرانيس الذرة وجلال بيك

والست إلهام والشرطي أبو الخير وبائع جِرار الغاز والأغاني الفيروزية من مسجلة سيارته الصغيرة: يَمّا الحلو ناسي الهوى يَمّا.. وليل الحلو طير وعَبَر يمّا.. ومرقت العشوائية بكل ما فيها من تفصيلاتٍ خلال تلك الدقائق الخمس. وهذه هي النتيجة النهائية: طفلٌ عمره سنتان يشبه أباه كما تشبه قطرةُ الماءِ قطرةَ الماءِ. سوف تحمله أمه وتهاجر به إلى إسبانيا. إلى الأندلس حيث سوف ينشأ ويصير له أصدقاء، لن يكون بينهم أحدٌ اسمه أمجد. ربما كان اسم ذلك الأحد بيدرو. وعندما يبلغ الثانية عشرة من عُمْره قد يختلف في طريق العودة من المدرسة مع هذا الصديق على أمر بنت الصف الأول الابتدائي التي تتعثر بنفسها في طريق عودتها إلى البيت بعد انتهاء يومها المدرسيّ الأول، وقد يتشاجر الولدان الصديقان بسبب هذه البنت التي لن يكون اسمها وِداد. ربما كان اسمها ماريا التي سوف تشكل بالنسبة إلى الصديقين جزءاً كبيراً من قصة حياتهما معا. نعم قد يتشاجران ليس من أجل مثل هذه البنت، بل بسببها، ولكن من المؤكد أنهما لن يتشاجرا أو حتى يختلفا على صحة هذا الهدف أو ذاكَ في لعبة كرة القدم. لن يختلفا إن كانت الكرة قد جاءت فوق الحذاء أو بجانبه، من داخل المرمى أو من خارجه، فلن يكون هناك أحذيةٌ في المرميين.. دلف إلى المنزل. أغلق الباب خلفه بهدوءٍ، وقد وجد روحه فريسةً طيّعةً للحزن الذي تملّكه طوالَ وجوده مع رجاء، وبقي يصاحبه إلى هذه اللحظة. كان حزناً ثقيلاً ناءت به نفسه. ما هو الموت؟ سؤالٌ صعبٌ يا رجاء، سؤالٌ صعبٌ يا صديقتي. إذن، قل لي من فضلك: ما هي الحياة؟ ومِنْ أين لي أن أعرف ما هي الحياةُ أيتها المرأةُ المسكينة؟ هذا سؤالٌ تعجيزي. كلُّ الذي أعرفه عنها ما قاله جدّيَ البعيدُ يوماً:

تملّكها الآتي تملُّكَ سالبٍ وفارقها الماضي فِراقَ سليبِ

عبَر الصالون إلى غرفة النوم، ولم يشعل النور فيها. كانت سلمى نائمة، أو هكذا خُيّل إليه. وحمد الله على ذلك، فقد كان راغباً

عن أيّ حديثٍ مع أيّ أحدٍ بأيّ موضوع. كان متخماً بالحزن الثقيل، وكان يجب أن يحتفظ بحزنه لنفسه. لم يكن يريد أن يتقاسم ذلك الحزنِ مع أحد. راح يبدّل ثيابه في العتمة، فجاءه صوت سلمى فجأةً ناعساً:

كم الوقت الآن؟

فوجيء باستيقاظها. فوجيء بالسؤال. فوجيء بإمكانية انفضاح حزنه على رصيف العمر، ما جعله على شيء من توترٍ أو نزق، وهذا ما سوف يظهر في نبرة صوته على الأقل، وفي تلعثمه بالكلام:

آ.. لا أعرف. ربما. صحيانة؟ هل جفاكِ النوم؟

لا يا حبيبي، كنت نائمة، والآن فقط صحوت.

وأشعلتِ النور بجوارها. عقارب المنبه على الكومدينو تشير إلى الواحدة ونصف. قالت معاتبة:

حبيبي، إنها الثانية ونصف صباحاً.

وحتى لو كانت الرابعة صباحاً، ما هذا الأمر العظيم؟!

لماذا هذه العصبية في الكلام؟ أنا لم أقصد شيئاً يزعجك. انشغل بالي عليك. ثمّ إنَّ ماما طبخت شاكرية التي تحبها. انتظرناك أنا وأمي على الغداء، وعلى العشاء انتظرتك وحدي.

شكراً لك يا سيدتي على الانتظار. كنت سهران، وسرقني الوقت.

كنت سهران أين؟

كنت سهران في جهنم. ما زلتِ على نفس الموّال. أين كنت ولماذا تأخرت؟ كفى أسئلة!

قال بنبرة واضحة النزق تدلّ على توتر داخلي، وربما دلّت على عصبية كامنة في مكان ما من شخصيته، وهو مكان مجهول بالنسبة

إلى سلمى، ولهذا سوف تجد المرأة نفسها متفاجأةً من هذه النبرة، ومن لفظة (جهنم) التي استخدمها. فهل بدأ يضيق بها وبأوجاعها؟ سألت المريضة قلبها المريض. تأملتِ الرجل طويلا وهو يبدّل ثيابه دون أن يفارقه ذلك الغضب الذي منشأه ليس إهمال امرأته المريضة هذا اليوم، وليس الأسى على مصير سامرٍ المأساوي، بل الحزن على العُمْر الذي ضاع سُدى. وحين انتهى من ارتداء بيجامته أطفأت سلمى النور بجوارها، ووضعت رأسها على الوسادة مستسلمةً لِـ (المكتوب). وهنا التفت أمجد إليها، وشعر بأنه ربما كان قاسياً معها، فليس هي مَنْ قتل سامراً، وليس هي من نثر عمره هباءً. اقترب منها، وجلس على حرف السرير، ومدّ يده فوق اللحاف إلى كتفها، وراح يتأمل وجهها في العتمة. وأما هي فلم تحرّك ساكنا.

سلمى، أرجوكِ، لا تغضبي مني. أنا اليوم.. أنا اليومَ هكذا.. لا أعرف كيف بالضبط.. أشعر بنفسي على شيءٍ من عصبية.

لا بأس عليكَ يا حبيبي.

جاءه صوتها هادئاً، واثقاً، رغم ما في نبرته من مرارة. وتابعت: فأنا أحياناً أضع نفسي في مطرحك. بعد أسبوع واحد تكون قد انقضت خمسة شهورٍ لي مع المرض. فهل الشهور الخمسة قليلة؟! والله معك حق. ثم صمتت لحظة وقالت: قطعة لحم تحت غطاء. هل تتذكر هذه العبارة؟ في أية رواية كانت؟ الرجل الذي راح يصف زوجته المريضة. رواية إنكليزية هي، أليس كذلك؟ ولكنّ تلك المرأة كانت..

قال أمجد مقاطعا وزاجراً:

ما هذا الكلام الفارغ؟

فارغ؟! كما تحب.

قالت بشيء من يأس، أو حتى لا مبالاة. وهنا أمجد هو من

أشعل النور المجاور، فالتقت العيون ببعضها. ونظرة المرأة إلى الرجل كانت ثابتة، ولكنها تائهة بعض الشيء.

ما بك؟

سألها. قالت:

كأن فيك شيئاً قد تغيّر هذه الليلة.

شيءٌ مثل ماذا؟

لا أعرف. لكنه شيءٌ لا يشبهك. لون عينيك. صوتك. تسريحة شعرك. رائحتك.

رائحتي؟ ربما كنت كذلك لأنني شربت بعض العرق في السهرة.

لا، لا أتحدث عن رائحة الكحول.

وعلى نحو عفوي تماما راح يشم ياقة قميصه وكأنه متهمٌ ليس بإثم الحزن، بل بجريمة الخيانة الزوجية. ابتسم كالأبله. ولم يقل لها: هي رائحة الحزن يا سلمى، فقد خسرتُ اليومَ قطعةً من روحي. لم يكن يريد أن يسبب لها ألماً إضافياً، فكانت النتيجة أن حمل إليها القلق من حيث لا يحتسب.

هذا أنا، على أية حال، سوف أستحمّ بعد قليل.

لا يا حبيبي، من الأفضل أن تستحمّ في الصباح، فالطقس شديد البرودة هذه الليلة. لكن أرجوك ألّا تعصّب عليّ بعد الآن. احتملني بضعةَ أيامٍ أُخَرَ يا حبيبي. أشعر بأنّ النهاية قد أزِفت. بضعة أيامٍ أرحل بعدها أنا، وتذهب أنت خفيفاً إلى حقول الحياة.

وظهرت غلالةٌ من الدمع في مقلتيها. وأحس بالخجل من نفسه، وبالإشفاق على زوجته وهو يحاول أن ينفض عن قلبه حزنه الطاغي، فأخذ براحتيها بين يديه، وراح يلثمهما بهدوء، وهو يتمتم:

حبيبتي أنا آسف. أنا آسفٌ جداً. هل أخذتِ جرعة منتصف الليل من الدواء؟

لم آخذ أيّ شيء. كنت أنتظرك.

لا بأس. لم نتأخر كثيراً عن الموعد.

ثم وضع رأسه على كتفها، فضمّته إليها بحنان وهو يحاول أن يطرد شبح سامرٍ من رأسه. وأصاب بعض الراحة، واستراحت المرأة، ولو قليلاً. ولم تطفيء النور في الغرفة. قال بصوت جاهد في أن يكون طبيعياً:

قريباً سوف يأتينا زوّار.

أهلا وسهلا! من يكون هؤلاءِ الزوّار؟

صديقة قديمة.

امرأة؟

نعم. ولكنها تمر بظرفٍ صعب، فبالأمس مات زوجها.

أرملة أيضاً؟ هل قضيتَ سهرتك مع أرملة؟

لا تتركي الظنون تأخذكِ بعيداً.

على أية حال، أهلاً وسهلاً بها.

وفجأةً رنّ جرس المنزل. نظر الزوجان إلى بعضهما كمن يسأل أحدهما الآخر في غرابة: مَنْ يمكنه أن يطرق بابنا بعد منتصف الليل، بل عند الفجر تقريباً؟! كان في نظرتهما شكوكٌ وريبةٌ، وبعضٌ من الخوف. ولم يخطر ببالي إلّا شيءٌ على علاقة بسامر. هل جاؤوا يقبضون عليّ أنا أيضاً، برغم رماديتي؟ لاحت هذه الفكرة في رأسي بقوة. ما أصعبَ أن تعيش الحياةَ متعايشاً مع الخوف! قالت المرأة لزوجها الذي همّ بالنهوض أخيراً:

لا تفتح الباب قبل أن تعرف هويةَ الطارق.

حاضر.

أجابها، وذهب إلى الباب بخطىٍ مترددة، وسأل من ورائه بصوتٍ خفيض:

من هناك؟

جاءه صوت رجلٍ غريب:

أنا.

من أنت؟ وماذا تريد؟

افتح الباب تعرف ماذا أريد. افتح، لماذا أنت خائف؟

لست خائفاً، ولكن ماذا تريد؟

أريد أن أبيعك شيئاً غالياً عليك.

شيءٌ مثل ماذا؟

إنْ لم تفتح الباب سوف أنصرف وأتركك تتحسر طوال العمر على أنك ضيّعت الفرصة من يدك.

أية فرصة التي سوف أتحسر على ضياعها؟

الصور والرسائل اللي أخذوها من بيتك. ها هي معي. أحضر مئة ألف ليرة وتعال استلمها.

هنا ضحك أمجد وقد زايله الخوف دفعةً واحدة. جاءه صوت الرجل من خلف الباب:

لماذا تضحك؟

تريد أن تبيعني شيئاً من أملاكي؟

والله يا أستاذ هذا هو القانون السائد في البلد هذه الأيام.

قانون التعفيش؟

لهْ يا أستاذ! هاي ما حبيتها منك. هذا ليس اسمه تعفيش. هذا اسمه غنائم حرب.

عن أية غنائم وعن أية حربٍ تتحدث؟ أنا كنت غائباً عن البلد لأسبوعين اثنين فقط، رجعت من غيبتي القصيرة وجدت البيت فارغاً من محتوياته. فعن أية حرب وأية غنائم تتحدث؟ هذه سرقة موصوفة.

هل تصدّقني لو قلت لك إنني متعاطفٌ معك يا أستاذ أمجد؟

و تعرف اسمي أيضاً؟

ولو! أقل منها؟ فأنت كاتبٌ كبير، والجميع يحترمك.

ها ها ها ها ها..

رجعتَ تضحك. ألا تصدقني؟

بلى، إنني أصدقك كثيراً. ولكن قل لي من فضلك: لماذا تعيدون هذه الأشياء إليّ بعد خمس سنينَ تقريباً؟ ألم تجدوا مَنْ يشتري صوراً ورسائل إلى كاتبٍ كبيرٍ تحترمونه كثيراً خلالَ خمسِ سنوات؟!

تبيّن أنه ما مِن أحدٍ مهتمٌ بشرائها، فقلت في نفسي أرجع إليك وأبيعك إيّاها. أكيد سوف تحتاجها في يوم من الأيام. صح؟ فأنت كاتب، والكتّاب يحتاجون إلى الذكريات في شغلهم.

ما هذا العبث الذي انتهينا إليه يا ربي؟!

كانت سلمى المتعبة، مدفوعةً بالخوف، قد ظهرتْ بباب غرفة النوم وقد وقفت مستندةً إلى إطاره. شعر أمجد بوجودها، فاختطف إليها نظرة، وقرّر الانتحار. فتح باب المنزل عن رجلٍ طويل القامة عريض المنكبين يرتدي سترةً جلدية يلوح من تحتها مسدسٌ معلقٌ في جرابه على الكتف، ويحمل بيده كيساً من الخيش متوسط الحجم. لم يكن متجهماً، بل على العكس من ذلك، فقد ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ عريضة.

مساء الخير أستاذ أمجد!. لماذا لا ترد التحية؟ على كل حال، أنا هنا ليس من أجل أن أزعجك بعد منتصف الليل. لكن هذا ظرفي،

لم يكن باستطاعتي المجيء قبل هذه الساعة، فلا تؤاخذني بحق الله. ها هي بضاعتك في الكيس. جميع بضاعتك. ليست ناقصةً قطعةً واحدة. أحضر لي من فضلك مئة ألف ليرة والكيس يصير ملكاً لك. امسك.

وقدّم ليَ الكيس الخيش، وأردف مبتسماً:

لا تخف. لن أدخل المنزل. أغلقْ الباب وراءك إلى أن تعود.

وأمسك الرجل الغريب بقبضة الباب وأغلقه بنفسه. ولم يطل غياب أمجد أكثر من نصف دقيقة، رجع بعدها يحمل المبلغ المطلوب في رزمةٍ واحدة. قدّمها للرجل بيدٍ ثابتة. شكره الرجل على نبالته، وهمّ بالانصراف، لكنه توقف فجأة، واستدار إلى أمجد، وقال:

بالمناسبة، مسلسلك الأخير كان جميلاً، برغم أن فكرته ليست جميلة.

لا أفهم. كيف إنّ فكرته ليست جميلة؟

إنك لا تنحاز للوطن، وفهمك كفاية يا أستاذ. تصبح على خير!

وانصرف. لم يستخدم المصعد، بل راح يهبط الدرج بخطىً ثابتة. ألقى أمجد إثرَه نظرةً إلى أن غاب في عطفة الدرج، ثم أغلق الباب، وقفله من الداخل بطقّتيْ مفتاح، ولم يجهد نفسه بالتفكير في ما قاله الرجل عن عدم انحيازه للوطن، بل انصرف إلى زوجته التي كانت ما تزال بباب غرفة النوم واقفةً متوجسة. سألته:

ما القصة؟

إنها حكايةٌ قديمةٌ مملّة. أقصّها عليك فيما بعد. المهم الآن أن ترتاحي.

أخذ بيدها، وساعدها في العودة إلى الفراش. أعطاها جرعة الدواء الناقصة. قبّلها في جبينها. غطّاها جيداً باللحاف. تمنّى لها نوماً هانئاً. أطفأ النور في المكان، وخرج إلى الصالون. إلى

الكيس. حمله إلى غرفة العمل. فتحه. كان يسعى جاهداً للهروب من شبح سامرٍ المشنوق وجثة الشيخ الهامدة على حضنه في الزنزانة الباردة. ألقى بمحتويات الكيس على الأرض: بيدرٌ من الذكريات. جلس متربعاً أمام البيدر، وراح يغوص فيه مستعجلاً. كان كمن ينشد الخلاص من الألم. صورٌ كثيرةٌ. كلّها يخصّه. بلادٌ كثيرةٌ جداً: سوريا طبعاً، موسكو، الهند، الصين، القاهرة، دبيّ، قناة السويس، المغرب، إسبانيا، لندن، باريس، روما، برلين، وأماكن أخرى كثيرة حول العالم. لو وضع هذه الصور في سياقها الزمني من حيث تاريخ التقاطها لحصل على قصّة حياته. استوقفته صورة أمّه ففصّ حلقه. كان يشرب معها الشاي في صالون هذا المنزل. من المؤكد أنّ وِداد هي مَن التقط هذه الصورة. كان ذلك في بدايات الزواج تقريباً. كان الثلاثة يقيمون في هذا المنزل ذاته حيث يقيم الآن مع سلمى. تغييراتٌ بسيطةٌ وقعتْ في المشهد: العجوز ماتت. والمرأة الصغيرة حلّت محلّها امرأةٌ صغيرةٌ سواها. وهذا كلُّ شيء، باستثناء أنَّ الرجلَ أغلق غرفة أمّه إلى الأبد عشية زواجه بسلمى وقد وضع فيها جميع متعلّقات وِداد، بما فيها الصور الكبيرة والصغيرة التي كانت معلّقةً على جدران الصالون وغرفة النوم، أو تلك التي كانت تقف في إطارات معدنيّةٍ ناعمة على هذه الكومدينو أو تلك. جميع هذه الصور كانت من المسروقات ما عدا تلك الكبيرة المعلّقة على الجدار فوق سرير المرأة العجوز، الصورة التي تجمع العروسين (وِداد وأمجد) في حفل زفافهما. لماذا احترم اللصوص هذه الصورة واستثنوها من السرقة؟ طالما طرح أمجد هذا السؤال على نفسه، وطالما عجز عن الإجابة عنه!. استوقفتْه صورةٌ كبيرةٌ لِـ وِداد. كان مطرحها في ما مضى على الجدار الذي يقابل باب الشقّة حين ينفتح. كانت الشابّة تبتسم وكأنّها ترحّب بالزائرين، أقرباءَ كانوا أو غرباء. وهذه حلّت محلّها لاحقاً صورةٌ لسلمى، بنفس الحجم، وفي نفس المطرح، وبنفس الابتسامة تقريباً.. استوقفتْه صورةٌ للشلّة في أيام المراهقة، فضحك: أيمن، خلدون، سعيد، سامر، وأمجد طبعاً. كان هذا عشية

سفره إلى روسيا. حفلة وداعٍ صغيرة أقامتها له الشلّة انتهت بصورةٍ تذكارية. كانوا يقفون عند جسر فيكتوريا في قلب دمشق، وفي فم كلٍ منهم سيجارة غير مشتعلة. راح يتناوب بين الحزن والفرح وهو يقلّب الصور التي، من كثرتها، يصعب تقليبها في جلسةٍ أو جلستين. وكان يقول في نفسه: كان يجب أن أعطي الرجل مئتي ألف ليرة بدلاً من مئة ألفٍ واحدة. فهل قصة حياتي لا تساوي إلّا مئة ألف ليرةٍ فقط؟! استوقفه السؤال. تفكّر بالجواب. ابتسم بمرارة، وقال في نفسه: مَنْ يدري؟ ربما كانت حياتك كلُّها لا تساوي ليرةً واحدة. هذه صورتي مع روبرتو، أو: صورتي و أنا جاسوس. لا تضحكي يا سيدرا، فقد طالتني هذه التهمة أنا أيضاً في يومٍ من الأيام. كانت سنتي الأولى في موسكو. أي كنت قد دخلت التاسعةَ عشرةَ من العمر. كنت طالباً في جامعة موسكو التي من المؤكد أنها واحدةٌ من أكبر جامعات العالم. كان يوجد في هذه الجامعة كليّةٌ من أجل الطلّاب الأجانب فقط. وظيفة هذه الكليّة: تعليم الطلّاب الأجانب اللغة الروسية خلال عامٍ دراسيٍّ واحد قبل أن يتم توزيعهم على المعاهد المختلفة. كان يوجد في هذه الكليّة طلّابٌ وطالباتٌ من مختلف أنحاء الدّنيا تقريباً. اسمها: الكليّة التحضيرية. بكلماتٍ ثانية: روضة أطفال. كان معنا طالبٌ برازيلي اسمه روبرتو جاء يدرس الطِّب. ولدٌ لطيف، ولكنه لم يكن يحرز تقدماً لافتاً في تعلم اللغة الروسية. أنا كنت أفضل منه حالاً إلى حدٍ لا بأس به. ولهذا غالباً ما كان يلجأ إلي بسؤالٍ هنا وسؤالٍ هناك. وغالباً ما كنت أساعده على قدْر استطاعتي. طقس موسكو غنيٌّ عن التعريف. قبل نهاية شهر نيسان (أبريل) يستحيل القيام بنشاطٍ رياضي في الهواء الطلق. أستثني طبعاً رياضات الشتاء كالتزلج على الجليد مثلاً. مرقت الأيام. صرنا في شهر أيّار (مايو) . أقامت إدارة الكليّة أخيراً نشاطاً رياضياً في الهواء الطلق: كأس الكليّة بكرة القدم. وزعوا الطلاب إلى كتل: الكتلة العربية.. الكتلة الآسيوية.. الكتلة الأمريكية الجنوبية، الخ... ربما كان المجموع ثماني كتل. وبسبب ضيق الوقت عملوا نظام البطولة

على طريقة: خروج المغلوب من مباراةٍ واحدة. وأُجريت القرعة. وكان نصيب الكتلة العربية أن تقع في مجموعة واحدة مع كتلة أمريكا الجنوبية الذين كانت أغلبيتهم من برازيل وتشيلي. بينما أغلبيتنا نحن العرب من سوريا ومصر. انطلقت المباراة في موعدها، واستمرت تسعين دقيقة. نحن العرب سجلنا صفراً من الأهداف. بصراحة، كنا مسخرة. انتهت المباراة بسبعة أهداف مقابل لا شيء. روبرتو وحدَه سجّل في مرمانا ثلاثة أهداف. والطريف في هذا الولد أنه لم يكن يحتفل بأهدافه مع زملائه البرازيليين والتشيليين. كان بعد كل هدفٍ يسجله يركض إليّ أنا لكي أشاركه الفرحة بخيبة العرب. وفي كلِّ مرّة كان يبرطم بلغةٍ روسية معوّجة: (ما رأيك بهذا الهدف يا صديقي؟ معجزة. صح؟ هل رأيت في حياتك هدفاً بهذا الجمال؟) وأنا كنت أتعمد أن أنزع عليه فرحته، فأروح أصحح له الأخطاء اللغوية. وكان لاعبو المنتخب العربي الموقّرون قد حمّلوني أنا مسؤولية الخسارة الثقيلة التي نزلت بنا لأنني كنت أفشي أسرار خطتنا في اللعب إلى روبرتو، واعتبروني بالتالي جاسوساً للبرازيل. ها ها ها.. فعلاً إننا مسخرة.. ترى ما أخبارك يا روبرتو؟ إنني أشتاق إليكَ يا أيها الولدُ البرازيلي اللطيف. حاول أن يبتسم لروبرتو فأطلَّ سامرٌ عليه من عامود المشنقة. هربتُ من الصور. من جميع الصور. والتفتُّ إلى الرسائل. ما أطيبَ رائحتَها! وشعر بالغبطة لأنه يمتلك هذه الكمية الهائلة من الحبر المُسال على الورق، ولأنه ينتمي شخصياً إلى جيل ما قبل الفيس بوك والمشاعر الافتراضية، فهذه المشاعر سريعةُ العَطَب. أما مشاعر القلم وهو يصرّ على الورق فأمرها مختلف كاختلاف حنان الخشب في البناء عن الألمنيوم الذي لا رِقّةَ فيه ولا حنان. وبالمناسبة يا سيدرا، كانت إحدى رسائلك هي أولُ ما وقعت عليه يداي. وبالمصادفة، كانت رسالتك الأولى إليّ، فتاريخها يرجع إلى أواخر صيف 2000 إثرَ عودتي من القاهرة بعد مهرجان التلفزيون. سوف أرسل لكِ صورةً عنها بالموبايل. قرأتها قبل قليلٍ مرّتين. هل تعرفين ما الذي أعجبني فيها؟ الذي أعجبني

في الرسالة هو ذلك الكلام الذي ليس موجوداً في السطور أو ما بينها أو حتى خلفها. وهو الكلام الذي لم يقله أحدنا للآخر في يوم من الأيام. إنه تماماً ذلك الشيء الذي لم يسعَ أحدنا إليه في وقتٍ منَ الأوقات في علاقته بصاحبه. ذلك الشيء الذي لا يصدّقه الآخرون من معارفنا في علاقتي بكِ وعلاقتكِ بي: الجنس. وأنا لا ألومهم، فكيف لِمَنْ كان يحمل جوعه بين فخذيه (كما كان يقول سامر) أنّ يصدّق بوجود جوعٍ بين رجلٍ وامرأةٍ لا يشبه جوعَه؟ إنني لا ألومهم حقاً، فهم لا يعلمون بوجود عطشٍ إلى الصداقة بين رجلٍ وامرأةٍ، من دون أن يكون الشيطانُ ثالثَهم. وما دمتُ أتحدث عنكِ الآن وعنّي، فإنني أشعر بالفرح يغمرني بسبب الذي كتبتِهِ لي مؤخراً عن تجاوز محنتك السابقة، وعن تفاؤلك بالنجاح في عملك الجديد، وتفاؤلكِ عموماً بِمُقبلِ الأيام، ففرحُكِ هو فرحي يا سيدرا، مثلما ألمكِ هو ألمي.. الرسالة الثانية التي وقعتْ عليها يدايٍ كانت من وِداد. بعثتها إليّ بعد وصولها إلى دبيّ بأسبوعين تقريباً. إنها تلك الرسالةُ المختصرةً جداً:

أفكّر بك..

أما رسالة وِداد التالية التي وقعتْ بين يديّ فلم تكن مختصرة، وجاءت في أواخر سنة 2007، أي بعد أكثر من سنةٍ على الانفصال:

أمجد الغالي!

ترددتُ طويلاً قبل أن أكتب إليك هذه المرّة، فأنا لا أعرف ضرورة الكتابة ما دمتَ لا تردُّ على رسائلي.

أقولها لكَ والألم يدفع قلبي إلى البكاء: إنني عاتبةٌ عليكَ كثيراً يا صديقي. عاتبة إلى درجة الحزن. إلى درجة الخوف عليكَ. بالأمس علمتُ أنك كنت في دبيّ قبل شهرٍ من الآن تقريباً، وأنك مكثتَ هنا أربعة أيامٍ ضيفاً على مركز دبيّ للإعلام. فلماذا لم تتصل بي يا أمجد؟ أم تراكَ صرت تكرهني؟ لا تتحجج بسامر. أرجوك ألّا تفعل. سامرٌ في نهاية المطاف ليس إلّا تفصيلاً في قصتنا الكبيرة أنا

وأنت. لا أرغب بمناقشة هذا التفصيل بالمراسلة. لن أناقش هذا الأمر معك إلّا والعينُ بالعينِ. ولكن بالمراسلة أؤكد لكَ أنّ هذا الصديق المشترك مجرد تفصيلٍ في قصتنا المليئة بآلاف التفصيلات. قصتنا التي يبدو أنّ خاتمتها كانت لك موجِعة، فقد علمتُ بوجودك هنا من بعض الأشخاص الذين يرون أنّي أنا السبب المباشر في وجعك، والذي ربما كنتَ لا تعلم أنه وجعي أنا أيضاً، أو حتى وجعي أنا أوّلاً. فلماذا لم تتصل بي وأنا لا أبعد عنك إلّا رميةَ حجر؟ لماذا لم تسأل عني؟ ماذا كان يضيرك لو اتصلتَ والتقينا؟ كان لقاؤنا، لو تمّ، سوف يصبح فرصةً رائعةً لنا نحن الاثنين من أجل التقاط تلك القطعة الغابرة من حياتنا، وتفتيت هذا الحزن معاً، والذي أجزم لك بأنه حزني مثلما هو حزنك، أو حتى قبل أن يكون حزنك.

لم أعهدك بهذه القسوة يا أمجد.

صمتك عذّبني أكثر مما تتصور.

هل تعرف ما الذي بتُّ أخشاه الآن؟

أخشى أنني صرت أخاف منك.

هل هذا ما تسعى إليه؟

أن أخاف منك؟

أن أكرهك؟

إنْ كان الجواب بالنفي فأرجو أن ترد على رسالتي هذه، من أجل أن أمتلك الشجاعة الكافية للكتابة إليكَ مرّةً ثانية.

رسالة وِدادَ التالية.. كانت هذه الرسالة في ربيع 2008 :

وأخيراً كتبت..

شكراً لك..

أخيراً وصلتني أخبارك «منك» وليس من شخصٍ غريب. وقد آلمني أن تكون بهذا القدْرِ من المرارة.

تمنيت ألّا أجد في رسالتك (الأولى!!!!!) تلك الأسئلة التي لا أعرف الإجابة عنها. ولكنني سأحاول. حسناً.. إنّ إصراري على أن تكتب إليّ يكمن في رغبتي القوية بمعرفة أحوالك. أنا يا أمجد لم أرغب يوماً في قطع علاقتي بك. قد لا تصدقني. لن ألومك إنْ فعلت. ولكن كان من الأفضل أن نعرّي هذا الأمرَ معاً. غير أنّ رسالتك التي بين يديّ الآن قد أقنعتني بضرورة أن أرمي الموضوع كلّه في الهواء. لك عندي سؤالٌ واحد: هل سبق أن التقيتَ شخصاً غالياً عليك لم تره من مدةٍ طويلة؟ وماذا كان شعورك لحظتئذٍ؟. أرجو ألّا تبخل عليّ بالجواب، فأنا أحاول أن أتصور ما يمكن أن يصيبني لو رأيتكَ ذاتَ حينٍ، ولو بالمصادفة.

رسالة وِداد التالية (آخر رسائلها الورقية إليّ. جاءتني في الخريف الأخير قبل الحرب. كان قد مرَّ أكثر من سنتين على ذينك اليومين الناقصين من الأبد. ثلاث سنوات لم أسمع فيهما ولو خبراً واحداً عن المرأة البعيدة.):

خرجتُ إلى الطريق.

هبّت عليَّ نسمةُ هواءٍ مشبعةٌ بالحنان من بعد صيفٍ جهنميٍ طويل خيّم على دبيّ.

سألت نفسي: من أين هذا الحنان جاء فجأة؟

تذكرت أننا صرنا في شهر نوفمبر، فتذكرتك، تذكرت تاريخ ميلادك، واشتقتُ إليك، ولَهَفَ قلبي عليك أيّها الغالي.

كلَّ نوفمبر وأنت بخير!

أعترف لكِ يا سيدرا بأنَّ هذه الرسالةَ قد أخافتني، فأنا لستُ من مواليد شهر نوفمبر، ولست من مواليد الخريف عموماً، بل إنني كما

تعلمين من مواليد شهر نيسان (أبريل) الذي هو قلب الربيع. ماذا نزل بذاكرة المرأة من خراب؟ حتى إنني فكّرت بأن أتصل بها، وأسألها كيف نسيتْ تاريخ ميلادي. ولكنني امتنعت من ذلك وقد تذكرت أنّ نوفمبر هو شهر ميلاد سامر. فهل بعثت وِدادُ الرسالة إليَّ بالغلط؟

ما زال سامرٌ ينزل مع الماء من الحنفية.

يا الله!

هل كلُّ هذا الألم لي؟!

نعم، لقد أخافتني تلك الرسالة في حينها، ولكنها بالوقت ذاته بعثت إليّ ببعض الراحة، وقد ذكّرتني بنصيحة شمس: يجب أن تنساها يا أمجد.

وبقيت أقلّب الرسائل الورقية. ولست أدري لماذا فوجئتُ بوجود واحدةٍ بينها من سامر، مع أنني كنت قد قرأتها من قبلُ مرّتين. كان قد بعث بها إليَّ بعد اندلاع الحرب بسبعة أو ثمانية شهورٍ تقريباً، عند أواخر سنة 2011، وتساءلت بيني وبين نفسي: كيف ومتى وصلتني؟ ولم أتذكر. كتب لي سامرٌ في تلك الرسالة يقول:

مع كلِّ حرفٍ تكتبه يستيقظ في الأعماق بركانٌ من العواطف والذكريات البديعة. يهزّني شوقٌ جارفٌ إلى مجالستكَ وسماع حكاياتكَ مع الزمان.. وكم يؤسفني ويشجيني أن أقرأ ما خلف سطورك.

يا إلهي.. كم أنت وحيدٌ في مدينة الأشباح التي تتحوّل يوماً بعد يومٍ إلى مدينة النحاس.

هي أقدارُنا كما تعلم.

أو على حدٍّ تعبير البيّاتي:

لعلّها كَقَدَر الإغريقْ،

كالموتِ،

كالطاعونِ،

كالحريقْ.

وانفتح باب الغرفة بغتةً، وظهرتْ سلمى، وقالت من فورها بملامة:

ماذا تفعل؟

لا شيء سوى أنني أقف على رصيف العمر.

ولكنك تجلس متربعاً على الأرض الباردة.

وماذا في ذلك؟

كيف ماذا في ذلك؟ سوف تمرض.

لا تخافي عليّ. أنا لا أمرض.

نظرتْ إليه المرأة واجمةً، بل حتى مصدومة. فماذا يريد أن يقول؟ هل اشترتِ المرأةُ مرض القلب لنفسها بنفسها؟ استدارت بإرهاقٍ عجيب، وغادرت المكان، وتركت الرجل ينظر إثْرَها وقد سقط فريسة الحزن. من المؤكد أنه لم يكن يقصد من وراء قوله التذكيرَ بمرضها. قال ما قال عفوَ الخاطر. أم ترى قوله كان زلّة لسانٍ تحمل وراءها ما تحمل؟ وإنْ كان الأمر هكذا، فهل كان يعيّرها بالمرض؟ وجاءه الجواب عن هذا السؤال سريعاً. ارتفع صوت المرأة في غرفة النوم بالنحيب. نهض أمجدُ من قعدته. ثم بقفزةٍ واحدةٍ صار بجوار امرأته في غرفة النوم وهو يعتذر عمّا قال، من دون أن يقصد شيئاً يخصّها. كانت تدفن وجهها في الفراش وقد تصاعد نحيبها المكتوم نشيجاً يقطّع قلوب سامعيه قبل أن يتحول إلى نوعٍ من الهذيان المحموم. ما الذي تصنعه هذه المرأة؟ كانت تبكي وهي تكاد أن تهلِك من الأسى. يا ربي! ماذا في هذا القلب

من طوايا؟ إنها سحابة العمر قد انقشعت سريعاً وحملت معها النشوة المتجددة، وتركت الجسد كليلاً، وتركت الروح عارية. أخذ يهدهدها، ثم جعل يهدئها، ولكن من دون فائدة. وحين لم تُجْدِ ملاطفاتُه نفعاً، سارع باللجوء إلى الأدوية القريبة. قدّم لها قرصين اثنين من دواءٍ واحد. غير أن المرأة وهي في غمرة اليأس والأسى، ضربت كف الرجل التي تحمل الدواء فطارت الحبّتان من يده وسقطتا في مكانٍ ما في أرجاء الغرفة، ودفنت رأسها بالوسائد، من دون أن تكفَّ عن النحيب المُفزِع. ولم يعرف أمجد ما الذي يجب عليه عمله. جلس بجوارها على حرف السرير واجمَ الفؤاد، وراح يمسّد رأسها، غير أنها لم تتوقف عن البكاء المرير. ومن جديد لم يكن أمامه إلّا العقاقير مُنقذاً. أعطاها قرصاً واحداً من الدواء نفسه. هل تقبله؟ هي تعرف ما يكون هذا القرص. إنه مهدىءٌ قوي. هل تقبله وتريح الرجل من العذاب أم تصرّ على معاقبته وترفض القرص الذي كان يقدمه لها وفي عينيه تسوّل الشحّادين؟ كانت تفهم نظرته، وتدرك أنها لا تستطيع أن تعاقبه، فهي تشعر شعوراً قوياً بأنها تحبه، وبأنها تسامحه، فأخذت القرص من يده، ورمت به إلى فمها، ولم تشرب من الماء ولو نغبةً واحدة. واستلقت في الفراش لكي تنام. راح يمسّد رأسها وكتفها براحة يده وهو يتأمل وجهها. رآه شاحباً أكثر من أيّ وقتٍ مضى، حتى إنّ هذا الشيءَ قد أفزعه، فأخذ كفّها بين راحتيه، وراح يلثم ظاهرها. وكان كمن ينشد الغفران. ولكنها لم تتوقف عن البكاء، غير أنها توقفت عن النحيب المفزع. وفكّر بأن الدموع قد تساعدها، فنهض من مكانه، وغطّاها باللحاف، وخرج إلى الصالون. جلس على إحدى الأريكتين متربعا، و شعر بحاجته الملحّة إلى النيكوتين. وخطر في باله أن يكسر القاعدة ويدخن في الصالون، لكنه امتنع عن ذلك في اللحظة الأخيرة، وفضّل الالتزام، بصرامة، بالقوانين التي كان قد وضعها بنفسه قبل خمسة شهور من اليوم: التدخين في غرفة العمل فقط. ذهب إلى تلك الغرفة حيث بيدر الصور والرسائل على الأرض، وأغلق الباب خلفه جيداً. وأطفأ النور

المشتعل. جلس خلف طاولة الكتابة، وراح يدخن سيجارته. كان واجماً. لقد عزّت الهناءةُ، وهمدت الحواس. هكذا الدنيا! كيف يساعد امرأته؟ كانت شهيّة بين النساء، رغم ما في وجهها من خَفَر، ورغم ما في قلبها من نبالة حييّة. ثم.. هكذا الدنيا. هو يعرف أنها تحبه وتسعى إلى إسعاده، ويعرف حقيقة مشاعرها عندما يحرمها المرض البغيض متعة الحياة ومتعة أن تسعد الرجل الذي تحب، ويعرف بالتالي أسباب تعاستها المضاعفة، ويسعى إلى التخفيف عنها. ولكن كيف؟ هذا ما كان يشغل فكره، وهو يجلس في العتمة، يحزبه الأسى. راح يدخن سيجارته بهدوءٍ متأمل. ولكن ها هو الباب ينفتح فجأة، إنها سلمى طبعاً، فليس في المنزل شخص ثالث، جاءت تعتذر عمّا بدر منها. أشعلت النور، وجعلت تتملّى وجه زوجها ويدها على الزر الكهربائي. لم يكن عبوسَ النظرة، ولكن من الواضح أنه كان قد غدا ضنيناً بالأمل. جعلتْ تفكر مثلَه تماماً. كيف يمكن مساعدته؟ تساءلتْ في سرّها، ونظرتُها تنفذ إلى أغوار روحه. رأت أفكاره قليلة التجانس. إنها سآمة الحياة، إنها العزيمة الخائرة. بدا الوجه أمامها كثير التعب. فماذا؟ هل بكّرت إليه الكهولة؟ وأحسّت بأنها امرأة شقيّة، وبأنه رجل شقيّ، و كلُّ شقيٍّ للشقيِّ نسيبُ. نظر إليها عارفاً بأغوارها، فهربت من نظرته. سارع يطفىء سيجارته. اقتربت منه. دفنت رأسها في صدره بعد أن جلست على ركبتيه. ضمّها إليه فهدأتْ، وأما هو فلم يهدأ وقد عاوده السؤال القديم: أيُّ ذنبٍ أتتْهُ هذه المرأةُ لتكون من أبناء الشقاء؟! وأخذته بها الشفقة، وتعاوره الحزن والألم. كانت أنثى تفيض بالصِّبا الناضر. كانت مثلَ أرضٍ مُشْتَجِرة. مثل ظُلّةٍ ظليلة تفيض عليه بالأفياء الطريّة وبالنشوة الحانية في وحدة أيامه الموحِشة تحت هدير الطائرات ودويّ المدافعِ.. أما الآن.. وأحسَّ للحظةٍ بما سوف يجعله من جديد ليس راضياً عن نفسه. لقد عاوده الإحساس بأنه يشفق على هذه المرأة.. إذن، أليس الحب دافعه إليها؟ هذا الإحساس يؤرقه منذ زمنٍ لم يعد قليلا. يؤرقه، وينغّص عليه ما تبقى من انسجام العيش.. وفجأةً تدلّى

حبلٌ من سقف الغرفة أمامي. كان الحبل ينتهي بأنشوطةٍ تخنق رقبة رجلٍ لا أعرفه. رجلٌ طاعنٌ في السن. رحت أحدّق فيه النظر. مَنْ هذا الشيخُ يكون؟

وفجأةً كذلك

«عادَ الوجهُ شابّاً

«فعرفتُه مِن جديد

إنه وجهُ سامر

مات بما كان يكره أن يموت

منعوا عنه الأكسجين

واغرورقت عيناي بالدموع

وقلتُ:

«يا ربّي

«هوَ ذا عبدُكَ فتقَبَّلْه

وبكيتُ بصمتٍ وأنا أحتضن المرأة المريضة بحنانٍ لم أعهده في نفسي من قبل.

كلُّ هذا الألمِ لك.

19

كانت سلمى تجلس على كنبة في الصالون. وكان هنا رجاءٌ و سامرٌ الصغير. جاءت المرأة للزيارة طبعا. باقة ورد كبيرة، وكلام تقليدي في مثل هذه المناسبات: الحمد لله على سلامتك، والله أنت يا سلمى لا تستأهلين إلّا كل خير.. وهذا كلّه غير مهم. المهم الآن هو شعور سلمى بأنها قد صارت، منذ خمسة شهورٍ، موضعَ مواساة،

وبأنها سوف تبقى كذلك إلى أن تموت، فالنضارة والحيوية والطبائع الفائرة تركتها إلى الأبد. إنها الصورة المعاكسة لهذه المرأة العفيّة، رغم حزنها الشديد الذي تحاول أن تخفيه بنظارةٍ شمسية سوداء. هذه المرأة التي جاءت للمواساة. للمواساة فقط. هل كانت سلمى تغبطها؟ هل كانت تحسدها، رغم ما بها من حزنٍ على زوجها المتوفى؟ أم كانت في سرها طبعاً تلعن حظها العاثر حسب؟ ما الذي كانت تفكر به وهي تنظر إلى رجاء التي شعرت بخصوصية النظرة، فارتبكتْ. وماذا يوجبِ الارتباك؟ فهل مرق في بالها للحظة قصيرة أنها ربما تكون بديلاً من سلمى في البقية الباقية من حياة أمجد؟ ربما كان الأمر كذلك. هكذا فكّرت سلمى، رغم أنّ الأمر مستبعدٌ في حسابات رجاءٍ المنظورة، فهي الآن غارقةٌ في الحِداد على سامر، ومع ذلك ها هي تسرق نظرة باتجاه الرجل الذي لن يكون أمامه بعد اليوم إلا المعاناة مع امرأة مريضة. ربما حزنتْ عليه، وربما قالت في نفسها: أمجد يستحق نصيباً خيراً من هذا النصيب. وسلمى ضبطت هذه النظرة، مع أنها كانت خاطفة، فتوتر الجو بين المرأتين. توتر داخلي لاحظه الرجل خطفاً، فقد كان منشغلاً باللعب مع الطفل الذي اسمه إلى الآن طارق، ولكنه في إسبانيا سوف يصير: سامر. هكذا قالت لي رجاء بعد أن رافقتُها إلى المنزل. سألتُها:

هل تمَّ تسجيله في النفوس بكنية أبيه؟

نعم.

ألم يسألوكِ أين أبوه؟

بلى، سألوني. قلت لهم: أبو طفلي مُعتقلٌ عندكم. سألوني عندئذٍ عن عقد الزواج. أجبتهم بأننا متزوجان عند أحد الشيوخ. هل في هذا مخالفةٌ للشرع أو القانون؟

قالوا:

لا. ولكنه سوف يكون ولداً بائساً.

وهل يعلم ذوو سامرٍ بوجود طفلٍ لهم في هذه الدّنيا؟

لا.

لماذا لا تتصلين بهم وتخبرينهم بالحقيقة، أقصد بالأمر الواقع؟

لا أعرف. لم أجرؤ على هذا العمل.

ولكنّ من حق العم (أبو سامر) أن يعلم بوجود حفيدٍ له في الحياة.

نعم. هذا صحيح. ولكن، ماذا أفعل؟ إنني لم أجرؤ على إخبار أحدٍ سواك بحقيقتي. هل تستطيع أنت أن تتولى هذه المهمة؟. ولكن ليس الآن طبعاً. ليس قبل أن أصير في إسبانيا. لا أريد أية مشكلاتٍ قد تحول دون رحيلي مع الطفل عن هذا الوباء.

وكيف ستخرجين الطفل من البلد؟ لا بدّ من موافقة الأب، وفي حال غياب الأب لا بد من موافقة الجد، ثم العم، الخ... أليس هكذا ينصُّ القانون؟

بلى، أنت على حق. ولكنني قلتها لك في المطعم: بالمال تستطيع أن تخرق القانون، تستطيع أن تشتري بعض الأشياء. ليس جميع الأشياء بطبيعة الحال، فلم أستطع بالمال أن أشتري حياة سامر. لقد دفعت الكثير من المبالغ سُدى، حتى إنني أصبحت باباً للنهب والابتزاز، من دون أن أحصل على غير الوعود الكاذبة. وهذا سببٌ آخرُ دفعني إلى أن أبيع ما أملك هنا وأترك البلد. في جميع الأحوال، لا تقلق عليّ. كلُّ شيءٍ مرتبٌ على نحوٍ ليس فيه مجالٌ للخطأ. سوف نغادر إلى بيروت أولاً. ومن هناك إلى إسبانيا. آمل في أنك سوف تزورنا ذات وقت ـ وصمتت لحظةً، وأضافت وقد عاودها البكاء: إنني مدينةٌ لكَ باعتذارٍ آخر.

تعتذرين عن أيّ شيءٍ هذه المرّةَ يا مسكينة؟

عن الذي قلته لك بخصوص وِدادَ في المطعم، فأنا لم أرها في دمشق. لقد كذبتُ عليك. في الحقيقة أنَّ وِداد هي مَنْ طلب منّي أن أقول لك ذلك. إنها صديقتي على الفيس بوك. ونحن ندردش كثيراً. منذ ثلاثة شهورٍ وهي تطلب منّي أن أتحرش بك، وألتقيك، وأتحدث عنها بحضورك. إنها تريد أن تعرف ردّة فعلك حين تأتي سيرتها أمامك. تريد أن تعرف أين صارت مكانتها عندك من أجل أن تعرف خطوتها القادمة، فهي تفكر، بل ترغب، بالعودة إليك، ولكنها تخشى أن تكون مرفوضةً عندك، وبخاصةٍ أنك لا تتجاوب معها حول طلب اللقاء في بيروت.

اتركيكِ من وِدادَ الآن، فلدينا ما هو أدعى منها إلى الاهتمام هذه الليلة.

هل تعرف ماذا قلت لها ذاتَ مرّة؟ قلت لها: أنت يا وِدادُ لا تستأهلين أمجد. نعم، إنها لا تستأهلك، رغم أنها صديقتي التي أحبها. يا إلهي! ماذا جرى لنا يا أمجد؟ ما هذه النهايات التي صرنا إليها؟!

تحبينها؟ ولكنها لم تكتفِ بي أنا، بل تمادتْ وسرقت سامراً أيضا.

لا، إنها لم تسرقه. لم يكن بينهما أية علاقة جدّية، ربما حدث تماسّ جسديٌّ مرّةً في باريس، ولكنها كانت حادثةً عرضية. لقد صارحني سامرٌ بالأمر ذاتَ مرّة، وسامرٌ لا يكذب. لقد قال لي إنه يتعذب بسبب ذلك، وإنه يشعر بالخجل من نفسه. حتى وِداد تشعر بالخجل. وأنا قلت لك ما قلت في المطعم من أجل أن أبدأ معك بالحديث عنها. ولكن يبدو أنني، بسبب ما أعاني من اضطراب، لم أكن موفقة في اختيار البداية المناسبة.

ورجعت المرأة إلى النواح، وأضافت من خلال دموعها:

بالمناسبة، وقبل أن أنسى، لقد سألوني عنك.

مَن الذي سألك عني.

رجال الأمن.

وماذا يريدون أن يعرفوا؟

أظنُّ أنهم يعرفون عنك كل شيء. والسؤال كان عَرَضياً أثناء التحقيق معي حول سامر.

وبماذا أجبتِ عن سؤالهم؟

قلت إنني لا أعرفك بشكل جيد، وليس لديَّ عنكَ أيةَ معلومات شخصية. سألوني عندئذٍ عن رأيي بك بشكلٍ عام. قلت لهم: إنك كاتبٌ محترم. قالوا لا نسألك عن رأيك بكتابته، فربما كان كاتباً محترماً بالفعل، ولكنه رماديُّ الطيف.

وهل هذه تهمة في حساباتهم؟

لا أعرف كيف يفكرون بدقّة، ولكني أظنها كذلك.

فهل عليَّ أن أخاف؟

لا، ليس تماماً، ومع ذلك، من الأفضل أن تكون حذراً. أرجوك أن تفعل. كفانا خسائر. أرجوك يا أمجد.

وارتمت على كتفي وهي تكاد أن تهلِك من الأسى، فاحتضنتُها محاولاً التخلص من شبح رجال الأمن الذي جعل يطوف من حولي، ورحت أطبطب على ظهرالمرأة حتى هدأتْ قليلا. سوف أبوح لكِ بسرٍ صغيرٍ يا سيدرا: لقد خطر ببالي وأنا أضمُّ رجاءً إلى صدري أواسيها بأنّ هذه المرأةَ المكلومة هي مَنْ سوف يفتح باب الشيطان على مصراعيه. ولكنني طردت ذلك الخاطر الشرّير من رأسي سريعاً، فمن غير المعقول أو المقبول أن أسقط في مثل هذا الشَرَك مع أرملة صديقي الذي لم يمتْ إلّا بالأمس. وحمدت الله على أنني لم أبلغ هذه الدرجةَ من الحِطّة. كنا نجلس في الصالون الواسع على كنبةٍ عريضةٍ

فاخرة. كلُّ شيءٍ في ذلك البيت فاخر: الكنبات، الثريّات، المزهريات، الستائر، اللوحات على الحيطان. ولكنه فاخرٌ على طريقة مُحْدَثي النِّعمة. كلُّ شيءٍ كان ينقصه الانسجام مع البقية. وهكذا فقد كان كل شيءٍ فاخراً إلى درجة الفقر المُدْقِع. لقد صدق سامرٌ حين قال لي: هذه البنت وقعتْ في الثراء بالغلط. سألتها بعد أن هدأتْ قليلاً عن غرفة النوم. أرشدتني إلى الاتجاه. أخذتُ المرأة المنهارة إلى هناك. وضعتها في الفراش. غطّيتها جيداً. كان الليل قد انتصف. رجعت إلى الصالون. وجلست أنتظر. وخطر في بالي أن أتصل بسعيدٍ من أجل أن يأتي ويكشف على أرملة صديق طفولتنا المشترك. ولم أتصل. وحسناً فعلت، فما إن مرّت ساعةٌ واحدة حتى كانت المرأة قد أغفت. هذا ما أكدته لي الخادم العجوز. أظنها قد تناولت قرصاً منوّماً أو قرصين.

كان الرجل والطفل منشغلين بلعبةٍ ما. كانا يتسابقان بالجري في طول الصالون الكبير. ثم حمل أمجد الطفل على رقبته وخرج به إلى الشرفة المطلّة على باحة المدرسة الابتدائية. نتيجة مباراة اليوم مفاجئة: تسعة أهداف لألمانيا، سبعة أهداف للبرازيل. ماذا يحدث؟ سأل أمجد نفسه. هل صارت ألمانيا تكسب بعض التعاطف بعد هجرة السوريين الواسعة إليها؟ ربما كان الأمر كذلك. وهذا ليس مهماً. المهم أنّ الطفل كان مستمتعاً بهذه الهيصة الحاصلة وهو محمولٌ على رقبة أمجد، حتى إنه كان يصفق ويصرخ محاكياً أطفال المدرسة. وفي الصالون: كان الارتباك قد وصل إلى أوجه عند المرأتين، فلزمتا الصمت تماما. صمت القبور. وكل منهما لا تنظر إلى الثانية إلا بطرف عينها. وسلمى يتملكها خوف أكيد من أنها لن تكون بعد اليوم إلا ضربا من العبء الثقيل على زوجها. بينما يتملك رجاء، بقصد أو من دون قصد، إحساسٌ بذنب ما ارتكبته بهذه الزيارة. وباتت تتحينّ الفرصة لتبرئة ساحتها من هذه التهمة. فانتهزت لحظةً ظنَّتها مناسبة وذلك عندما اعتدلت سلمى قليلا في قعدتها، فهبّت رجاء لخدمتها. فوجئت سلمى بهذه الحركة، ورجاء

نفسها فوجئت بنفسها، فكانت الحصيلة إثبات الذنب بدلاً من نفيه. وكان هذا واضحاً في النظرة الجديدة المتبادلة بين المرأتين. نظرة صامتة، ولكنها تقول الكثير: النضارة مقابل الذبول. الصحة مقابل المرض. الحياة مقابل الموت.

20

سبع دقائق إلى منتصف الليل. جميع ساعات البيت تقول بذلك. أمجد في غرفة العمل يشتغل و يدخن السجائر. تحين منه التفاتة إلى إحدى الساعات: إنه الوقت الموصوف. ينهض. يغادر الغرفة بعد أن يطفىء النور فيها. يصير في الصالون. ينصرف إلى غرفة النوم. الأفعال الروتينية ذاتها.

يشعل النور. يقترب من سلمى. يجلس على حرف السرير. يراها تنظر إليه بعينين ذابلتين.

صحيانة؟

لم أعد أعرف إلى النوم سبيلا.

ثم ماذا؟ الدواء. حبة، اثنتان، أربع حبات. جميعها تسقط في كف سلمى التي تبدو غير متحمسة لتعاطي الأدوية بعد اليوم. ينظر إليها أمجد بثبات. ويتمتم كمن يؤنبها:

وماذا بعد؟

لماذا أنا؟

سألت بإصرار. وسؤالها لا جواب له عند أمجد، فرجعتْ تسأله:

لماذا أنا؟

لا أعرف لماذا أنتِ.

ملايين البنات سوايَ لا يصيبهم شيء، ولا حتى زُكام. لماذا أنا؟ لماذا القلب؟

فهل لو كان غير القلب لكان الأمر لا بأس به؟ ثمّ إن الجميع تقريباً لديه نفس السؤال: لماذا أنا؟ لماذا الكبد؟ لماذا السرطان؟ لماذا بتر الأطراف؟ لماذا القنابل والصواريخ؟ لماذا الخوف؟ لماذا المعتقلات؟ لماذا التعذيب؟ لماذا الفقر؟ لماذا مخيّمات اللاجئين؟ لماذا البرد؟ لماذا الوحدة؟ لماذا الهجرة ومذلّة اللجوء؟ لماذا الجوع ولماذا العطش؟ وبالمناسبة أيضاً: لماذا أنا؟ لماذا زوجتي هيّ المريضة؟ أنا لا أعرف لماذا. الذي أعرفه أنّ أمامَكِ جرعةَ دواءٍ يجب أن تأخذيها .

كان يتحدث بحزم، وربما كان على شيءٍ من عصبيةٍ مكتومة. أومأتِ المرأة بعينيها أن حاضر. فعلت ذلك من يأسٍ بها. فتحت فمها، وقرّبت منه كفها، وقذفت إليه بالحبوب، وشربت الماء. ودفنت رأسها في الفراش. إنها خيبة الأمل، وخمود اللظى، وحبال الرجاء التي تقطّعت. إنها الأعصاب المجهَدة، وسخرية الموت من الجمال والنضارة.

21

ليل. دويّ قنابل وانفجارات صواريخ وهدير طائرات حربية. مُواء قطط مذعورة. سحاباتُ ضبابٍ في الأصباح الباردة. شمسُ الأصيل. غيومُ الدُّجى. وابلُ المطر. أشجارٌ عارية. وشوارعُ عارية. عوادمُ سيارات تنفث سمومها في الهواء الذي نتغذى به. أطفال يقاومون الريح والبرد في الطريق إلى المدرسة. وعامل تنظيفات يدفع أمامه عربته الصغيرة، ويتوقف هنا أو هناك ليرفع بعض النفايات. وسلمى في الفراش. وعقاربُ ساعات تتكتك. وريحٌ باردة

تكنس الطرقات. وأمجد يفتح باب المنزل عن أم غالب. ويقود سيارته في الشوارع بلا هدف. ولا يلفت انتباهه شيء. لا سرب الفتيات هذا ولا ذاك. ورجاء تشاركه القهوة في إحدى الكفتيريات ولا يثير اهتمامَه حزنُها الباغي على نحو يبعث على التأمل، وقد عاوده السؤال الذي مرق بباله وهو يضمّها إلى صدره في صالون منزلها الباذخ: هل أكون أنا آخر النبلاء الفاسدين؟!. والليل يهبط على المدينة. وسلمى في الفراش وبين يديها المصحف الشريف: «وإذ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إنَّ اللهَ اصطفاكِ وطهّركِ واصطفاك على نساء العالمين. يا مريمُ اقنتي إلى ربّكِ واركعي مع الرّاكعين».. وكلماتٌ تتراقص على شاشة الكومبيوتر في غرفة العمل في بيت أمجد. وسيجارة تحترق وتحترق في منفضة السجائر. وسبع دقائق إلى منتصف الليل. وأمجد يتوقف عن العمل. يطقطق أصابع يديه. يتمطى. ينهض. يغادر غرفته. يذهب إلى غرفة النوم. يتفاجأ بالنور مشتعلاً في المكان. يقترب من سلمى. يجلس على حرف السرير. لم تكن نائمة. كانت تقرأ القرآن بصوتٍ خفيضٍ في المصحف وقد جلست على السرير متربعة. كانت كمن يقرأ على روحه ما تيسر له من آيات الله البيّنات. «الشمسُ والقمرُ بحسبان، والنجمُ والشجرُ يسجدان، والسماءُ رفعها ووضع الميزان، ألّا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسروا الميزان، والأرضُ وضعها للأنام، فيها فاكهةٌ والنخلُ ذات الأكمام، والحَبُّ ذو العصف والريحان، فبأيِّ آلاءِ ربّكما تكذّبان» يصفن بها أمجد لحظة. تنتهي من القراءة. صدق الله العظيم. تقبّل المصحف ثلاثاً، وتدسّه تحت الوسادة.

ألا تستطيعين أن تنامي؟

لا ترد على سؤاله. لن يسمع صوتها بعد اليوم.

هل أحضر لك التلفزيون إلى الغرفة؟

لا جواب. يستسلم أمام صمتها. يحضر الأدوية. وفجأة يلتمع

البرق ويشمل الغرفة بأنواره الزرقاء، رغم الستارة المسدلة على النافذة. ومن بعد البرق يأتي هدير الرعد. قصفة قوية، ثم قصفة ثانية وثالثة. وسلمى لا تحرّك ساكنا. هاهي لا تفزع من الرعد ولو قليلا. فماذا حلّ بها؟.. أتراها يئست من رحمة الله أخيراً؟.. هذا ما كان يفكر به الرجل وهو يقدّم لها الدواء. يبدو أنها باتت تعتقد بأن الموت صار ضرورة لها من بعد أن تحولت إلى مجرد كمٍّ مهمَلٍ في حياة الرجل الذي كانت تحب أن تحيا من أجل أن تظل تحبه ويظل يحبها. روح عارية. هكذا رآها. وهكذا رأى نفسه أيضا. كل شيء في حياتهما بات عاريا. لا دماء تجري فيه، ولا عروق تنبض. أخذت الدواء على مهل، وأعادت كأس الماء إلى مكانها، واستلقت في الفراش من جديد، دون أن تجفل من قصفات الرعد المتتالية، بل إنها قد أغمضت عينيها بكسل، وتظاهرت بالنوم. ولم تقل كلمة واحدة للرجل الذي بات على يقين من أنه في أزمة. وأية أزمة؟. فهل هو قاتل هذه المرأة إن هي ماتت في القريب من الأيام؟.. أو حتى في البعيد منها؟.. شملها بنظرة، ونهض متثاقلا، وانصرف. أطفأ النور. أغلق الباب. رجع إلى الصالون. ذهب إلى غرفة العمل. جلس خلف الطاولة. أشعل سيجارة. امتدت يده إلى القلم. راح يخربش على ورقة بيضاء. وفجأة سمع صوتاً غريباً من الغرفة المجاورة، أو خيل إليه سماع ذلك الصوت، فهبَّ واقفا.. ثم لم يعد يعرف كيف صار في غرفة النوم. وهناك كانت سلمى شبه جالسة على الأرض وقد ارتمت برأسها على حرف السرير. قذف بجسده إليها ليرفعها من الأرض فوجدها غائبة عن الدنيا. عيناها تحدّقان في الفراغ. كانت تمسك بالمصحف على حرف السرير بإحدى يديها، وكانت فاغرةً فاها. هل كانت تريد أن تطلب الماء؟ جرعة الماء الأخيرة؟ هل ماتت عطشانة؟ هل كانت تنادي أمجد ليحميها من الموت؟ هل كانت تصرخ، تستنجد، تستغيث، تطلب المساعدة، تطلب الغفران، أو تمنح الغفران؟ ماذا كانت تريد أن تقول؟ ماذا كانت الكلمة الأخيرة التي لم تستطع أن تقولها، فحملتها معها سراً إلى القبر؟ هذه الصورة سوف

تعذّب أمجد في مُقبِل الأيام، وسوف تسلبه ما تبقى لديه من هناءة البال.

كلُّ الألمِ لك.

22

في واحدةٍ من صالات العزاء الكثيرة التي ازدادت عدداً في السنوات الأخيرة من كثرة الموت الرابض على المدينة. أهل الميتة من الرجال يتقبّلون العزاء. أمجد يقف وَ (يجلس) بين والد سلمى وشقيقها غالب. وغير بعيدٍ عن أمجد جلس أيمن وسعيد الذي لم يترك صديق طفولته وحيداً في مصابه، حتى إنه أجّلَ موعد زفاف ابنته أمل الذي كان مقرراً بعد أسبوعين. أجّله إلى ما بعد أربعين سلمى. وهنا في الصالة المعزّون أيضاً. كانوا قليلين كالعادة في زمن الحرب حيث لم يعد أحدٌ يعتب على أحدٍ بسبب عدم القيام بواجب العزاء بالحضور شخصياً، وصارت أغلبية الناس تكتفي بذلك عبر الهاتف، أو حتى على الفيس بوك، فالليل ثقيل، والانفجارات كثيرة، والخوف كبير. المواصلات شحيحة. الكهرباء غائبةٌ في معظم الأحيان. الحواجز العسكرية تملأ الطرقات، حتى الفرعية منها. بعض المعزّين كان من طرف والد سلمى أو من طرف شقيقها. رجلٌ واحدٌ، غير سعيد وأيمن والشرطي (أبو الخير)، كان من طرف أمجد الذي فوجىء بقدومه إلى درجة أنه شعر بالخوف للحظة، حتى إنه سأل في نفسه: هل أنا تحت الرقابة؟ إنه الرجل ذاته الذي جاءه بكيس الخيش المليء بالذكريات الموجِعة. ولكنَّ الرجلَ، في الحقيقة، لم يكن مزعجاً في شيء، بل يمكن القول أنه كان غايةً في التهذيب. صافح أمجدَ بحرارةٍ صادقة، وطلب من الله الرحمة للمرأة الراحلة، والصبرَ والسلوانَ لزوجها المكلوم، ومكث قرابة

عشر دقائق جالساً بصمت، وشرب فنجاناً من القهوة المُرّة، قبل أن ينصرف. الرسالة وصلتْ. قال أمجد في سرِّه، وتذكر كلمات رجاء: انتبه لنفسك. أرجوك أن تفعل. كفانا خسائر. وقرر أن ينتبه لنفسه أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. ثم صام عن التفكير بالمزيد. وكان مقرئٌ شاب يقرأ ما تيسر له من آيات الله البيّنات: إذا الشمسُ كُوِّرت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبالُ سُيِّرَتْ، وإذا العِشارُ عُطِّلتْ، وإذا الوحوشُ حُشِرَتْ، وإذا البحار سُجِّرتْ، وإذا النفوسُ زُوِّجت، وإذا المؤودة سُئلتْ، بأيِّ ذنبٍ قُتِلتْ.

أصرَّ سعيدٌ بعدَ أمسية العزاء الأولى على دعوة أمجد وأيمن والشرطيّ المتقاعد إلى تناول الغداء في أحد المطاعم. وكان له ما أراد. كان يوماً طويلاً وشاقّاً على الجميع لم يتناولوا خلالَه طعاماً ولا ماءً.

وفي المطعم كان ثمّة صمتٌ على الرجال الأربعة وهم يتناولون طعام الغداء، رغم أنّ الظلام قد هبط على الخليقة قبل أكثر من ساعتين. وعموماً كان الحديث قليلا غلبتْ عليه بعض عبارات المواساة بالإضافة إلى: أعطني ماءً لو سمحت. أو: ناولني الملح من فضلك. بالإضافة طبعاً إلى بعض الأحاديث المتفرقة عن الموت والحياة والماضي والحاضر. كان الشرطي أبو الخير قد أضحى وحيداً من بعد أن ترمّلَ قبلَ سنةٍ أو نحو ذلك. وكان لديه بعض الأخبار غير الأكيدة عن أهل العشوائية المنكوبة. ولكن كان لديه بعض الأخبار الأكيدة أيضاً: أم إبراهيم التي ذبحت أو دبّرت ذبح ابنتها بثينةَ الشهيّة ماتت تحت القصف، سقط عليها سقف المنزل، فتهشّم جسدها، أمّا إبراهيم الذي ذبح أخته بيده، كما اعترف للشرطة، فقد نجح في الخروج من العشوائية، وأقام في أحد مراكز الإيواء، ثم ترك المركز وصار ينام في الشارع، ويمتهن التسول، ولكنه أقدم مؤخراً على قتل نفسه بطريقةٍ شنيعة: لقد قطع قضيبه الذكريّ بمقصّ خياطة، وقد فعل ذلك في الطريق على مرأى من

الناس الذين لم يسعفه منهم أحد. الجميع تحاشى الاقتراب من ذلك المجنون.

وهل من أخبارٍ جديدةٍ عن شمسٍ يا أيها الرجل الطيّب؟

سأل سعيد. ردَّ الرجل الطيّب:

لا، للأسف، لا يوجد أيةُ أخبار جديدة.

23

بعد العزاء.. أمجد يفتح باب منزله ويدخل. يشعل النور. ومن فوره يجد نفسه وجهاً لوجهٍ أمام سلمى. إحدى صورها الفوتوغرافية الكبيرة تواجهه مباشرة. الصورة معلّقة على الحائط المقابل. كانت كمن يرحّب به. يتوقف في مكانه لحظة. يده تغلق باب الشقة وراءه بهدوء، ولكنَّ بصره يظل عالقاً على الصورة حيث بدا له أن سلمى تنظر في عينيه. صورة سبق له أن التقطها بنفسه في إحدى مكتبات قلب المدينة. كانت الشابّة التي انتهى زمانها في هذه الدنيا تحتضن مجموعة كبيرة من الكتب التي اشترياها تواً. يبتسم للمرأة التي تطلُّ عليه فجأة من على رصيف عُمْره. كانت في ثوب الزفاف: فستانٌ بسيطٌ بلونِ البنفسج، أو أو ربما كان بلونٍ أحمرَ مُبَرّد قريبٍ إلى الحزن أكثر منه إلى الفرح. لونٌ فاتحٌ نقيٌ وطريٌ. كان ذلك بعد حفلة العرس البسيطة. حتى إنه لا يمكن تسميتها حفلة. مجرد إشهارٍ للزواج. غداءٌ في أحد مطاعم منطقة الربوة جمعَ بعضاً من أهل العروس وبعضاً من أصدقاء العريس، وفي مقدمتهم سعيد وأيمن وأبو الخير مع زوجته. ها هي المرأة الراحلة تطلُّ عليه في هذا المنزل، وقد وجدتْ نفسها وحيدةً مع أحد الرجال. وقفتْ يومئذٍ في الصالون مرتبكةً، مطرقةَ الرأس. كان أمجد يتأملها فرحاً بهذا

الصيد النسائي البهيج، فقد عرف أخيراً لون شعر البنت. كان اللون أسودَ، وكان الشعر غزيراً مثلما كان يتمنى. مثلما كان يتمنى تماماً. قال لها:

ما بك؟

لا شيء. ولكن هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أنام فيها خارج البيت. أقصد: هذه هي المرّة الأولى التي أجد فيها نفسي وحيدةً مع رجلٍ غريب.

فهل أنا غريبٌ يا سلمى؟

لا لا، بل أنت شخصٌ قريبٌ جداً. قريبٌ وحبيب. أظن أنك تفهم ما أريد أن أقول.

حسناً.. إنْ كان وجودي يسبب لك الإرباك فإنني على استعدادٍ لأن أذهب إلى الفندق.

لا بأس بالفندق، فكرةٌ جيدة، ولكنني ذاهبةٌ معك.

ها هو مايزال في الصالون واقفاً بمواجهة صورة سلمى. يبتسم لها. ثم سرعان ما يكفّ عن الابتسام، فالصورة تثير نوازع الشجن في نفسه. يغمض عينيه ثمّ يخفض بصره كمن يهرب من مواجهة الحقيقة المرّة. أو كمن يرفضها. يذهب إلى غرفة النوم. يشعل النور. السرير في فوضى. كل شيءٍ ما زال كما كان لحظة غادرت سلمى البيت آخر مرة. ها هو المصحف الشريف على السرير. كانت سلمى في زمن المرض لا تنام إلّا والمصحف تحت وسادتها. يرنُّ الموبايل. وبسبب انشغال فكره فإن الرجل لا يسمعه إلا متأخرا. يتناول الجهاز من جيب سترته. ينظر إلى الشاشة. إنها رجاء. اتصلت ابتغاء أن تعزّيه، وتودّعه، فهي مسافرةٌ في غدٍ إلى بيروت، ومن هناك إلى مدينة ملقا الإسبانية. يشكرها، ويتمنى لها الوصول بالسلامة. يغلق الخط. يقترب من السرير. من الجزء

المخصص لسلمى. الأدوية تلفت انتباهه بقوّة. ما زالت في مطرحها على سطح الكومدينو المجاورة، وكذلك كأس الماء. وكذلك الصور الصغيرة والكبيرة في إطاراتها تقف هنا وهناك على هذه الكومدينو أو تلك. لكنها كلّها تطلُّ على الرجل الخائر القوى. تنظر في عينيه. كلها تذكّره بالماضي الذي راح ولن يعود. تذكّره بالزمن الذي يمكن اعتباره جميلاً، رغم كلِّ شيءٍ أسودَ فيه. وتظل الصور تحاصره، فيحاول الهروب منها. يشعر بنفسه كالتائه. أعصابه مجهدة. لحيته طالت قليلا. وجهه متهدّل القسمات. عيناه كابيتان. يلوب في المكان قليلا. يريد الهروب من هذا الوضع الخانق فلا يجد أمامه مخرجاً سوى إطفاء النور علّ الظلمة تساعده في النجاة من هذا الوجع. يطفئ النور، ويرتمي على السرير مضطرب الأنفاس. ويغفو. كانت إغفاءةً متعثرة، فصورة سلمى لا تفارقه.

جرس المنزل يرنّ. ينهض أمجد عن السرير في تعب. ينهض متثاقلاً.. الجرس يرنّ من جديدٍ، ولكن بإلحاح. أمجد يذهب إلى الباب أخيراً ويفتحه.. ويا للمفاجأة!

إنها وِداد.

وقف كلٌ منهما في مواجهة الآخر يتأمله، وكان بينهما صمتٌ ودهشةٌ وعتبةُ دارٍ و بابٌ مفتوح.

هل تأخرتُ في العودة إلى البيت؟

سألتْ.

نعم، قليلا.

أنا آسفة يا حبيبي. الطريق إلى البيت كانت طويلةً، ولكنني لم أستمتع بها، بخلاف ما تقولونه أنتم معشر الكتّاب من أنَّ الطريقَ إلى البيت أجملُ من البيت. لا أظنُّ بوجودِ مكانٍ على الأرض أجملَ من البيت.

لقد اشتقتُ إليكِ يا وِداد. الحياة موحِشةٌ من دونك يا حبيبتي.

أعرف.

ماذا تعرفين أيضاً؟

انتظرتكَ في بيروت. كنت واثقةً من مجيئك إليّ. وحين لم تحضر أيقنتُ أنّ أمراً جللاً قد منعك، فقررتُ المجيء إليكَ حتى لو كنت سألقى مصير سامر. ولكن لم يحدث شيءٌ كما ترى. يبدو أنّ الحرب قد انتهت. هل تعرف؟ أكاد أن أذوب من الحنين إلى ذلك الرصيف الأيمن من حيّ الشاغور. أكاد أن أذوب من الحنين إلى تلك القبلة الذئبية التي تبعث في النفس على الحزن. إلى تلك الوريقة التي كتبتُ لك فيها عن الميلاد والموت والمطر. هل ما زلتَ تحتفظ بها؟

نعم، إنني ما أزال أحتفظ بها.

هل تعيدها إليّ؟ فأنا أخشى عليها عندك من الضياع في هذه الحرب.

ألا تقولين إنّ الحرب قد انتهت؟ ثم إنني أخبئها في مطرحٍ أمين لا يمكن لأحدٍ أن يصل إليه.

وهل ثمّة مطرحٌ هنا غيرُ مستباحٍ بعد؟

نعم.

أيّ مكانٍ هو؟

القلب يا وِداد.

هذا جيد. إذن دعني ألقي نظرةً أخيرة على المطارح التي في القلب. افتح لي صدرك لو سمحت.

بالتأكيد سوف أفعل. ولكن.. لماذا نقف بالباب؟ تفضلي بالدخول، فهذا بيتُكِ أنتِ أيضاً يا حبيبتي.

أجل. إنه بيتي. تسرّني العودةُ إلى البيت أخيراً.

ودخلتْ. وأغلق أمجد الباب خلفها، فوجد نفسه وحيداً في المنزل أمامَ صورة سلمى على الجدار المقابل. كانت تنظر في عينيه مباشرةً. وكانت تبتسم له. وَ وجد نفسه يتمتم:

اشملني برحمتكَ يا الله!

مكتبة
t.me/t_pdf

24

غَبَرَتْ أيامٌ خمسةٌ على وفاة سلمى. ثم أسبوعٌ غبرَ وأسبوعان، حزنَ الرجل خلالهما على امرأته بعضَ الحزن. ثم توقف عن ذلك، ورجع، بل حاول الرجوع إلى حقول الحياة البهيجة: الكتابة عن النساء الصغيرات، وثورةِ الحسّ، والعطورِ المُسْكِرة، والصدورِ الوارفةِ بالغِلال، والشبابِ الناضر، ونجوى السريرة، و ... سبع دقائق إلى منتصف الليل. يتوقف عن العمل. ينهض من وراء الطاولة. يغادر الغرفة. يذهب إلى غرفة النوم. يشعل النور في المكان. السرير فارغ. لا أثر لسلمى. يتفاجأ بغيابها عن البيت. يرتجف قلبه. أين كأس الماء؟ وأين قناني الدواء الصغيرة؟ يقترب من السرير. يروح يفتّش عن تلك الأشياء. لا أثر لها. ويومض البرق. ويهمهمُ الرعد. ويرتمي الرجل على فراش سلمى. يدفن وجهه في وسائدها وقد غدا حزيناً مثل طفلٍ سرقوا منه لعبته.

والمشهد ذاتُه يتكرر أكثر من مرّة. أكثر من ليلة. يتكرر رغماً عن الرجل الذي صار بلا حولٍ ولا طَوْل، حتى إنه بدأ يفقد أيّ ملمح للنضارة. كان ينظر إلى وجهه في المرآة، ويخاطب نفسه: إني أخالكَ سقيماً يا صديقي! كان يفقد، يوماً إثرَ يوم، شهيته إلى الحياة. كان يفقد دوافع العيش من بعد أن فقد خليلة أيامه الموحِشة مع هدير الطائرات ودويِّ المدافع، فراح يذوي من الوجدِ ليلةً من بعد ليلة. إنه ترجيع الأسى من بعد أن تقدم الرجل آماداً في مراعي الحزن وهو لا

يكفُّ عن جَلد نفسه، فقد بات يؤمن بأنّ سلمى لم تمت لو أنه لم يقتلها في تلك الليلة لمّا قال لها: كنت ساهراً في جهنم. كان قد بات مقتنعاً أنه في تلك الليلة بالذات أدركت المرأة المريضة أنها لم تعد ذاتَ نفعٍ في هذه الدنيا، فقررت ألّا تقاوم المرض أدنى مقاومة. قررت أنْ تترك روحها تذوي من بعد أن ذوى جسدها. قررت أن تموت، فماتت، وتركت أمام زوجها فرصةً طيبة من أجل العودة إلى حقول الحياة المُزهرة كما تصورها في لحظةٍ من اللحظات، من دون أن يدري بأنه سوف يكون نهباً للندم أمام عصف الذكريات الموجِعة. ما كلُّ هذا الألمِ يا ربي! إنه ترجيع صدى حزنٍ غير بشريّ. وذاتَ ليلة، وحين لم يعد يقوى على مجابهة الألم خرج من المنزل. راح يمشي في الشوارع القفراء من البشر. لم يركب السيّارة. راح يمشي على غير هدى. كان ظلامٌ دامسٌ. وكان بردٌ شديد. ظلّ هائماً على وجهه حتى الصباح. وكان طوالَ الوقت يشكو الضّوى، فقد أصمى موتُ سلمى فؤادَه. رجع إلى البيت عند الصباح. ارتمى على السرير حيث كانت تنام زوجته المريضة.. يا رب!. وأغفا طويلاً. وعندما استيقظ من النوم كان قد حلَّ الغسق على الخليقة. نهض من الفراش، واستحمّ، وارتدى بيجامةً نظيفة. تناول لقمةً في المطبخ، وأشعل هناك سيجارة. ولكنه أطفأها سريعاً، فالتدخين ممنوعٌ إلّا في غرفة العمل. فماذا جرى لعقله؟ ماذا جرى؟ لم يعد لسلمى وجودٌ يمنعه من التدخين حيث يشاء في أرجاء المنزل. غصّ قلبه. انصرف إلى غرفة العمل. أشعل هناك سيجارةً جديدة، وشرع يشتغل وهو يقاوم الغصّة التي استبدّت بروحه من بعد قلبه. و دخل في مزاج العمل شيئاً فشيئاً. رجع يكمل الشغل من حيث توقف قبل أن تغادره سلمى إلى التراب. استغرق في العمل. ثم لم يتوقف إلّا عندما حانت منه التفاتةٌ إلى ساعة الحائط.. سبع دقائق إلى منتصف الليل. وضع القلم جانباً. فرك أصابع يديه ببعضها. تمطّى قليلاً. أطفأ سيجارته. ولم ينهض عن الكرسيّ. لقد بات عارفاً بما ينتظره في غرفة النوم. أين ديوان المتنبي؟ فما من أحدٍ يمكنه أن يساعدني اليومَ إلّا جدّي البعيد. لا

أثر للكتاب على الطاولة. كيف هذا الشيء يكون؟! لم يسبق للديوان أن اختفى من على سطح طاولة الكتابة في أيّ وقت من الأوقات. هل أعاده إلى المكتبة بالغلط مثلاً؟ هل بدأتُ أفقد ذاكرتي كذلك؟ نهض إلى المكتبة. كان ديوان المتنبي يواجهه تماماً. سحبتُ الكتاب من مطرحه، ورجعتُ به إلى الطاولة. جلستُ على الكرسيّ. لمستُ فُرجةً صغيرةً بين طيّات الكتاب. قلّبتُ الورق سريعاً إلى موضع الفُرجة. يا ربّي! إنها الوردة الجوريّةُ الحمراء التي حملتُها إلى سلمى ذاتَ يوم بعيد. لقد جفّت الوردة تماماً. ورغم ذلك فإنها ما تزال جميلةً كما لوْ كانت ناضرة. وعلى إحدى الصفحتين حيث ترقد النضارة الأزلية، قرأتُ هذه الكلمات مكتوبةً بخط اليد:

لم تصدقني حين قلت لك ونحن نشرب القهوةَ في الكفتيريا: سوف أحتفظ بهذه الوردة إلى الأبد. هل تصدقني الآن؟ ها هي اليومَ بين يديك. لقد انتهى دوري أنا. إذن، ساعدها أنت في أن تعيش إلى الأبد.

حاوِل التوقف عن التدخين. أرجوك أن تفعل يا حبيبي، فهذه وصيتيَ الوحيدة. أطمع في أنك سوف تحققها. كنْ بخير. وحاوِل أن تنسى بأنني أحببتك كما لم يحبَّ أحدٌ أحدا.

25

أمام قبر غير مشيّدٍ تماماً بعد، وقف أمجد يقرأ الفاتحة همساً بعد أن وضع باقة من ورودٍ عند شاهدة القبر الذي غيّبَ في جوفه امرأة في عزّ شبابها. وغشاوةٌ من دمع رقيق تغطّي عينيَّ الرجل الذي بدأ يتقدم جلياً في الكهولة، وغصّة من الألم تستبدّ بروحه المتعبة. وجهه مرهقٌ تماماً ولحيته قد طالت كثيرا. وبعد قراءة الفاتحة سوّى بعض تراب القبر. وجاءه في هذه الأثناء ولد يحمل

الماء في دلوٍ صغير، وتوقف أمامه عارضاً بضاعته. أخذ أمجد الدلو من الطفل ودفع له نقودا يمكن اعتبارها كثيرة. فوجئ الولد بهذه الحركة، وأدرك أن زبونه قد أخطأ على نحو من الأنحاء، فوقف متسمراً يحدّق في وجهه والنقود مازالت بين يديه. وحانت من أمجد التفاتة إلى الطفل، وهزّ برأسه هزة خفيفة. كان كمن يقول: المبلغ كلّه لك، وأنا لست مجنونا. ثم راح يسقي تراب القبر من ماء الدلو. أما الطفل فإنه لم يهرب بالغنيمة. بل ظل واقفا في مكانه، وبسط يديه، وراح يقرأ الفاتحة إلى روح المرأة التي لم يرها يوما. انتهى الرجل من سقاية تراب القبر. حانت منه التفاتةٌ إلى الطفل. رآه يمدّ له يده بالنقود. لم يستوعب أمجد الأمر. نظر في عينيه مباشرةً كمن يسأله: ماذا تريد؟

ابتسم الطفل، وقال:

لا شيء.

أنت تبيع الماء. أليس هذا عملك؟

لا. كان هذا عملي قبل ثلاثين سنةٍ تقريباً.

قبل ماذا؟! فكم عمرك الآن؟

هل تعرف؟

وصمتَ الطفلُ. وطال صمته تحت نظرات أمجد المتأملة. كان كمن يسأل: أعرف ماذا؟ كانا يقفان في مواجهة بعضهما، والعينُ بالعينِ. قال الطفل أخيراً وقد أخذته بالرجل الشفقة:

أنت تفاجئني.

أفاجئك؟ لماذا؟ كيف؟

لأنك قد نسيتني.

فهل أعرفك أصلاً حتى أنساك؟

وهنا تماماً مربط الفرس يا صديقي.

لا أفهم. هنا أين؟

في أنك تجهلني يا أمجد.

ودسّ النقود في يد الرجل، وانصرف حاملاً دلو الماء الفارغ. راح يبتعد بين القبور تاركاً أمجد للحظةٍ طالت قليلاً في حيرةٍ من الأمر كله. ولكنه صرخ إثرَ الطفل فجأة:

انتظر أيها الولد!

توقف الطفل عن المشي، والتفت إلى أمجد الذي راح يلحق به بين القبور المتلاصقة مثل أشجارٍ في غابة مطرية. وصل إليه لاهثاً يلتقط أنفاسه.

ماذا تريد؟

سأل الطفل. ردّ الرجل:

ربما كنت أعرفك. ولكن قل لي أولاً: ما اسمك؟

اسمي أمجد أيضا.

أمجد فقط؟ أليس لك اسمٌ آخر؟

بلى.

وماذا هذا الاسم يكون؟

إنه اسمٌ غريبٌ بعض الشيء، ويكاد أن يكون بلا معنى. تماماً مثلما كانت حياتي.

أي اسم هو؟

ليفاز.

وكيف يكون بلا معنى وقد أنفقتُ عمري أبحث عن ليفاز؟ هل تعرف هذا؟

نعم أعرف هذا. أعرفه جيداً. حتى إنني كنت أُشفق عليك.

لماذا كنتَ تشفق عليّ؟

لأنك كنت تبحث عني في الأمكنة الغلط.

أين كان يجب أن أبحث عنك إذن؟

هنا. بين القبور، فالمقبرة هي المكان الوحيد الصحُّ في الحياة. المكان الذي لا بدّ وأن يأتيه الجميع يوماً ما. بالمناسبة، لقد رأيتك هنا مرّةً قبل نحوٍ من عشر سنوات.

يومَ أن ماتت أمك؟

نعم يوم أن ماتت أمي.

هل تشتاق إليها؟

إنني أسقيها الماء كلَّ يوم. إنني أرعاها جيداً.

أوَلا تشتاق إليّ أنا أيضاً؟

أشتاق إلى درّاجتي الهوائية العتيقة؟ هل ما زلتَ تحتفظ بها؟

لا. ولكنني سوف أشتري لكَ درّاجةً حديثةً بدلاً منها. درّاجة ألمانية أو يابانية، وسوف أشتري لك ثياباً، وأحذية وسريراً وكرة قدمٍ وطعاماً وفيرا. سوف أشتري لكَ الطفولة التي كانت تنقصك، فتعال معي يا ليفاز.

ولكن قل لي من فضلك: ماذا عن وِدادَ و أمي و شمسٍ و سامرٍ وخلدونَ والبقية؟

ما بهم؟

هل تستطيع أن تعيدهم إليّ هم أيضاً؟

لا، هذا فوق طاقتي.

هل تعرف؟ أنا أيضاً كنت أتجسس عليك. على مستقبلك. كنت أعرف ما الذي ينتظرك في هذه الدنيا. وكنت حزيناً من أجلك، فأنا

في الحقيقة لم أكن أريد أن أكبر. لم أكن أريد أن أعيش هذه الحياة التي عشتَها، فالحياة ليس هكذا تُعاشُ يا صديقي. هل عرفتَ الآن لماذا قذفتُ بجسدي الصغير أمام تلك السيارة العابرة؟

فكيف تُعاشُ الحياةُ إذن يا ليفاز؟

لا جدوى الآن من الجواب، فقد فاتكَ قطارُ العُمْر.

وماذا عنك أنت؟

ماذا عني أنا بأي شي؟

هل فاتك القطار؟

لا، لم يفتني. تركته يعبر من أمامي وأنا أتفرج عليه وهو يبتعد عني إلى أن ابتلعه الفراغ. بالمناسبة، لا تخف على زوجتك من الظمأ. سوف أسقيها الماء كلَّ يوم، فالموتى يعطشون كثيراً إنْ كنت لا تعلم.

إذن، فأنت لن تأتي معي.

لا، لن أذهب إلى أي مطرح. بل سوف أبقى هنا بين القبور. لديَّ في هذا المكان ما أعمله. من يسقي الموتى العِطاشَ إنْ أنا هجرتُ المقبرة؟ اتركني بحالي، واذهب وحيداً في سبيلك. الوداع يا صديقي!

وانصرف الولد. وصرخ أمجد إثرَه:

تمهل يا ليفاز.

التفت ليفاز إلى الرجل الغريب، وسأله:

ماذا تريد بعد؟

إلى أين أنت ذاهب؟ وأين تقيم؟

أقيم هناك.

هناك أين؟

في ذلك القبر الخاوي.

وانصرف الولد، وقال أمجد إثرَه كمن يستجديه البقاء ولو قليلا:

لا تتركني وحيداً يا ليفاز؟

أمي تناديني. إنها مريضة. لعلّها تشعر بالبرد. أو ربما اشتدّ عليها وجع المفاصل.

بماذا تهرف يا ليفاز؟ أمك ميتة من سنواتٍ كثيرة.

نعم، هذا صحيح. إنها ميتة. ولكن أنتم الأحياء لا تسمعون أصوات الموتى.

فكيف تسمعه أنت إذن؟

ومن قال لك إنني من الأحياء؟ فأنا لم أعد أنتمي إليكم منذ أن قذفت بجسدي الصغير أمام تلك السيارة العابرة. في ذلك اليومّ صرتُ أنا هنا وبقيتَ أنت هناك. والآن اعذرني. أمي تناديني بإلحاح. يبدو أن الوجع قد اشتدّ عليها. لقد جئتُها بالأسبرين.

ولوّح الولد بيده من جديد ومضى بين القبور مبتعداً، ودخل في أحدها. عَبَرَ جدار القبر كما تعبر الأشباحُ مختلِفَ العوائق، حتى الإسمنتية منها والزجاجية. واختفى عن ناظري أمجد الغارق في أفكاره التي لم تكن يوماً إلّا حَيْرةً في حَيْرة. ولكنه ظلَّ يراقب القبر لعلّ الطفلَ يظهر من جديد، وطال انتظاره بلا طائل، فذهب إلى قبر أمه يستطلع الأمر. وجده خاوياً تماماً. كان مجرد حفرةً تشبه تلك الفجوة التي في روحه. تلك الفجوة التي تأبى الامتلاء. حفرةٌ، هوّةٌ، فجوةٌ، ولكنها بلا قرار. ظلَّ يحدّق فيها حتى زاغ منه البصر، فوجد نفسه مترنحا من دوخةٍ حلّت برأسه، وبعد الترنح كان الارتماء في الهوّة التي بلا قرار. الارتماء الذي يشبه الوقوع في الفراغ أو السقوط في الزمن. ما الفرق بين الزمن وبين الوقت؟ لا أعرف. ربما كانت الفوارق لاغية في حقيقة الأمر. أو لعلَّ المسألةَ برمّتها مجرد أحجيةٍ تتعلق بلغة العرب وحدَهم من بين لغات مختلِف البشر. ففي

حدود ما أعلم لا يوجد في اللغة الروسية، وهذه على سبيل المثال، إلّا لفظةٌ واحدة تدلُّ على الزمن والوقت معاً (vريميا). وعلى سبيل المثال كذلك، لا يوجد في اللغة الإنكليزية الأكثرَ انتشاراً حول الأرض إلّا كلمةٌ واحدة أيضاً للوقت والزمن (تايم)، فمن أين جاءت اللغة العربية بلفظتين؟ هذا إن لم نقل بثلاث ألفاظ، فيجب ألّا ننسى الدهر أيضا. والسؤال الأهمّ هنا من (من أين) هو: لماذا؟ لماذا اللفظتان؟ ما التمايز بينهما؟ ما التمايز بين الوقت وبين الزمن؟ قد يقولون لك: الوقت قطعةٌ من الزمن. وقد يعكسون الآية ويقولون: الزمن قطعةٌ من الوقت. أو قد يقولون: الوقت ما قلَّ من الزمنِ، والزمنُ ما كثُرَ من الوقت. أليس هذا ما قالوه عن (النأْيِ) و (البُعدِ)؟ وقد يقولون كلاماً آخرَ كثيراً. لكن، ومهما قالوا، فإنّ هذا لن يغيّر من حقيقة الأمر فتيلاً. كلُّ شيءٍ في النهاية سوف يظلُّ أحجية. مجرد أحجية. ولكن ما الغاية من الأحاجي؟ أم ترانا متورطين بلغةٍ ليست إلّا مجموعةً هائلةً من الألغاز؟ كنت أطرح هذه الأسئلةَ على نفسي وأنا أهوي في الفراغ المهيب بسرعةٍ مجنونةٍ تفوق سرعة الضوء، ففاجأني سؤال جديدٌ، أو عادني سؤالٌ قديم: هل سرعة الضوء هي ذاتها سرعة الزمن، أم إنّ الزمن لا سرعةَ له؟ إنه السؤال الذي شغلني ذاتَ ليلةٍ بعيدة من بعد أن تناولت قرص الكبّة المسموم. هل الأمر كذلك؟ لا أعرف. إلى الآن لا أعرف. يبدو أنني ما زلت غشيماً بأسرار الوجود، تماماً مثلما كنت وأنا في طور المراهقة بعد. وهذا الأمر في الحقيقة لم يكن يزعجني تلك اللحظة، عندما كنت أهوي في ذلك الفراغ الأزرق المخضل بحمرة الشفق. كنت أهوي في سقوط حر. ولم أكن وحدي. جميع الذين عرفتهم في الحياة كانوا معي: سامر وَ وداد والفتى إبراهيم. كان هذا الأخير يقصُّ في الضوء البهيج أظافر يديه، وينتظر وصولنا إلى الكوكب الذي يستأهل أن يدفن فيه القلامات. كنا جميعاً نمتطي زلّاجة زجاجية هي أشبه ما يكون بزلّاجات الأطفال الحديدية في حدائق المدينة، والتي يسمّيها عامة الناس (زحليطة) المأخوذة على الأرجح من لفظة زحليقة الفصيحة. وكنا

نسافر لا أدري إلى أين. هل كنّا مجرد هاربين من كوكب الأرض؟ لعل الأمر كان كذلك. وكان عددنا يكبر من لحظة إلى لحظة. لا أعرف من أين كانوا يجيئون: أمي وأنت يا سيدرا وسلمى والبقية. حتى المتنبّي انضمّ إلينا لاحقاً. قال لي مبتسماً: أليس هذا مركب الفساد؟ قلت: لا، هذا موكب الموتى يا جَدّي البعيد. ولكنْ قلْ لي من فضلك: هل حقاً أن هذا أنت؟ ضحك كثيراً. كان مبتهجاً. راح ينشد: الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني. وظهر فجأةً الأستاذ شوقي في المركب المنزلق في الفراغ، وقال لي: لا تصدّق هذا الدّجال الذي فتنك طوالَ العُمْر. قلت له: اشتقت إليك يا أستاذيَ الكريم. قال لي: وأنا اشتقت إليكَ يا ولدي، ولكنني عاتبٌ عليكَ أيضاً، فأنت لا تزورني في مرضي منذ أكثر من سنة. ثم قال لي: المهم الآن أن تحذر هذا الدّجال، فهو أوّل الفاسدين، وأوّل الطغاة، ولكنَّ ذلك العبد الأسود الذي اسمه كافور حال دون افتضاح أمره. لم يدافع جدّي البعيد عن نفسه من هذه الاتهامات الثقيلة، حتى إنه قال لي: هل تعرف أني مدين بالشكر لذلك الحجر الأسود، برغم شتائمي الكثيرة إليه؟ فلو كان أقطعني إمارةً في مصر لانفضحتْ حقيقتي لكم كما الشمس في يومٍ صيفيٍّ ساخن. على أية حال، حسناً فعل. وقال لي أيضا: من أينَ يأتي كل هؤلاء الناس؟ قلت له: لا أعرف يا جَدّي. كانوا كثيرين على نحو لا يصدق. أحياءٌ وأموات، مجرمون وضحايا، سارقون ومسروقون. كنا جميعاً في زحليقةٍ واحدة نهوي ونهوي، ولكننا لا نصل إلى نهايتها.

وظلَّ يتمايل عند حافّة الهوّة التي بلا قرار وهو يوشك على السقوط فيها لولا أن امتدَّت إليه يدٌ وأمسكتْ بذراعه في لحظةٍ ما قبل التلاشي.

هل هذه اليدُ يدُكِ؟

ألم أقلْ لكَ إنني سوف أظلُّ ملاكَكَ الحارس؟

جذبته إليها. ضمته إلى صدرها. جاءه صوتها حانياً:

لماذا تريد أن تموت يا صديقي؟

لأننا افترقنا أنا وأنتِ يا كاتيا.

كانت غلطة. مجرد غلطة. الأمر كلّه كان غلطة. كان وهماً. كان سرابا. أنت لا تعلم أنني افترقتُ مع ذلك الذي انتظرته طويلاً، فظلمتك معي، وظلمت نفسي قبل ذلك. إنني أحبك لأنك وقعتَ في حبي. كان يجب ألّا نفترق أنا وأنت. كان يجب أن نسعى في إسعادِ بعضنا، فلماذا لم نفعل يا ربي؟!

خذيني إلى الغابة البعيدة يا كاتيا، فقد «أزهرتْ أشجارُ التفاح والخوخ، وهبطَ الضبابُ فوقَ النهر.»

26

الآنَ فقط فهمتُك.

الآن فقط عرفتُ لماذا لمْ تتصل بي عندما كنتَ في دبيّ.

فهل تعلم أنني رجعتُ إلى باريس تواً من بيروت، وأنني كنت قبلها في دمشق؟

مؤكد أنك لا تعلم.

ولكن هل تعرف ما الذي يجعلني حزينة يا أمجد؟

أخشى أنك لا تريد أن تعرف.

لا تريد أن تصدق أنني وقفت على رصيف المدرسة الابتدائية وألقيت على شرفة منزلنا نظرة. هل أقول لكَ ماذا تذكرت وأنا أقف على الرصيف؟ تذكرت أغنية فيروز الحزينة:

صباح ومسا

شي ما بينتسى

تركت الحب

وأخدت الأسى

وكادت دموعي أن تسيل على وجنتيّ، ولكنني انصرفت تاركةً المكان هاربة.

يبدو أنني سوف أقضي عمري كلَّه هاربة.

بأيّة حالٍ أنتَ بعد سلمى؟

أخاف عليك من الحزن يا حبيبي.

لقد خشيت من أن أصعد إلى المنزل. خشيت من أن ألقاك أمامي. فأيُّ شعورٍ سينتابني عندئذٍ؟ إنه السؤال الذي طرحته عليكَ مرّةً. أظنُّ أنني لا أحتمل قسوة الجواب: قطعةٌ من روحي مفقودةٌ عادت إلى مكانها فجأة. هذا الإحساس فوق طاقتي على الاحتمال. أو من يدري؟ لعلّني كنت سأخجل منك. فماذا كنت سأقول لك لو لقيتُني معك وجهاً لوجه؟ سوف أعترف لك بالحقيقة طبعاً: لم أحضر إلى دمشقَ من أجلك كما فعلت في المرّة السابقة، في ذينك اليومين البهيجين. نعم، كانا يومين بهيجين، وكانت روعتُهما باذخة، رغم أنهما كانا يومين مليئين بالدموع والحسرة، ورغم أنهما كانا يومين للوداع. أظنك حدستَ بهذا. وأنا لم أجرؤ وقتئذٍ على أن أقول لك حقيقتي، بخلاف هذه المرّة: لم أحضر إلى دمشق من أجلك، بل من أجل شمس. فقد قلت في نفسي: ربما كانت ما تزال تقيم في عشوائيتنا الأليفة. هل زرتَها بعد أن انتهت فيها المعارك؟ إنْ لم تزرها فإنني أنصحك بألّا تفعل، فليس فيها حجرٌ على حجر، حتى إنني لم أعرف موقع بيتنا بدقة، ولكنني جلست على أطلال ما تصورته بيتنا. لا أثر لشمسٍ طبعاً. وهذا ما يدمّرني يا أمجد. لا أثرَ لشمس. لا أثر للماضي البهيّ. لا أثر لشيءٍ حبيبٍ في حياتي. أيّ حزنٍ يحتلني وأنا أقف وحيدةً عاريةً في وجه اندفاعة الزمن الذي لا

يرحم؟ لقد كبرتُ يا أمجد. صار في رأسي بعض الشعرات البيض. المرايا لا تكذب. هل تعرف ماذا كان أكثر سؤالٍ تردد صداه في رأسي وأنا أجلس على أطلال البيت؟ لماذا كبرنا؟ هل تعرف أنني أقدمتُ على الانتحار مرّتين. أوشكتُ على الموت مرّتين؟ آه يا حبيبي لو تدري ماذا في هذا القلب من طوايا! فأنا متكسّرةٌ بشكلٍ عشوائي. إنني حُطامُ امرأة. تذكرتك كثيراً وأنا أجلس على الأطلال التي غدتْ رمادا. تذكرتُ جرحك القديم في نتيجة شجارِكَ مع سامرٍ بسببي، وتذكرت عرانيس الذرة التي كنا نقشّرها في ليالي الصيف، وحكايات شمسٍ التي لا تعرف لها بدايةً من نهاية، وتعب أبي مع عربته الخشبية، ودراسة صديقك علاء المتعثرة، ودرّاجتك الهوائية العتيقة، والخدش الذي في ذقني الصغيرة، والسؤال ذاته يلفّ ويدور في رأسي: لماذا كبرنا؟

يا ليتنا بقينا صِغارا!

فأنا امرأةٌ يقتلها الحنين إلى الخوالي.

سألتكَ مرّةً: ما الفرق بين الشوق وبين الحنين؟

ولكنك لم تجب عن سؤالي الذي طرحته فيما بعدُ على سيدرا خلال دردشةٍ على الفيس بوك.

قالت لي:

الشوق للمستقبل والحنين للماضي.

فكّرت بجوابها مليّاً. لم أقتنع به.

لديّ تجربتي مع هذا الأمر.

الشوقُ يقتل مرّةً، والحنين يقتل مرّتين.

أحنُّ إلى بيتي معك. إلى مطبخي. أحنُّ إلى صياح الديك في الليالي البهيمة. بالمناسبة، ما أخباره؟ هل ما زال على قيد الحياة؟ ماذا حلَّ به؟ هل ما زال يصيح، أم إنهم قد ذبحوه من بعد أن هرِمَ

ولم يعد نافعاً لشيء، ولا حتى للصياح؟ يا الله يا أمجد كم أحنُّ إلى تلك الأوقات!! هل أخبرتك من قبلُ أنني قرأت رواية الحزن؟ كنتَ وعدتني أنك لن تنشر (ظلّ القمر.. أو: قصة من أجل قارئٍ واحد)، من دون موافقتي. تريد الصراحة؟ حسناً فعلتَ حين نشرتَها، ولكن لماذا اختصرتها إلى هذا الحد؟ نصّ المخطوط الذي قرأتُه أكبر من المنشور في الرواية. كنتَ قد قلتَ لي في تلك الكفتيريا عشية رحيلي إلى دبيّ: إنْ كنتِ غير موافقةٍ على نشر هذا القصة تستطعين تمزيق المخطوط، أو تستطيعين أن تنسيه في سيّارة أجرة، وبهذا يكون قد وصلني الجواب. وأنا عملت بكلامك، ونسيت الورق في سيّارة أجرة، في حقيبة سفرٍ صغيرة تركتها في صندوق تلك السيّارة، نسيتها هناك من شدّة لهفتي على الصعود إلى البيت، من شدّة لهفتي على لقائك يا حبيبي، فلا تلمني، أرجوك ألّا تفعل، فقد حملتُ المخطوط معي من دبيّ من أجل أن أعيده إليك، من أجل أن أقول لك: انشره، ولكنَّ شوقي إليك قد غلبني، وصار ما صار، فلا تلمني، أرجوك ألّا تفعل، إنها مجرد قطعةٍ من حياتنا ناقصة، قطعةٌ واحدةٌ من عديدٍ سواها، وكلُّها يبعث على الحزن والندم. على أية حال، جيدٌ أنك أعدت كتابتها، ولكن لماذا حذفتَ مشاهد الختام؟ هل فعلت ذلك لضرورات البناء الروائي أم لأسبابٍ شخصية مثلاً؟ وبغضِّ النظر عن السبب الذي دفعك إلى ذلك، فإنها تبقى ألطفَ فصولِ روايتكَ القاسية. هل ترى؟ إنني لست غاضبةً عليك من النشر، بل إنني سعيدةٌ بالأمر جداً، رغمِ أنك كتبت اسميَ الصريح. وأبقى في الرواية التي تقول فيها: لكلِّ إنسانٍ حزنُه، وتقول: الحزن هو اضطراب الأولويات (أليس هذا التعبير مُحَرّفاً أو حتى مقتبساً؟) ولكنك لم تقل من أجل ماذا أنت حزينٌ بالضبط. ربما وافقتكَ على أنّ الحزن هو اضطراب الأولويات، وأنّ لكلّ إنسانٍ حزنَه، وأنَّ لكلِّ إنسانٍ ندمَه، وأنا لست استثناءً، فأعرف بالتالي على ماذا أنا حزينةٌ ونادمة. إنني نادمةٌ على أنني لم أستوعب الدرسَ جيّداً. هل تتذكر حديثنا البعيد في تلك الكفتيريا البعيدة بعد تلك القبلة الذئبية؟ هل تتذكر يومَ قلت لك: لا تكن

ذئباً بعد اليوم؟ هل تتذكر حديثك إليَّ عن وفاء الذئاب. حسناً. أنا لم أكن لكَ وفيّة. لم أكن ذئبةً يوماً. وعلى هذا بالضبط أنا نادمة. نادمةٌ على أنني خنتك. نعم، لقد خنتك يا أمجد. لم أخنك مع رجلٍ ما بالطبع كما قد تحب أن تتصور، برغم أني قد تزوجتُ أنا أيضاً. أظنك لا تعلم بهذا الأمر. زواجٌ حكَمتْه المصلحة. كان هذا في دبيّ. تزوجت بعد ذينك اليومين اللذين كانا للوداع. بعد ذينك اليومين مباشرةً. تزوجت سرّاً وانفصلتُ سرّاً. وفي باريس كان لي علاقةٌ عابرةٌ بأحد الرجال، ولكنه ليس سامراً الذي كنت أقيم معه تحت سقفٍ واحد. أظنه لم يكن ينظر إليّ كأنثى. ليس احتراماً لي، وليس احتراماً لك، بل أعتقد أنه كان كذلك احتراماً لنفسه. كدنا في إحدى الليالي، أنا وهو، أن نخونكَ سويةً، غير أنه انسحب من الحكاية فجأة. انسحب بشكلٍ لا رجعةَ فيه. حتى إنني صرت أشعر بالخجل منه بعد تلك الليلة. صرت أشعر بالخجل من النظر في وجهه. أما هو فأظنه قد اتخذ قرار العودة إلى سوريا هرباً منكَ ومنّي. لم تكن شهامته تسمح له بأن يطلب إليَّ مغادرة المنزل، فوجد في الرحيل عن فرنسا مؤقتاً الحلَّ المناسب للوضع المُعَقّد الذي وضعناه فيه أنا وأنت. ولكنَّ المؤقتَ، للأسف البالغ، صار أبدياً. من المؤكد أنه لم يكن يخطر بباله تلك النهاية المأساوية التي آلَ إليها. النهاية المأساوية التي لا أستطيع أن أعفي منها أيّاً منّا: أنا وأنت. نعم، لقد شاركنا نحن الاثنان في قتل أجمل أشخاص حياتنا. هل تعلم أنني أبكيه كلَّ ليلةٍ إلى الآن، وأظنني سوف أظلُّ أبكيه إلى أن أموت. أشرب الكحول كلَّ ليلةٍ وأبكي. بالمناسبة، لقد رجعتُ إلى التدخين من بعد أنْ هجر سامرٌ الدَّار. صرت أشرب الكحول، وأدخن السجائر وأتعاطى المهدئات أحياناً. سيدرا لم تعد تكتب لي على الفيس بوك إلّا قليلا. رجاءٌ تنصحني بأن أتوقف عن هذا الشكل من العيش. إنها تتصل بي كلَّ يومٍ تقريباً. هل تعرف ماذا قالت لي مرّةً؟ قالت: أنتِ لا تستأهلين أمجد يا وِداد، أقولها لكِ بصراحة لأنك أقرب صديقاتي. وتعود تنصحني بأن أتوقف عن التدخين والكحول والمهدئات. أقول لها:

ولكنني وحيدةٌ يا رجاء، وأنا لست على استعدادٍ لمنازَلَة الوحدة. نعم يا أمجد. إنني وحيدةٌ جداً، ومحطّمةٌ جداً. لماذا أعترف لكَ بهذا الكلام المخبوء في بئر الأسرار العميقة؟ لأنني أريد أن أكون أمامك مثل كتابٍ مفتوح. نعم، أقمت علاقةً عابرةً برجلٍ عابر. هل تعتبر هذا الأمر خيانة لك؟ أنا لا أراه كذلك. ومع هذا فقد سبق لي أن خنتك عندما كنت معك بعد. خنتك. خنتك. خنتك. خنتك في عقلي يا أمجد. هل تعرف متى كان ذلك بالضبط؟ ليس ثمة يومٌ معلوم، ولكنه كان في تلك الفترة عندما لم أعد قادرةً على أن أفصل بين الليل وبين النهار في علاقتي بك، برغم وجود الدّيكِ الذي لم نسمعه يوماً يصيح إلّا في قلب الظلمة. نعم يا أمجد لقد خنتك عندما قلت لك: أنا نعسانة. وانصرفتُ عنك، وتركتك تكمل السهرة وحدَك.

والآن دعني أنتقل إلى مشكلتنا المزمنة أنا وأنت: هل من سبيلٍ إلى اللقاء في نهاية المطاف؟ لقاءٌ لا يكون بالمصادفة. بل عن قصد. عن رغبة. عن سبق إصرار. أنا ذاهبةٌ إليكَ وأنت قادمٌ إليّ. أنت كما أنت بعد اثنتي عشرة سنةً على الفِراق، وأنا كما أنا. من جديد: أقترح بيروت. ردّ عليّ الآن. قل لي إنك موافق، وامهلني أربعاً وعشرين ساعةً فقط، فأحجز من هنا غرفة لنا نحن الاثنين في أحد الفنادق. فندق ستاندارد مثلاً. أظنك تعرفه. ثم أركب الطائرة، برغم إرهاقي الشديد، وأسبقك إلى الموعد الذي لم أعد أريد من الحياة سوى أن يتحقق.

27

بالأمس يا سيدرا أقلعتُ عن التدخين.

استيقظ في الصباح باكراً أكثر مما ينبغي. أو: إنه لم يستيقظ من النوم هذا الصباح لأنه لم يكن قد نام في ليلته الفائتة. ربما

أصاب غفوة قصيرة بُعيد الفجر أو قُبيل الشمس. ربع ساعة أو حتى دون ذلك. ولكن الغريب في الأمر أنه استيقظ بعدها نشِطاً، ورائقا. كيف هذا يكون؟ وما هي الآلية التي يتم بها مثل هذا الأمر الغريب؟ لقد اعتاد أن ينام ساعتين أو ثلاث ساعات كل ليلة، يصحو بعدها فاتر الهمّة بعض الشيء، ثم لا يستعيد قوته إلا بعد ساعة أو ساعة ونصف. واليوم يصحو بعد أقل من ربع ساعة فقط، نشطاً، ورائقاً، رغم أنه قضى ليلة أضاع خلالها مئة مرة مكان وجوده وزمانه. ربما كانوا يسمّون هذه الحالة: الضياع الوظيفي. فكيف يمكن تفسير هذا النشاط؟ وهل إن الإنسان لا يحتاج لأكثر من ربع ساعة من النوم في الليلة الواحدة؟ سؤال سخيف طبعا. أم أن هذا الذي يحدث له طارئ وعَرَضي سببه سحب النيكوتين المفاجئ من دمه؟ لقد صور له بعض الناس (ترك السيجارة) على أنه شيء هارب من الأساطير في قسوته. ولكن تجربته القصيرة إلى الآن تجعله لا يفهم أولئك الناس.. ذاكرته اليوم أفضل من أي وقت مضى!. إنه يتذكر، على نحو مِمتاز، تفصيلات كثيرة من الذي جرى له في ليلته الفائتة، وهو الأمر الذي لا يقدر عليه عادةً، ففي اغلب الأحيان ينسى الليل عند الصباح. ربما كان الجميع ينسى. فالجميع يتذكر أنه رأى حلما في منامه، ولكنه لا يتذكر عن أي شيء كان ذلك الحلم. إن الأحلام التي نتذكرها عادة لا تتجاوز عدد أصابع اليدين، رغم أنها زارتنا في نومنا بالآلاف أو بعشرات الآلاف خلال ليالينا الطويلة. إنه لا يستطيع الآن أن يتذكر خمسة أحلام أو ستة من بين تلك التي رآها في ثلاثٍ وأربعين سنةً انقضتْ علىً وجوده في هذه الحياة الدنيا. أما اليوم فإن ذاكرته طازجة إلى حد جعله مشوشاً بعض الشيء.. كان يتواجد في بحيرة كبيرة. وفي البحيرة مجموعة من الجزائر المتناثرة. ستون صخرة أو سبعون. كان يركب زورقاً خشبياً صغيرا. وفي الزورق مجذاف واحد فقط. وهو يجلس عند نهاية الزورق.. المجذاف يضرب الماء ضرباتٍ قويةً رغم رتابتها. ويشق طريقاً بين الصخور التي لو اصطدم الزورق بإحداها لتمزّق وتمزّق

الرجل معه. ومع كل خبطةٍ جديدة كان يشعر أن ليس الماء ما ينخبط، بل قلبه. وللأمانة: لم تكن الضربة تصل منه إلى القلب، بل إلى منتصف الصدر فقط. منتصف الصدر من جهة اليمين قليلاً. لكنْ ظلّ لديه إحساس يرقى إلى درجة اليقين بأن الضربة التالية سوف تصيب القلب مباشرةً وتمزقه أو تقتلعه من جذوره. قد يقول له أحدهم: وما العجب في ذلك؟ لقد كنت تحلم حلماً مزعجا بسبب إقلاعك عن السيجارة. ولكن المشكلة بأنه لم يكن نائما. ولم يكن يحلم. كان ينظر إلى وجعه بعينين مفتوحتين، فهو يتذكر جيداً خوفه من سكرة الموت. من عذاب الموت. ولكن ليس من الموت نفسه. ظل في الزورق نحواً من ربع ساعة يصارع سكرة الموت. وبسبب من (حلاوة الروح) تشعبط بإحدى الصخور القريبة، وغادر الزورق الذي جعل يبتعد مع صوت المجذاف الرتيب. بقي في مكانه على الصخرة يراقب اختفاء الزورق إلى أن تلاشى تماما. نزل عندئذ، من الصخرة، وخرج إلى شرفة البيت، وهو يجاهد في التقاط أنفاسه من بعد أن اشتدّ عليه وجع الصدر. رنا إلى السماء، فرأى القمر قد شرع بالرحيل.. قال له:

مهلا! مهلا أيها القمر! فإلى أين تمضي وما زال في الليل بُقيا؟

ولم يسمعه القمر فقد مرقت سيارة في الطريق تحت شرفته، وزعقت بزمور ليس يدري من أجل أي شيء، فحالَ الزعيقُ بينه وبين صديقه القمر. حتى الدّيك كان عليه متآمرا. يا إلهي! من أين جاء هذا الديك الذي جعل يصيح فجأة كمن يعلن فرحه بمقدم الشمس وأفول القمر؟. غادر الشرفة. ذهب إلى غرفة النوم، ومن مكان ما في الجوار ارتفع صوت مطرب يزعق هو أيضاً من راديو أو مسجلة مستجدياً إحدى النساء بقوله: زيديني عشقاً، زيديني.. رجع إلى غرفة النوم، وقذف بجسده على الفراش، واستنجد بجميع الأولياء والقدّيسين: أعينوني على النوم يا أسياد، فقد تعبت من هذا الضياع وتلك البعثرة، واستجاب الأسياد لدعاء الرجل البائس المسكين من بعد لأي، وحملوه إلى مملكة النوم ربع ساعة أو نحو ذلك.

كان الوقت كثيرا أمامه هذا الصباح. سلمى كانت تحب النهار من أولّه، بخلافه هو، الذي كان وما زال يحب الليل إلى آخره، ولهذا فإنه كان يرغب دائماً في أن يسميها: فتاة الصباح. والوقت في صباحه هذا كثير أمامه، فماذا يفعل بهذا الوقت الكثير كله؟ حلق ذقنه، وغسل رأسه وشرب كأسا كبيرة من القهوة الرديئة، ورغم ذلك فإنه لم يصرف من الوقت الكثير إلا قليلا، فالوقت لا يمضي من دون سيجارة. هذا ما يشعر به. إنه شديد البطء والكسل. الدقيقة دقيقتان، والساعة ساعتان.. أخشى ما أخشاه أن تكون الحياة، من دون سيجارة، حياتان. فهذه دون ريب مصيبة من نوع ما.. خرج إلى الشرفة من جديد، من دون سببٍ واضح يدعوه إلى ذلك. مذ متى لم يكن صاحيا عند مقدم النهار؟ لقد مر زمن طويل جدا. حتى إنه لا يتذكر ذلك اليوم الذي سمع فيه أو رأى التلاميذ الصغار، آخر مرة، لحظة رواحهم إلى المدرسة. واليوم، ما من تلاميذ، صغارا كانوا أم كبارا. إنه الصيف. وهو رجل سيء الحظ، فقد اشتاق إلى تلك الصباحات البعيدة.. مرق بائع الخبز من تحت شرفته ينادي مروّجا لبضاعته. ومرق بائع الحليب أيضا ينادي. وزعقت سيارة تطير بسرعة رياضية، بزمورها المفتوح، وجاوبتها سيارة ثانية من الاتجاه المعاكس بزمور مماثل. الحرب انتهت. شتم السيارتين والسائقيْن ودخل إلى البيت وهو يحمد الله على أنه يشعر بالنشاط بعيدا عن البلبلة والرجفان وبقية مظاهر الحرمان التي عاشها في ليلته الفائتة، وتصور بسببٍ من قلّة تجربته أو كثرة غبائه، أن تلك المظاهر لن تعود إليه ثانيةً. ولم يكن يعلم بأن في هذه المظاهر حياءً «فليس تزور إلا في الظلام».. دار في البيت من غرفة إلى غرفة من دون هدف محدد. كان كمن يكتشف أشياء المكان. انتبه، للمرة الأولى، إلى لون الستائر في غرفة النوم. كان يظنها بيضاءَ اللون. عرف اليوم أنها ليست كذلك: طحينية أو سكرية، أو شيء من هذا القبيل. أم تراها ليست نظيفة تماما؟ كيف يمكن أن نعيش مع أشيائنا من دون أن نراها؟ اللعنة عليك يا كولومبوس! ذهب إلى

غرفة المكتبة. «يا إلهي!» كم هي كثيرةٌ الكتب التي اِشترتها سلمى خلال سنتها الأخيرة قبل المرض!» يا إلهي!» كم هي كثيرة الكتب التي لم يلمسها خلال سنته الأخيرة! ألف ليلة وليلة في طبعة غير منقوصة أرسلها إليه صديقه خلدون هديةً من القاهرة قبل خمسة شهور تقريبا. لقد عثر الرجل على هذه النسخة بصعوبة بالغة. فما الذي يفعله هذا الكتاب في بيته ما دام لا يلمسه بعد؟ كان غيرُه أجدر منه باقتنائه. أخذ المجلد الأول من الكتاب، وراح يتصفحه. ولكنه سرعان ما شعر بالملل. أعاد المجلد إلى جوار أخوته. وراح يقلب عناوين بقية الكتب المتراكمة منذ سنة وأكثر. كانت أغلبيتها روايات عالمية وعربية. وكان بينها إهداءات له بإمضاءات مؤلفيها. هذه أيضا لم يقرأها. ماذا يقول لأحد أولئك الكتاب إن التقاه فجأة؟! ترك المكتبة ورجع يدور في أرجاء البيت. لون جهاز الهاتف الأرضي أسود ولون إطار شاشة التلفزيون أسود أيضاً، ولون شفرات المروحة في الصالون أزرق. لن ينسى هذه الأمور بعد الآن. ثمة لوحة لرامبرانت في غرفة النوم. نوبة الحراسة الليلية. ما الذي يفعله رامبرانت في غرفة نومي؟! تساءل باستنكار، وحاول أن يتذكر متى ولماذا وضع هذه الصورة هاهنا. ولم يتذكر شيئا، رغم قوة ذاكرته هذا الصباح. وقف أمام اللوحة يتأملها كما لو كان يراها لأوّل مرّة. ما هو منبع الضوء في هذه اللوحة الغريبة؟ هل فكّر رامبرانت بهذا السؤال وهو يرسمها؟ أم لعلّه لم يكن يكترث لمثل هذه الأسئلة؟ ولكنَّ دوستويفسكي كان يعرف ينابيع الأضواء التي تنير شخصياته. كلها، مثلما كان يفعل رامبرانت، مُضاءةٌ من مصدرٍ واحد، ولكنها كلها ليست مُضاءةً بالكامل، تماماً مثل لوحات رامبرانت أيضاً. دائماً هناك شيءٌ ما يسبح في الظلال.. هل حبّي لدوستويفسكي ما جعلني أحبُّ رامبرانت؟ ربما كان الأمر كذلك. لم أفكّر به كثيراً. تركت اللوحة وشأنها. أشياء سلمى ما زالت على حالها في غرفة النوم، مثلما هي أشياءُ وِدادَ في غرفة العجوز. ثمة ميزانان لقياس حرارة الجو معلّقان في الصالون، أحدهما على الجدار الشرقي، والآخر

على الجدار الجنوبي. ربما كان قد اشترى الأول في يوم من الأيام أو في سفرةٍ من السفرات، فهو يبدو مثل تحفة فنيّة صغيرة. ولكنه لا يتذكر كيف حصل على الثاني الذي يحمل شعار (BAYER). من الواضح أنه نوعٌ من الدعاية لشركة الأدوية الشهيرة هذه. فمن الذي أهداه إياه هو الذي لا علاقة له بالدواء طبيباً كان أو مريضا؟ أترين إلى مساوئ الإقلاع عن التدخين يا سيدرا؟ فما حاجته إلى التفكير والتأمل بهذه الصغائر التي يصعب عليه عدّها؟ قرر أن يتوقف عن الملاحظة، وأن يخرج من البيت رغم أن النهار قائظٌ من أوله. من الأفضل عدم البقاء في المكان، فقد تتحرك، فجأة، قوّةُ العادة وتجعله يشتاق إلى النيكوتين. ارتدى ثيابه. خرج إلى الشارع. فوجيء بأن الساعة ما تزال دون التاسعة. ماذا يفعل بهذا الوقت الكثير كله؟ ليتكِ لستِ بعيدةً يا وِداد!. وقف على الرصيف لحظة، وتفكر بأمره: إلى أين أذهب؟ ما زال هناك وقت كثير حتى موعد أولى مباريات هذا اليوم من مسابقة كأس العالم في روسيا. وأمجد يحب الفرجة على كرة القدم مثل غالبية الناس هنا، فَكرةُ القدم حديث دمشق في هذه الأيام، وشغلها الشاغل، برغم الغلاء الفاحش وبقايا جيوب الحرب في الشمل والشمال الغربيّ من البلاد. والمعلقون التلفزيونيون العرب أبرز نجوم المونديال الراهن، فقد لفتوا انتباه الجميع، حتى الأطفال، بقدرتهم الخارقة للعادة على استعراض الأميّة التي بها يتمتعون، فأحدُ المعلقين يقول ويكرر القول بأنه سوف تكون استراحة مدتها ربع ساعة أو أكثر بقليل (بين المبارتان)، وآخر يصرّ على أن يحدّثنا لاحقا عن هذا اللاعب الذي سجّل (هدفان جميلان)، ويؤكد بعد لحظة قصيرةٍ من صمت: (نعم، لقد سجل هذا اللاعب هدفان جميلين). ولا أحد يفهم سبب إصرار هؤلاء المعلقين على الحديث باللغة العربية التي يجهلونها!! لماذا لا يتحدث كلٌّ منهم باللغة المحكيّة في بلده؟! إنها في نهاية الأمر تنويعات على اللغة الأم. ومما لا شك فيه أنها تنويعات جميلة. إذن، لماذا الإصرار على ارتكاب الأخطاء؟! فها هو أحد المعلقين يقول ويعيد: بقي من زمن

الشوط (خمسة دقائق) بينما النتيجة ما زالت (هدفٌ واحدٍ مقابلُ صفراً). ومعلق آخر يعلق على تطور هذا المنتخب خلال (أربعة سنوات) أي (بين المونديالان).. وأمثلة الجهل كثيرة، وكلها تبعث على الخجل. يبدو أنه ما من شعب يزدري لغته كما تفعل العرب، وما من شعب يحتفل بازدراء لغته إلا العرب الغاضبة الحزينة هذه الأيام على خروج منتخباتها باكرا من نهائيات كأس العالم. وهكذا، يجب أن تحمدوا الله كثيرا أيها المعلّقون الأكارم على أنكم عرب، فعند العرب فقط يمكن للجاهل أن يتقاضى الأموال الكثيرة وينال الشهرة الكبيرة من دون أن يقدم للناس ممّا ينفعهم شيئا، أو ربما من دون أن يقدم لهم غير الإساءة. وهذه أهمية أن يكون المرءُ عربياً، فاحمدوا الله مثنى وثلاث ورباع.. وبقي واقفا على الرصيف وهو يفكر: سوف أشتري هدية لسيدرا وأرسلها مع أحدٍ ما. فماذا أهديك يا صديقتي؟ وما الذي يليق بك غير الورد يا سيدرا؟! سوف يتفكر في هذا الأمر برويّة. سوف يفكر فيه بعيدا عن الذي ينوي ابتياعه لنفسه: سوف يشتري قميصا بنصف كم أو قميصين. سوف يشتري بعض الجوارب القطنية، سوف يشتري شموعاً، وعلبة كبريت تحسباً للانقطاعات المتكررة في التيار الكهربائي. سوف يشتري بعض البنّ والشاي والسكر. وربما اشترى حذاءً صيفيا خفيفا.. كان يدرك أنه يجب عليه عدم العودة إلى البيت في وقت مبكر. وكان يدرك أيضا أنه لن يشتري شيئا لأنه سوف ينسى، بعد قليل، هذه التفصيلات كلها. وأكثر من ذلك: لم يكن واثقا من حاجته إلى الجوارب أو الحذاء و الكبريت والشموع. وفكّر: من الأفضل أن أسجل قائمة بما أريد ابتياعه. وكان ظمآن. مر بمحل يبيع المرطبات. شرب كأسين من عصير البرتقال. ولم ينطفئ ظمأه. شرب كأسا ثالثة. ليس يدري إن كان ظمأه هذا بفعل الحر وحده. قال له المجرّبون: عندما تترك السيجارة تنفتح شهيتك على الطعام على نحو غبيٍّ جدا. ولكنه ليس يشعر بالجوع. منذ عشرين ساعة (هي عمر الإقلاع عن التدخين) وهو بلا طعام تقريبا. ولكنه، في المقابل، دائم العطش. كان خلال

ليلته الفائتة (ليلة الضياع الوظيفي) يذهب إلى المطبخ كل نصف ساعة ويعبّ الماء كالبعير، فلم يكن يصبر عنه «مثلما تصبر الرُّبْدُ».. هل من سوء حظّنا أن المتنبي عاش قبل أن يعيش كولومبوس، ومات قبل أن يموت؟ ماذا كان سيكتب عن محاسن التبغ ومساوئ التدخين؟ ربما كان من سوء طالعنا أن الأمور جرت على هذا النحو، وربما كان من سوء حظ الشاعر الكبير أيضا أنه عاش ومات قبل ألفٍ من سنين حين كان في مقدور الناس أن يصبروا على الماء مثلما تصبر عنه أفاعي السهوب المقفرة.. على أية حال، من الأفضل للمقلع عن التدخين أن يكثر من السوائل، فهي تساعده على طرح النيكوتين والقطران من الجسم. عن طريق البول في الأحوال العادية. أما في هذا الحر، فالعرق غزير. إذن، إلى مزيد من الماء. هي نصيحة يقدمها لك أي مجرب. ذهب إلى مقهى مكشوف يستظل بأفياء ثلاث أشجار باسقات من الكينا. طلب كازوزة وكأسين من الماء. أريده ماءً باردا لو سمحت! وتناول القلم من جيب القميص، وراح يرسم على إحدى الأوراق أشكالا فراغية لا معنى لها. خطوط تشتبك ببعضها على نحو غير مفهوم. شيء من هرم أو سور أو برج أو شجرة. شيء من بيت رملي على شاطئ بحر مهجور أو بيت خشبي في غابة مسحورة ترقص فيها بنات الجان على أنغام لحن يعزفه شاعر طعنوه في حبه. ولكن مَن الذي طعنه؟ مَن طعن مَن؟ الأميرة طعنت الشاعر؟ ليس يدري. فالمرأة تحجب نفسها في الصمت والفراغ. تطوي أشرعتها على الشطآن المهجورة، وتحجر على نفسها فيما يشبه العصيان، ثم لا تنكشف أمام أحد من العابرين. تظل مستوحدة مع وحشة البحر في انتظار عاشقٍ يتخلّى من أجلها عن أشياء الحياة.. لماذا يقول هذا الكلام؟ توقف عن رسم تلك الأشكال الفراغية غير المفهومة.. الخصوبة، ونضارة الجسد، والتماعة العينين، وإشراقة القلب. تراقصت هذه الكلمات أمام عينيه بشراسة حين شرع يكتب على وجه الورقة الثاني كلاما بلا معنى. كان يزم شفتيه إلى بعضهما بقوة. بدا وجهه صارماً في تلك اللحظة عندما

راح القلم يجرجر نفسه على بياض الورقة: ليس يحق لوِدادَ أن تسافر إلى فرنسا. وليس يحقّ لسلمى أن تذهب إلى القبر. وليس يحق لي أن أترك السيجارة. وليس يحق لي أن أعيش مغموسا في متعة خليعة لا تدركها نزعات الجسد، فالروح كلمة فارغة، مبتذلة، ومبهمة. نكتة سمجة سمعناها تواً، ولكننا لا نحب أن نرويها لأحد، فلسوف يصيبنا الخجل من تكرارها على مسامع الآخرين. الروح دمية لهونا بها عندما كنّا صغارا. ولكننا الآن كبرنا. فمن المعيب إذن أن نبدي نحوها اهتماما يتجاوز ذلك الحنينَ الغبيَّ إلى الطفولة. ومن المعيب أيضا أن أكتشف نفسي فجأةً مسكونة بالفراغ. ولكن الشيء المعيب أكثر من سواه ألا يوقظني هذا الفراغ من السبات الذي غرقت فيه طويلا. اللعنة على وِداد! ميتٌ أنا. شجرةٌ يابسة. كم أنا ميت يا ربي من دون سيجارة! وشعر فجأةً بغصّةٍ في الصدر. في الفصّ الصدري. غصةٌ عميقة، وقاسية، ولكنها زالت بعد ثلاث ثوانٍ أو أربع. تنفس بعمق. ولم يعر الأمر اهتماماً خاصاً، إذ لا بد وأنّ الأمر مرتبطٌ بالإقلاع عن التدخين. رجع إلى القلم وكتب أيضا: فأنا أعشق هذه البنت، رغم أنّ اللقاء في بيروت صاراً ماضياً لن يعود، ورغم أن قلبها، وهذا ما يعتقده، يرفرف في مكان آخر، فقد حدّثته مرّةً، في دردشة فيديو على الفيس بوك، عن التهابات البلعوم، وقالت: هي نقطة ضعفي الدائمة. فماذا عنك؟ هل عندك نقطة ضعف؟. قال لها: لا أظن بوجود إنسان على الأرض بلا نقطة ضعف.. «معك حق. وأنا أظن بهذا أيضا. ما من إنسان على الأرض بلا نقطة ضعف، وما من إنسان على الأرض بلا لحظةٍ مِنْ سعادة.» «عفوا؟ ماذا تقولين؟» «أقول إنه ما من إنسان على الأرض إلا وكان سعيداً ذاتَ مرَّة. أظن أننا جميعا عرفنا لحظة من سعادة. عشناها. أمسكنا بها. تذوقناها. لهونا بها قبل أن تضيع فجأة من بين أيدينا، وقبل أن نروح نقضي العمر في طوافٍ من حولها.» «طواف؟» «نعم، طواف. إننا نطوف حول سعادتنا الضائعة. نطوف كما يطوف المؤمن حول الكعبة في الحجيج.».. كان صوتها يفيض بالأسى الموجِع، ونفسها

تطفح بأخيلة السعادة الغابرة، فيزداد وجهها نضارة وتألقاً، رغم ما في روحها من ألم. فثمّةَ نساءٌ يصرنَ مع الألم أجملَ، وأرقَّ، وأكثر شبابا.. ترك القلم من فوره، وقذف برأسه إلى مسند الكرسي، وجاهد في التقاط أنفاسه بعدما خيّل إليه أنه موشك على الموت حتماً، فراح يغالب بالسيطرة على انفعالاته وأفكاره المضنية. ولمّا أيقن بعجزه عن منازلة هذا الغمِّ الذي يسكنه، جعل يفكر بالعودة إلى التدخين. فمن يدري؟ لعل في السيجارة خلاصه.. فإلى التدخين إذن.. إلى التدخين! ترك بعض النقود على الطاولة، وانصرف في الحال. ذهب إلى دكان قريبة، وقال للبائع: أريد علبة سجائر لو سمحت!. «ليس يوجد عندنا سجائر.» وأشار إلى ورقة كبيرة معلقة على زجاج الواجهة كُتب عليها: لا يوجد دخان. وربما كان أمجد قد قرأ هذه الكلمات من قبل أن يسأل. ربما كان يضحك على نفسه. يتواطأ مع نفسه. «شكرا!» قال للبائع وانصرف. إذن، هو بريء الذمّة تجاه جسده. حاول أن يساعده، ولكن الرجل لا يبيع السجائر. وهذا ليس ذنبه. فإلى اللقاء في مناسبة ثانية أيها الجسد المحروم! إلى اللقاء! وركب سيارة أجرة، وذهب إلى المقبرة. إلى منزل سلمى الأخير، فقد اشتاق إليها كثيرا، ولكن لا أثر لها هناك. فما حكاية هذه البنت؟ أين اختفت؟ أين اختفت؟ أين اختفت؟

اشملني برحمتك يا الله، فأنا بائسٌ جداً.

هرب إلى كاتيا..

كان قد التقاها ثانيةً بعد أسبوعٍ واحدٍ من ذلك النهار الصيفيِّ الضاحك. التقاها في الحديقة ذاتها، بل حتى على المقعد ذاته. كان منشغلا بقراءة إحدى الجرائد عندما سمعها تستأذن الجلوس. رفع بصره عن الورق إلى وجهها، فرآه أكثرَ ملاحةً من ذي قبل، عينانِ تومضان بلذة الشعور بمرجوّ الأمل، رغم ما في الصوت من نبرة تدلُّ على قلبٍ يذوب من الأسى. تجمّدتْ نظرتُه على وجهها وقد زادت براءتُه لهفةَ الرجل استعاراً لمعرفة هذه الشابّة عن كثب، وهمس يردّ

على طلبها قائلا ما قاله من قبل أيضا: إنها حديقة عامة. رجع يتعمّد الحذلقة من دون أن يدري لماذا. والبنت لم تعبس. ولم تبتسم. قالت بصوت خفيض: شكرا!. وجلست. أزاحت حمالتي الحقيبة عن كتفيها بهدوء، ومن دون حتى أن تنظر إليه. وضعت الحقيبة في حضنها. وسكنتْ. ورجع أمجد إلى جريدته. ولكن ليس لأمد طويل، فقد راح يختلس النظر إلى البنت الساكنة بجواره.. رآها أضوأَ من قبل لحظة. كانت تلوذ بالصمت، وبصرها ثابت أمامها في مسار لا تحيد عنه. هل هو الإفراط في الأدب؟ تساءل في سرّه. أم تراها لا تعيره انتباها؟ أم أنها تنتظر منه أن يكون المبادر إلى الحوار؟ خشيَ للحظة من أنها تتجاهله وقد طوت صدرها على حزنها، كمن يقول له: (دعني وما أنا فيه.) يا إلهي! أي حزن آثم يعشش في حنايا قلب هذه المرأة الصغيرة؟ أم تراها تلوذ بالصمت الثقيل من حنينٍ بها إلى السكينة؟ أنفق جهدا وهو يحاولِ تشخيص حالها، متأملًا في نهزَةٍ تقرّبُه من صاحبة هذا الوجه المُسرف في رِقّته، والتي خشيَ للحظة أن يكون قلبها قد قسا حتى صار من الصعب عليه أن ينفذ إلى أي من ثناياه. ويطول انتظاره. والنهزةُ تظلُّ بعيدة. فالبنت لا يرفُّ لها رمش. ويقول لها متحرشا: اليومَ أيضا نسيت ساعتي في البيت. مالَ رأسُها عندئذٍ فوق عُنُقٍ مرنة، ونظرت إليه بعينين واجمتين، رغم ما فيهما من أضواءٍ رقيقة، وقالت: لاحظت ذلك.. إذن، لقد وقعت البنت في الشرَك. وهذا كان مرجوَّه. أن تلاحظه هو مبتغاه في العلاقة بها حتى لو كانت ستشيح ببصرها عنه من جديد، كما فعلت بعد التفاتتها الأخيرة إليه والتي رآها كريمة وسخيّة أكثرَ ما يكون السخاء. قال:

لقد قرأت قصة الليالي البيضاء.

قالت من دونِ أن تلتفت إليه:

أنا واثقة من هذا.

هل تمانعون بأن نتخاطب بلغة المفرد؟

لا، لست أمانع. حتى إنّ هذا يريحني.

ويريحني أنا أيضاً. ولكن قولي لي من فضلك: لماذا أنتِ واثقةٌ من أنني قرأت تلك القصة؟

جميع البشر فضوليون.

جوابٌ لا بأس به.

ثمّ لم يعرف ما يقول بعد. وشعر شعوراً قوياً بأنّ أسوأ ما يمكن أن يفعله هو الصمت.

هل يزعجك لو سألتك عمّن يكون هذا الشاب الذي تنتظرين؟

هذا يتوقف على طبيعة الأسئلة. ماذا تريد أن تعرف؟

أين هو الآن؟ إلى أين سافر؟ وماذا يشتغل؟

ألا تلاحظ أنك تريد أن تعرف الكثير؟

أنا آسف. ولكنه الفضول كما قلتِ قبل قليل. أسحب أسئلتي، وأعتذر.

لا شيء يستوجب الاعتذار.

قالت.

لعلّ كلَّ ما في الأمر أنّ البنت تكاد لا تعرف عن ذلك الشاب الغائب إلّا القليل، أو حتى أقلَّ من القليل. فكيف تكون حالها لو عرفت حقيقته إذن؟ وسوف تعرفها بعد وقت غير بعيد. أما في ذلك اليوم فالبنت كانت ما تزال تصدّق ما قاله لها صديقها البعيد. لم تكن تملك سببا لاتهامه بالكذب، فهي لم تكن ترى بعينيها ممّا يسوءُ شيئا. وقبل هذا: ليست تدرك بعد أن الحياةَ طاحونةٌ لا يكفُّ أحد حجريها الثقيلين عن الدوران وعن طحن عواطفنا بدلاً من القمح والشعير. سوف تسقط البنت فريسة الهزع، وسوف يقسو قلبها كرهاً عنها من بعد أن تجبهها حقيقة صديقها المرّة. إنه يغازل بنتاً

سواها. سوف تختلط عليها أشياء الحياة، وتقع في الهزال، وتفزع إلى أمجد في طلب السكينة من بعد أن اطمأنت إليه ووجدت عنده وثاقةً قد تساعدها في النجاة من البلبلة.. صفنتْ عيناها من بعد سؤاله عن الصديق الغائب، والتمع فيهما بريق متردد، ثم حرّكت كتفيها قليلا علامةَ الجهل بالجواب. ولكنها سرعان ما بدت نادمة على هذه الحركة التي اعتبرتها متسرعة، فعملت على تصحيح ما ارتكبته من خطأ، وقالت بلجلجة:

إنه نحّات شاب. وقد سافر إلى فلورنسا، على أن يعود إلى موسكو بعد عامٍ واحد، فنلتقي هنا. في هذه الحديقة. ولكنْ ها قد مرَّ عامٌ وسبعة عشر يوماً على رحيله.

وأنتِ تنتظرينه هنا منذ سبعة عشر يوماً؟

نعم، وفي نفس هذا التوقيت.

إنني متعاطف معك.

متعاطف؟ لا أحب هذه الكلمة.

إذن، أعتذر.

ألا تلاحظ أنك كثير الاعتذار؟

هل هذا توبيخ؟

لا. أرجوك. لا تفهم الأمر على هذا النحو.

فعلى أيّ نحوٍ أفهمه إذن؟

إنني أعتذر. إنْ كنتُ قد أغضبتك فإنني أعتذر. هل يرضيك هذا؟ ها نحن متعادلان. واحدة بواحدة. هل يرضيك هذا أم أزيد عليه؟

في الحقيقة إنَّ الأمر سيّان عندي.

كما تحب.

لملمتْ نفسها، ونهضت. قالت، من دون أنْ تلتفت إليّ:

إلى اللقاء! ؟ واستدركت فجأة، وأضافت: أم أننا لن نلتقي مرّةً ثانية؟

لا أعرف. على أية حال، أنا أحبُ أن أتردد على هذه الحديقة، وبخاصةٍ أنه ليس لديَّ ما أعمله في إجازة الصيف. أجلس هنا وأقرأ في جريدة. أشتغل على تقوية لغتي الروسية.

إلى اللقاء إذن!

وانصرفت. ثمَّ لم تظهر ثانيةً إلا بعد بضعة أيام.

الحديقة ذاتها.

المقعد ذاته.

جاءت باكيةً هذه المرّة. باكيةً ومتهدّلة. جلستْ، من دون أن تطرح التحية. طويتُ جريدتي، ووضعتها جانباً معلناً اهتمامي الكامل بالبنت التي لا بدّ من أن تكون قد لاحظت ذلك الاهتمام. ولكنها ظلّت صامتة. رحت أحدّق فيها النظر، كمن يتسول الكلام. أشفقت أخيراً عليَّ، أو ربّما أشفقت على نفسها، وقالت:

هل تشرب الكحول؟

نعم، أحياناً.

أنا أحبُّ شراب الجنّ مع الصودا أو الليمون. وثمّة بارٌ غير بعيد من هنا، فما رأيك؟ هل تقبل دعوتي على كأسٍ من شراب؟

لا بأس، هذا ممكن، ولكني أظنّ أنّ لدينا الآن ما هو أهمّ من كأس الجنٍّ مع الصودا أو الليمون.

لا، لا أظنُّ بوجود شيءٍ أهمّ من ذلك بعد الآن.

فتحت حقيبتها اليدوية، واستخرجت من هناك مغلّف رسالة بريدية، وشبه عرضتها عليّ. وأنا بدوري شبهَ فهمت الحكاية.

رسالةٌ من إيطاليا. من فلورنسا. رسالة اعتذار، أو رسالة وداعٍ، أو غيابٍ سوف يدوم أربعةً من أعوام، هي عُمْر علاقتنا أنا وكاتيا. أربعةُ أعوامٍ كاملة قبل عودة ذلك النحّات من فلورنسا مكسوراً، فيرتجف قلبُ كاتيا كما ارتجف قلبُ ناستينكا في الليالي البيضاء. ولم تقل لي مثلها: أنا أحبك لأنك لم تقعْ في حبي. فقد كانت تعلم جيداً أنني كنت غارقاً معها في بحار الحبّ العميقة.

نهضتْ وهي تقول:

فلنذهب.

ترك جريدته على المقعد، ولملم نفسه، وتبع المرأة المطعونة في حبها.

وخرجا إلى الطريق. كانا شابين صغيرين بعد، ولم يكن البار المنشود بعيداً عن الحديقة. راحا يمشيان إليه. وكانا صامتينْ. وكانا غريبينْ أيضا.

رجع اليومَ إلى البيت مشياً، رغم بعد المسافة. كان وحيداً تماماً إلّا من بعض الوجع المفاجئ في أسنانه.

يبدو أن النيكوتين مسكنٌ رائع.

فتح باب المنزل.

كانت يده ما تزال على قبضة الباب حين أحسَّ بشيءٍ غريب في صدره، حتى إنه كان يختنق. كان يختنق تماماً مثلما اختنق سامر ذاتَ حينٍ قريب. لم يعد قادراً على التنفس، كما لم يعد قادراً على المشي خطوةً واحدة. ما هذا؟ سأل نفسه. هل هي النهاية؟ إنها ليست أعراض الجلطة القلبية. لا تعرّقَ، ولا خدرَ في الذراع اليسرى. فما هذا إذن؟ الحياة في النهاية تقتل نفسها. تنتحر. ودورة الحياة والموت لا تنتهي، وقد خُلقنا لنموت. ولكن أبهذه البساطة؟ أبهذه الفجاءة؟ مهلاً! مهلاً! لا تستسلم. لا تمتْ قبلَ أنْ يأتيكَ الموت. اتصل بسعيد. اتصل بصديقك. افعل ذلك فوراً، فقد تكون في سباقٍ مع

الموت. ولكن إيّاكَ أن تعدو عكسَ المِضمار. بصعوبةٍ، بل حتى بمشقّة، تناول جهاز الموبايل من جيبه. وبصعوبةٍ أكبر طلب صديق طفولته. وبصوتٍ مخنوقٍ قال له:

أنا في البيت. لا أستطيع أنْ أتنفس. أظنه القلب يا سعيد.

قال له سعيد:

اهدأ. لا تتحرك خطوةً واحدة. لا تُفلت الموبايل من يدك. سوف أكون عندكَ بأسرع ممّا تتوقع.

وأغلق الخط، وأمجد يجاهد في التقاط أنفاسه بانتظار صديقه العمليّ، فقد اتصل هذا الصديق وهو يقود سيارته في الطريق إلى مريضه بمدير إحدى المشافي الخاصة التي يعمل بها صباحاً، وطلب إليه الإيعاز بتجهيز غرفة العمليات من أجل حالةٍ خاصةٍ جداً، كما اتصل بأحد أطباء الجراحة القلبية (زميل دراسة) وطلب منه أن يوافيه إلى تلك المستشفى، واتصل بزوجته هبة لتأتيه بجميع السيولة المالية التي في المنزل وتلحق به إلى المستشفى لأنّ أمجد في حالٍ صحيةٍ صعبة.

وبعد ساعتين ونصف ساعة من تلك المكالمة المقتضبة مع سعيد كنتُ أرقد في غرفة العمليات يا سيدرا.

القلوب يا صديقتي أسرار، ولكنّ هؤلاءِ الأطباءَ الأشرارَ هتكوا أسرار قلبي وأنا أتفرج عليهم صاغراً، مستسلماً. كنتُ في كامل وعيي، فالتخدير موضعيّ. كاميرا صغيرة جداً دخلت أحد شرايين أعلى الفخذ اليمنى، لا أعرف ماذا يسمّون هذا الشريان، ثم راحت تزحف برشاقةٍ إلى القلب، وتكشف المستور. كان سعيدٌ حاضراً في الغرفة، ولكنه متفرج. مجرد متفرج على شغل زميله، الذي خرج من فوره بهذه النتيجة: انسداد في الشريان الأمامي المسيطر بنسبة تسعين من مئة. قال لي:

إنك في حاجةٍ إلى شبكة (تسمّونها في مصر: دُعامة). وهي

مكلفة. قد يتجاوز المبلغ مليوني ليرة (أربعة آلاف دولار أمريكي). هل أغلق الجرح الآن، ونحدد موعداً لاحقاً من أجل زراعة الشبكة؟

تولّى سعيدٌ الردَّ من قبل أن أنطق بحرف. قال لزميله:

أمرك غريبٌ يا زهير. لماذا تتوجه بالسؤال إلى مريضي وأنا موجود؟

أتوجه بالسؤال إلى المريض لأنّ النقودَ نقودُه، ولأنّ القلبَ قلبه.

لا، هذا ليس قلبه، بل إنه قلبي أنا، وقلب زوجتي وابنتي أمل وابني هنيبعل. إنه قلب ماضيَّ وحاضري ومستقبلي. ازرع الشبكة فوراً لو سمحت، فلا حاجة إلى جرحٍ جديد، ورضٍّ جديد.

كانت هبة تقف خلف جدار الغرفة الزجاجي. وكانت تبتسم لي مشجّعة. وكنت أردُّ عليها بابتسامةٍ مريضة.

قال طبيب القلبية:

حاضر يا سعيد.

وشرع بزراعة الشبكة.

تركته يفعل ما يشاء. ورحت أنظر إلى المونيتور المعلّق في أعلى الحائط الزجاجي. وهناك على الشاشة رأيته. سألته في السرّ:

أهذا أنت يا قلبي؟

رأيته يجاهد من أجل أن يظلَّ ينبض. فرجعتُ أهمس له في سرّي:

ألم تتعب؟

أما آنَ لكَ أن تستريحَ أيها المسكين؟

ولم أسمع الجواب عن سؤالي. لم أسمع سوى النبضات المتعبة مثل روحي التي بدتْ لي بائسة، حتى إنني أشفقتُ على نفسي، فها أنا ذا أخيراً مكشوفٌ تماماً، وفي حاجةٍ إلى الشفقة البغيضة. ها أنا

ذا وحيدٌ يا سيدرا من بعد وِدادَ وأمّي وسلمى، ولم يبقَ لي إلّا هذا الصديق العتيق وزوجته.

نقلوني بعد غرفة العمليات إلى غرفة العناية المركّزة. وكنت المريض الوحيد فيها. قال لي سعيد وهم يحملونني على العربة إلى هذه الغرفة إنه سوف يأتيني صباحَ غدٍ ويأخذني إلى منزله لبضعة أيام.

لم أكن راضياً عن هذا القرار. لا أريد أن أكون عبئاً على أحد. وسعيد لاحظ ذلك، فاستدرك وأضاف من فوره:

لا تخف. لن أحبسك عندي طويلاً. أسبوع واحد على الأكثر.

ونظر إلى زوجته كمن يطلب مساعدتها، كانت هبة ترافق العربة من جانبها الآخر. وفهمت المرأة نظرة شريك حياتها. قالت لي:

لا يمكنك أن تكون وحيداً في الأيام القليلة القادمة، فأنت بحاجةٍ ماسَة لئلّا تكون وحيداً. أتحدث معك الآن كطبيبة. هل تفهمني يا أمجد؟

قلت مستسلماً:

أفهمكِ يا هبة، وأفهم زوجك أيضاً. وقبل هذا وذاك فإنني أفهم نفسي. لقد أصبحتُ موضعَ مواساة. أعرف هذا الشعور. لقد سبق لي أن عشته مع سلمى.

ما هذا الكلام السخيف؟!

قال سعيد. قلت:

إنني أستسلم. افعلوا بي ما تشاؤون، فأنتم الأطباء والأصدقاء. ولكن لي عندك طلبٌ يا سعيد. أنا لا أعرف ما هي الأدوية الموصوفة لي. أرجو أن يكون بينها حبّة مُنوّم. أريد أن أنام هذه الليلةَ يا صديقي. لا أريد أن أغرق في التفكير هذه الليلة. أخاف من أن أبكي يا سعيد.

عند حوالي الساعة العاشرة جاءتني إحدى الممرضات تحمل بعض الأدوية. قدمتها لي مع كوبٍ من الماء. ثم تناولت من جيب مريلتها البيضاء حبة دواء ملفوفة في محرمةٍ ورقية ناعمة، وقالت:

هذه حبة منوم وصفها لكَ الدكتور سعيد الذي صار منذ اليوم طبيبك. هل تريد أن تتناولها الآن؟

أجل، أريد أن أتناولها الآن.

أمسكت بالحبة بين أصابعي. كان لها شكل قرصٍ صغير أزرق اللون. قذفت بها إلى جوفي، وتجرعت بقايا الماء في الكوب. قالت الممرضة:

تصبح على خير!

تصبحين على خير!

انصرفتْ. أطفأتِ النور، وأغلقت خلفها الباب. وبقيتُ في العتمة وحيدا. ووحدتي لم تكن طويلة، فما إنْ مرّتْ بضع دقائق حتى جعلتْ أذوي من العقار الذي كان له مفعول السحر.

وأغفيت.

لا أعرف كم طالت غفوتي عندما انفتح باب الغرفة من جديد وأنير المصباح الكهربائي. استيقظتُ على وقع أقدامه الصغيرة تقترب من السرير. فتحت عينيّ، فرأيته يجانبني. كان نظيفاً، وجميلا. كان يلمع وكأنه منسوجٌ من النّور. كان يرتدي قميصاً أبيض، وبنطلوناً أسود، وفوق القميص كنزة حمراء اللون، وفوق الكنزة سترة من القطيفة الخضراء. وفي قدميه حذاءٌ أسودُ يشعشع من شدّة اللمعان. ما الذي تعنيه هذه الألوان الأربعة؟ الأخضر لون الصيف الراكد. لونٌ يتعذّر تحريكه، ومع هذا فإنه أكثر الألوان قدرةً على إنتاج الطمأنينة. والأحمر لون الحظّ والطّاقة. وللون الأبيض إيقاع الصّمت، ولكنّه يتمتع بالقدرة على الاستهواء والجذب. والأسود شيءٌ احترق. إنه صمت الموت، وهو أقلُّ الألوان جِرساً. أمّا لون عينيه فكان مثلما عرفته طوالَ حياتي: الأزرق

العميق. لون السماء. لونٌ يمنح الشعور بالطمأنينة وراحة البال. وعلى ثغره كان ثمة ابتسامة هادئة. ابتسمت له أنا أيضاً، وهمست أسأله:

أهذا أنت يا صغيري؟

هذا أنا.

ولكن لماذا ترتدي كلَّ هذه الثيابَ الشتويةَ في عزِّ الحر؟

إنها مشيئةُ أمّك. قالت لي: ربما كان الطقس بارداً فوق الأرض، فنحن في العالم السفليّ لا نعرف فصول السنة. وأمك تخاف علينا كما تعلم.

أجل، أمّك تخاف علينا أنا وأنت. عاشت الحياة كلّها تخاف علينا. كيف هي الآن؟ هل ما زالت تشكو من وجع المفاصل؟

نعم، في بعض الأحيان تشكو، فأجيئها بالأسبرين. ولكنها اليوم لم تكن تشكو من وجع المفاصل. أظنّ أن قلبها هو الموجوع. غير أنها مع هذا بدت لي قوية، فحمّمتني، وألبستني هذه الثياب الجديدة. قالت لي إنك كنت تحب هذه الألوان الأربعة.

نعم إنني أحبها. كنت وما أزال. وأحبّ لون عينيك أيضاً. ولكن قل لي: هل كانت أمك تعلم بأنني أرقد في المستشفى؟

أجل. إنها تعلم بذلك.

مَنْ الذي أخبرها بالأمر؟

لا أظن أنها كانت تنتظر مَن يخبرها بقصة المرض، فقد قالت لي مرّةً: لو تغيّر نفَسُك فإنني أعرف ما أصابك يا ولدي.

نعم. لقد قالت لي هذا الكلام مراراً. ولكن ماذا قد تقول أنتَ لي؟

بخصوص أيِّ شيء؟

ألا تشتاق إليّ مثلاً؟

لا أعرف. ربّما كنت أشفق عليك.

هذا ما كنت أخشى سماعه. الشفقة، الشفقة، الشفقة.

ولكنني مع ذلك أحبكَ، وأخاف عليك، برغم أنني لا أفهمك.

وأنا أيضاً لا أفهم نفسي يا ليفاز.

إذن، لماذا لا تضع حداً للمسألة؟

أية مسألة هي بالضبط تلك التي تريدني أن أضع لها حداً؟

هذه الحرب العبثية. هذا التعرّج الجنونيّ في مناحي الحياة. هذا التفسخ الروحي، والإحساسيات الوحشية، والفظاظة المؤلمة، وهذه الوحدة الموجِعة، منذ أن هجرتك وِداد. منذ ذلك اليوم وأمك مريضة، حتى أنا قد غدوت بسببكَ مريضاً منذ ذلك اليوم. وعندما دخلتْ سلمى حياتك استبشرنا خيراً أنا وأمك، ولكنَّ زمنَ هذا الخير كان شحيحاً. المرض. الموت. هذه الحتمية القدرية، وحكمة الله التي لا نفهمها نحن العباد. أترى؟ إنها دوّامة. دوّامة الحياة، أو ربما كانت طاحونة تدور وتدور، ولكنها تطحن الفراغ، تطحن الزمن، تطحن الهواء ليس إلّا، ويبقى كلّ شيءٍ في النهاية على حاله: غرائب النفس البشرية، وطبيعة الشرّ الذي يجابه الإنسان، والحزن اللانهائي، وأنقاض الأخلاق المجهَضة. وهؤلاءِ البشرُ الملقّحون ضد السعادة.. ما حاجتك إلى هذا كلّه؟

فماذا تقترح يا ليفاز؟

أقترح أن نخرج من هنا الآن سويّةً أنا وأنت ونذهب إلى أمك. إنها تشتاق كثيراً إليك، وهذا الشوق يعذبها. إنها تحنّ إليك، وتخاف عليك، وتكابد من أجلك. إذن، ارحمها من هذا العذاب.. هيا بنا.. لا تخف.. سوف نرعاك يا أمجد. سوف نرعاك يا حبيبي.

ولكن ماذا عن هذا الجرح الذي أحمله؟

ما به؟

قد ينفجر إنْ أنا غادرت المستشفى.

حتى لو انفجر فلسوف يلتئم بلمسةٍ من كفٍّ أمك. هيّا بنا. إنها بانتظارك على نار. سوف نحيا بسلامٍ نحن الثلاثة في قبرنا الواسع. قبرنا المشترك. آخر منازل الحياة.

ولكن؟..

ماذا أيضاً؟ أليس تنشد السكينة والسلام؟

بلى، بالتأكيد، ولكن أليس واجباً عليَّ أن أودّع صديقي قبل الرحيل؟ لقد قال لي إنه سوف يأتي إليّ في الصباح ويأخذني إلى منزله.

اترك له رسالة عند الممرضة.

نعم، هذه فكرةٌ جيدة. سوف أترك له رسالة أنبئه فيها عن رحيلي إلى عالمٍ يتساوى فيه الجميع. هيّا بنا.

أعطني يدك.

هذه يدي. خذني إلى حيث تشاء يا ليفاز.

ومددتُ له يدي، ولكنه لم يأخذ بها.

كان قد اختفى.

كان قد تلاشى.

28

تأخرتَ عن الموعد شهراً وسبعةَ أيامٍ يا حضرةَ الكاتب المحترم.

صحيح.

لماذا؟ خير اللهم اجعله خير؟ حتى إنك لا تردّ على مكالماتي لك.

أبداً.. بعض الكسل على بعض الاستهتار.

استهتار؟! فهل ترانا نلعب غمّيضة أو طمّيمة؟ هذا قلب. ثمَّ عن أيِّ كسلٍ تتحدث؟ إنني أتابع صفحتك على الفيس بوك. صحيحٌ أنني لا أترك إعجاباً ولا أكتب تعليقاً، ولكنني مع ذلك أتابعكَ أولاً بأول. تارةً تنشر شيئاً من يوميات كاتب، وتارةً شيئاً من يوميّات مدينة، وتارةً مقاطع من روايةٍ جديدة، وتارةً مشاهدَ من مسلسلٍ تلفزيونيٍّ قيدَ الإنجاز.

ماذا تريدني أن أفعل؟

أريدك ألّا ترهق نفسك. لقد سبق وحذّرتك من الإرهاق.

ولكنني لا أستطيع ألّا أكتب للتلفزيون. هذا مصدر دخلي الوحيد.

ألم تكتب مسلسلاً السنةَ الفائتة؟

بلى، ولكنني لم أنجح في تسويقه؟

كيف ذلك؟ كيف لا تنجح في تسويقه من بعد سبعةَ عشرَ مسلسلاً وجدها المشاهدون طيبة؟

باختصار: لقد رفضتْه الرقابة.

ماذا يعني ذلك؟

ذلك يعني أنهم لا يريدونك أن تكتب على هواك، بل على هواهم.

يا إلهي! ألم نتعلم شيئاً من هذه المقتلة؟

يبدو أننا لم نتعلم أي شيء، ولن نتعلم أي شيء.

وماذا ستفعل؟

سأضع رقيباً في رأسي وأنا أكتب من جديد. ويجب أن أكتب، فقد انقطعت عن الشغل زمناً طويلا. زمنٌ طويلٌ بمصاريفَ عالية

ودخل صفر. هل ترى؟ ضروري أن أكتب للتلفزيون حتى لا أجد نفسي فجأةً على الحديدة.

على أية حال، أنا لم أقل لك: لا تشتغل. ولكنني أقول: لا تُجهدْ نفسك.

وأنا لا أعرف كيف لا أجهد نفسي.

أوف أوف!! حسناً، وما أخبار النوم؟

كالعادة، أنام ساعتين عند الصباح.

لقد وصفتُ لك عقاراً منوّماً. ألم تتعاطاه؟

بلى، تعاطيته. لم يساعدني. بقيتُ أنام ساعتين عند الصباح. الفارق الوحيد الذي لمسته أنني مع المنوّم أستيقظ تعبان، ولكنني بلا منوّم أستيقظ وعندي بعض النشاط، رغم الهلوسات التي تصيبني، فتركته بعد الحبة الثالثة أو الرابعة.

لماذا لم تتصل بي إذن؟ كنتُ وصفتُ لكَ عقاراً آخر يناسبك. ما قصتك يا رجل؟

لا أعرف. هذا ما حصل.

ما هو هذا الذي حصل؟ الكسل واللامبالاة؟ معقولٌ أنت؟!

يبدو أنني عموماً شخصٌ غير معقول.

وكيف شهيتك للطعام؟

ليست سيئة. أتناول وجبةً واحدةً في اليوم. عند المساء تقريباً.

وماذا عن الجنس؟

لا يوجد جنس.

منذ أن ماتت سلمى؟

بل منذ أن مرضتْ سلمى.

نعم، صحيح، منذ أن مرضت سلمى، فليرحمها الله برحمته. هذا يعني أننا نتحدث عن سنةٍ كاملة.

تقريباً.

هذا سيء. لماذا لا تتزوج؟

في هذه السن؟

ومن أي شي تشكو هذه السن؟ أصلاً الرجل العاقل هو الذي لا يتزوج قبل هذه ألسن.

لم يخطر الزواج ببالي.

وهذا خطأٌ آخر ترتكبه. سوف أتحدث مع هبة بخصوص زواجك. ربما كان لديها العروس المناسبة.

لا، لا تفعل.

لماذا؟

أمهلني بعض الوقت للتفكير بالموضوع.

هذا الأمر يا أمجد ليس بحاجةٍ إلى تفكير، فالوحدة شيءٌ يضر بالصحة النفسية. كما أنه يضر بالصحة الجسدية بطبيعة الحال.

مع ذلك، دعني أفكر بالموضوع.

حسناً، ولكن ليس لفترةٍ طويلة. اتفقنا؟

اتفقنا.

هل كنتَ تقيس ضغط الدم خلال فترة انقطاعك عني؟

بشكلٍ عشوائي.

وكيف كنتَ تجده؟

إنه في فوضى. يصعد ويهبط.

هل هناك وذمةٌ في القدمين؟

أحياناً.

ما الدواء الذي تتعاطاه للوذمة؟

أنا ملتزمٌ بالعقاقير التي وصفتَها لي حرفياً.

والسيجارة؟

ما زلت أدخن كالعادة.

ولكنني حذّرتك من التدخين. قلت لك إنه جزءٌ من المشكلة.

وأنا أخذتُ بتحذيرك، وتركت التدخين مرّتين. في المرة الأولى لم أستطع أن أقاوم أعراض الانسحاب، فرجعت إليه مكرهاً. وفي المرة الثانية رجعتُ إليه طائعاً بعدما اكتشفتُ أنه في هذه الظروف الصعبة التي نعيشها تكون السيجارة جزءاً من الحل.

آهـ !! فهل هذه نظريةٌ جديدةٌ في المداواة؟

لا جديدة ولا قديمة. ما رأيك أن تشغّل هذه الأجهزة وتنظر إلى وضعَ المضخّة التي في صدري كيف صار.

وعلى ماذا العجلة؟ لقد أغلقت العيادة من أجل أن أتفرغ لك وأدردش معك. وها نحن ندردش. ثم إنني مشتاقٌ إليك. فماذا وراءَك؟ لا تقل لي الشغل.

لا، لن أقول شيئاً. حسناً، فلندردش.

سمعتك قبل قليل تذكر شيئاً عن الهلوسات. ماذا كنتَ تقصد؟

لا أعرف. تتراءى لي أحياناً أشياءُ غريبة.

في النوم؟

في النوم وفي اليقظة أيضا.

مكتبة
t.me/t_pdf

كوابيس؟

لا، ليس بالضرورة.

إذن، أشياء مثل ماذا؟

لا أعرف بالضبط، صدقني، أشياء على علاقةٍ بالماضي. أشخاص وأحداث وأماكن.

شيءٌ من قبيل الذكريات؟

نعم. ولكنها ملموسة. أكاد أن أمسكها بيديَّ وتمسكني.

هل تذكّرني متى كانت وعكة القلب الأخيرة؟

ما هذا السؤال يا حكيم؟ كل شيءٍ مسجلٌ عندك في الكومبيوتر.

إننا ندردش. تحملني قليلاً.

حاضر. ولكن إلى أين تريد أن تصل من هذه الأسئلة؟

أحاول الإحاطة بالموضوع من كل جوانبه. كان لك خالة في ما أتذكر، وبنات خالة. هنَّ في ألمانيا. أليس كذلك؟

لا. إنهنّ في النرويج.

ألا تفكر بالسفر إليهنّ؟

لا، رغم أنني بدأت أتعب هنا.

تتعب من أي شيءٍ بالضبط؟ من الحرب؟ من الوحدة؟

لا، لا من الحرب ولا من الوحدة. ثم إنّ الحرب شارفت على الانتهاء. أو ربما تكون قد انتهت، فلم أعد أسمع انفجارات القنابل.

إذن، لماذا التعب؟

يبدو أنني بدأتُ أتعب من نفسي هنا، حتى إنني بدأت أفكر بالهروب من هذه المدينة.

لا أفهم، تهرب من أيّ شيء بالضبط؟ ذكرى حبٍ فاشلٍ مثلاً؟

لا، لا. بل إنها قصةٌ بعيدة عن الحب، رغم أنها ليست بعيدةً عن المرأة.

هذا هو أمجد. إنك لم تتغير يا رجل. مذ كنّا صِغاراً وأنت تخلط الحابل بالنابل. فماذا فهمت أنا من هذا الكلام؟

لا حابل ولا نابل. قصة شخصية ليس عندي رغبةٌ بأن أخوض فيها مع أحد.

فهل أنا مجرد أحد؟ أنا صديق عمرك يا أمجد. أنا سعيد.

أعرف مَنْ تكون.

إذن، فضفض لي وجعك. في الحد الأدنى على الأقل. رؤوس أقلام. في النهاية أنا طبيبك أيضاً.

حسناً يا دكتور. هل جرّبت مرّةً أنّ أحداً ما بصق في روحك؟

عفواً ؟!

أنا آسف ! اعتبر أنني لم أقل شيئاً. آسف مرّةً ثانية ! ماذا لديك من أسئلةٍ بعد؟

بصق في روحي؟

آسف مرّة ثالثة.

كما تحب. واضح أنك تتألم. كما تحب. سوف نقفل الموضوع.

لا تغضب مني. أرجوك يا سعيد ألّا تفعل. ولكنني أشعر أنّ الجميع قد بصق في روحي.

أيّ جميع؟

الجميع. وِداد، وأمي، وسلمى، وسامر، وحتى رجاء. جميع من تخلّى عني بصق في روحي.

يا إلهي!

ماذا؟

قلبٌ كهذا، كيف لي أن أعالجه؟

من بداية الجلسة وأنا أقول لك: شغّل الأجهزة وانظر أين صارت هذه المضخة التي في الصدر بينما أنت تصرّ على أن تأخذني في الحديث إلى المطارح التي في القلب. إنَّ هذه المطارح يا صديقي تصير يوماً بعد يوم موحِشةً أكثر وأكثر.

حسناً، سوف أشغّل الأجهزة. ولكن دعني أطرح عليك سؤالين أخيرين.

تفضل.

هل أنت في ضائقةٍ مالية؟

لا.

هل أنت واثقٌ من هذه ال لا؟ فأنا موجودٌ يا صديقي.

أنا واثقٌ من وجودك في الشدائد. ولكنني واثقٌ أكثر من أمرٍ واحدٍ فقط. واثقٌ من أنّ علاجي هو البعد عن دمشق. أو حتى النأي عنها.

بسبب هؤلاء الموتى؟

أجل.

بدأت أخاف عليك يا أمجد.

ليس هدفي أن أخيفك. صدقني. لكن... يقولون: البُعد يشفي من الوجد.

ودمشق هي الوجد؟

في الحقيقة أنه لا يوجد مكانٌ آخر في العالم سوى دمشق.

هل هذا على علاقة بعنوان المسلسل الذي تكتبه الآن؟ كما فهمت من صفحتك على الفيس بوك أنّ العنوان هو: على رصيف العُمْر.

نعم، هذا صحيح. لقد حاولت أن أكتب الموضوع في رواية، ولكنني أخفقت. وحتى لو نجحت كنت سأحوّل الرواية إلى مسلسلٍ تلفزيوني. أريد أن أكتب قبل الوداع أفضل ما صنعت في حياتي للتلفزيون، رغم سيف الرقابة. أرجو ألّا يتخلى الحظ عني. أريد أن أكتب عن هذه المدينة عملاً يعيش مع الناس سنواتٍ طويلة.

تقول: قبل الوداع. فيا ترى....؟

لا، ليس كما تظن. لن أنتحر. ولكنني سوف أعتزل الكتابة.

وأرجو ألّا تطرح المزيد من الأسئلة. لقد نفخت قلبي. أرجوك أن تشغّل هذه الأجهزة.

بقي عندي سؤالٌ أخير.

تفضل.

هل تثق بي؟

ما هذا السؤال الغريب؟ كيف لا أثق بك وأنت صديق العمر؟

لا، لا. ليس عن الصداقة أتحدث. هل تثق بي كطبيب؟

نعم. أثق بك كثيراً.

إذن، أريد منك وعداً بأن تتعاطى الأدوية التي سوف أصفها لك. أن تتعاطاها بانتظام.

أدوية من أجل أي شيء؟

من أجل الوجع الذي في الروح عندك.

هل تقصد أدوية نفسية؟ هل تراني مريضَ النفس يا سعيد؟

لا، ليس تماماً. ولكن حتى لو كنتَ كذلك، فأين العيب في هذا؟ كلنا ذوو نفوسٍ مريضةٍ من بعد هذه الحرب يا صديقي. ماذا قلت؟ هل تعدني؟

حسناً.. أعدك بان أحاول، ولكن لا أعدك بأكثر من ذلك. والآن هلّا شغّلت هذه الأجهزة؟

حاضر. بأمرك. سوف أشغّل الأجهزة. اخلع القميص عن بدنك واخلع الجوربين عن قدميك، واصعد إلى طاولة المعاينة.

بأمرك يا دكتور. وشكراً على تفهمك.

ونفّذ أمجد أوامر الطبيب الذي شرع يعاين وضع مريضه صديق الطفولة، من دون أن يتوقف عن الكلام:

بالمناسبة، هل تعرف كيف أتعامل أنا مع موتى الحياة؟ سوف أضرب لك مثالاً واحداً: سامر. صديقنا المشترك رحمة الله عليه.

قصته مأساويةٌ طبعاً. أما أنا فإنني كلّما تذكرته ابتسمت. هل تعرف كيف أفعل ذلك؟ ذاكرتي بخصوص هذا الصديق مبرمجةٌ باتجاهٍ واحد، فأنا لا أتذكر موته، ولا أحاول أن أتصور كيف مات وكم عانى. أبداً. بل إنني لا أتذكر أيَّ شيءٍ سوى تلك اللحظة حين كدت أن أتقاتل معه بسبب أحشاء الدجاج الذي يملأ رؤوسنا. ها ها ها.. هل تتذكر أحشاء الدجاج؟. من المؤكد أنك تتذكر تلك اللحظة الغابرة. إنني أجدها لحظةً بهيجة. إذن، فلماذا أتذكر سواها؟! صحيحٌ أنّ الموت حقيقة، وأنّ الولادة حقيقة أيضا. ولكن ذلك الذي بين الولادة وبين الموت ليس إلّا كذبة يا أمجد. إذن، لا تتعامل مع الحياة إلّا بوصفها كذبة، أو حتى نكتة، وسوف تحصل على صحةٍ جيدة. يجب تطويع الحزن يا صديقي، فالحزن يهتك ستائر القلب. رحمة الله عليك يا سامر! أحشاء الدجاج! ها ها ها.. رحمة الله عليه.. وعلى ذِكر الدجاج، لماذا كانت رجاءٌ أيضاً من الذين بصقوا في روحك؟

إنها في إسبانيا.

أعرف أنها في إسبانيا. أعرف أيضاً أنها أنجبت طفلاً من سامر. وليس هذا سؤالي. سؤالي ليس أين، ولكن لماذا.

لأنها رحلتْ.

ما هذا الجواب الذكيّ!!! هل تتواصلان؟

أجل.

وماذا بعد أجل؟ وماذا قبلها أيضاً؟

لا يوجد قبل، ولا يوجد بعد. إنها تشجعني على السفر إليها. وللدقة: تشجعني على زيارتها.

والله فكرة جيدة.

كيف تقول ذلك؟!

لأنها فكرةٌ جيدةٌ فعلاً. تخلص من الوحدة. تحصل على الاستقرار الذي فقدته بعد سلمى. تخلص من التهيؤات. تتصالح مع

الزمن. يصير عندك أسرة. امرأة وطفل يتيم بحاجةٍ إلى الأب. تصير قادراً على أن تكتب من دون رقيبٍ يجلسً في رأسك. باختصار: تضرب عشرين عصفوراً بحجرٍ واحد.

وأعيش على حساب امرأة؟

آ.. لا تريد أن تعيش على حساب امرأة أم أنك لا تريد أن تعيش على حساب أحد؟ أم أنك لا تريد أن تعيش على حساب رجاء بالذات؟

ولكنك تعرف مصدر ثروتها.

كفاكَ شعاراتٍ كرمى لله! وما ذنب البنت بفساد أبيها؟ وقبل هذا: مَنْ منّا الذي ليس فاسداً بطريقةٍ أو بأخرى؟ مَنْ منا الذي ليس مُداناً بطريقةٍ أو بأُخرى؟ هل تصدق؟ لقد أصبحت مقتنعاً تماماً بنظرية خلدون حين قال: الحياة بازار. ثمّ لحظة من فضلك، ألا تلاحظ أنك بهذا الكلام تسيء إلى ذكرى صديقنا سامر؟ هل تراه فاسداً وهو الذي دفع حياته من أجل مساعدة الناس المسحوقين من هذه الحرب المجنونة؟

لا طبعاً. سامر كان رجلاً عصامياً.

إذن كنْ أنت مثله. كنْ عصامياً وامشِ على أثره، ودعْكَ من الشعارات ومن الأحكام المسبقة.

29

العشوائيةُ وصلتْ إلى روحي يا سيدرا.
أنظرُ إلى هذه الروح من حينٍ إلى حينِ
تتراءى لي بيداءَ قاحلة.
لا ماءٌ فيها ولا شجرٌ.

وحيدٌ أنا وحزينٌ يا صديقة. لو تعرفين كم أحتاجكِ في

وحدتي! لو تعرفين كم أشتاق إليكِ يا غالية! أنظرُ إلى نفسي في المرآة أحياناً..

«ما بالُ عينِكَ منها الماءُ ينسكبُ

رجعتُ إلى البيت قبلَ ساعتين تقريباً. استحميتُ، وارتحت بعضَ الوقت في الفراش، ثم ذهبت إلى المطبخ وصنعت قهوتي الرديئة، وجلستُ بعدها إلى الطاولة أكتب إليكِ. عشتُ وقتاً عصيباً نهارَ هذا اليومِ. كان يمكن أن أتعرض لأذىً كبير. ولكن جاءت الأمور بأقل الأضرار الممكنة في نتيجة ما قد حدث من بشاعة.. إنها نجاح. هل تذكرينها؟ البنت المتسولة. كتبتُ لكِ عنها مرّةً أو مرّتين. الطفلة التي كانت تطلب النقود من أجل الإجهاض. لقد ظهرتِ اليومَ من جديدٍ في طريقي. كنت ذاهباً إلى إدارة الهجرة والجوازات. يبدو أنني بدأت أفكر بالسفر. وحتى لو لم أكن أفكر بذلك، كان من الأفضل تجديد جواز السفر الذي اكتشفت قبل أيام قليلة أن صلاحيته باتت منتهية. خرجت من البيت عند الصباح، ركبت سيارتي وأخذت طريقي إلى إدارة الهجرة والجوازات في حيِّ البرامكة. أظنك لا تعرفين هذا الحيّ. لم أعثر على مطرح أركن فيه السيارة، فرحت أجوب شوارع المنطقة هنا وهناك بحثا عن المكان المنشود. عثرت أخيرا على مطرح غير بعيد من كلية الفنون الجميلة، في أحد شوارعِ الحيّ الخلفية. ركنت السيارة وترجلت منها، ثم لا أعرف كيف ظهرت لي هذه البنت من جديد. كانت كما لو أنها خرجت من الأرض. فوجئتُ بها تماماً. سألتها:

هاي إنتِ؟

كانت أكثر تهدّلاً وهلهلةً من المرة الماضية، وأكثر اتساخاً أيضاً، ولكن الذي فاجأني تمام المفاجأة، هو بطنها. لقد بدأت أمارات الحمْل جليةً للعين المجردة. ولعلها لاحظت دهشتي مما رأيت، ولكنها لم تكن تبالي. قالت وهي تمسد بطنها بكفها:

عم يكبر.

من المؤكد أنها كانت تقصد الجنين. لم يكن يبدو عليها الغضب من ذلك أو حتى الرضا. كانت تتحدث عن الأمر كما لو أنه يخص بنتاً سواها. انعقد لساني من هول الصدمة، ومع ذلك استطعت أن أتمتم سائلاً:

مين اللي عمل فيكي هيك؟

قالت بلا مبالاة: وحتى لو عرفت مين، شو يعني؟ ماهو كله مثل بعضه.

طيب وين أهلك؟

مدّت يدها أمامي وقد بسطت كفها كما في المرة الماضية، كانت تطلب نقوداً.

قلت: ما عندك أهل؟ ما عندك أب؟ أم؟

هلأ لشو كل هالأسئلة؟

مو لشي. بس أنا حابب أساعدك.

وكيف بدك تساعدني؟

ليكي أنا رح أعطيكي مصاري. شو رأيك؟

وبروح بنام معك بالبيت؟

لأ ما بتروحي تنامي، لا معي ولا مع غيري. بتنامي لحالك بتخت نضيف.

لكان ليش بدك تعطيني مصاري إذا ما بدك تنام معي؟

منشان بدي آخدك عالمستشفى.

لشو المستشفى؟

كيف لشو؟ ما بدك تسقطي اللي ببطنك؟

سقّطت.

كيف سقّطتي؟ وهاد شو؟ ـ وأشرتُ إلى بطنها.

هاد واحد تاني.

كيف يعني واحد تاني؟ وهداك كيف سقّطتيه؟

بالجنينة.

شلون بالجنينة؟

ما بعرف. أبي جابلي دوا من الصيدلية. دوا بوجع البطن. كنت رح موت.

أبوكي؟ ليش بيعرف؟

لكان ما بيعرف؟ ما هو اللي....

هو اللي شو؟ ليش سكتي؟

ليكو إجا. روح روح. هلأ بيضربك.

وظهر ذلك الرجل الفظ من جديد. الرجل صاحب الصوت الغليظ. كان برفقته اثنان من أمثاله. اقترب مني ومن البنت والشرُّ يتطاير من عينيه. قال:

شو عم تعمل للبنت يا ابن الكلب؟

أنا؟ شو عم أعمل؟ ولا شي. سألتني البنت أعطيها مصاري. بدها مصاري.

سألتك بدها مصاري يا ابن الصرماية؟ سألتيه عن المصاري يا بنت الكلب؟

وضرب البنت برجله ضربة قوية قذفتها ورمتها أرضاً لمترين وأكثر. ثم جاء دوري أنا. حتى إني لا أتذكر كيف لكمني بحيث لم أنتبه لنفسي إلا و قد وجدتني مرمياً على الأرض، والنظارة الطبية قد طارت عن عينيّ. التقطتُها فوجدتُ إحدى زجاجتيها قد انكسرت. قلت للرجل:

كسرتلي النضّارة.

إي بدي أكسر رقبتك يا ابن الحرام، وبدي جيبلك الشرطة لإنك عم تتحرش ببنتي.

وانهال ثلاثتهم عليّ بالضرب، وأنا ملقىً على الأرض. كانت نجاح قد قامت من قعدتها وهجمت على أبيها كاللبوة، وعضتّه من إحدى إليتيه. كانت عضّةً قوية فيما بدا لي، فقد صرخ الرجل من الوجع. وهنا استوحش مثل الكلب المسعور. التفت إلى البنت صارخا بغضب، والشرر يتطاير من عينيه: بتعضّي أبوكي يا كلبة؟! وهجم عليها. ولكنها هربت بسرعة. لحق بها. ياالله كم كانت سريعة! لقد سبقته بمسافة طويلة. تعب الرجل الضخم من الركض. صار يلهث. يئس من اللحاق بالبنت. رجع إليّ حيث كان يثبتني الرجلان الآخران بالأرض وقد جلس أحدهما على صدري. والعابرون من الناس كأن لا شأنَ لهم بما يشاهدون. نظر الرجل الفظُ في وجهي وهو يلتقط أنفاسه اللاهثة. كانت عيناه حمراوين تماماً. وقف فوق رأسي، وقال:

طالع شو معك فلوس.

لم أردّ عليه. فتوجه بالأمر إلى الاثنين اللذين يثبتانني بالأرض.

فتشوه لابن هالكلب.

راحوا يفتشون جيوبي. وأنا أقاومهم على قدر ما أستطيع. فاغتاظوا من مقاومتي، وانهالوا علي بالضرب. وكان من الممكن أن يظلوا يضربونني لغدٍ أو حتى لبعد غد. استطاعوا أن يجرّدوني من النقود. حاولوا أن يأخذوا الموبايل، لكنني أمسكته بقوة بين يدي، وكانت أصابعي قد تخشّبت عليه. فراحوا يفكونها إصبعا إصبعا. كنت مستعداً لأن أموت، قبل أن أتخلى عن موبايلي المليء بالمعلومات المختلفة. لا أرغب في أن تتكرر قصة الرسائل والصور. ولكن الرجال الثلاثة كانوا يحاولون الحصول على الجهاز بكلّ ما أوتوا من قوّة، وكادوا أن ينجحوا لولا أن سمعنا جميعا فجأة صوت

رصاص قريب. كان ثمة شاب ضئيل الجسم قد جاء إلينا لاهثا. هل هو عسكري؟ هل هو شرطي؟ هل هو مدني؟ لا أعرف. كان يحتذي شحاطة (شبشب) منزلية، وبنطلون جينز، وسترة عسكرية. وفي يده بندقية أوتوماتيكية من نوع كلاشنكوف. ربما كان نصف عسكري، أو نصف شرطي، أو نصف مدني. ومن الواضح أنه كان قريبا منّا بمصادفة ما. راح أولا يطلق النار في الهواء. الجميع خاف. أنا ارتعبت. الرجل الفظ كان أول الهاربين. وهرب من بعده الاثنان الآخران. اقترب نصف العسكري منّي، وأنا ما أزال على الأرض. نظر إلي. قلت له مثل تلميذٍ في الصّف الأول الابتدائي يشكو زميلاً له إلى معلم الصّف:

كسرولي النضّارة.

هيئتك متعلم وابن ناس، فشو جمعك على هيك زعران؟

كسرولي النضارة، وسرقوا المصاري من جيوبي.

شفت. شفت. المهم إنك بخير. بعوضك الله. عم يوجعك شي؟

والله ما بعرف. يمكن كل شي عم يوجعني.

أكتب إليك الآن بنظّارةٍ من عينٍ واحدة يا عزيزتي سيدرا.

هل حقاً إنّ الحرب قد انتهت؟ كنت قد أقلعتُ عن التدخين بعد زيارتي الأخيرة لسعيد. عملت أخيراً بوصيّة المرأة التي أثواها التراب. لم يتغيّر عندي شيءٌ. لم أشعر بأيّ تحسن بدنيٍّ أو ذهنيّ. هل تعرفين أيَّ شيءٍ فعلت اليومَ بعد الحادثة مع الرجال الثلاثة؟ اشتريت علبة سجائر، ورجعت إلى التدخين علَّ النيكوتين يساعدني. وها أنا ذا أكتب إليكِ وأنا أشعل سيجارةً من سيجارة، ولكنْ لم يتغير عندي شيءٌ أيضا، برغم النيكوتين الذي أعبّه عبّا. بقيتْ روحي في تصحّرٍ. سلمى هجرتني إلى غير ما رجعة، ومن قبلها فعلتْ وِداد. خلدون في مصر يصنع الألبسة الداخلية النسائية. سعيد منشغلٌ بعيادته ومرضاه. أزوره في العيادة مرّةً كلَّ أسبوع. أتعاطى

بعض الأدوية المهدئة التي وصفها لي، أتعاطاها بانتظام، وأحاول أن أعمل بنصيحته، وأفشل. هل حقاً إنّ الحياة كذبة؟ لا أستطيع التعايش مع هذه الحقيقة. أظنّ أنّ أصعب ما يمكن أن يصيب الإنسان هو إرغامه على التعايش. أيمن، وبمعونةٍ من سعيد (أو هذا ما أخمّنه أنا)، صار يمتلك محلاً صغيراً يبيع فيه الفلافل (الطعميّة) في طرف إحدى العشوائيات، وبالكاد يقدر على مصاريف أسرته الكبيرة. أظنّ أنّ عنده سبعةَ أبناء. سامرٌ مدفونٌ في رمل الأرض. صارت الأرض له غطاءً. ولكن أيةُ أرضٍ تكون؟ قبرٌ جماعيٌ مثلاً؟ رجاءٌ استقرّتْ في إسبانيا مع الطفل الذي أصبح اسمه سامر من بعد أن كان (طارق) في دمشق. إنها ما زالت تتصل بي وتحثّني على السفر إليها. إلى زيارتها. هي لا تعرض أكثر من ذلك. لم تتطرق إلى موضوعة الزواج مرّةً. تقول لي: لا تفكّر بالفيزا، ولا تفكر بالنفقات، فقط وافق على المجيء. سعيد أيضاً ما زال يشجعني على السفر إليها والعيش معها ومع طفلها الذي هو يتيم صديقنا المشترك، فأكون له أبا. شمسٌ مزروعة في خيام اللاجئين. ودادُ لم تعد تحلم بلقاءٍ في بيروتَ بعدما صارت تخشى من أنه لن يتمّ في يومٍ من الأيام. يبدو أنها اقتنعتْ أخيراً بأنّ اللقاءَ لو تمَّ فلسوف يبدو سُدى لأنه لن يكون أكثر من نسخةٍ مُبتذلةٍ عن سعادتنا الغابرة. وهذا ما أومن به أنا أيضاً. لقد فاتنا قطارُ العُمْر يا وِداد. كان قطاراً سريعاً أكثر مما توقعنا يا جميلة. لقد اقتنعتْ في النهاية بهذه الفكرة، واستسلمتْ للأمر الواقع، فقد علمتُ مؤخراً بأنها تزوجت إلى رجلٍ فرنسيّ. يقولون إنه يكبرها بخمسةٍ وثلاثين عاماً. هل هذا أيضاً زواج مصلحة؟ لست أدري. ما زلتُ أجد صعوبةً في فهم سلوك هذه المرأة المتعددة الطبقات. ليفاز لا يريدني. لن أفتّش عنه بعد اليوم في تلك الوصلة الصغيرة بين شارعين رئيسين في قلب المدينة. لم يبقَ لي إلّا أنتِ يا سيدرا. ولكنْ هل تعرفين ما الذي يملأني خوفاً يا صديقتي؟ أخاف من أن أكون قد فقدتكِ أنتِ أيضاً منذ أن غادرتُ القاهرة. تمرق في رأسي أحياناً فكرةٌ تجعلني أرتجف رعباً. فكرةُ

أنَّ لقاءَنا الأخيرَ في منزلك عند أوائل الربيع من سنة 2013 قد يكون خاتمةَ لقاءاتنا في هذه الحياة، وأنَّ القهوةَ التي شربناها سويةً على الشرفة في ذلك الليل الرطيب هي قهوتُنا الأخيرة.

30

بنى الكاتب الأمريكي جاك لندن كثيراً من شهرته على روايةٍ عنوانُها: ذئب البحار.

الكاتب الألماني هيرمان هيسّه بنى شهرته الواسعة حول العالم على رواية: ذئب البوادي.

كاتبٌ روسيٌ قال مرّةً: الذئبُ أنبلُ المخلوقات المفترسة، فهو الوحيد الذي لم يرقص في السيرك.

بالأمس ماتت وِدادُ في باريس.

هل علمتِ يا سيدرا بهذا النبأ الأليم؟

رجاءٌ هي مَنْ أخبرني به.

حملتْه إليّ عبر الموبايل وهي تبكي:

ماتت وِداد.

ماتت منتحرة.

جرعةٌ زائدة.

جرعةٌ أكثر من زائدة.

ثلاثون قرصاً من مادة برومازولام بعيار ستة ميللغرامات للقرص الواحد.

توقف القلب في صدرها عن العمل.

انقطع النَفَس.

تريدين الحق يا سيدرا؟

لم أتفاجأ بهذا الأمر.

ولكنه زادني ألماً على ألمِ.

أي يأسٍ أصاب المرأة من بعد زواجها إلى ذلك الرجل الفرنسي؟

أم إنها كانت يائسةً حتى من قبل الزواج؟

لست أدري.

أو: لست أخشى إلّا من أن يكون الأمر كذلك.

بالأمس هبط عليّ حزنٌ آثمٌ حرمني البقية الباقية من انسجام العيش.

إنه الإحساس الذي تملكني بالفجيعة.

الإحساس بالذنب الذي استحوذ عليّ.

فهل أنا السبب في موتِ وِداد؟

أم إنه ذلك الذئبُ العتيقُ الذي كنتُه؟

بالأمس يا سيدرا.

بالأمس وصلتني من وِدادَ رسالةٌ على الفيس بوك.

رسالةٌ بخيلة العاطفة.

لكن من المؤكد أنها كانت آخر رسائل الحياة.

آخر كلمات الحياة.

نصف سطرٍ أو أقل من ذلك:

الوداع أيها الذئب العتيق!

بالأمس يا صديقتي.

نعم بالأمس فقط.

من قبل أن تصلني رسالة وِدادَ بدقائقَ قليلة:

شاهدت في اليوتيوب ذئباً يعمل مهرّجاً في سيركٍ مُبتَذَل.

وبالأمسِ أيضاً بكيتُ على وِدادَ.

ولعنتُ نفسي.

بالأمسِ تمنيتُ لو كنت أملك شجاعة وِدادَ، فأقطع شرايين معصمي بالشفرة.

وأستريح في قعر تلك الفجوة اللعينة التي تأبى الامتلاء.

31

السبت 27 ـ نيسان (أبريل) ـ 2019

مساء الخير يا سيدرا!

أخيراً تركتُ الوحدة ورائي.

غادرتُ دمشقَ صباحَ البارحة.

هل هجرتها إلى غير ما رجعة؟

لست أدري بعدُ كيف ستمضي بيَ الحياة.

أخشى مِنْ أن أكون قد شرعتُ أنازع الحنين إلى هذه المدينة، برغم أنني لم أتركها إلّا بالأمس فقط.

ولو تعرفين بأيةِ حالٍ تركتها.. هل أقول جثّةٌ هيَ هامدة؟

ما أقسى هذا القولَ يا صديقتي!

ولكنّه، للأسف، حقيقيّ إلى حدٍ ما.

مدينةٌ عريقةٌ وكبيرة.

ستةُ ملايين إنسانٍ أو سبعة، أو يزيد.

والحياة لا تسري في شرايينها إلّا بطيئةً بطيئة.

كان الشتاءُ الأخيرُ قاسياً.

لا كهرباءَ للإنارة.

لا وقودَ للتدفئة.

شتاءٌ كاملٌ قضيته في الفراش أحتمي من البرد.

كنتُ أنام في فراشِ أمّي من بعد أنْ أغلقتُ غرفة النوم حيث ماتت سلمى قبل نحوٍ من سنة وشهرين. كانت هذه واحدةً من نصائح سعيدٍ إليّ من أجل أن أحارب الهلوسات.

أظنّها كانت نصيحةً من ذهب، فقد تحسنتْ حاليَ الذهنيةُ كثيراً خلالَ الأسابيع القليلة الأخيرة

في الليل كنت أحتمي من البرد في حضن أمي. وفي النهار كنت أركب سيارتي وأمضي إلى كفتيريات الخمس نجوم الدافئة في قلب المدينة، وأقضي الوقت مع الموبايل والسيجارة والقهوة التي لا تشبه تلك الرديئة التي أصنعها بنفسي.

الحرب انتهتْ.

نعم، انتهت. ولكن كيف انتهت؟

وكيف يمكن لمدينةٍ كبيرةٍ أن تكون بلا وقودٍ ولا كهرباء؟!

أيُّ سيناريو شيطانيٍّ هذا الذي حاكوه لدمشق؟

ومَن الذي حاكه؟

مَن الذي كتبه؟

مَن الذي صاغ فيه مشاهِدَ البؤس هذه وتلك؟

أيُّ شيطانٍ يقدر على كتابة هذا السيناريو المرعب؟

كنتُ أطرح هذه الأسئلةَ على نفسي كلَّ يوم من أيام فصل الشتاء الذي كان طويلاً، وقاسياً في برودته. ولم يكن يخطر ببالي مطلقاً أن الأسوأ ما زال في الطريق بعد.

وها هو الأسوأ قد وصل أخيراً.

المدينة الجثّةُ.

الشوارع خاويةٌ من المركبات على اختلافها، أو تكاد.

توقفتْ فيها أغلبية السيّارات عن العمل.

ظهرتْ في شوارعها الخيولُ الأصيلةُ والهجينة.

ظهرتِ العرباتُ التي تجرّها البغالُ أو الحمير.

لقد عاد الزمن بالمدينة إلى أكثرَ من قرنٍ خلا.

الأطفال يلعبون في شوارعها كرة القدم، من دون خوف، فقد انتهت الحربُ، وانتهت معها الحياة.

لا أستطيع أن أتحرك بسيارتي متراً واحداً.

لا وقودَ للسيّارات في دمشق.

كلُّ شيءٍ مشلولٌ فيها.

هل حقاً أنَّ هذه المدينةَ كانت يوماً قلبَ العالم، كلِّ العالم؟

وهل هذه الصفحةُ هي الأخيرةُ في ذلك السيناريو الذي كتبه الشيطان نفسُه؟

أم إنَّ الأسوأَ في الطريق بعد؟

صباحَ الأمس وأنا أودّعُ دمشق خطرَ ببالي أن أدخل إلى لعبة الشيطان اللعينة، وأن أشاركه في كتابة هذا السيناريو الجهنميّ.

هل تعرفين ماذا مرقَ ببالي؟

قد تضحكين.

لا بأسَ، اضحكي.

مرق ببالي أنَّ الأسوأ ما زال لم يأتِ. وأنَّ رئيس الولايات المتحدة، أو حتى رئيس العالم السيّد دونالد ترامب سوف يطالب دمشقَ بتعويضاتٍ خياليةٍ عن احتلال الأندلس.

أليست دمشقُ من احتلَّ إسبانيا، وهجمَ على فرنسا؟

بلى.

بكلٍّ تأكيد.

هذا ما يقوله التاريخ.

الأوامر جاءت من دمشق. من رأس السلطة فيها آنئذٍ: الوليد.. ليس الوليد الملحد الذي مزّق أوراقَ المصحف، بل الوليدُ المؤمنُ الذي بنى في المدينة مسجداً بحجم ملعبٍ للخيول. هذا الوليدُ هو مَن أمر الجيش بالتحرّك إلى إسبانيا. ولكِنْ، من المؤكد، أنّ الرجلَ بريءٌ من تهمة الهجوم على فرنسا، غير أنّ أحدَ أحفادِه أو أحدَ أحفاد أحدِ أخوته قد تكفّل بالأمر لاحقاً. أظنه عبد الرحمن الثاني. وهذا الرجل لم يكن يقيم في دمشق من بعد أن تمَّ تهميشُ المدينة العريقة لصالح بغداد الفتيّة، بل إنه كان يقيم في قرطبة. ومن قرطبةَ صدرتِ الأوامر بالعودة إلى دمشقَ بالقوّة عن طريق فرنسا وبقية الأنحاء من أوروبا. يبدو أنه كان يفكر بتكرار سيناريو هنيبعل في الوصول إلى روما.

الفينيقيّ حالفه النجاح في مسعاه. وصل إلى روما وأحرقها.

والقرطبيُّ ذو الأصول الدمشقية حالفه الإخفاق. وسقطَ سقوطاً داوياً في بواتيه أمام شارلمان ورجاله الأشدّاء.

ولكنَّ الأمر لم ينتهِ هـهنا، فقد دار الزمانُ دورَته، وحصل عكس ما سبق، وكانت أوروبا البادئ في الهجوم على فلسطين وبقية بلاد الشام في ما يُعرف بالحروب الصليبية. ومن جديد: كانت دمشقُ هيَ مَن تصدّى للأوربيين في أبرز المعارك خلال تلك الحروب الدامية.

ألم يكن الأمر كذلك؟

بلى.

بكلٍّ تأكيد.

أولمْ يكن صلاحُ الدين سلطانَ دمشق؟

هكذا هو الأمر يا عزيزتي سيدرا.

الأحقاد دفينة، متبادلة، ولكنها متجددة.

وهي تطلُّ برأسها من حينٍ إلى حين.

إنَّ أوّلَ ما قام به الجنرالُ الفرنسيُّ غورو عندما دخل دمشقَ صيفَ سنة 1920 على رأس جيشٍ جرّار هو أن ذهب إلى ضريح صلاح الدّين، وركله بحذائه، وقال له: ها قد عدنا يا صلاحَ الدّين، فانهضْ وقاتلنا.

أترين؟

الكرُّ والفرُّ بين دمشقَ وبينَ الغربِ قديمٌ، عميقٌ، ودائمُ التحديث.

قديمٌ قدمَ الأزل.

ولكن هل سوف يظلُّ يتجدد إلى ما لا نهاية؟

أمْ أنَّ دمشقَ قد خسرت الحربَ أخيراً، وإلى الأبد؟

فها هيَ المدينةُ تنطرحُ على الأرضِ شبهَ مشلولةً.

أم أنَّ هذا كلّه مجرد أزمةٍ عابرةٍ تعيشها المدينة التي خبرت أزماتٍ أقسى من هذه وأمرّ؟

أزمة الماء، على سبيل المثال.

مدينة الماء السبيل صارت مدينة العطش.

كان هذا قبل أربع سنين تقريباً.

ولكنّ الأمر انتهى على خيرٍ، كما هي العادة. انتهى بسرعةٍ يمكن اعتبارها قياسية.

فدمشقُ مدينةٌ عبقريةٌ في صناعة الأزمات.

ولكنها عبقريةٌ أكثر في حلِّ تلك الأزمات التي تصنعها.

هل تركتُها بلا رجعة؟

لا أعرف.

لا أعرف.

مكتبة
t.me/t_pdf

لا أعرف.

لستُ واثقاً من شيء.

أظنني سوف أرجع إليها يوماً ما، فأنا أحبها حتى في «خرابها الأخير». ولو لم أكنْ كذلك لكنتُ بعتُ الشقّة والسيّارة. غير أنني لم أفعل. الذي فعلته هو أنني تركت لصديقي سعيدٍ وكالةً عامّة لينوبَ عنّي في أيِّ أمرٍ يخصُّ ما أملك هنا. كان هذا أوّل أمس. وبعد معاملة الوكالة في قصر العدل ذهبنا لزيارة (أبو الخير) في المستشفى، فهو مريضٌ جداً. لقد غدا الرجل شيخاً طاعناً في السِّن، أو: هكذا رأيته خلالَ تلك الزيارة القصيرة إلى المشفى الحكومية. همس لي سعيدٌ يقول: «أيام الرجل في الحياة باتت معدودة.» ثمّ ذهبنا نحن الاثنان إلى المطعم ذاته حيث تناولتُ العشاء معكِ مرةً، والغداءَ مع سامرٍ مرّة ثانية، ومع رجاءٍ في عيد ميلادها «الأربعين»

مرّةً ثالثة. وتناولنا ـ أنا وسعيد ـ غداءنا الذي آمل في ألّا يكون الأخير.

تركت لصديقيَ العتيقَ وكالةً، ورحلت عن المدينة، وعن البلد.

وها أنا ذا بعيدٌ عن دمشقَ آلاف الكيلومترات.

فإنني أكتب إليكِ اليومَ من مدينة ملقا الإسبانية. أو بالأصح: من إحدى ضواحيها. بلدةٌ جميلةٌ، وناعمةٌ، اسمها (ابن المدينة). هو اسمٌ عربيٌ كما لا يمكن أن يخفى عليك. ولكنّ هذا لا يعني شيئاً خاصّاً بالطبع. هنا تقيم رجاءٌ مع الطفل الذي صار اسمه سامر. بيتٌ لطيفٌ، وَ واسعٌ إلى حدٍ ما. خصّصتْ لي فيه المرأةُ غرفةً للكتابة، وزوّدَتْهَا بكل ما يلزم من أجل ذلك. وصلتُ إلى ملقا مساءَ أمسِ قادماً من بيروت. لم يكن ثمّة سيّارة أجرةٍ في دمشق تحملني إلى العاصمة اللبنانية. رجاءٌ هي مَنْ تدبّر الأمر بالهاتف. أرسلت إليَّ سيّارةً لبنانية حملتني من بيتي إلى مطار رفيق الحريري مباشرةً. عندما كانت السيّارة تتحرك في شوارع دمشقَ راعني خواءُ الشوارع. رأيتها مدينةً حزينة. همستُ لها أقول: عندما تحزنين يا دمشقُ، فكلُّ شيءٍ في الحياة يصير حزينا. لم أكن أستطيع أن أتحمّل رؤية هذا المواتِ كلّه. تذكرتُ عبارةً من أدب زمن الكساد الكبير غداةَ الحرب العالمية الأولى، لا أتذكر قائل تلك العبارة، ربما كان جون ستاينبك، رغم أنها عبارةٌ لا تشبهه: الحياةُ مذبحةٌ شاملة. وربما كان القائل ثيودور درايزر في رواية: تراجيديا أميركية ـ حلميَ التلفزيونيّ الذي يبدو أنه لن يرى النور في يومٍ من الأيام. قلت للسائق اللبنانيّ: أسرِع بالخروج من المدينة لو سمحت. وأغمضتُ عينيَّ. قال السائق: معك حق، فهذا المنظر مرعب، كان الله في عون دمشقَ وأهلِ دمشق. وزاد من سرعة السيارة في شوارع الأشباح. وتذكرت وأنا مغمضَ العينين نبوءة أشعيا في العهد القديم: ها إنَّ دمشقَ تُزالُ من بين المدُن، فتكونُ ركاماً من الأنقاض.. قلت للسائق، من دونِ أن أفتحَ عينيَّ: ألا يمكنك أن تزيد من السرعة؟ قال: إننا نطير. كانت السيّارة

تطير فعلاً. وبأقلّ من نصف ساعة وصلنا إلى نقطة الحدود. كانت النقطة خاويةً من المسافرين. انتهت الإجراءات في دقائق قليلة. لم يعترضني أحد. اسمي ليس موجوداً في لوائح المطلوبين، برغم أنني لست منحازاً للوطن. إلى مَنْ أنا منحازٌ إذن يا سيادة الرقيب؟ لماذا لا تجيب عن السؤال؟ أليسٍ تسمعني؟. لا أحد يسمع في هذه البلاد. لا أحد يريد أن يسمع، فالكلّ يعرف جميع الأجوبة.. بعد ساعةٍ واحدةٍ من الحدود، وصلنا إلى بيروت. وركبتُ أخيراً الطائرةَ إلى ملقا. كانت رجاءٌ مع الطفل في انتظاري على المطار. لقد نزعتِ المرأةُ نظّارةَ الشمس عن عينيها أخيراً. ما زالت عيناها أجملَ ما فيها، رغم بعض التجاعيد الصغيرة التي بدأت تظهر من حولهما هنا وهناك. لقد فرح الولد برؤيتي مثل أمّه أو حتى أكثر منها. إنه ما يزال يتذكرني. يتذكر سعادته الغامرة لحظةَ أن حملتُه على رقبتي وخرجت به إلى شرفة المنزل حين راح يحتفل مع تلاميذ المدرسة الابتدائية بحصادهم البهيج في لعبة كرة القدم. حقّقتُ له اليومَ هذه السعادة. خرجنا بُعيدَ العصر نتنزه والولد محمولٌ على رقبتي. كان الطقس ربيعياً لطيفاً. وكنّا نبدو مثلَ أسرةٍ سعيدة. رجلٌ وامرأةٌ في أواسط الأربعينات، وطفلٌ ما زال في الثالثة من عمره بعد. هل سأنجح في أن أكون له أباً؟ لا أعرف. حتى إنني لا أعرف ما هي الأبوّة. ولكنني أحبُّ هذا الطفل، ويحبّني. أظنّ أننا سوف نكون صديقين جيدين، كما كنّا أنا وأبوه الذي أنجبه، برغم تعقيدات قصتنا المشتركة مع وِداد. ليلةَ أمس تحدثنا أنا ورجاء في موضوع الزواج. قالت إنها لا تصرّ عليه، ولا تمانع بأيّ شكلٍ من العيش المشترك تحت سقفٍ واحد، وأنّ المهم بالنسبة إليها أن نحصل عند نهاية المطاف على السلام الداخليّ، أن نهجر خطايانا القديمة، أن ننسى هزائمنا، أن أتصادق مع النوم في الليل أخيراً، أن أردم الفجوة التي حفرتها سنواتُ الحرب في روحي، الفجوة التي تأبى الامتلاء في حالٍ من الأحوال، أن أتصالح مع ذاتي، أن نتصالح كلانا مع الزمن. أن أكتب، من دون رقيبٍ يجلس في رأسي. أن نعيش نحن

الثلاثةُ بوئامٍ في ما تبقى لنا من عُمْر. أن أنجح في الإقلاع عن التدخين، الذي رجعت إليه مرغماً بعد ثلاث محاولاتٍ فاشلة. وعدتُ رجاءً بأن أحاولَ من جديد. واتفقتُ معها على أنني لن أدخِّن، إلى ذلك الحين، إلّا في غرفة العمل.. الساعة شارفت العاشرة بتوقيت إسبانيا. لا أعرف ما هو التوقيت عندكم الآنَ في القاهرة. أم إنك في أبو ظبي هذه الأيام؟ سلامٌ عليكِ حيثما تكونين يا صديقتي. سامرٌ ينام بعمق. رجاءٌ تقف في المطبخ، تحضّر عشاءً خفيفاً لنا نحن الاثنين. وأنا أجلس إلى الطاولة، وقد شرعتُ أخيراً بكتابة روايتي المشتهاة: على رصيف العمر..

كان يا ما كان..

كان ثمّة عشوائيةٌ في واحدةٍ من أعرق المدائن على مدار تاريخ البشر..

مدينةٌ اسمُها دمشق..

كان ثمّة خمسةُ مراهقين أصدقاء: سعيد، أيمن، خلدون، سامر، وكاتب هذه القصّة، أمجد عبد السلام.

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة | سُر مَن قرأ

هل نستحق بؤسنا؟

الفقر ليس عيباً. كلامٌ سمعناه آلاف المرّات بوصفه حِكمةً غير قابلةٍ للطعن، أو حتى غيرَ قابلةٍ للنقاش. لكنْ هل حقاً أنَّ هذا الكلام صحيح؟ وإذا كان الفقرُ ليس عيباً كما ندّعي فلماذا كان عليٌّ، كرّمَ الله وجهه، يريد أن يقتله لو كان رجلاً؟ وأنا أصدقُ عليّاً الحكيم، ولأنني أصدّقه فإنني أومن بأنَّ الفقرَ أكبرُ العيوب على الأرض. يكفي أنّهُ يجعلنا نشعر بالمهانةِ صباحَ مساء. ورغم أنَّ هذا الشعور الذي يتملكنا مقيتٌ جداً فإننا نعيش معه في رباطٍ سريٍّ من الوئام، وفي التالي فإننا نستحق بؤسنا وقد تصالحنا مع العار. وإن كانت لا تعجبكم صيغةُ الجمع التي أكتب بها، فإنني لا أُمانع أبداً الكتابة بصيغة المفرد المتكلم، وأقول: أنا تصالحتُ مع العار. وسوف أروي لكم بعد قليلٍ كيف حدث ذلك.

telegram
@t_pdf